

زينزيبار

عاصفة الپيادق..

اسم العمل	:	زينزيبار عاصفة البيادق
النوع	:	رواية
تأليف	:	عبدالقادر ضيف الله
تصميم الغلاف	:	
إخراج داخلي	:	عبدالقادر فـايز
الطباعة	:	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	:	الدار للنشر والتوزيع
المدير العام	:	محمد صلاح مراد
تليفون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الإلكتروني	:	eddar_press@yahoo.com
فيس بوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	:	٢٠١٦/٢٣١٨٩
الترقيم الدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-164-7

زينزيبار

عاصفة البيادق



رواية

عبدالقادر ضيف الله

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٦

الإهداء

إلى:

رجال ونساء بيننا لانعرفهم يقومون بزرع الأمل كل يوم. هم أولئك الذين بوجودهم لايزال الوطن مكابرا.

انتزعنا الاستقلال، لكننا نحن الذين ساهمنا بجهدنا وشبابنا وكفاحنا في سبيله، وجدنا أنفسنا مشتتين ومشردين، لطالما كنّا منشغلين بالأزمة التي عصفت بالأجهزة الخاصة وأغرقتها في دوامة الفوضى التي عمّت منذ بداية التسريح.

من شهادة رجل من المبالغ

تنبيه:

كل ما ورد في الرواية هو من محض الخيال، وإن وقع أي توافق فلا يعدو أن يكون سوى محض صدفة.

بدأ السيد ينظر للرسالة التي وضعها صَفَر سكرتيه الأمين أمامه على طاولة المكتب بعد أن أعلمه أن هناك من استطاع حل شيفرة المكالمات الخاصة بالوحدة، وأن مقرات وحدة سمير صارت في خطر. لهذا عليهم أن يغيروا النظام، وأماكن الإقامة، وأن يرسلوا إلى المقدم ليعود في أسرع وقت من المدينة بعدما أنهى مهمة زينزيبار. بقي السيد صامتا دون أن يجيب سكرتيه ، وراح يحملق في الفراغ ، في نقطة ما كانت تشغله بعدما ظل طوال النهار يسود في وصيته الموجهة إلى الرئيس الجديد للمجلس السري. قبل أن ينتبه من شروده. نطق وهو يدخل الوصية في مغلف: لقد تأخر الوقت، على الرئيس.

ثم سلمها لسكرتيه الذي التقطها، وبقي جاثما في مكانه.

يوم كشفنا عن أنفسنا كنا نعرف أن هذا سيحصل يوما يابني ! كلنا راحلون، لكن الدولة ستبقى ! حياتي أو حياة أي عنصر من سمير ليس لها أي أهمية أمام بقاء الوطن. افعل أنت ما أمرتك به، ودع المقدم يكمل مابدأناه. قالها ضاغطا على الرسالة التي وضعها سكرتيه على الطاولة، والتي كَتَبَ له فيها الرجل الكبير أن عليه أن يقدم ولاءه لأصحاب الدولة الحقيقيين، وإلا سينتهي به المطاف مثلما انتهى رئيس المجلس.

خرج المساعد صَفَر متجها نحو الفيلا التي يقيم فيها رئيس المجلس الجديد. في الطريق هتف له العميل أرزقي أنه ثبت مكان الرجل الكبير الذي يهدد السيد.

توقف المساعد، ودار في مكانه، بعد أن قال لعميله. انتظرنى.

حرك السيد يده بتوتر ممزقا الرسالة التي جاءه بها مساعده، وأحرقها، وراح ينظر نحو نارها مستعيدا اليوم الأول الذي بدأت فيه اغتيالات عناصر سمير بداية من العميل عزيز.

وقف السيد من مكتبه بعد أن رنت في رأسه فكرة. أغلق شاشة الحاسوب الذي كانت تنقل فيه كاميرات المراقبة حصار وحدات الجيش لمركب طابايا الذي احتله الإرهابيين الذين دخلوا عبر الحدود الليبية، وراح متجها نحو الخارطة الكبيرة التي غطت الجدار المقابل لمكتبه مادّا يده، محرّكا شاهده، متتبعا خط الحدود الشرقية، حتى وصل إلى نقطة كان قد وضع عليها دبوسا أحمر. ردد في سرّه: علينا باستغلال المعلومات التي أرسلها العميل رقم ١١٥٤ المقيم (résident) في طرابلس.

ثم ضغط على الدبوس.

لم يتفاجأ بما حدث في ليبيا من تخريب، ومن انتشار للجماعات الارهابية التي تسلل بعضها عبر الحدود، ولا لمخطط التقسيم الذي أرادت الدول العظمى تنفيذه في المنطقة لأنه كان منتظرا بعد سقوط الدول الوطنية في العديد من البلدان العربية. حدث ذلك في وقت قياسي لهذا فُكر في كل النتائج المحتملة التي ستكون كارثية على استقرار بلده بعدما صار من الصعب مراقبة الشريط الحدودي الطويل.

تساءل وهو ينقر بأصابعه على وجه الخريطة: ترى ماذا فعل المقدم ؟

نظر إلى ساعته في اللحظة التي سمع فيها طرّقا على الباب.

دخل سكرتيره على عجل: احتراماتي سيّدي. وصلت رسالة من المقدم.

مدها له. التقطها السيد بسرعة. فتحها بعد أن جلس على مكتبه. نعلمكم أن العملية تمت حسب الخطة، (أمقردة^١) وحصلنا على موافقة المجلس.

١ كلمة بالعامية تعني شيء جميل جدا

كانت كلمة " أمقردة " لازمة عملاء سمير، كلما انجزوا عملية ناجحة يرسلون هذه الكلمة دليلا على أن مهمتهم نجحت. تنفس الصعداء مرددا أمقردة .

دافعا بيده نحو الهاتف الأحمر، الذي كان قابعا على حافة مكتبه، مُمرِّرا أصابعه على الرقم الخاص. تلفن: نعم سيدي! جاء الصوت من قائد قوات جيس ٢ في الجهة الأخرى . يمكنكم التحرك!

أقفل الخط واضعا سماعة الهاتف في مكانها. وبقي يحرك بإصبعه على سطح الطاولة نازعا نظاراته الطبية كما لو أنه تذكر شيئا عكّر عليه فرحه بقرار المجلس. كانت مشكلة المجلس تؤرقه منذ أن بدا رئيسه السيد حسان عاجزا عن اتخاذ أي موقف أمام الأعضاء الذين كانوا يُحيدون التقارير التي كانت تصلهم ويؤجلون إدراجها في أشغالهم بحجة أنها مجهولة المصدر. وأن مدير المخابرات نفسه لا يعرف عنها شيئا.

حتى في قرارهم الأخير الذي اتخذوه لم يكن قرارا بالسهولة التي يمكن أن تتبادر للذهن . كانوا مجبرين على اتخاذه بعد أن فرض عليهم الظرف العصيب ذلك بعد أن وجدوا أنفسهم مكبلين بشح المعلومات عن الهجوم الإرهابي الذي تعرض له أكبر مركب بترولي في الصحراء. فكَرَّ أنه أن الوقت لتغيير الآليات البطيئة التي يتحرك بها هذا المجلس باعتباره أكبر هيئة سرية في البلد كان له شرف أن يكون من مؤسسيه ضمن الخطط التي وضعها سمير مع (هيئة إخوة الثورة إلى الأبد) منذ تأسيسهم الذي يعود لأكثر من تسعين عام لإخفاء هيأتهم، بداية من جهاز حمايتهم سمير الذي كان جهازا مضادا، وظيفته الأولى حتى قبل أن يؤسس المالح حماية الثورة من نفسها، وأطلق على نفسه اسم هيئة الثورة الدائمة، إلى غاية أصغر وحدة عمليات أطلق عليها جيس ٢.

قال لمساعدته صَفَر. إنه أن الوقت لنخرج للسطح. وإلا لن نستطيع أن نوقف ما يهدد بقاء الدولة.

بقي السكرتير صَفر صامتا يتتبع وجه السيد الذي أغمض عينيه متحسسا تعباً حاداً تشكل في محجريه الغائرين، وبدأ يؤثر على قدرة تركيزه.

وقف بدّعب دون أن ينظر إلى سكرتيه متجها نحو غرفته المحاذية للمكتب. عليك أن ترتاح سيّدي. جاء صوت المساعد الذي أمسك بذراعه بعدما رآه يتهاوى جراء الدوخة التي عصفت برأسه. تماسك زافراً، رافعا رأسه، محاولاً استعادة نفسه، ناظراً في وجه مساعده الذي بدا حزينا وهو يترك ذراع رئيسه. كان وجه السيد يتبدل نحو الرمادي في الوقت الذي نطق فيه بصعوبة كما لو أنه تنبه لخوف مساعده: ليس بعد يا صَفر!

ثم دخل غرفته، و استلقى على سريره .

كان صوت حافظ الأختام يرن في رأسه حينما سأله عن صمت المجلس إزاء التقارير التي يتلقاها دورياً. أظنكم تعرفون أن أمن المجلس من صلاحياتكم، سواء التزم بتحذيراتكم، أم لم يلتزم !

سأقول لك عن شيء سيادة المحافظ. رد السيد: عليكم بأخذ مسؤوليتكم. ثم فتح له عن مجموعة من عناوين الجرائد التي بدت كما لو أنها أخذت الضوء الأخضر لتحطيم هذا البلد بما في ذلك رموز الدولة.

اقرأ ! هذا ما يفعله الرجل الذي جعلتموه يمسك بأكبر جهاز في الدولة.

قاطعه حافظ الأختام: أنت تعرف أننا لا يمكن أن نأخذ قراراً مُسبقاً لمنعهم. لكن هذا لا يعني أننا سنقف صامتين !

هؤلاء لا ينتظرون أحداً ! لقد بدأوا هجومهم مبكراً. رد السيد بتوتر.

مسك حافظ الأختام بكومة الجرائد وراح يتصفدها، و يقرأ في سرّه: عودة سنوات المحنة! رؤساء أحزاب المعارضة يدعون للخروج

للشارع. ثم قرأ أيضا في أسفل الصفحة في حوار مع معارض كتبت عناوينه بالبُند العريض: "خطر الصحراء سيصل للعاصمة. أحداث عنف في الصحراء، وخروج متظاهرين للشارع.

الرئيس صامت، ولا أحد يعرف مصيره ؟

الجزائر مرة أخرى إلى أين؟

بدأ السيد يحملق في سقف الغرفة، وهو مستلقٍ على سريره بعدما ترك مساعده في تلك اللحظة واقفا أمام الباب.

كان يدرك أكثر من أي وقت مضى أن مسؤوليته تحتم عليه أن لا ينتظر إجابة من أحد بعد أن تحققت هواجسه في حينها وبقي المركب بغير حماية. يومها غامر بإحضار رئيس المجلس السري إلى مكتبه، وسأله عن تأخر إجراءات الحماية. بقي السيد يتحدث، وحافظ الأختام ينصت إليه، وفي النهاية قال له إن الجنرال يعارض اجتماع الأعضاء بعد أن أنكرت مديرية الاستعلامات علمها بأي تحرك لأي جماعة إرهابية نحو مركبات البترول. كما راح يتحدث عن كفاية الأمن الذاتي للشركات متعددة الجنسيات. وأن انسحاب الجيش كان بقرار من المجلس، وليس بقرار من الجيش بعدما تأكدوا أن زمن الإرهاب قد ولى بغير رجعة. و أي معلومة بهذه الخطورة، ما كانت ستغيب عن مصالحه.

رغم ذلك أضاف له الجنرال، أنه لم ينخر أي جهد في القيام بالتدابير اللازمة.

لكنه كلام فقط، لم نر أي تحرك لمجلسكم ! ياسي حسان، ثم أضاف

الذين لا يزالون يؤمنون بأن فرنسا، أو أمريكا حلفاء في محاربة الإرهاب مخطئون.

تتنفس المحافظ بصعوبة، ثم رفع يده. هذا يكفي سيّدي، سأجعل عميلك يشارك في اجتماع المجلس، لكنني لا أستطيع أن أضمن تصويتهم لخطّتك.

رنت هذه العبارة في رأس السيد وهو لا يزال ينظر نحو سقف الغرفة بأرق بعد أن فارق النوم جفنيه، مستعيدا كل ما مرّ بوحدة سمير .

جلس المقدم ذو القامة الفارحة والوجه الأحمر الناصع ينظر بتوتر نحو شاشات المراقبة التي رُبِطت بكاميرات صغيرة تُبثت في مواقع حساسة لرصد حركة الفندق، والأروقة المؤدية للطابق الرابع حيث المطعم الرئيسي لرجال الأعمال، والشخصيات السياسية، بعد أن زرع عملاءه في كل جهة من جهات الهيلتون.

نقر بأصابعه على طاولة الحاسوب التي جلس أمامها عميل المراقبة، قبل أن ينهض ناظرا نحو ساعته، التي كانت تشير إلى تمام الثامنة مساء مرردا: لماذا لم يظهر الديك بعد ؟

دخلت سيارة واحدة منذ أكثر من ساعة أجاب العميل بتلقائية.

دون أن يجيبه ربت على كتفه، راميا خطوتين، مغادرا مكانه. في الخطوة الثالثة خطفه صوت النظام الأوتوماتيكي لباب الغرفة ٣١٤.

توقف المقدم متحسسا مسدسه، في اللحظة التي أطل فيها وجه عامل النظافة مرتديا مريولا أزرق، وعلى رأسه قبعة مثل قبعات أطباء الجراحة، محركا وجهه يمينا، ويسارا، قبل أن يذلف بجسده دخل الغرفة، مرردا بأن الهدف دخل القاعة. دون أن ينظر إليه اتجه عامل النظافة حاملا ملايات السرير، وخرج حتى لا ينكشف أمام كاميرات الفندق التي كانت بدورها ترصد الأروقة المؤدية لغرف النزلاء.

تبعه المقدم بعدما عدل من ربطة عنقه، ومن الشعر المستعار، و "البوكل" الذي حرص العميل أرزقي على تثبيته في دقنه، ليأخذ نفس صورة رجل الأعمال الخليجي المسمى عدنان أبو حاتم. الرجل الذي كان قد أنهى يومها صفقة توريد الردرات الألمانية للجيش قبل أن يسافر في نفس اليوم عائدا لألمانيا.

حرك كتفيه مسدلا العباءة الخليجية التي ارتداها فوق بدلة "كوستيم زقنة
" الإيطالي الفاخر، راميا خطواته الواسعة نحو صالة المطعم. أخذ ركنا
بعيدا، من وراء الزجاج الفاصل بين القاعة الشرفية، وسطح البلكون .

جلس حيث بدت له مائدة رجل الأعمال مع الهدف واضحة جيدا.

كان المطعم الرئيسي لحظتها ممتلئا كعادته كل ليلة خميس، بالشخصيات
المهمة، وبرجال الأعمال، ورجال بعض السفارات الأجنبية، خاصة
الأفارقة منهم. نظر باحثا عن النادل، ثم أشعل سيقارة هافانا، كان قد
أخرجها من علبة مذهبة، ووضعها أمامه، وراح متأملا المكان، مسجلا
كل تفاصيله الدقيقة في ذاكرته قبل أن ينادي على النادل الذي كان يمر
لحظتها على باب البلكون. بلغة خليجية متقنة جعلت من النادل الذي
التفت مندهشا بعدما فكر لحظتها، أنه لا يسمع صوت المقدم، بل صوت
رجل أعمال خليجي حقيقي. اقترب منه مسرعا، حاملا صينية صغيرة،
عليها فدان قهوته التي اعتاد رجل الأعمال الخليجي طلبها قبل تناوله
لوجبة عشائه الخاص، باعتباره زبونا مهما، من زبائن الفندق.

أراد النادل مغادرة الطاولة في اللحظة التي أوقفه بحركة من يده، بعدما
رشف رشفة واحدة على عجل: من فضلك ! بدي كاس ميّا معدني .

كانت تلك هي كلمة السرّ لبدء تنفيذ الخطة، التي فكر بأنها تشبه ضربة
ورقة البوكر، خاصة مع رجل مخابراتي محترف، كان سيلتقيه للمرة
الثانية.

رفس رأس سيقارة الهافانا متعجلا على المطفأة، قبل أن يرن صوت
سمير في رأسه : يجب أن تصل الرسالة واضحة للهدف قبل أن يقرر
المجلس السري قراره.

ستأخذ الليلة خُرصا في أذنك أيها الديك. ردها المقدم في سرّه بعد أن
عمل رجاله طيلة أسبوع كامل على مراقبة الفندق، والتحري على

زبائنه الدائمين، الذين تعودوا أن يتناولوا وجبة عشائهم في الطابق الرابع.

ولأن ملازمه المخفي كان قد أخبره عن العملاء الذين جلسوا في المطعم الرئيسي منذ السادسة مساءً، متكرين بزي شخصيات، ورجال أعمال. لهذا كان عليه أن يضع بنفسه الإجراءات الضرورية للمراقبة المزدوجة. يراقب الهدف، ويراقب في الوقت نفسه عملاءه المنتشرين في أرجاء الفندق.

أقبل النادل حاملاً زجاجة الماء المعدني الصغيرة، مع كأس كريستالي مربع الشكل. النقط المقدم الزجاجة، وصبَّ منها في كأسه، ثم أعادها لصينية النادل مع ورقة خضراء من فئة ألفين (دينار)، متناولا شربة من الماء المعدني. خلي الباقي على شانك قالها وهو يقف فجأة، بعد أن شاهد الهدف من وراء الزجاج، ينتقل من القاعة العامة إلى جناح مجاور. كان رئيس الخدم قد أشار إليه بأنه جاهز.

كان النادل لا يزال واقفاً، متسمرا في اللحظة التي التقت عينه بعين المقدم، وهو يعبر عتبة السطح، داخل الرواق، مشيراً له بأن الهدف صار في مرماه. حرك النادل حاجبه، وانطلق قافزا مثل مهر نحو البار الصغير، ليختفي في كمة لبرهة. بعدها عاد رفعا كتفيه، وهو يدفع بعربة صغيرة عليها صينية مستطيلة الشكل، عليها دلو حديدي غرست في ثلجه قارورة زجاجية متوسطة الحجم، غامقة السواد لشراب من نوع (كونياك)، وبجانب الدلو كأسان من الكريستال البراق طويل العنق، بعد أن أشار له رئيس الخدم ليقوم بخدمة السيد قسطنطين، وضيفه رجل الأعمال الفرنكو جزائري، اللذين جلسا ينتظران خدمته، بعدما وقف بعيدا عنهما حارسان شخصيان.

أشار قسطنطين للنادل ليبدأ في خدمة ضيفه. صبَّ النادل قليلا في كأس رجل الأعمال، ثم راح يضع فيه بالملقط النحاسي حبات من قطع الثلج المربعة، بطريقة محترف، وحينما أراد أن يفعل الأمر نفسه مع قسطنطين، دفع بيده فم الزجاجة نحو قميصه مرخيا كتفه بحركة سريعة

لم يتقطن لها قسطنطين إلا ونبيذ الكونياك الأحمر يندلق على ربطة عنقه، وقميصه. انتفض متراجعا حتى كاد أن يسقط من على كرسيه، بعدما بلله سائل النبيذ. وقف علاوي صارخا بتوتر، مشيرا بيده لأحد حرسه الذي قفز بطريقة آلية نحو النادل مرددا: ماذا فعلت أيها الغبي؟

بعد أن شعر بإحراج كبير، للفوضى التي تسبب فيها النادل. ترى من أين جاءوا بهذا الغبي؟! تساءل علاوي في سره، وهو يمدُ منديله لقسطنطين الذي حاول لحظتها أن يوارى تدمره بابتسامة عريضة، فتدحها في وجه علاوي الذي بقي واقفا متجمدا، لايعرف كيف يهدئ من روع قسطنطين الذي نطق بهدوء، بعدما مسك من يده المنديل: الأمر لا يستدعي مسيو علاوي. تفضل بالجلوس، أرجوك! محركا يده نحو وجه النادل الذي وقف يردد بلغة فرنسية ركيكة، جملة من اعتذاراته، قبل أن يقاطعه رئيسه الذي وقف لحظتها بينهما، منحذيا برأسه اعتذارا، بعد أن أشار لنادله بالإنصراف.

- ... Nous sommes désolé, monsieur, si vous permettez .

قالها رئيس الخدم بلغة فرنسية، طالبا من قسطنطين مرافقته للغرفة الخاصة لتبديل قميصه، وربطة عنقه التي تلطخت بحمرة النبيذ، لكن قسطنطين رد بلباقة، بأنه سيتدبر أمره بنفسه، طالبا منه أن يوجهه إلى غرفة الحمام. استأذن من ضيفه بعد أن حرك حاجبه نحو مساعده.

كان قسطنطين بحسه المخابراتي يشعر أن ما حدث له ليس صدفة لأنه طالما حدث نفسه أن الصدف التي لايصنعها بيده ليست صدف بل أفخاخ يضعه أعداءه في طريقه. تحرك بحذر بجانب مساعده الذي أمر رجاله بأن يتفقدوا غرفة الحمام. تبعهم متلمسا مسدسه بحذر، مجتاحا الرواق الذي أرشده إليه رئيس الخدم.

قبل أن يصل إلى الحمام توقف مساعده، منتظرا الرجلين اللذين دخلا للاستطلاع.

إنه نظيف قال الرجل الأول الذي خرج من الحمام قبل أن يؤكد زميله الذي خرج بعده متأخرا.

التفت طالبا منهما أن لا يتحركا من مكانهما، ثم أشار لمساعدته أن يعود أدراجه لقاعة المطعم. دلف بحذر راميا خطوته وراء العتبة، متحسسا بقلق ما قد يكون وراء هذا الهدوء الطاغي، والمريب. دافعا بجسده أمام المغسل الذي علقت على جداره مرآة مستطيلة طليت حوافها باللون المذهب. تحتها رُكبت ثلاثة سنانير من السرمييك ذات التعديل الحراري والمتعددة الألوان. مادّا يده لسنبور الزلق الذي بدأ ينزل ماؤه أوتوماتيكيا باللون المضاء، عاضا على شفته السفلى من الحنق. أراد أن يدفع بيده الأخرى ليعدل من سخونة الماء قبل أن تفاجئه حركة مسدس، ماصورته لكزت رأسه، ليصله صوت يأمره بعدم التحرك.

قف مكانك أيها الديك !

أدار وجهه بصمت محاولا رؤية صاحب الصوت لكنه توقف عاجزا بعدما أحس برأس ماصورة المسدس تنزل ضاغطة نحو ظهره.

دفعه بقوة بعيدا عن المغسل، طالبا منه نزع سلاحه، ووضعته على الأرض.

نزع قسطنطين مسدسه، ثم أنزله على الأرض، مبقيا على اليد الأخرى مرفوعة. قبل أن يأمره بدفعه بقدمه إلى زاوية الحمام دون أن يلتفت.

ادفع بسلاحك ، ابقَ كما أنت، وإلا فجرت رأسك !

حاول قسطنطين أن يدفع خطوته إلى الأمام لكنه تجمد حينما أحس ضغط المسدس يتزايد على ظهره. سأفعل! لكن لا تطلق النار. قالها بخوف، رافعا يده مديرا وجهه نحو مرآة المغسل المذهبة الجوانب.

بعدها تبين له شيء من وجه الرجل الذي انعكست صورته في المرأة المستطيلة، وتأكد أنه لم يكن سوى غريمه الذي التقاه في المغرب حينما كان يطارد جماعة أبي نصر. ثبت وجهه نحو المرأة، ثم راح محدقا في صورته مرة أخرى بعدما جاءه صوته مرة أخرى: يبدو أنك، نسيت أنني وعدتك بأن نلتقي؟.

صمت لبرهة بعدما شعر بتعب من رفع يديه، ثم غمغم: كما تقولون أنتم: الرجال تلتقي، و الحبال لا تلتقي. كان يمكن أن تستعمل أسلوبا آخر لنتلقى أيها المقدم ! رد قسطنطين متتبعا عيون المقدم التي كانت مثبته نحوه.

تقدم قال المقدم، ثم أضاف. فكّرت أن أزورك بطريقتي مسيو قسطنطين.

بقي العميل صامتا بعد أن تقدم بجانب المغسل في اللحظة التي دارت في رأس المقدم فكرة خبث الديك الذي رآه يدور في عينيه بمكر، محاولا رؤية يده التي كانت لحظتها تضع مغلفا صغيرا على حافة المغسل، طالبا منه أن يلتقطه دون أن ينزل اليد الأخرى. ثم أضاف له قبل أن يفاجئه بعقب المسدس على رأسه:

بلغ الرسالة لرئيسك ساغو، وقل له إننا كشفنا لعبتكم القذرة في الجنوب.

في تلك اللحظة كان قسطنطين يتهاوى تحت المغسل، مصدرا صوتا بعد أن مسك المغلف بأطراف أصابعه، وانهار مثل جبل جليدي على الأرض.

هب العميلان صوب صوت الإرتطام داخل الحمام، قبل أن تصعقهم ضربات عقب مسدس على مؤخرة رأسيهما، فسقطا فوق بعضهما البعض قبل حتى أن يتجاوزا العتبة.

جرهما الملائم المخفي بجانب جثت الديك الفرنسي الذي كان لا يزال فاقدا لوعيه، في اللحظة التي قال له المقدم عليك أن تخرج عزيز من الفندق.

عاد المخفي أدراجه يجر عربة التنظيف. ثم غيّر اتجاهه نحو الغرفة ٣١٤، حينما رأى مساعد الديك قادما مع بعض عناصره.

بدأ الديك الفرنسي يدفع بيده نحو المغسل محاولا أن يستفيق من ظلمة اجتاحت ناظريه جراء الضربة التي أوجعت مؤخرة رأسه ليجد بجانبه رجليه يئنان كما لو أنهما ضُربا بمطرقة.

انتبه للمغلف بين أصابعه فدسّه في جيب سترته في اللحظة التي فتح مساعده باب الحمام ودخل مسرعا. وقف بصعوبة صارخا في وجه مساعده بأن لا يترك النادل يغادر المطعم.

حرك مساعده الأشقر رأسه. حاضر سيدي، ثم خرج باتجاه صالة المطعم.

تمسك قسطنطين بصعوبة بجدار المغسل، مثبتا ساقيه، رافعا يده، فاركا عينيه في وجه رجله اللذين بقيا مبهوتين، وهما يمسحان الغشاوة عن أعينهما. حينما أحس بهدوء العاصفة في رأسه أشار لهما بحلق للابتعاد عنه، والبحث عن المقدم. سارع الرجلان إلى النافذة التي خرج منها المقدم فلم يريا شيئا، ثم عاد أدراجهما وخرجا، وهما يتلمسان في جراب مسدسيهما.

دار الديك بحلق نحو المغسل دافعا بحفنة ماء نزلت باللون الأزرق على وجهه، ضاعطا الصنبور بتوتر، مقربا رأسه من الماء الذي بدأ ينزل ببرودته على شعره الأشقر. قبل أن ينتبه للبقع التي علقت بقميصه، وربطة عنقه. نظر إلى المرأة متحسنا وجهه الذي بدا رماديا، ثم زفر فاركا وجهه بأصابعه قبل أن يمدّ حفنة أخرى من الماء، راشا بها البقع التي بدت مثل الدم. لم يكن يتخيل أنه سيقع في مثل هذا الفخ، وأن

رجليه سيسقطان مثل الذباب بجانبه، ولا أن تتطوي عليه حيلة دُبرت له بطريقة احترافية جعلته يعيد حساباته مع من يتعامل.

كان دوماً يفكر أن عملاء العرب أغبياء مثل رؤسائهم. لم يتخيل أنه سيسقط على يد واحد منهم، كان يعرفه جيداً يوم خطف منه الرجل الذي كان سيسلمه وثائق سرية عن الذين أمروه بقتل الرهبان السبعة.

يومها ردد عليه رئيسه ساغو: قلت لك أن تحذر من ذئاب الجنرالات. أعاد عليه نفس العبارة يوم فشل في استعادة أوراق رعيتهم الذي قتل في سجن المخابرات.

قال له الرجل الكبير نحن لسنا مسؤولين عن موت رعيتهم لأنكم أخفيت عنا أنه رجل مهم، وإلا ما كنا نسمح باعتقاله.

دارت في مخيلته هواجس الريبة، قبل أن ينتبه إلى المغلف في جيبه. قلب شفته السفلى مشمئزاً لا عناً وجه النادل، ووجه المقدم الذي ترك له تلك الرسالة الغريبة. دفع بأصابعه ضاغطاً على زر المجفف بجانبه. جفف يديه. قبل أن يخرج ألقى نظرة أخيرة على وجهه في المرآة. ثم دفع خطواته عائداً إلى مضيفه السيد علاوي.

حينما جلس فتح له عن ابتسامة عريضة قبل أن يلتفت بحنق في وجه رئيس الخدم، طالبا منه كأساً أخرى من شراب (الكونياك).

صب رئيس الخدم بنفسه هذه المرة في كأس قسطنطين، محاولاً إخفاء توتره، ناظراً نحو السيد علاوي، الذي كان يفكر في تأخر العميل الفرنسي الذي بدا على غير الوجه الذي غادره به. تقطن قسطنطين لحيرته فراح يقدم اعتذاره عن التأخر قبل أن يشير بيده، شاكراً رئيس الخدم على خدمته. عليك أن تفكر ملياً في الصداقة التي نعرضها عليك ميسو علاوي قالها، ثم أخذ شربة من كأس.

نظر المقدم لساعته السويسرية حينما وصل ملازمه المخفي بوجه رمادي متأخرا للمكتب. أخذ مكانا في الأريكة المقابلة لطاولة المكتب، دون أن يقول شيئا واضعا رأسه بين ذراعيه.

أدرك المقدم من صمت ملازمه أنه قد خسر عميله عزيز.

فعلها الديك اللعين إذن! نطقها المقدم دفعة واحدة.

تتهد الملازم: لم أستطع إخراجهم لأنهم حاصروه في مطعم الفندق !

اللعة على الديك ! صرخ ضاربا بقبضته سطح الطاولة، وراح واقفا. لا أريدكم أن ترتاحوا دقيقة واحدة، خذ معك أرزقي وابحثا عن المكان الذي أخذوا عزيز إليه. عليكم أن تعثروا على أثره قبل أن تبرز خيوط الفجر.

أطلب من عملاء المراقبة أن يشددوا على مراقبة الديك، ولا تنس أن تطلب من رجلنا في الاستعلامات أن يشوش على الاتصالات الآمنة في محيط حيدرة.

نعم حضرات قالها المخفي بصوت باهت كما لو أنه أحس بذنب كبير جراء خذلانه للمقدم، ولرفيقه عزيز الذي فضل أن يُسلم لهم نفسه بعد مقاومة شديدة في غرفة المطعم حتى يمنح وقتا لرفقائه بالانسحاب من غرفة الرجل الخليجي.

في الوقت الذي التفت المخفي كان المقدم قد خرج من مكتبه متجها نحو القاعدة البحرية جنوب العاصمة حيث كان صوت السيد يرن في رأسه بأن عليه أن يختطف من أصحاب النياشين الموافقة على خطته قبل أن يصل خبر الهجوم الإرهابي على قاعدة طابيا البترولية للإعلام.

دخلت سيارة المقدم القاعدة البحرية، في الوقت الذي وجد أمام البوابة قائد القاعدة وبعض حرسه من الجنود في انتظاره. ترجل المقدم مشيراً لسائقه بالعودة للمقر. ثم خطا بخطواته أمام الباب الحديدي. قام القائد بتحيته، ثم أشار له كي يرافقه، بعدما توغلا معا داخل القاعدة. نظر المقدم في اتجاه الرواق الذي بدا أمامهم مضاء بمصابيح صغيرة مثل فوانيس الأزقة العتيقة، متحسسا أن الطريق الذي يسلكه قائد القاعدة يأخذه بعيدا عن مكاتب الإدارة التي أخذت مساحة كبيرة من واجهة الأميرالية، لهذا عرف أنه يتجه به إلى الجهة الأخرى المحاذية لجبل البحر. في اللحظة التي ابتعد عن أضواء الفوانيس، رأى ضوء سيارة من نوع أندروفار، ورأى رئيس الديوان ينتظره فيها.

نطق قائد القاعدة في وجه المقدم: يمكنني الانصراف الآن. حظ موفق حضرات، هاهو سيادة الرئيس ينتظرك. انحنى المقدم برأسه في اللحظة التي اقترب منه رئيس الديوان محركا رأسه للقائد الذي عاد لحظتها مع الجنديين أدراجهما.

صافح رئيس الديوان المقدم :

مرحبا بك سيادة المقدم، ستقلنا هذه السيارة حيث يجتمع المجلس في هذه اللحظات.

شكرا سيادة الرئيس. أتمنى أن لا أكون قد تأخرت !

ليس كثيرا رد رئيس الديوان.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلا حينما توقفت السيارة أمام باب حديدي يدخل على نفق داخل الجبل.

نزل الديك الفرنسي مسرعا من الفندق قبل أن يخرج من جيب سترته هاتفه الخليوي، محركا أصابعه ليتصل برئيسه.

كانت مجيبة الخط في كل مرة تعيد عليه نفس العبارة " خط مراسلكم مغلق أو خارج مجال التغطية". يبدل رقما آخر بتوتر فلا يجد أي تغطية. رنات الومض تثير صوتا متقطعا قبل أن تتلاشى في الفراغ، في الوقت الذي كان متجها بسيارة سوداء مرسيدس نحو مقر رئيسه في حيدرة، بعد أن أمر رجاله بأن يقوموا بنقل النادل إلى مكان بعيد. كرز على أسنانه لا عنا خطوط الاتصالات قبل أن يصرخ بجنون في وجه سائقه كي يدعس بقوة على بنزين السيارة ليصل في أسرع وقت. عض على شفثيه محاولا إبعاد صورة وقوعه في الفخ، التي بدأت تُقْض تفكيره، دون أن يستطيع إبعادها من مخيلته، ولا إبعاد العبارة التي سربها لسيد علاوي في الفندق، متفائرا بأنهم سيغيرون خارطة الطريق في هذا البلد. قريبا سيأخذ القصر ضربة موجعة في الصحراء. ابتسم علاوي رافعا كأسه مرردا نخب صداقتنا الجديدة.

في اللحظة التي كانت سيارة المرسيدس تقطع الطريق السيّار بسرعة ١٦٠ كلم في الساعة، كان لايزال السيد ساغو في فيلاته بحيدرة منشغلا بلعبته المفضلة، ناظرا نحو صديقته الأمريكية نيكول بعدما طلب من خادمه إغلاق شاشة البلازما التي ظلت تبث عبر جميع القنوات العالمية خبر استيلاء مجموعة إرهابية على مركب بترول في الصحراء الجزائرية.

نظر إلى السيدة نيكول، ثم حرك بيدقه الأزرق بخطوتين مرردا بانتشاء: أشعر أنني اليوم مخدر بسعادة لا توصف يا صديقتي نيكول.

ضحكت السيدة، إذن يمكنني أن أشاركك إياها !

ولم لا يعزيتي. خذي هذا البيدق الأزرق هديتي لك حتى لاتقولي إنني لست كريما!

تنظر إليه السيدة نيكول بابتسامة مأكرة، حركة بيدقها الأبيض خطوتين في نفس اتجاه بيدقه، ثم ردت : ليس هناك أجمل من هدية رجل نابليوني يعرف كيف يخاطب أنثى تشبه جوزيفين. أخذ نفسا من سيجارة كوبية غالية الثمن، قبل أن يبتسم لها مفرجا على أسنانه المتراسة، مضيفا حركة أخرى نحو اليسار. بخطوة ذكية موهما السيدة بأنها قريبة من الشاه. تفتنت وهي تعدل من جلستها، ثم راحت تناوره بأنوثتها، متسائلة في سرّها : كيف فكّر نابيلون باحتلال العالم، ونسي أن يحتل قلب امرأة مثل جوزيفين. ثم التهمت بيدقه الثاني بحركة حصانها (كود شوفال) .

أطل مذيع قناة (سي أن أن) :وصلنا منذ لحظات خبر اقتحام عنيف لوحدات الجيش الجزائري مدعمة بالقوات الخاصة مع قوات الدرك والشرطة للمركب البترولي المسمى طابيا الذي احتله الإرهابيون. وأفاد مصدرنا أن التدخل خلف ضحايا أمريكيين، وآخرين من جنسيات أخرى.

أذهل رئيس النيتو أندرس راسموسين وهو يسمع الخبر قبل أن يدفع بيده الريموند كونترول بعيدا، وراح يبحث بتوتر عن هاتفه بعد انتظار طويل لمكالمة السيدة نيكول ديل التي أخبرته أنها تتابع موقف الجيش الجزائري الذي لن يقدم على فعل الاقتحام إلا بإذن مسبق منها.

في تلك اللحظة رن فيها هاتفها الخليوي، نظرت نحو شاشته، ثم كتمت صوته، ووضعته جانبا أمام عيني السيد ساغو التي كانت تراقبها، وتراقب في الآن ذاته الحركة التي ستقدم عليها. فكّرت وهي تلامس بأصابعها رأس الوزير كيف سيتلقى حليفها الضربة القاتلة في لعبة الشطرنج.

استعاد ساغو حيرته متسائلا عن خطوط هاتفه التي لم ترن منذ أكثر من ساعة متحسدا صمت صديقه الأمريكية، وهدوءها الغريب، منذ قال لها إنها ستسمع خبرا سيذهلها قريبا، وسيغيّر الكثير في المنطقة.

لم تعلق على كلامه حتى أحست باهتزاز هاتفها على الطاولة مرة أخرى مدّت يدها ضاغطة على زر الغلق، وهي تنظر نحو شروده بعدما تأكدت أن الجيش الجزائري فعلها كما كان منتظرا، و أن صديقها راسموسين سيجنّ. نظرت نحو وجه السيد ساغو الذي بقي فاعرا، منتظرا ردة فعلها في اللحظة رقى بيدقه بخطوة مفاجئة إلى وزير بعدما وصل بيدقه إلى غرفة الملك. لولب عينيه مرددا: أدرك أنكم ترغبون بأن يكون لكم مكان هنا. لكن لا أحد يمنحكم إياه سوانا ! ثم

وضع بيدقا آخر أمام حصان السيدة نيكول. بحركة مماثلة رفعت السيدة حجرة (لاران)، ثم علقت على عبارته وهي تبسم له : عليكم أن تبرهنوا أنكم تستطيعون فعل ذلك يا صديقي ساغو! كنا دوما نحن من يمنحكم الإمتياز... لن تسقط قلعة الملك هذه الليلة !

رد مقهقها: مشكلتكم أنكم تنظرون للعالم بنظرة (كُوبوي)!

بهذه العبارات المرمزة كانا يتحدثان دائما كخبيرين في استراتيجيات الأمن، يحرصان على مصالح بلديهما، لكنهما كانا على غير عادتهما في تلك الليلة قد سهرا إلى حدود الساعة الثانية صباحا يلعبان لعبة الشطرنج بنوع من التوتر حتى أن السيد ساغو قد بالغ يومها في النظر المتكرر لساعته مضيفا في كل مرة بسخرية مازحا السيدة : أكثر من أربع ساعات، ولا أحد منا أنهى المباراة ! قالها بنوع من المكرّر رغم أنه قبل لحظات كان لا يزال يحاول البرهنة على أنه يستطيع فعل أي شيء يريده في ملعبه، وفي الوقت الذي يريد أيضا !

كانا في كل لحظة ينظران إلى بعضهما كمن ينتظر أن ينهي الآخر بضربة قاضية بعد أن شعرا معا أن اللعبة التي بدأها صارت مملة، و لن تنتهي حتى ولو بقيا يلعبانها الليلة كاملة. كان الوقت متأخرا قبل أن تشير السيدة نيكول للخادم بأن يُشغل شاشة التلفزيون على قناة (سي أن أن) .

لحظتها دخل أحد رجال السيد ساغو مكسرا صمتهما الذي تناسل في اللحظة التي خطفتها عبارة خبر عاجل مرت على الشريط الأحمر أسفل الشاشة. همس الرجل إلى سيّده: السيد قسطنطين ينتظر في مكتبه. التفت ساغو جهة السيدة نيكول مستأذنا ، وتسرب لمكتبه .

حينما عبر رواق الصالة الكبيرة متجها نحو مكتبه الذي وقف أمام عتبته حارسان بلباس مدني، دافعا خطواته بتوتر. نطق أحد الحراس : إنه ينتظرك سيّدي !. فتح الباب، دخل متعجلا راميا بصره في وجه عميله الذي تسمّر واقفا بتوتر بالقرب من الأريكة.

ما الأمر الذي جعلك تأتي في هذا الوقت ؟

دفع العميل بقرص صغير مغلف أخرجه من جيبه، ووضع أمامه:
تفضل ! هذا سبب مجيئي، لن أقول لك إنها كارثة!

نظر ساغو بدهشة إلى المغلف بعدما ازداد نبضه، وتسارعت إفراسات
الأدرينالين في دمه ممسكا به بين أصابعه، دأكا على المغلف
الصغير:

وماذا يوجد بهذا القرص ؟!سأل بتوتر عميله الذي بقي يمطط في شفته
السفلى الجافة قبل أن يجيبه.

لقد كشفوا كل شيء.

كشفوا ماذا !... أعد ما قلت !

بقي الديك صامتا محركا حواجبه. شغل القرص لتعرف!

حملك ساغو جيدا في القرص، ثم دوره بين أصابعه قبل أن يرمي
بخطواته وراء مكتبه، فاتحا على عجل جهاز حاسوبه الصغير، وأدخل
القرص. لم تمر سوى برهة حتى طلعت صورة عميل، عُلق على
صدره رقم ٣٧٥. بدت على وجهه آثار التعذيب، متحدثا بصعوبة،
وبجانبه نشرت مجموعة من الصور والخرائط. كان العميل داخل شاشة
الحاسوب الصغيرة يتحدث بصعوبة عن خطة دخوله للتراب الجزائري
عبر الحدود الليبية، متذكرا في زي رجل تارفي، قبل أن تلقي عليه
وحدة من الجيش الجزائري القبض مع رجلين ليبيين مسلحين. حينما
فُتشت حقائبه بعدما ادعى أنه تاجر، وراح يتكلم بلغة تارفية، بدا من
لكنته أنه لا يزال لم يتمكن من أدائها جيدا. عثروا على صور وخرائط
عن مركب طابيا، ومخطط لتحرك جماعة إرهابية لتفجير.

كنا متفقين على تفجير المركب، وأخذ رهائن أمريكيين فقط.

أوقف ساغو شريط الفيديو، وأغلق جهازه شادًا على رأسه بيديه قبل أن تفاجئه رنات هاتفه.

نظر نحو شاشة الومض، ثم فتح على المكالمات.

نعم سيادة السفير.

.... أعرف.

.....

قبل أن تذهب لمكتب المستشار، سأتصل بك.

أغلق هاتفه على صوت السفير الذي تلاشى.

التفت نحو عميله دار عا بلاط غرفة المكتب.

سفيرنا تلقى استدعاء من القصر. جاء صوت ساغو.

كنت أعرف أنهم سيفعلون ذلك!

لو لم تفشل في عملية الصحراء لما كنا وصلنا لهذه الحالة.

سأجعلهم يدفعون الثمن غاليا، لقد مسكت بأحد عناصرهم، وسأصل للرجل الذي خاننا! أجاب قسطنطين

قبل ذلك ! على أصدقائك أن ينفذوا ما وعدوا به ! أجاب ساغو بحق على عميله.

فكّر المقدم بعميله عزيز الذي ألقى عليه رجال الديك القبض، ناظرا نحو ساعته بعدما تأخر رئيس الديوان في العودة من قاعة الاجتماعات بعدما تركه في تلك الحجرة الباردة. بقي متوترا مستعيدا في كل مرة فشله في حماية عناصر وحدته. رفع معصمه مرة أخرى ناظرا نحو ساعته. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحا.

المكان قبو تحت عمق أكثر من عشرة أمتار تحت الأرض في قاعدة بحرية في شرق العاصمة حيث كان الاجتماع الطارئ الذي نادى به المجلس السري للنظر في الهجوم الإرهابي على مركب طابيا قد أنهى أشغاله منذ أكثر من نصف ساعة ولا يزال رئيس الديوان لم يعد إليه.

تلمس المقدم ركبته بعدما أحس ببرد الحجرة التي قضى فيه أكثر من هذا الوقت عند انتظاره لدخوله على المجلس حيث بقي مغلفا بالهوس، مفكرا في كل الاحتمالات التي قد يفاجئه بها رئيس الديوان خاصة، وأن اجتماع أصحاب النياشين قد طال كل ذلك الوقت دون أن يخرجوا بقرار حاسم.

قال له السيد هناك قرار واحد سوف يعطله حافظ الأختام هو قرار طلب المساعدة من الجانب الفرنسي الذي سيكون أخذ الاقتراحات الأبرز في الاجتماع.

قال الرئيس حافظ الأختام بشيء من الحزم، رافعا يده: لا بد أن نخرج بقرار حاسم! أعادها مرتين بعد أن بقي النقاش أكثر من ثلاث ساعات يدور حول نقطة واحدة هي توجيه أصابع الاتهام للسياسة الأمنية التي تراجعت كثيرا في السنوات الأخيرة.

بقي المقدم يحرك ساقيه بعدما شعر ببرد بلاط الحجرة الرطبة ذات اللون الرمادي متحسسا عبارة رئيس الديوان الذي قال له: أعرف أنكم تريدون تقديم وجهة نظرکم، لكن من الصعب إقناع المجلس بإشراككم

في اجتماعه، حتى أمام المعلومات الخطيرة التي يحتويها تقريركم
صعبٌ جداً إقناعه. لكنني سأفعل المستحيل !

ثم خرج ماسكا التقرير بيده طالبا منه الانتظار .

أخرج منديله متحسسا التعب الذي تناسل مع حبات العرق التي أحسها
تتصّد من جبهته العريضة جراء الرطوبة التي امتزجت مع خطورة
المعلومات التي تضمنها التقرير الذي قال عنه السيد. إن معلومات هذا
التقرير ستحسم الأمر في قرار مجلسه.

بقي حافظ الأختام يماطل في الإعلان عن التصويت لقرار طلب
المساعدة من أصدقائهم الفرنسيين الذي راح بعض الأعضاء يدفع
المجلس نحوه. مسح العرق من جبهته، ثم نظر إلى ساعته وهو لا يزال
رافعا منديله مرددا في سرّه : ترى ما الذي أخر مبعوث السيد قبل أن
ينتبه لإشارة الضوء الأحمر التي اشتعلت أمامه في المنصة. وهي لمبة
صغيرة يشعلها رئيس الديوان في الحالات الطارئة التي تستدعي منه
مقاطعة أي اجتماع من اجتماعات المجلس.

انتبه لشروده وهو يعيد منديله إلى جيب قميصه الداخلي، طالبا نقطة
نظام من الأعضاء الذين بدأت أصواتهم، وهمساتهم ترتفع، وهم يسألون
عن وجوب بداية التصويت.

بقي رافعا يده أكثر من اللازم حتى بعدما وقف أمامه رئيس ديوانه الذي
سلّمه ملف التقرير، وهمس له في أذنه أن مبعوث السيد ينتظر دخوله
في الحجرة.

سأل حافظ الأختام بهمس. هل راجعت معلومات التقرير ؟

نعم سيّدي، كل شيء على مايرام .

فَكَرَّ وَهُوَ يَمْسُكُ بِالْمَلَفِ، نَاضِرًا إِلَى خَاتَمِ الشَّمْعِ الْأَحْمَرِ الَّذِي خَتَمَ بِهِ، أَنَّهُ أَنَّ الْوَقْتَ لِسَمَاعِ رَأْيِ السَّيِّدِ.

كَانَ عَلَى السَّيِّدِ أَنْ يَضْغَطَ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ خِلَالِ رَئِيسِهِ حَافِظِ الْأَخْتَامِ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ جِهَاتٍ أَعْجَبِيَّةً خَطَطَتْ لِادْخَالِ الْبَلَدِ مَرَّةً أُخْرَى فِي حِمَامٍ دَمٍ حَتَّى يَعْيدُوا تَرْتِيبَ خَارِطَةِ طَرِيقٍ جَدِيدَةٍ تَضْمَنُ لَهُمُ الْاِسْتِحْوَاذَ عَلَى مَنَابِعِ النَّفْطِ جَرَاءَ دُخُولِ الْجَانِبِ الْأَمْرِيكِ فِي خُطِّ الْعِلَاقَاتِ، وَتَوْقِيعِهِ لِمَشَارِيعِ كَبْرَى مَعَ الْقَصْرِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ بَدَايَةِ الْأَلْفِيَةِ. قَرَأَ رَئِيسُ الْمَجْلِسِ عِبَارَةَ سَرِّيٍّ جَدًّا عَلَى ظَهْرِ الْمَلَفِ الْأَسْوَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ بِصَمْتٍ نَحْوِ الْأَعْضَاءِ الَّذِينَ بَدَأُوا يَتَرَقَّبُونَ مَا سَيَنْطِقُ بِهِ رَئِيسُهُمْ بَعْدَمَا أَحْدَسُوا أَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ سَيُحْدِثُ جَرَاءَ دُخُولِ رَئِيسِ الدِّيْوَانِ بِذَلِكَ الشَّكْلِ الْمَفَاجِئِ، وَبِقَائِهِ وَاقِفًا أَمَامَ مَنْصَةِ الرَّئِيسِ الَّذِي كَانَ يَفْكَرُ لِحَظَّتِهَا فِي الْخُطْوَةِ الْجَنُونِيَّةِ الَّتِي وَعَدَ السَّيِّدُ بِتَنْفِيزِهَا بِهَذِهِ السَّرْعَةِ. نَطَقَ بِالْكَلِمَةِ الْأَخْطَرِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَهُ أَعْضَاءُ مَجْلِسِهِ، وَهِيَ إِشْرَاكَ عَمِيلٍ مَخَابِرَاتِي فِي اجْتِمَاعِهِمْ.

عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ الْمَتَّبَعَةِ حَسْمَ أَمْرِهِ مُشِيرًا لِرَئِيسِ دِيْوَانِهِ كَيْ يَفْعَلَ بِاللَّازِمِ.

رَفَعَ الْمَقْدَمُ رَأْسَهُ مُحَدِّقًا نَحْوَ الْجِدْرَانِ الَّتِي بَدَتْ عَلَيْهَا أَثَارُ التَّصَدُّعِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا آيَلَةٌ لِلْسَّقُوطِ جَرَاءَ بَقَايَا مِلْحِ الْبَحْرِ، وَالرُّطُوبَةِ الَّتِي أَكَلَتْ طَلَاءَ الْجِدْرَانِ الْحَجَرِيَّةِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا أَكْثَرُ مِنْ قَرْنٍ، مُتَسَائِلًا: كَيْفَ أُمْكِنُ لَهُؤُلَاءِ أَنْ يَخْتَارُوا مَكَانًا بَارِدًا مِثْلَ هَذَا كَيْ يَقَرَّرُوا فِيهِ مَصِيرَ دَوْلَةٍ؟

قَالَهَا مُحَاوَلًا إِبْغَامَاضَ عَيْنَيْهِ حِينًا، وَنَاضِرًا نَحْوَ الرُّطُوبَةِ الَّتِي أَحْسَسَهَا تَحْرُكَ أَلْمَا فِي رَكْبَتَيْهِ مِثْلَمَا فَعَلَتْ فَعَلَتْهَا فِي جِدْرَانِ الْحَجَرَةِ الرَّمَادِيِّ. كَانَ الْجَوُّ رَطْبًا بَارِدًا رَغْمَ الْكَنْزَةِ الدَّاكِنَةِ الَّتِي كَانَ يَرْتَدِّيْهَا إِلَّا أَنَّهُ شَعَرَ بِالْبَرْدِ، بَرْدَ الْاِنْتِظَارِ.

نَطَقَ حَافِظُ الْأَخْتَامِ مَرْكَزًا بِصَرِّهِ نَحْوَ الْإِضَاءَةِ الْخَافِتَةِ الَّتِي كَانَتْ أَمَامَ كُلِّ عَضْوٍ: لِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ فُشْلِ خَطِّطِنَا

الأممية، وعن النتائج المترتبة عن الهجوم الإرهابي، و إمكانية تدخلنا. وكلكم ينتظرنى أن أعلن التصويت لتتخذوا القرار المناسب. لكنني كنت في حاجة لمعلومات أدق. أرى من الضروري أولاً سيادة الأعضاء أن نجيب عن الأسئلة الجوهرية التالية قبل اتخاذ أي قرار: هل نحن نتعامل مع إرهاب السنوات الماضية نفسه؟ أم نحن أمام جماعات أخرى، وإرهاب آخر تحركه أيدي خارجية في المنطقة؟! ثم تابع وهو ينظر جهة الجنرال. المعلومات التي قدمتها مصالح مديرية المخابرات غير كافية، ولا تجيب عن هذا الأسئلة لهذا أستأذنكم أن نستمع لرأي آخر جاء بالمعلومات التي نحتاجها. قالها، ثم زم شفتيه بعد أن أحس بصمت أطبق على قبة القاعة الزرقاء، تلتهمسات بعض الأعضاء الذين حولوا أنظارهم نحو الجنرال المسؤول الأول عن متابعة جهاز الاستعلامات الذي كان منذ البداية ضد تحرك كتائب الجيش نحو الحدود — قال لهم حينما قدم رئيس مديرية المخابرات تقريره المقتضب عن وضعية الجماعة الإرهابية التي استولت على المركب، نافيا أي تدخل أجنبي: هؤلاء لسيوا سوى مرتزقة من الجماعات التي انضمت مؤخراً لقا عدة المغرب العربي ! وأنه ينبغي أن يكون هؤلاء من تنظيم داعش. هي نفس المعلومات التي قدمها أصدقائنا الفرنسيون، وحتى الأمريكان لهذا أي اقتحام دون مشورتهم سوف يكلفنا الكثير، ويدخلنا في حرج غير منتهى !

كان الجنرال يفكر بهذا الصوت وهو يحرك في رأسه موافقا على كلام رئيس مديرية المخابرات بعدما أحس بمماطلة حافظ الأختام، ومحاولاته لجر الجيش نحو عملية مdahمة غير مضمونة النتائج.

بقي الجنرال ينظر بامتعاظ نحو وجه حافظ الأختام منتظرا آخر جملة تخرج من فم رئيس مديرية المخابرات الذي قال لحظتها.

لا أعتقد أن هناك جهة أخرى غيرنا يمكنها أن تقدم معلومات عن الهجوم الإرهابي !

ضغط الجنرال على الزر الأخضر ليأتي صوته صارما كما لو أنه يعترض: سيادة الأعضاء الموقرين، سيدي حافظ الأختام لم يبق لدينا وقت كما قلت ! لكنك تردد نفس الكلام عن شح المعلومات !

سيادتكم، وسيادة الأعضاء يعلمون أن الإرهاب له وجه واحد يدمر به كل شيء. العالم كله الآن ينتظرنا أن نفعل شيئا. الدول الصديقة قدمت رغبتها في المساعدة، وعلى رأسهم الجانب الفرنسي الذي قدم رغبته في إرسال قوات خاصة. كل هؤلاء بانتظار ردنا، والمعلومات التي قدمتها المخابرات صحيحة لكنها ليست كافية، وأنا أتفق معك. لكنني أقولها صراحة حتى وإن توفرت المعلومات التي تقول عنها دقيقة فقواتنا المسلحة التي تحاصر المركب في هذه اللحظة لن تستطيع المجازفة بتنفيذ أي خطة اقتحام. وإن فعلنا ذلك من سيتحمل النتائج؟! قالها، ثم صمت لبرهة، وهو يدير وجهه نحو الأعضاء : لهذا لن أعيد نفس الكلام عن المجازفة التي ستؤثر في علاقتنا مع حلف النيتو.

رد حافظ الأختام كما لو أنه أراد أن يضع حداً للنقاش بدا أنه لن ينتهي بقرار: أرجو من سيادتكم أن تمهلوني بعض الوقت !

بعدها سحب التقرير الأسود الذي كان قد وضعه رئيس الديوان من عشر صفحات أمامه بعد أن نسخ منه إحدى عشرة نسخة، طالبا من أحد الحراس توزيعه على الأعضاء، ثم أضاف بعدما عدل من وقفته أمام المنصة: أعلمكم أن هذا التقرير وصلني اللحظة. إن سمحتم لي سأقترح على سيادتكم إشراك مصدره في اجتماعنا هذا ! أعرف أن إشراك أي عنصر خارج المجلس هو مناف لقواعدنا، وتقاليدها، مجلسنا، لكنني أؤكد لكم أن هذا التقرير الأسود من أخطر التقارير التي يمكنكم الإطلاع عليها.

تابع رئيس المجلس توضيح وجهة نظره، محاولا في كل مرة التذكير بأن إشراك مصدره ليس معناه خرقا لقوانين المجلس، بل لأن الضرورة الأمنية تحتم فعل أي شيء، قبل أن يصبح أمر هؤلاء الإرهابيين خارج

السيطرة. ثم أنهى كلامه مبتعدا عن المنصة. التقرير الذي وصلنا أمامكم الآن !

أرجو أن تمنحوني وقتا مستقطعا حتى أعود قبل أن تصوتوا لاقتراح مشاركة هذا المصدر ، أو تصوتوا لاقتراح الجنرال.

خرج حافظ الأختام من الباب الصغير الخلفي الذي كانت تقف أمامه منصة المنبر الطويلة تاركا أعضاء المجلس يتصفحون باهتمام كبير صفحات التقرير الأسود الذي قُدم لهم. كان لحظتها كل عضو يقرأ بذهول الأرقام المرصودة بطريقة لاتضع مجالا للشك حول عدد الإرهابيين، و مسار تنقلهم من الحدود، مع إشارات حتى للوقت الذي تحركوا فيه.

دخل حافظ الأختام إلى حجرة مكتبه المضاء باضاءة خافتة، شاعرا بتوتر على غير عادته، وبجاذبه وقف رئيس ديوانه الذي لم يقو على الكلام و بقي ينتظر أوامره وهو يبصره يقلب في أوراق التقرير قبل أن يضعها أمامه على طاولة مكتبه حتى قبل أن يجلس مستعيدا أنفاسه، جاذبا منديله من جيب قميصه ليمسح به جبهته العريضة التي تقصد العرق في تجاعيدها. عليهم أن يوافقوا على مشاركة المصدر يا جعفر، وإلا نزلت بنا الكارثة !

أعرف أن الأوامر قد أعطيت للوحدات الخاصة للتحرك رغم معارضة الجنرال بوزازة. لكن تحركها لن يفيد شيئا إن لم يأت قرارا من المجلس للتدخل. أضاف حافظ الأختام قبل أن يرمي جثته المتعبة على كرسي مكتبه.

أظن أن خطورة المعلومات التي بين أيديهم، لن تترك لهم خيارا آخر سيدي. نطقها رئيس الديوان.

نعم ، أتمنى ذلك يا جعفر !

انتبه لصوته بعدما انتابه شعور بالانقباض قبل أن يلوي وجهه ناظرا نحو شاشة البلازما التي كانت معلقة في جدار المكتب، وقد ظهرت فيها قاعة الاجتماعات. ثم نطق فجأة: الآن يمكنك إحضار المبعوث !

حاضر سيدي رد رئيس الديوان قبل أن يخرج في اتجاه الرواق المؤدي إلى الحجرة الرطبة التي كان لا يزال المقدم المهدي ينتظر فيها بتوتر.

حينما لاحظ إشارة الضوء الأخضر، وتأكد أن أعضاء مجلسه دسموا أمرهم بالاجماع لمشاركة المصدر تنفس الصعداء وهو يجمع أوراقه التي بقيت متراصة فوق مكتبه، ثم توجه نحو القاعة الزرقاء قبل أن يهز يده نحو حارس المجلس الذي كان يقف منتظرا الأوامر بمحاذاة الباب كي يسمح للمصدر بالدخول.

في اللحظة التي ظهر فيها حافظ الاختام لأعضاء مجلسه، تراجعت همساتهم، ثم تناهت نحو الصمت، و بدأوا يتحسسون وجه المصدر المخابراتي الذي جاءهم بهذا التقرير .

كان المقدم مهدي ينظر إلى ساعته، و نحو بلاط الحجرة قبل أن يغرق في ذاكرته رافعا معصمه مرة أخرى، وفي ذهنه ارتسمت صورة حافظ الاختام وأعضاء مجلسه الذين يمثلون مفاصل الدولة، والمشرعين لقرارتها الاستراتيجية. قال له السيد لا يوجد أمامنا حل آخر سوى أن نذهب إليهم. سوف يقنعهم حافظ الاختام بقبول مشاركتك !

لكن ظهورنا أمامهم سيكشف وحدة سمير. رد المقدم بحيرة.

صمت السيد. علينا بالمجازفة!

علينا بالمجازفة ! ردها في سره قبل أن ينتبه لصوت رئيس الديوان الذي أعلمه وهو يقف أمام باب الحجرة أن وقت دخوله على المجلس قد حان. تبعه بعد أن مشى أمامه بخطى واسعة في رواق ضيق طويل بدا له مثل سرداب لا نهاية له إلى أن وصلا لردهة سقفا مثل سقف القبة،

انتهت أمامهما برواق آخر أوصلهما إلى باب خشبي كبير، ذي مصرعين. وقف أمامه حارسان يرتديان بزاة عسكرية داكنة. وحارس ثالث كان قد تقدم منهما بخطوة، ضارباً بكعبه البلاط بتحية عسكرية لرئيس الديوان دون أن يقول شيئاً بعد أن توقف أمام عتبة الباب الخشبي الكبير المنقوش برقوم مختلفة شكّلت رمزا للجمهورية.

الآن أنت في عتبة المجلس ! قال رئيس الديوان وهو يشير للمقدم بيده كي يتبع الحارس الذي راح يفتح أمامه أحد دفتي الباب مردداً: تفضل سيادة المقدم، المجلس في انتظارك.

دخل المقدم إلى قاعة زرقاء كبيرة تتوسطها طاولة اجتماعات على شكل حرف U مثبتة في المنتصف بركائز معدنية، تنحدر عبر البلاط الحجري. وعلى الطاولة تمّ تثبيت عدة ميكروفونات تشبه عنق الإوز البري، وسماعات رأس، وضعت بجانب حواسيب صغيرة ملتصقة على وجه الطاولة، مزودة بكاميرات بحجم عين السمكة. بدا له المكان كما لو أنه قاعة من القاعات الفرعية للأمم المتحدة. يقابلها جدار عُلق عليه خارطة للمغرب العربي الكبير من ليبيا حتى المغرب بألوان مختلفة، وتحتها أعمدة نحاسية لرايات وطنية. في وسط طاولة الحرف U يجلس مجسم كبير لخارطة الصحراء الجزائرية وللحدود، يملأ فراغ الحرف.

حينما تقدم بخطوة تلقاه رئيس المجلس الذي كان يقف وراء منصة مستطيلة مثل منبر، نُقش على واجهتها شعار الجمهورية، مع خلفية أضيئت بإضاءة خافتة.

صافحه قبل أن يشير له ليأخذ مكانه في الكرسي الوحيد الشاغر جهة اليسار منه. المخصص عادة لأي عضو جديد تُقبل عضويته ليؤدي فيه قسم الانتماء للمجلس. جلس المقدم بعد أن حرّك رأسه محيياً أصحاب النياشين الذين كانت تبدو له ظلال وجوههم التي يعكسها الضوء الأزرق الخافت كما لو أنهم وراء ستار شفاف.

كانوا ينظرون إليه بصمت، يترقبون ما سيقوله هذا المصدر المخبراتي المجهول بعد أن علموا من الرئيس أنه يمثل وحدة خاصة لجهاز اليقظة، ومحاربة التجسس^٢ DVCR، مستقلة، وغير معروفة في هيكلية الأمن. كان الصمت مثل غلاف سميك يطبق على المكان، وعلى وجوه الأعضاء الذين بدوا واجمين وهم ينتظرون ما سينطق به.

شغل المقدم الحاسوب الذي وجده على طاولة صغيرة أمامه، ثم أدخل قرصا صغيرا. دون مقدمات طلب منهم وضع الخوذات على رؤوسهم لمتابعة الشريط. ثم أشار إلى الشاشة الكبيرة التي نزلت من السقف وهي شاشة ذات أربعة أبعاد تشبه المكعب، لكنها لا تبدو كذلك حينما يُنظر إليها من زاوية واحدة من الزوايا الأربعة للقاعة. ستبدو لكل عضو مثل شاشة بلازما ثلاثية الأبعاد 3D، شفافة بسبب مادة الهيلوم المشكلة بها، والتي تستطيع الاختفاء لمجرد توقف الشريط. في تلك اللحظة بدأت تظهر على الشاشة الكبيرة صور مصحوبة بصوت راح يُعلق على المشاهد التي كانت تمر، والملقطة عبر الساتل للجماعة الإرهابية المقتحمة للمركب، والمتكونة من ٣٢ إرهابي من ١١ جنسية منهم ثلاثة جزائريين، وإرهابيان من تونس وليبيا، وكنديان إضافة إلى مصريين، وموريتانيين، ويمنين، وفرنسي من القوات الخاصة، وبعض العملاء الذين لم يُعرف انتمائهم. مع مرور شريط عرضي يوضح اسم كل إرهابي وجنسيته. بعدها مرت صور أخرى مرصودة من قمر صناعي آخر تبين مساحة مذبأة طابيا الممتدة على مساحة ٦٧٠٠ متر طولا، و ٢٥٠٠ متر عرضا وهي قريبة من الحدود النيجيرية، مع صور أخرى توضح الطريق الذي سلكته المجموعة بداية من الحدود في اتجاه المركب الذي كان يتواجد فيه يومها أكثر من ١٢٩ جزائريا، و ٧٠٠ عامل أجنبي.

كان المقدم يتحدث كلما وقف الشريط على صورة توضيحية، مشيرا بمؤشر الأفارة نحو الطريق الذي سلكته المجموعة الإرهابية بعدما عبرت الحدود، ثم أضاف متتبعا وجوه أعضاء المجلس الذين راحوا

٢ مديرية اليقظة، ومحاربة التجسس

منبهرين، كما لو أن طيرا أسود حط على رؤوسهم، رافعين أعناقهم نحو الشاشة الكبيرة بعدما أذهلتهم خطورة المعلومات التي بدت منطقية، ومتراصة قبل أن يتساءل كل واحد منهم في سرّه عن مصدرها، وكيف يمكن أن توجد وحدة مخابرات خاصة لا أحد منهم يعرف عنها شيئا؟ و يكون لها كل تلك السلطة في تجميع هذه المعلومات بالدقة، و السرعة التي لم يتصورها أحد .!

ضغط المقدم على زر تشغيل الشريط مرة أخرى ليدخل صوت المعلق شارحا كيفية دخول المجموعة الإرهابية للمركب بعد أن اشتبكت مع قوات الدرك الوطني، و قضت على جميع عناصرها، ثم قامت بتقتيل الرعايا الأجانب الذين كانوا على حافلة النقل .

أوقف المقدم شريط الفيديو فاخفت الشاشة الكبيرة ، و اشتعلت أضواء القاعة. وقف المقدم متدحسنا صمت الأعضاء، ثم خطا خطوات متجها نحو فراغ الحرف u.

الآن سيّدي الرئيس، سيادة أعضاء المجلس وضعية الهجوم الإرهابي كما شاهدتم مسجلة في هذا القرص. أما خطة تدخل وحدات جيشنا، فيمكنني أن أقدمها لكم، ثم أشار إلى المجسم الذي برز بصورة آلية في فراغ طاولة الحرف u.

استمر المقدم لأكثر من ساعة يشرح خطة التدخل، ويشير بالعصا الموضحة التي سلمها له حارس القاعة إلى دور كل وحدة عسكرية في عملية الاقتحام. ثم أضاف لهم في النهاية: قبل الموافقة على التدخل السريع لوحداث جيشنا يجب علينا اتخاذ الإجراءات الضرورية بالمقابل.

أولاً علينا بحماية المنشأة من الانفجار، و حماية المواطنين بالمنطقة.

ثانيا عدم إعطاء أي تفاصيل حول هذا التدخل لوزارة الخارجية لتجنبها الضغط الإعلامي العالمي.

ثالثا عدم التركيز على الرهائن الغربيين كأولوية، و اعتبار العملية تستهدف الأمن الوطني الداخلي.

تدخل حافظ الأختام بعد أن شكر المقدم على شرحه المفصل لخطة السيد بالطريقة الدقيقة التي لا تدع مجالا لأي شك حول ضرورة التدخل. لكنه كان مجبرا على إعادة سؤاله مرة أخرى أمام أعضاء مجلسه رافعا يده:

سيادة الأعضاء، لابد أن الخطة التي شرحها المصدر هي من أدق الخطط التي يمكن الاعتماد عليها، وهي أيضا سبيلنا الوحيد في هذا الظرف العصيب. لكني رغم ذلك سأضعها أمامكم للتصويت مثلها مثل خطة الأركان التي اقترحها الجنرال. قالها ثم صمت منتبعا ردود فعل الأعضاء الذين بدت عيونهم تحملق في حواسيهم الصغيرة، مصدرين همسات قبل أن ينطق أحدهم كان في جهة اليمين من الرئيس: قبل أن أعلن موافقتي على خطة المصدر، إذا سمحت لي سيادة الرئيس حافظ الأختام أريد أن أطرح بعض الأسئلة على الجميع.

هز الرئيس رأسه موافقا بعدما ردد بتركيز : تفضل سيادة الجنرال .

– " ما جاء في شريط الفيديو خطير جدا، يورط شركات كبرى لنا معهم عقود طويلة الأمد، و عدم إعطاء أولوية لرهائن الأجانب يعني أننا نفتتح جبهة أخرى تورطنا مع حلفائنا !

سؤالي، لم تأخر وصول هذه المعلومات إلى قيادة الأركان ؟ كيف ستتحمل الدولة تبعات النتائج في حالة تدخل وحدات جيشنا بالصورة التي ذكرتها الخطة ؟

أضاف عضو آخر بجانبه متسائلا عن التبريرات التي يمكن أن يقدمها القصر في حالة فشل عملية الاقتحام. ثم أردف مشككا. ماذا لو كان شريط الفيديو فحا ؟ نصبته المخابرات الفرنسية، والأمريكية لأجل دفع جيشنا لتنفيذ عملية جنونية مثل هذه ؟! ومن ثمة إحراج مؤسسة الجيش، وتحميلها مسؤولية الفشل ؟

أعتقد سيادة الرئيس أن البلد ليست في حاجة إلى مغامرة جنونية في الوضع الراهن !

تدخل حافظ الأختام : سأجيب مكان المصدر إذا سمحتم، لأنني كنت على اطلاع بكل تفاصيل هذه الخطة حتى قبل اجتماعنا هذا لكنني قلت من المستحيل طرحها قبل أوانها، لأن قيادة الأركان التي يقودها الجنرال قالت أنها تستطيع أن تقدم معلومات دقيقة عن الهجوم في أقل من ٢٤ ساعة ، وفي النهاية لم تكن المعلومات التي قدمت لمجلسنا كافية ! بصفتي رئيس المجلس السري، وحافظ أختامه، وطبقا للصلاحيات المخولة لي، فإني أعلمكم أنني على اطلاع مباشر بكل حيثيات مصادر هذه المعلومات وسأضيف لكم أيضا، أن هناك معلومات أخرى حساسة عن مخطط شامل يستهدف أمننا القومي، لم يكن هذا الهجوم الإرهابي إلا بداية له. لكن الوقت لم يحن لكشفها ! لهذا أعلمكم باسمي الشخصي أنني سأضع حياتي الضمانة الوحيدة للقرار المتخذ من طرفكم. يمكنكم تحميلي أيّ تبعات من وراء فشل هذه الخطة، وأنا مستعد أن أتحمل كرئيس مجلس مسؤوليتي المتعلقة بالإجراءات السياسية التي تخص المحافظة على علاقتنا مع حلفائنا، ومع الشركات الكبرى. ثم أضاف : كما أحيطكم علما أنني في هذه اللحظة التي نجتمع فيها بعثت برسائل قد تكون وصلت لحلفائنا المعنيين تعلمهم بالمتورطين بحادث الهجوم، وتحملهم المسؤولية الكاملة وترغمهم على التعاون السياسي حيال تدخلنا العسكري في حالة حدوث أي خسائر بشرية. لكن هذا لا يعني أن قرار الاقتحام قد اتخذ مسبقا. و لأنني أعرف أن الكثير منكم يتساءل بخصوص وجود هذا المصدر، ووجود وحدة مخابرات خاصة ليست مدرجة ضمن هيكله استعلاماتنا الوطنية. فسأذكركم طبقا لقانوننا الداخلي، ولتعاليم وقوانين مجلسنا الموقر التي تجعل الحق لكل عضو أن يكون على اطلاع كامل بهيكله مؤسسات أمن الدولة المستقلة، والسرية في حالة واحدة فقط حينما ينتخب كرئيس للمجلس السري. لهذا فإني أطمئن الأعضاء المحترمين الذين أبدوا ملاحظاتهم المهمة حول الخطر والنتائج التي قد تترتب على قرارنا، وبالمقابل سأذكر الجميع أن بقاء الدولة بجيشها، وقياداتها كلها على المحك اليوم،

وإن لم ننفذ عملية التدخل في أقل من ساعتين من اجتماعنا هذا، سوف نضطر إلى رهن مستقبل أجيال في أيدي الشركات الكبرى !

القرار الأخير الذي كان قد اتخذه مجلسنا بخصوص إنهاء حالة الطوارئ في الصحراء حان الوقت لنذكر أنه كان خطأ جسيماً كلنا نتحمل تبعاته، وحتى لا نضطر إلى الإجابة عن ملفات سنوات المحنة التي ستفتح أمامنا مجدداً علينا أن نقرر اليوم تدخلنا دون أي مساعدة، ولا إذن من أحد ! قالها الرئيس بتحسّر، ثم ضغط على الزر الأخضر معلناً على بداية التصويت .

في عملية التصويت التي تجري عادة في اجتماعات المجلس. الاقتراع السري لا يحتاج سوى إلى ملامسة زر يوجد على جهاز حاسوب كل عضو، ليقوم الحاسوب المركزي المربوط بتلك الحواسيب بجمع البيانات، وتقديم النتيجة التي تعلن على مستوى شاشة الهيلوم التي سترسم أمام الجميع .

ماهي إلا لحظات حتى ارتسمت النتيجة ٧٨ % صوتت لقرار الاقتحام دون مساعدة من أحد.

ارتسمت ابتسامة على وجوه الأعضاء، وخاصة وجه المقدم الذي راح يصافح رئيس المجلس الذي وقف لحظتها بجانبه قبل أن يجد يد رئيس الديوان الذي دخل إلى القاعة وراح مردداً له بأنه سعيد بهذا القرار، وبأنه يضع كل ثقته في الوحدة الخاصة التي أوكلت لها مهمة قيادة عملية الاقتحام التي أرسل لها قرار البدء بالتنفيذ .

حملك السيد ساغو في وجه عميله بغضب. لو لم تفشل في استرداد وثائق غالديانو لكننا منعناهم من أن يصلوا إلى عميلنا.

سيدفعون الثمن غاليا، لقد مسكت بأحد عناصرهم، وسأصل للرجل الذي خاننا! أجاب قسطنطين، ثم أضاف سأتيك الليلة قبل بزوغ خيوط الفجر بخبرهم!

أتمنى أن لا تكون للرجل الكبير يد في كل هذا ! أجاب ساغو بحق وهو يغادر غرفة مكتبه محبط الوجه، عائدا للسيدة نيكول التي كانت لحظتها ترد على مكالة راسموسين مرردة في كل مرة عبارة ياس yes ، وعيونها الحائرة ملتصقة بشاشة البلازما بعدما سمعت أخبار الاقتحام العنيف في قناة (سي أن أن cnn). فكّرت أنها لم تكن تتصور أن يكون رد فعل الجيش بتلك الطريقة العنيفة لكنها أحست أن عليها أن تخفي شعورها بالارتياح، لأن بلدها هو المستفيد في النهاية بعدما جنبت رعاياها في الشركات متعددة الجنسيات من الوقوع في أيدي الإرهابيين.

كانت ستقول لراسموسين إنها سعيدة بضرب الإرهاب بتلك القوة ! لكنها تراجعت حينما أحست بصوت كعاب صديقها ساغو تقترب منها. التفتت وأغلقت هاتفها قبل أن يقف أمامها بغير الوجه الذي غادرها به. كانت ستقول له قلت لك. شاه العرب لن يموت الليلة، لكنها تراجعت بعدما سمعت نبرة صوته تنزف من فمه من بعيد: كيف فعلها الفلاقة ٣ دون أن يأخذوا إذننا منا ! قالها بتوتر متحسسا بشيء ينغله من الداخل، ثم جلس مخرجا من جيبه سيجارة هفانا، ناظرا إليها بسخرية: لا أعتقد أنك لم تكوني على إطلاع بما فعله هؤلاء المجانين ! حدثت إليه دافعة طاولة أحجار الشطرنج من أمامها مشيرة للخادم الذي كان يقف بجانبها متسمرا بغلق شاشة التلفزيون التي كانت لحظتها تبث تحليلات خبراء

٣ اسم تحقيق تطلقه فرنسا الاستعمارية على المجاهدين الجزائريين باعتبارهم قطاع طرق.

من كل العالم عن تدخل الجيش في عملية كانت الأخطر من نوعها
لجيش لم يكن الفرديون يقدرّون حجم قوته. قلت لك يا صديقي الملعب
ليس لك وحدك !

ثم قامت من مكانها، بعدما ودعته. كانت لحظتها كل وكالات الأنباء
العالمية والعربية، والمحلية تتحدث منددة بالاقتحام العنيف الذي خلف
عددا كبيرا من الضحايا الأجانب.

بقي المستشار يدرع بلاط مكتبه في القصر، ناظرا إلى ساعته التي كانت تشير إلى الثانية والنصف صباحا.

في تلك اللحظة طرق الحارس بلباس مدني باب مكتبه، ثم دخل.

لقد وصل السفير سيّدي.

أدخله!

دخل السفير متعجلا . صباح الخير مسيو لُ كُنسيي concieulier

صباح الخير سيادة السفير. أعرف أن وقت دعوتنا لحضرتكم في هذا الوقت غريبة بعض الشيء. لكن ما يحدث بصحرائنا، أنت تعرفه!

هز السفير رأسه. في اللحظة التي دخل خادم القصر يحمل صينية نحاسية عليها فنجان قهوة، وكأس ماء .

تفضل قال المستشار. هز السفير رأسه ملتقيا الفنجان من صينية الخادم : مرسى! ثم التفت لوجه المستشار.

أسمعك سيادة المستشار!

أنت تعرف أننا حذرناكم من التدخل في شؤوننا. و رغم ذلك حكومتكم تصم أذانها. أظن أن رسالتنا كانت واضحة في المرة السابقة.

قاطعها السفير : ما الذي حدث ؟! نحن نعتز بصداقتنا التاريخية، و تاريخنا المشترك معكم.

أنت تعرف سيادة السفير أن العقود الاقتصادية بين بلدينا لازالت معلقة، لهذا عليكم أن تدركوا أن بلدنا ليس ولاية من ولايات فرنسا، كي يمرح فيها عملاؤكم كما يريدون !

ركن السفير للصمت، وهو يستمع لتقريط المستشار الذي استطرد بكشف المعلومات التي قال له المقدم إنها ستذهل السفير، وتجعله يدرك أن مصالحهم صارت مهددة. لنرى كيف سيتصرف مع زميله السيد ساغو، عندئذ !

زفر السفير متحسسا ضغط المستشار الذي حذره منه السيد ساغو.

بقي السفير ينظر لوجه المستشار، محاولا إخفاء غيظه من اللغة غير المعتادة التي واصل الحديث بها، محاولا الرد عليه بحزم، لكن عبارة السيد ساغو لم تسعفه إذ رنت في داخله بعدما راح يوصيه بقلق : لا نريد تصعيد اللهجة مع المستشار. عليك أن تتركه يرغي، ولا ترد بأي شكل من الأشكال في الظروف الراهنة. ابتسم السفير مرة أخرى في وجه المستشار مقاطعا استطراداته، متحدثا عن العلاقات التاريخية التي تجمع البلدين، و أن حكومته تتفهم قلق القصر فيما يحدث في الصحراء، وأنهم مستعدون دائما لتقديم أي مساعدة !

لحظتها رد المستشار بدبلوماسية مماثلة معبرا عن شكره متمنيا أن تكون تصريحات خارجيتهم مناسبة لهذا الطرف لأن ما وقع في مركب طابيا هو أمر يتعلق بالأمن الداخلي.

يكفي أننا منذناكم مجالنا الجوي لتدافعوا عن مصالحكم، وهذا يبين صدق نوايانا تجاهكم. لكن لا نريد أن نرى أي رجل من رجالكم يعيث في الحدود. و لا أن يتحرك أي عميل من عملاء شركاتكم دون علمنا !

حرك السفير رأسه. سأعلم قصر الإليزيه برسالتكم!

مدّ المستشار يده مصافحا السفير الذي هز كتفيه بعد أن قام من مكانه
مادّا يده:

كنا سعداء بتفهمكم !

مرسي ميسو لكونسيي. قالها السفير مبتلعا ريقه، ثم خرج حيث كانت
سيارته الخاصة في انتظاره.

حرك المقدم يده نحو ناظره بعدما أعاده رئيس الديوان لنفس حجرة الانتظار الباردة، وطلب منه أن ينتظره حتى يعود بعدما أنهى اجتماعه مع أعضاء المجلس السري.

رفع معصمه بعدما أحس بشيء من الهدوء قد عاد إليه رغم حساسية البرد التي تمنكت من مفصل ركبته جراء برد الحجرة الرطبة.

وصلته رنات رسالة. مرر أصابعه على صفحة الشاشة الزرقاء. قرأ الرسالة فأحس بتوتر: لقد غادر الديك مقر السيد ساغو لكننا فقدنا أثره في غابة بوشاوي.

فتح المقدم صفحة رسالة جديدة، وكتب لملازمه: انتظرنني في الطريق البحري المحادي للأميرالية.

ضغط على زر إرسال الرسالة، ثم أعاد هاتفه إلى جيب سترته، وبقي يفكر في اختفاء عميله، رافعا قبضته بتوتر، بعدما انبجست دمعة حارة من محجريه، متحسسا وجهه الذي طالما أحسه مثل طفل رغم صمته، وقدرته على تقمص دور الشخصيات الساخرة، حتى حينما قال له ستقوم بدور النادل الذي سيدفع بالهدف إلى حيث يتم اصطياده.

ضحك عزيز سأفعلها سيادة المقدم، وسنصطاده كما الأيام الخوالي.

نظر إليه، ثم عانقه. أرجو أن تسامحني يا بطل.

صمت عزيز رافعا وجهه في وجه المقدم: فقدت أمي لأجل هذه الوحدة. كان علي أن أموت لأجل الوطن، وأندسى كل حياتي الماضية، حتى أمي التي ظلت وجعا يتحرك مثل كابوس داخلي. لهذا إن مت يوما مرة أخرى فأعطني إليها حضرات. ربت المقدم على كتفه بعد أن عانقه مرة أخرى متحسسا أن عميله الذي كان يقف دائما مثل الحجر حينما كانوا

يطاردون الإرهاب حتى الحدود المالية لم يكن سوى كومة من الأحاسيس. لم يفكر أنه بهذا القلب الطفولي، وبأن ذاكرته كانت دوما تعود بوجعها إليه.

في تلك اللحظة وقف رئيس الديوان أمام عتبة الحجرة، ودعا ليرافقه مع حارسين وقفا بجانبه مثل تمثالين.

مشى المقدم بجانب رئيس الديوان، وهما يدرعان بلاط الرواق الحجري. نحن نشكركم سيادة المقدم على كل ما فعلتموه.

هذا واجبنا سي جعفر، فقط نريد منكم أن تتابعوا ذاك التقرير لأن حادثة طابيا ليست الأولى، ولا الأخيرة التي يفكر فيها أعداء هذا الوطن !

سنبقى على اتصال. لقد اطلع حافظ الأختام على تقاريركم، و طلب أن تمنحوه بعض الوقت.

في اللحظة التي توقفا فيها الحارسان اللذان كانا يمشيان أمامهما في رواق القبو أمام جدار، توقف المقدم عن الكلام بعدما سرب للمساعد جعفر أن السيد ينتظر من المجلس أن لا يماطل كثيرا لأن الفرنسيين لن يصمتوا على الضربة التي تلقتها مصالحهم، ثم التفت بعد أن ودعه أمام المصعد الحديدي بعد أن عبرا رواقا آخر غير الرواق الذي دخلا منه لقاعة المجلس.

ضربا الحارسان بكعبيهما على البلاط، ثم تقدما نحو مخرج سري آخر. وعندما وصلا إلى باب مغلق، توقفا لينفتح أمامهما باب مصعد، بدا وكأنه يشبه في لونه لون المارب ذا اللون الرمادي الداكن.

انفتح المصعد.

دخلا الحارسان، ثم تبعهما المقدم قبل أن يدفع أحدهما يده ضاغطا على الزر ليتحرك المصعد ببطء، كما لو أنه يخرج من حفرة منجم. بقي

المقدم صامتًا ينتبِع في صوت المصعد حتى توقف. فُتِح باب المصعد آلياً أمامه، فوجد نفسه في غير الجهة التي دخل منها للقاعدة البحرية. ساحة واسعة وسط غابة كثيفة، دون أن يلتفت للحارسين اللذين اختفيا مع صوت المصعد الحديدي الذي تلاشى.

مشى خطوتين قبل أن يلتفت. لم ير شيئاً غير غابة كثيفة، وصخور جبالية بدت باللون الليلي الأزرق في ذاك الوقت الباكر الذي بدا فيه المكان مطلي باللون الحجري. لا يمكنك أن تميّزه بين الصخور البازلتية التي تنزل من الجبل المحاذي للبحر.

تزهّد وهو ينزل عبر مِحج صغير كان بالكاد يراه، حيث ظهرت له بعض الأضواء الخافته في الطريق الذي كانت تنتظره فيه سيارة ملازمه المخفي .

في صباح اليوم الموالي فكّر السفير بزيارة فيلا السيد ساغو بعد أن أخبره عند خروجه من اجتماعه بالمستشار عن لغة التهديد التي أحسها في نبذة المستشار، قبل أن يرسل إليه تقريراً مفصلاً عن الرسالة التي أبرق بها المستشار لحكومة بلده.

مشى خطوتين في ردهة فيلا السفارة، ثم توقف بعد أن عدل عن فكرة الذهاب. تذكر لا بد أنه سافر إلى باريس، فراح مخرجاً جهازه الخلي متصلاً به.

كان ساغو يقرأ بتوتر تقرير السفير وهو على متن طائرته الخاصة فوق سماء البحر الأبيض المتوسط بعد طيران فاق الساعة، يقلب في أوراقه، ثم وضعه وحمل تقريراً آخر كان قد أعدّه عميله قسطنطين، ناظراً من حين لآخر نحو خادمه الذي بقي صامتاً طيلة إقلاعهم من مطار هوارى بومدين.

فكّر في صورة السيدة نيكول التي كانت تجلس أمامه طيلة الليلة الماضية بصمت، وكأنها لا تعلم بالاقترام المجنون.

ضرب كفا بكف. العاهرة الأمريكية خدعتني. قالها بصوت مرتفع حتى انتبه إليه خادمه الذي ردد نعم سيدي !

لا شيء قال ساغو، ثم تابع مطاردة وجهها الأسمر الذي تلاشى أمامه مثل طيف وهو يتفحص غلبة الشطرنج فوق الطاولة الصغيرة بعدما جلبها خادمه كعادته كلما سافر معه في طائرته الخاصة، و بجانبها وضع تقرير عميله قسطنطين الذي نطق في ذاكرته : إن كان المقدم، ورئيسه يظنان أنفسهما ذكيين فلنمنحهما شهوة الانتصار المؤقت !

سنطلق عليهما كلابهما الجائعة. ضحك السيد ساغو ناظراً لساعته بعدما تذكر أن السفير لمّا يتصل به بعد .

بحث عن الريموند كنترول، ثم أشعل شاشة البلازما على قناة فرانس ٢٤، وبدأ يتابع الحملة التي بدأت تدين الفساد في الجزائر، وتربط كل الأحداث الأخيرة بالفساد.

في تلك اللحظة استأذن العميل قسطنطين الذي قال، وهو يغادر صالة الاستقبال محركاً سيجارته بين أصابعه. سيبدأ الآن دوري في تحريك آلة الموت.

التفت ساغو لاتنس وثنق أصدقائنا !

نعم سيدي .

خرج قسطنطين، وترك رئيسه يمسك بصورة السيد التي كان قد أخرجها من ملف تقرير اعترافات عميل الوحدة السرية الذي ألقى عليه رجاله القبض في الفندق. قلب صفحات التقرير متحسباً نبضاً جديداً بدأ يسري في عروقه. قال في داخله بأن معلومة مثل هذه ستمكنه من تحقيق انتصاراً يفوق حتى انتصار احراق ذاك المركب اللعين الذي جر عليه وابلاً من الانتقادات من منافسيه في قصر الإليزيه الذين كانوا دائماً يتحينون الفرصة لأخذ مكانه في بلده الذي ولد فيه.

قال لهم حينما انتقدوا سياسته وحملوه مسؤولية موت الرعية الفرنسية في سجن المخابرات الجزائرية. إن كنت منحتكم الإمتياز يوماً على سوق هذا البلد، وجعلت كل أورو يخرج من خزائنه يسقط في خزائنكم فقط لأنني كنت أنا من يريد ذلك، لهذا لا يحق لكم انتقادي، وتحميلي مسؤولية فشلكم.

رد عليه أحدهم بأن سياسته في المنطقة قد جعلت أصدقاءهم الأمريكيين يتخلون عنهم.

استعاد عبارة رجل الإليزيه فأحس بغصة الليلة التي خدعته فيها السيدة نيكول بعد أن غادرته كما لو أنها مندهشة للعملية المجنونة التي اقترحوا

بها مركب طابيا بعد أن خرجت مسرعة في اتجاه السفارة الأمريكية. رن في تلك اللحظة هاتفه الخليوي، نظر إليه قبل أن يمدّ يده لريمود كونترال، منقصا من حجم الصوت في شاشة البلازما الصغيرة التي كانت معلقة أمامه على مقعد الطائرة، وراح يفتح عن المكالمة في جهازه حيث ظهرت صورة السفير الذي راح يخبره بأنه منذ بعث له بتقرير مقابلته مع مستشار القصر وهو صاح لم ينم. ثم قال له مافعلوه لم يكن من تدبيرهم و حدهم. ثم أضاف له. يبدو أنهم يحوزون على أدلة تدين عملاءك، لهذا عليك أن تعرف أن الأمريكان أيضا دخلوا الخط، و لابد أنهم عقدوا معهم صفقة.

شكرا سيادة السفير. رد ساغو وهو يولوب في عينه، ثم أضاف. سأنقل بنفسي لباريس انشغالهم. لكنهم يريدون أن نصمت حيال تدخلهم العنيف، وإلا سيقطعون العلاقات ! رد السفير.

لن يحدث أي شرخ في علاقتنا مع القصر قاطعه ساغو وهو يتنفس بصعوبة قبل أن ينهي المكالمة بتوتر راميا بجهاز هاتفه على المقعد بجانبه، رافعا يده مستعيدا دسرة الضربة التي تلقتها مصالحة فجأة من رجال عجوز المبالغ قبل أن يتقطن لصوت خادمه الذي بقي ينظر إليه. لقد دخلنا أجواء باريس سيّدي. قال بعدما جاء صوت قائد طائرته الخاصة بأنهم بعد خمسة دقائق سيحطون في المطار. عض على شفته السفلى مرردا العاهرة الأمريكية كانت تعلم بكل شيء، لكنها فضلت الأجلاف! نطقها كما لو أنه أصيب بهلوسة دافعا بأصابعه نحو جيب سترته، متحسسا المغلف الذي يحتوي القرص الصغير الذي حطم كل ما خطط له كما أخبره السفير الذي سرب له أنه استنتج من الكلام الضمني للمستشار أنهم يعرفون كل شيء عن تحركات عملائه جهة الحدود. وأن الأمريكان يسمحون بذلك بعدما أصبحوا ينظرون إلى مقتل سفيرهم هناك بأن للفرنسيين يد فيه.

استفاق لحظتها ساغو بعدما أعاد رفع حجم الصوت في الشاشة الصغيرة التي بقيت مفتوحة على قناة فرنسية على تصريح وزير

الخارجية الجزائري. شدّ على قبضته بتوتر أمام خادمه الذي جمع في تلك اللحظة أوراق التقرير أمامه، وأبعد لعبة الشطرنج. وراح يتتبع تصريح الوزير. أنظر إليه، إنه يشعرني بالغثيان !

لقد فعلوها !نطق الخادم.

وهل هذه الدودة الزائدة تعرف أكثر من الذي قالتها!

ردساغو محولا وجهه نحو نافذة الطائرة التي كانت قد توقفت لحظتها في مطار أورلي، ثم أضاف معيدا وجهه، فاتحا عن ابتسامة ساخرة: حتى رئيسهم المريض لا يعرف شيئا أيضا، هل تصدق هذا !

ل أشغل التسجيل سيدي ؟

استفاق المقدم على سؤال عميل المراقبة متمسكا كتفه. بعد أن طلب منه أن يعيد الحديث الذي دار بين رجل الأعمال، والديك الفرنسي في الفندق.

ثم سأله: هل اتصل الملازم؟

ليس بعد سيدي.

فرك عينيه بعد تعب ليلة كاملة، ثم عدل من جلسته، وبدأ يتابع في أصابع عميل المراقبة التي بدأت تتحرك على لوحة مفاتيح الحاسوب. كان تعب الأيام الماضية باديا على ملامحه التي تورمت من العياء، لكنه لم يكن قادرا على أخذ قسط من الراحة لأن الأحداث التي مرّت بها البلد بدت متسارعة. مدة أسبوع وهو يجري، باحثا عن أثر للمكان الذي أفتيد إليه أحد رجاله، وفي النهاية يجده مقتولا، ومرميا في قصر مهجور. البارحة أرسل ملازمه المخفي كي يقوم بنفسه بإجراءات نقل جثة عزيز إلى أهلها في قريته تنفيذا لوصيته. واليوم هو على موعد طارئ مع السيد. لم ينم أكثر من نصف ساعة على كرسي بجانب عميل المراقبة الذي كان عليه أن يجمع كل مقاطع الفيديو التي سجلها عملاء المراقبة بالإضافة إلى تسجيلات التنصت لهواتف الأهداف المشتبه في تورطهم في علاقات مع المافيا السياسية.

في اللحظة التي ضغط عميل المراقبة على زر تشغيل شريط التسجيلات قفزت في ذهنه المقدم صورة الرعية الفرنسي الذي كان يتردد على مدينته. قال له السيد حينما سأله عن الاعتذار الرسمي الذي قدمه القصر للسفير الفرنسي جراء اعتقال رعيته. أجاب بأنه ليس الوقت، وقت الحديث في هذا !

في النهاية مات الرعية الفرنسي.

توقف هنا ! نطق المقدم فجأة، وأشار إلى لقطة حديث رجل الأعمال قبل أن يضيف بتوتر : ولد الحرام هذا (البُنَّادَم).

تبتسم عميل أرزقي لعبارة المقدم : سجلنا من هذا الحديث أقل من ساعة. لأننا اضطررنا لمغادرة الغرفة قبل وصولهم بعد أن ألقوا القبض على عزيز ! قالها كما لو أنه أدرك أن المقدم كان سيسأله عن مدة التسجيل. ثم أضاف له كما سجلنا كل اتصالات التي تمت بين الجنرال، وهذا الرجل. يرتقب أن يلتقيا في مكان ما. أضاف العميل.

أنتم راقبوا كل اتصالاته ! لا بد أن هناك طبخة يطبخها هذا الرجل مع الفرنسيين . نطقها المقدم، ثم انحنى برأسه نحوه، مشيراً له بأن يزيد في حجم صوت الفيديو.

بقي الديك الفرنسي يذصت إلى أن توقف علاوي عن الكلام. ثم أضاف عليك أن لا تنس أنك مزدوج الجنسية مسيو علاوي.

شكرا ميسو قسطنطين. سأعتبر كلامك هذا دعوة صريحة لنبدأ صفحة جديدة في تعاملاتنا معكم، لكن، لي شرط واحد قبل أن أنظر في أمر استقالتي من البترونا.

لا بد أن (ولد الحرام) يعرف جيدا، أنهم يستثمرون تخوفه من تهديدات القصر. ردها المقدم في سره. ثم التفت ناظرا نحو وجه أرزقي الذي تغير لونه نحو الحزن.

بقي المقدم واجما، متذكرا أن عميله، بات طيلة الليلة الماضية يردد، كلما رأى صورة عزيز في تلك الفيديوهات المسجلة يروح مرددا : عذبه، وقتلوه ولاد الكلاب.

أعرض عليك صداقتنا ، وقوتنا أيضا. و لن أذكرك بأن مصالحك تتقاطع مع مصالحنا ! جاء صوت قسطنطين.

بلى، وماهو المطلوب مني ؟ سأل علاوي وهو يمسك بكأسه .

عليك أن تثبت ولائك بسحب استقالتك من مكتب رئيس الحكومة. وماذا سيفيد سحبها مادام القصر سيغيّر الطاقم الوزاري قريبا.

ضحك قسطنطين بعد أن صب لنفسه قليلا من شراب (الكونياك) رافعا كأسه في وجه السيد علاوي . حينها سنجعلك منك بطلا. وسنضعك في قلب القصر.

ابتسم علاوي رافعا هو الآخر كأس شرابه متتبعا في عيون ديك المخابرات الذي فاجأه مضيافا. نحن نعرف علاقتك مع الأمريكان. وماتفعله في منطقة القبائل لا يخفى علينا، والأموال التي تدفعها للإنجليين، رغم ذلك لن نطلب منك التوقف، ولا حتى التخلي عنهم. حتى وظيفتك الجديدة في الصحراء سنقف بجانبك فيها، لأنهم أصدقاؤنا في النهاية !

كان قسطنطين يتحدث بثقة وهو يدفع في كل مرة بيده الأخرى نحو زجاجة (الكونياك) باحثا عن نسيان غصة الخديعة التي تعرض لها، و التي رفضت أن تتلاشى من ذهنه، محاولا في نفس الوقت أن يشد انتباه ضيفه الذي أحس أنه صار في قبضته قبل أن يدفع بيده باحثا عن زجاجة (الكونياك) . دفعها علاوي نحو يده. تفضل !

مرسي. رد الديك لاعقا بقايا شراب التصق بشاربه الأزعر.

أكيد مسيو علاوي، أننا لن نختلف ! ثم رفع زجاجة (الكونياك)، و صَبَّ منها شيئا في كأسه، وكأس السيد علاوي. شكرا ، مرسي .

لكن ! لي طلب عندكم .

حرك قسطنطين يده . أسمعك !

أريد نقل أعمالي، وأموالي لفرنسا قالها دفعة واحدة.

أوقف عميل المراقبة شريط التسجيل على آخر جملة قالها علاوي .
وقف المقدم، ممددا ذراعيه بحركة رياضية للخلف لعله يزيل تعباً كان
قد تمكن من أطرافه. قمت بعمل رائع أرزقي ! يمكنك الآن أن تستريح.

هز أرزقي رأسه مخرجا القرص من جهاز التسجيل، ثم وضعه في
مغلف مع بعض الصور التي حضرها منذ أن أعطيت له مع بعض
زملائه مهمة مراقبة رجل الأعمال.

تفضل سيدي. التقطه دون أن يقول شيئا دافعا بخطواته خارج الحجرة.

جلس علاوي في مكتبه بعدما أنهى الترتيبات الأخيرة لبدء هجومه على الحكومة، منذ أعلنوا عن تغييرات في الحقائق الوزارية التي أبعدوه منها رغم سحبها لاستقالته في الوقت المناسب من مكتب الرئيس كما طلب منه السيد قسطنطين إلا أن رئيس الحكومة الذي صار يحوز على صلاحيات أكثر وعلى قوة جعلت الكل يفكر أنها ليست مستمدة من القصر بل من جنرالات الجيش. راح يردد في وجه السيد علاوي.

أنت لم تعد تلزمنا مسيو علاوي !

ابتسم له ، ثم غادر مكتبه. من يومها وهو يفكر في خلط كل أوراقهم، فلم يعد أمامه ما يخسره .

تكلت الصحافة الفرنسية عن استقالت السيد علاوي وعن مواقفه الصريحة من سياسة الحكومة التي أدخلت البلد في نفق مظلم جراء الاحتجاجات الكثيرة والمطالبات المتكررة من كل عمال القطاعات الحساسة الذين راحوا يطالبون برفع أجورهم .

نطق السيد علاوي كما لو أنه استفاق من كابوس. سأطبق مقولة شمشون " أنا ومن بعدي الطوفان !"

رددها في سرّه وهو يحرك لسانه على جنبات سيجارة الهفانا التي أخرجها من العلبة الكبيرة على مكتبه. ما داموا قد وضعوني في قائمتهم السوداء، فلن أصمت لهم !

حمل سماعة الهاتف، ونادى على سكرتيره السيد فرحي.

دخل فرحي، وراح يدفع بصوته حتى قبل أن يصل إلى طاولة المكتب التي ركنت في الزاوية البعيدة للقاعة الفسيحة المؤثثة بأفخم مكاتب البيبيلوز وبالكراسي ذات الأعمدة النحاسية، والأرائك التي

اختارها السيد علاوي بنفسه من أكبر المحلات بأوربا، متخذاً من الزاوية الصغيرة في عرض القاعة مكاناً لطاوله مكتبه التي وقفت بجانبها خزانة كبيرة بلون المارب(الرخام) رُتبت فيها كتب ومجلدات، وبجانبها الآخر صُفت ثلاثة أعمدة من البرونز علقت عليها أعلام الراية الوطنية المطرزة بالحريز. كان علاوي يفكر وهو يضع إصبعه على واجهة المنشآت التي فرشها أمامه قبل أن تنزل صباحاً في أكبر جريدة من جرائده المكتوبة باللغة الفرنسية.

قبل أن يقف أمامه السيد فرحي ناطقاً: نعم سيدي!

تفضل، اجلس ! أريدك أن تقوم بإنزال أول خبر عن فساد وزير الطاقة لكن لا تعطيه مساحة كبيرة. ضعه في زاوية صغيرة أعلى المانشيت. لأنه سيكون أول خبر عن وزير الرئيس، سنقرص الوزير الأول من أذنه التي توجهه.

أراد فرحي أن يعلق بعدما تفاجأ بالتحول الذي أحسه في كلام مديره الذي أضاف له بعدما رأى اندهاشه. أعرف أن الأمر يبدو لك غريباً ! كيف لنا أن نهاجم حكومة كنا طرفاً فيه، ونسرب ضدها خبراً نعرف أنه سيثير ضجة في القصر ؟ ! لكنها السياسة يا عزيزي فرحي، ليس فيها صديق دائم، ولا عدو دائم. ثم أشار له كي يأخذ مكانه.

أخذ فرحي مكانه وبدأ يحملق في المانشيت .

سأخبرك عن توجهنا الجديد !

سنبدأ بتغيير خط جرائدنا بداية من اليوم . سنثير مشكلة الفساد من جديد عبر هذا الخبر. وبعدها سنترجع قليلاً للوراء، ونقوم بدور الملاحظ حتى يأتي الوقت المناسب لننزع لهم سراويلهم واحداً، واحداً.

إن سنعمل على جلب انتباه القصر ! قال السكرتير.

نعم هذا هو المقصود.

أنت تعرف أن قضايا الفساد ليست جديدة، وقد أعلن عنها حتى الرئيس الجديد في خطاباته منذ توليه حكم القصر وإنشائه لعلاقات جديدة مع الطرف الأمريكي، بعد أن أثّرت قضية ابن المالك من طرف المخابرات الفرنسية. حينما قدم للفرنسيين رأس الشاب المصرفي الذي لا يزال متابعاً من الإنتربول بعدما ورطوه في كل قضايا الفساد.

ألا يؤثر توجهنا هذا على علاقتنا بالأمريكان؟

سأل فرحي وهو لا يزال على وقع دهشته من السياسة الجديدة التي يريد مديره أن يورط بها مجمعهم الاعلامي. كان يعرف دائماً أن سيده لا يثق سوى مع الجانب القوي، لكنه هذه المرة انقلب ليصير معارضا شرسا لسلطة الحكومة التي باركها الجانب الأمريكي.

ضحك السيد علاوي، ثم أخذ نفساً طويلاً من سيجارته دافعاً بيده نحو ملف كان بجوار علبة السجائر.

هذه مجرد بداية ياسي فرحي، لن نتوقف عند هذا التنبيه البسيط، سنتبعه بخبر آخر عن مدخرات هذا الوزير في البنوك السويسرية في الأيام القليلة القادمة. ثم مدّ له الملف مضيفاً: خذ هذا الملف المتعلق ببعض قضايا الفساد الخاصة بوزارة الأشغال العمومية، أرسله مع ملف الوزير لـنائب العام. حتى يدركوا أننا نستطيع أن نقبل عليهم هذا البلد متى نريد !

بقي فرحي ممسكاً بالملف وهو لا يزال تحت وقع دهشته: لازلت مندهشاً لهذا القرار! لم يمر على عودتك من المنتدى الأوروبي أكثر من ٤٨ ساعة.

كما لم يمر على لقاءك برجل DSVR الذي حذرنا من معاداة القصر.

ضحك السيد علاوي، ثم أخذ رشفة من فنجان قهوته:

لا تخف ، لن يفعل لا هو، و لا من يقف وراءه شيئا .

قبل أسبوع كتبنا عن الحكم الرشيد للقصر، وقبلها كتبنا عن رغبة الأ جانب في الاستثمار، وكنا نأمل أن ينهض هذا البلد كما كل بلدان العالم، والآن سنكتب عن انهيارات قادمة. هل يمكن أن تشرح لي في أي جهة نقف سيدي؟ سأل فرحي وهو يلوب في عينيه.

أفرج السيد علاوي على قهقهة أخرى رافعا يده بعدما وضع سيجارة الهفانة على المطفأة : يبدو لي أنك لم تعد تفهم السياسة يا عزيزي فرحي. ثق أننا لن نقف إلا مع القوي. القصر الآن يلفظ أنفاسه، والأمريكان لن يستمروا في دعم حكومة يعرفون أنها ستنتهار مع الأيام القادمة. لهذا عليك أن تعرف أن ما قالته صحافتنا عن الحكم الرشيد، وعن الانفتاح الاقتصادي ليس سوى نوع من الاطراء الذي حاولنا أن نغطي به على أزمة القصر مع الجانب الفرنسي منذ اغتيال الرعية الفرنسي.

لهذا لا يمكننا مساعدة سفينة تغرق يا عزيزي !

ثم أضاف. بالمناسبة ستجد في هذا الملف أيضا قائمة لأسماء شخصيات، عليك بار سال صحفيك ليجروا معهم حوارات. ستكون الساحة السياسية ساخنة في هذا الربيع خاصة مع انتقال التوتر من منطقة القبائل إلى الجنوب.

الآن جاء الوقت خلط الأوراق إذن ! رد السكرتير.

بلى، و لكن بالطريقة المباشرة هذه المرة أجاب علاوي .

بقي فرحي صامتا ، ثم وقف. الآن فهمت سيدي.

شكرا، يمكنك الآن أن تتصرف !

دار علاوي في كرسيه بانتشاء، مستعيدا كلام قسطنطين عن انهيارات قادمة على القصر.

قبل أن يدخل على سمير في مكتبه جلس المقدم في صالون الفيلا خداج وراح يتأمل في الصور التي أخرجها من المغلف.

حرق في الصورة التي ظهر فيها الجنرال مع رجل الأعمال الفرنكو جزائري. دار في ذهنه المشهد الذي رآه فيه أول مرة حينما كان مستشار القصر يحدثه عنه في حفلة سفارة الإمارات العربية، مردداً : بأن رئيس الحكومة بدأ يشتكي له من الخرجات اللعينة التي أضحت جرائد هذا الرجل تهاجم بها عمل حكومته منذ أن تم التخلي عنه. ثم أضاف: يسألني في كل مرة هل هذا الرجل معنا، أو علينا؟ يا لحماقته!

هل يمكنك أن تتصور سيادة المقدم رغم كل ما تكتبه جرائد علاوي إلا أن رئيس حكومتنا لا يكف عن ترديد سخافته، بأن رجل مثل علاوي يستطيع انقاد قطاعنا الاقتصادي بعلاقاته مع الفرنسيين، والأمريكان !

كان المستشار يتحدث بشيء من السخرية، مشيراً بإصبعه نحو رئيس الحكومة الذي كان يمسك بيد السيد علاوي، و يعرفه على رجال، وسيدات السفارة الإماراتية، لهذا حينما حرك المقدم كتفيه، وكأنه غير مبال. قال له المستشار: أعرف أنك تفكر بأنه يكره هؤلاء!

ضحك المقدم : أنت تعرف أنه يكره العرب كلهم!

تأكد أنه لن يكره ما داموا يغرقونه بجلد الضفدع الأخضر.

كانت تلك أول مرة يرى فيها المقدم علاوي وجها لوجه لهذا حضرته صورته حينما التقى به للمرة الثانية في ليلة الهيلتون مع الديك الفرنسي، وأدرك أنه رجل ليس من السهل الإيقاع به حتى الصور والتسجيلات الصوتية التي أخذت له لن تدنيه بشيء. كان ينظر لصورته، ويسأل نفسه: أي قوة تجعلك في منأى عن الحساب؟ يذكر أنه حينما سأل السيد عن الضجة الإعلامية التي تثيرها جرائد الرجل

حول موت الرعية الفرنسي الذي أصدرت الحكومة بحقه اعتذرا رسميا
لسفير الفرنسي بعد أن سلّموا لسيد ساغو جثته:

لقد حذرناه ، لكن سيأتي يومه. ثم أضاف، ولكن موت الرعية أيضا
كان خطأ !

رد المقدم يومها في سرّه، وتلك الخارطة، والوثائق السريّة التي وجدها
عملاؤنا بحوزته في المطار. أليست تهديدا !؟

صمت السيد، ثم نطق: لايزال الوقت مبكر على القول إن ماوجدناه معه
يعد مصدر تهديد.

حرك المقدم رأسه. نعم سيدي . هل يعني هذا أن ماتقوله جرائد علاوي
صحيح؟

صمت السيد يومها، ولم يجبه.

أحس بعد مغادرته لمكتب السيد أن هناك أشياء يصعب بلعها في تفكير
السيد.

فكّر وهو يستعيد وجه السيد أن هيئة إخوة الثورة لابد أنهم قد وضعوا
خطة لتجاوز هذه المحنة التي يريد الفرنسيين توريث القصر فيها. لكنه
لا يفهم كيف لايزال هؤلاء صامتين أمام ما يهددهم بعدما كشفوا عن
وحدة سمير.

لم يحصل في رأسه هذا التناقض يوما، مثلما حصل معه يوم تلقى رسالة
تشبه الإنذار من المجلس السريّ ثعلمه أن إلقاء القبض على سائح أجنبي
من أصدقاء الثورة يعد خطأ فادحا سيكلفنا الكثير.

استفاق في تلك اللحظة على صوت الحارس الذي جاء من الرواق
المؤدي للمكتب. تفضل سيادة المقدم، السيد ينتظر.

أعاد المقدم الصورة داخل المغلف، ثم تبع الحارس الذي مشى أمامه بخطى منتظمة قبل أن يصل إلى باب المكتب الذي دقّه، ثم فتحه .

حينها وصله صوت السيد : تفضل سيادة المقدم .

دخل متتبعا الصوت الذي جاء من وراء طاولة المكتب البعيدة كما لو أنها في جهة أخرى من ذاك الطابق. كان هذا أحد المكاتب الأربعة التي يتواجد فيها السيد، ويدخلها المقدم لأول مرة، لهذا بدا له مختلفا كل الاختلاف عن المكاتب الأخرى التي طالما زاره فيها.

وقف أمامه واضعا الصور مع الظرف على طاولة المكتب حيث كان السيد يُدَوِّر بيده كرة عاجية تشبه كرات البيار قبل أن يشير له بطرف حاجبه المبيض من الشيب ليجلس في الكرسي المقابل.

التقط السيد أول صورة، ثم رفعها بعد أن وضع الكرة جانبا في كأس كريستالي فارغ. هل هذه صورة الهدف؟

هذه صورة الرجلين معا، وهذا أيضا التسجيل الذي طلبته سيدي. أجاب المقدم، وهو يدفع بمغلف القرص نحو يد السيد.

تابعت مافعلته في عملية الهيلتون لهذا لا داعي لهذه الصور. قالها السيد ببرودة واضعا الصورة على سطح المكتب، ثم أضاف له بعد أن عدل من جلسته: هل تعتقد أنني سأسمح في رجالي؟

رفع المقدم رأسه بصورة خاطفة، مندهشا لهذا السؤال الغريب.

أعرف أن بعض رجالك متوترين، وأعرف أن ملازمك لا يزال لم يعد من قرية عزيز.

هز المقدم رأسه. نعم سيدي كان من المفروض أن يعود البارحة. لكن !

أعرف أن خسارة عنصر مثل عزيز كبيرة جدا لكن

عليك أن تفكر ماذا لو اعترف عنصرك بشيء لديك الفرنسي؟!

لا أعتقد أنه يعرف شيئاً عن عدنان أبوحاتم. أجاب المقدم بتلقائية.

إذن عليك أن تتوقف عن التفكير فيما حدث، وأن تطالب من ملازمك التائه أن يعود فوراً للعاصمة ! قالها رافعا الكأس الكريستالي أمام وجه المقدم، ثم أردف أترى هذه الكرة العاجية؟

أدار المقدم ناظره نحو الكأس الكريستالي، مركزاً في الكرة.

نعم. أجاب المقدم.

هذه هي مفتاح قضية الرعية الفرنسي ! نطق السيد

تداخلت في رأس المقدم تناقضات الحيرة. كان ينتظر من السيد أن يجيبه عن الصور، والتقرير الذي يورط الجنرال، و رجل الأعمال الفرنكو جزائري الذي تربطه علاقات بالعميل الفرنسي الذي صارت أعماله مفضوحة، لكن السيد أعاده لحكاية الرعية الفرنسي .

سنتتظر حلّ شفرة الوثائق التي وجدت معه، لنفتح ملف قضيته من جديد أضاف السيد مكسراً حيرة المقدم، ثم أخرج له صورة من الدرج. الآن سأعود إلى تقريرك سيادة المقدم، وألقى بالصورة أمام المقدم.

التقط المقدم الصورة وبقي يتفحصها بعد أن رفعها أمام ناظره: أليس هذا من عملاء المؤسسة القديمة؟

بلى ! هذا أحد ضباط المؤسسة القديمة كان مكلفاً بمراقبة الأجانب في الحدود قال السيد، ثم أضاف لهذا لايهمني الجنرال، ولا علاوي في هذا الوقت أكثر ماتهمني الخلايا النائمة التي يديرها هذا الضابط. بعد عملية طابيا بدأ الفرنسيون يحركون خلاياهم النائمة، واستعملوا بعض عملاء المؤسسة القديمة.

صمت المقدم في اللحظة التي سمع فيها طرقا على باب المكتب.

دخل المساعد صَفر، بعد أن ألقى التحية العسكرية. أشار له السيد بالجلوس في الكرسي المقابل للمقدم.

ما لم أفهمه ! ماذا يفعل الأصلع بالعاصمة؟ سأل المقدم

هذا أحد الذين شطبتهم الدولة أجاب المساعد، ثم أضاف وهو أخطرهم أيضا!

حق المقدم في الصورة مرة أخرى في اللحظة التي نطق فيها السيد. عليكم أن تبدأ من الآن مهمتكم.

أنت ستهتم بمستشار القصر لأن الرئاسة كلفته بالتنظيف، أما صَفر سيهتم بأمر السيد علاوي. ثم سلمه ملفا.

هذا الملف يحتوي على كل أعمال الوسخة لهذا الرجل. قال السيد.

حاضر سيدي ! قالها المساعد صَفر وهو يمسك بذاك الملف .

قبل أن يضيف. لا اعتقد أن السيد علاوي يمكنه أن يتجرأ بعد أن حذرتة.

بقي المقدم صامتا، مستعيدا كلام المستشار يوم سأله عما فعله مع السفير حينما كلف بالضغط عليه.

اقترب المستشار من المقدم، ثم قال له حينما أعلمت سفيرهم بقلقنا تجاه تحرك عملائهم، بدا صامتا. ثم ابتسم مثل حيوان الراكون، مرددا نحن نتفهم قلقكم، وليس لنا أي نية سيئة تجاه سياساتكم الداخلية.

نطق المقدم حينما انتبه لشروده: بسبب الضغط الذي مارسه المستشار على السفير الفرنسي لم نتلق أي موقف عدائي ضد وحدات جيشنا، ولم

نرصد أي تحرك لعمالئهم في الجنوب، وهذا أمر مهم، لكن تحرك الديك الفرنسي على مستوى رجالات الإعلام يقلقني.

كنا نعرف أنهم لن يصمتوا طويلا منذ بدأنا نغير في استراتيجية الدولة. رد السيد مت دخلا، بعدما صمت المساعد، ثم أضاف لهذا سيحرشون ألامهم هنا، أو في الخارج مثلما فعلوا مع وزير خارجيتنا، يوم أرسلوا قنواتهم الإعلامية لإقامته وراحوا يحاولون إحراجه أمام الرأي العام العالمي، لكنهم تفاجؤوا بظهوره المفاجئ بعدما اكتف بالتعليق على ما حدث في قاعدة طابيا.

شاهدت ماحدث مثلكم عبر قنواتكم قال الوزير لصحفي الذي سأله عن تدخل الجيش بتلك القوة.

هز السيد رأسه بعدما أحس بصمت عميليه، ثم نطق. عليكما أن تعرفا أن الحرب قد بدأت بيننا، وبين السيد ساغو لهذا انتبها، فنحن لانعرف ماذا يحضرون في الأيام القادمة.

بقي السيد علاوي يتفحص في الملفات التي سلّمها له الجنرال حينما التقى به بنفسه أمام القصر المهجور. يومها أخبره أنه أعاد علاقته بالفرنسيين وأنه مستعد لمواجهة القصر، لكن يريد من المجلس أن يضغط على النائب العام كي يفتح تحقيقات في أسرع وقت حول ملفات الفساد التي نرسله إليه.

حملك الجنرال في وجهه. مهمتك أن تفضح رجال القصر أما ما سيفعله النائب العام فنحن سنتكفل به. ثم أضاف له نتمنى أن تبدأ مع الشخصيات التي أعطيناك أسماءها لأنهم وحدهم من سيكشف عن أسرار المخططات الأمريكية. كما عليك أن توقف حملاتك ضد رجالنا في وهران.

فغر علاوي فمه، دون أن يضيف شيئاً، ثم استلم الحقيبة، وسلّمه حقيبة الدولارات. هذا جزء بسيط من نصيبكم في أرباح المجمع. لقد سلمها لي السيد هواري.

إذن اشترى رأسه دون أن يستشيرنا؟ قالها الجنرال بسخرية.

استفاق علاوي من شروده مرددا بصوت مسموع لا بد أن يقدم تنازلات. أولها طرد ذاك الغبي من رأس الحكومة أجلاً أم عاجلاً، والكف عن معايشرة الصينيين.

قال له العميل الفرنسي في فندق الهيلتون ستحدث انهيارات جديدة في دواليب السلطة، ولن يجدوا سوانا من ينقدهم. مثلما أنقذناهم من كارثة ابن رجل المالغ.

أعتقد أن القصر لن يتجرأ مرة أخرى على الوقوف في وجهكم.

بقي السيد قسطنطين ينظر نحوه، ثم سأله : لماذا وقفت رجالك في الصحراء في الوقت الذي خرجت من الحكومة؟

الأمريكان أرادوا ذلك أجاب علاوي باقتضاب، ثم صمت .

الأمريكان مرة أخرى ! رد قسطنطين مستعيدا حادثة الهلتيون، ثم انتبه مررد: عليك أن تعرف أنهم حلفاؤنا.

صمت علاوي وراح متسائلا بحيرة في سرّه. ماداموا حلفاءكم لم وقفت السيدة نيكول في وجوهكم؟؟؟.

حينما رأى قسطنطين حيرة السيد علاوي قلب شفته السفلى ونظر بعينين محدقتين في العذمة مستعيدا دخوله للقبو الذي أقتيد إليه عميل المقدم بعدما أمسك به رجاله في الهلتيون وهو يحاول القفز من شرفة نافذة البار الصغيرة.

بعدها وضع القرص في حاسبوه ورأى وجه عميلهم الذي ألقت عليه وحدات الجيش القبض في الحدود. التفت صارخا جهة النادل وضربه على وجهه بلكمة حتى انفجر الدم من أنفه، وتهاوى من على المقعد الحديدي . رفعه رجلا وأجلساه. رفع عزيز رأسه ناظرا نحو رجل موشوم الذراع وقف أمامه، ثم بصق في وجهه، بعدما نطق الرجل:

كنت أعرف أن الدولة أعادتلك لصفها قالها الأصلع بسخرية.

وأنت لماذا تقف حيث تعرف أنك تخون دولتك التي ربك أجاب عزيز محاولا التماسك.

في تلك اللحظة اقترب الأصلع وضرب عزيز بقبضته على وجهه. سأقتلك واحدا، واحدا... الدولة هي نحن.

تدخل قسطنطين. إذن هذا أحد عناصر المؤسسة القديمة.

كان.. ! نطقها الأصلع.

في كل مرة كان يُضرب فيها النادل من رجال الديك، يسأله الأصلع من هم عناصر وحدة سميرّو. من يديرها ؟

لا أعرف عم تتحدث ! يجيبه عزيز بتحدٍ .

ينهال عليه الرجل بالضرب على وجهه حتى يفقد وعيه.

بعدها يجره رجلان نحو غرفة الحمّام، ويدخلان رأسه في حوض الماء حتى يفقد أنفاسه، ثم يقف على رأسه الأصلع مرة أخرى ويعيد عليه نفس السؤال، وفي النهاية شده من رأسه وقال له: أنظر إليّ جيّدا يا عزيز. يفتح عزيز عينيه بصعوبة، مستعيدا صورته حينما كان معهم في الجبل مرددا. الكلب يبقى كلب !

في تلك اللحظة جذب الأصلع مسدسه و وضعه على رأس عزيز. سنرى من الكلب قالها باشمئزأ محاولا الضغط على الزناد. سافجر رأسك يا عزيز.

لحظتها تدخل قسطنطين ممسكا بمسدس الأصلع. ليس بعد أن يقول لنا مايعرفه! سنعرضه على الطبيب .. وبعدها هو لك.

نظر إليه الأصلع محركا كتفه بتوتر، ثم خرج من غرفة الحمّام.

وقف قسطنطين ينظر إلى تلك الخيوط التي وضعها طبيب الأعصاب على رأس عزيز بعدما ربطت بجهاز حاسوب صغير، بعد أن حقنه بحقنة صغيرة في رقبته.

إذن ! هل يمكنه الكلام الآن؟ سأل قسطنطين الطبيب صاحب المنزر الأزرق الذي تراجع قليلا هازا رأسه. يمكنك أن تسأله حتى عن ولادته إن أردت، كل خلايا ذاكرته أصبحت الآن مفتوحة.

نظر قسطنطين لعين عزيز التي بدت مرتخية جراء الحقن المتكررة التي حُقن بها على دفعات حتى أصبح جاهزا للحديث.

قل لي من أنت. سأل قسطنطين.

عزيز العوفي.

من أمرك بالتتكر؟

السيد الكبير !

والمقدم؟

المقدم رئيسي في وحدة العمليات.

من هو السيد الكبير هذا؟

رئيس وحدة سمير. ثم أخرج له صورة مكبرة لرجل سبعيني. هل هذا هو رئيس وحدة سمير؟

رفع عزيز حاجبه . نعم، هو . ماهو اسمه . لا أعرف ، نحن نناديه بالسيد.

لحظتها دخل الأصلع، واقترب من عزيز، ثم قرب فمه لأذنه. ستموت قبل أن تتفوه بأشياء أخرى ! قالها ممسكا برقبته بين راحتيه ليصبح وجهه في وجه عزيز، ثم ضغط على خاتمه الذي كان تطل منه إبرة صغيرة احتوت على سم قاتل. بعدها صفعه بظاهر كفه حتى سقط من على الكرسي.

ابتسم الديك لاحاجة لضربه الآن !

في تلك اللحظة بدأت دقات قلب عزيز تتناقص في شاشة جهاز مراقبة نبضات القلب. انتبه الطبيب لغياب موجات النبض بعدما بدأ صوت الجهاز حاداً بعد أن تلاشت الضربات، ملتفتاً نحو الديك. إننا نفقده سيدي.

افعل شيئاً ! نطق الديك. لازلنا بحاجة إليه. اندفع رجلان كانا بعيدين عن عزيز إلى الكرسي في اللحظة التي أخرج فيها الطبيب حقنة أدرنالين وحقنها في ذراعه. بدأ صوت الجهاز الحاد يتقطع مع حركة النبض التي بدأت تستعيد تناسقها في قلب عزيز.

أدار الطبيب رأسه: للأسف لا يمكن استجوابه في هذه الحالة، ولا حتى حقنه مرة أخرى، لكن نبضاته مستقرة.

هز الديك رأسه في اللحظة التي رن فيها هاتفه.

نعم.

عليك أن تأتي جاء الصوت من بعيد.

أقفل الديك هاتفه دون أن يجيب على الصوت، ثم التفت لرجاله سناغادر المكان حالا. ثم أشار للأصلع. صار النادل لك، افعل به ما تشاء.

اقترب الأصلع من عزيز واضغا مسدسه على رأسه، ثم ضغط.

التفت الديك لصوت الرصاصة التي كانت قد اخترقت رأس عزيز بعد ها خطا خطوتين وراء الباب أمراً بعض رجاله برمي الجثة في أطراف العاصمة، ثم راح متجها نحو الباب الخارجي للفيلا.

كان اللقاء الثاني في ظرف أسبوع الذي جمع السيد بعميليه في قاعة مكتبه الكبيرة تحت البناء الواسع الذي تحتله فيلا خداج في الشارع الثالث. نظر المساعد صفر إلى وجه المقدم المهدي الذي تدخل أمام السيد مرددا: المستشار بدا لي غاضبا، قال إن واشنطن لم تقتنع بأن ما فعلناه يدخل في سياسة أمننا القومي.

دعه يغضب ! من حق واشنطن أن تستفسر، ومن حقنا أن نجيبها بالخطاب الذي تريده.. رد السيد.

أكد واشنطن تريد أن تبرئ نفسها أمام رأيها العام قال المساعد صفر وهو يحدق في وجه المقدم الذي بدا شاردا .

في تلك اللحظة أغلق السيد أوراق التقرير مع تلك الصور، ثم جذب من المغلف الذي كان بجانب يده القرص الصغير المتضمن اعترافات العميل الفرنسي رقم ٣٧٥، وقال لمساعد صفر خذ هذا الملف، وسلمه للسيدة نيكول ! عليهم أن يفهموا أن الفرنسيين وراء اغتيال سفيرهم.

أما أنت سيادة المقدم فعليك أن تبحث عن إثباتات أخرى تدين الجنرال، وكل الذين وراءه. عليك أن تلتقي بالعميل المقيم résident الذي ظهر بالعاصمة.

بقي المقدم ينظر نحو السيد الذي أردف لحظتها "شكرا سيادة المقدم، اعتقد أنك و المستشار قمتما بعمل جيد. يمكنك الانصراف الآن !

حرك المقدم رأسه بنفس التحية العسكرية التي دخل بها وراح متجها نحو باب الخروج، لحظتها كان الهاتف الأحمر الموضوع على طاولة مكتب السيد يرن.

كان السيد لايزال غارقا في تفكيره وهو ينظر لسقف غرفته مستعيدا كل ما مر على وحدته، و مافعله بالسيد ساغو متحسسا حركة مساعده صَفَر الذي كان لايزال يقف أمام باب الغرفة ممسكا بالرسالة التي قال له عنها إنها رسالة خاصة للرئيس، يجب أن تُسلم له يدا بيد، على المجلس الجديد أن يصادق على الاستراتيجية الجديدة للدولة.

تلمس جراب مسدسه، ثم رفع معصمه، ناظرا نحو ساعته كان الوقت حينها يتجاوز الثانية صباحا. لم يشعر طيلة اشتغاله مع السيد بهذا الإحساس والتوتر. منتظرا لعل السيد يطفئ أنوار غرفته ليطمئن أنه سيرتاح، ولو قليلا بعد الإجهاد الذي تعرض له طيلة الأسبوع الماضي رغم تَعُوده على ذلك كما كان يفعل دائما. ينام ساعة، ثم ينهض إلى مكتبه، أو يخرج لباحة الحديقة. لكنه بدا هذه المرة على غير عادته صامتا قال المساعد في سرّه مستعيدا وجهه الذي ظل ساهما منذ سماعه بتحريك بعض أعضاء المجلس السريّ مع العملاء الفرنسيين.

كان السيد لايزال ينظر نحو سقف الغرفة دافعا بساقيه نحو نهاية السرير.

تصريح وزير الخارجية في واد، وتصريح القصر في واد آخر قال الجنرال للرجل الكبير الذي أخبره بأنه غير مطمئن لما يفعله حافظ الأختام من ورائه. على الرغم من إبعادنا للخارجية منذ حادثة طابيا إلا أنني حينما شأهدت الوزير يحدث الصحافة العالمية بتلك الطريقة الكريكاتورية قلت إننا دخلنا لعبة غباء لا تنتهي رد الجنرال باستهزاء، ثم حرك وجهه نحو الرجل الكبير الذي بدا غاضبا لأن القصر حمّله مسؤولية التهاون في حراسة الشريط الحدودي.

من أين يستمد هذا المستشار قوته؟ سأل الجنرال، ثم أضاف هل كنا مخطئين، حينما وضعنا أيدينا في يد الكلب !.

هناك من يقرر مكاننا في هذه الدولة علق الرجل الكبير دون أن يجيب على تساءل الجنرال. ثم أضاف له : عليك أن تخرج الجردان من جحورها .

أريد أن لا يرتاح الأمريكان في سرير القصر !

في تلك اللحظة دخل الحارس، واتجه إلى الرجل الكبير، وهمس له في أذنه أن السيد ساغو يطلب مقابلته في أمر عاجل.

هز الرجل الكبير رأسه للحارس. ثم التفت نحو الجنرال

إحرص أولاً على وضع رجالنا، وبعدها نفكر كيف نتعامل مع هؤلاء.

نهض الجنرال من مكانه بعد أن صافح الرجل الكبير. سأتابع بنفسني تنفيذ إجراءات الترقية، وكذا تسريح أتباع القصر.

جيد !

هز الجنرال رأسه ، ثم انسحب خارجا من المكتب. في اللحظة التي تجاوز العتبة التقى بالسيد ساغو الذي نظر إليه محركا رأسه.

تحياتي السيد ساغو.

تحياتي جنرال. قالها ساغو، ثم رمى خطوته نحو باب المكتب.

دخل مرردا حتى قبل أن يجلس. كنت أتمنى أن لا نصل لهذا الحد.

كيف تسمح لهم بأن يضعونا في موقف حرج؟

اجلس أولا يا صديقي.

كل شيء تحت السيطرة. يكفي أننا لم نعلن للعالم تورطكم في طابيا.

زفر السيد ساغو بغضب، ثم انتبه إلى أنه لا يجب أن يُصعّد الموقف مع الرجل الأول في المخابرات.

حسنًا ! قالها السيد ساغو، ثم جلس على الأريكة .

استعداد المقدم مهدي من ذاكرته كل ما فعله في الشهور الأخيرة لأجل إثبات تورط الجنرال بوزازة، و بعض رجال الأعمال في التخابر ضد مصالح الدولة لصالح دول أجنبية. كانت صورة أول لقاء له بعد حادثة طابيا برئيس الديوان راسخة في ذهنه لأنه كان يعتقد أن المجلس السري يمكنه أن يستعمل المعلومات التي وصلته، ويحاسبهم على خياناتهم لكنه تفاجأ بصمته.

استفاق لحظتها على صوت أحد عملاء المراقبة الذي راح يمد له التقرير الجديد عن تحرك الجنرال.

تسلّمه من يده وراح ينظر إلى عملائه الخمسة التابعين للوحدة الخاصة، الذين كانوا يجلسون في صف واحد في حجرة الاتصالات يراقبون في انتباه صفوف الأجهزة الإلكترونية، التي لعب في اقتنائها الرجل الخليجي عدنان أبوحاتم دورا كبيرا مع شركة أمريكية لأجهزة التنصت.

إنهم جاهزون أكثر من أي وقت مضى رأى المقدم المهدي ذلك في نظراتهم المنذهلة، وهو يجوب بناظره الحجرة.

لطالما أذهله هذا المكتب الصغير الذي انتقل إليه منذ حادثة طابيا بعدما جهزه السيد بكل وسائل الاتصال بالعالم المتحضر من خلال الأجهزة الإلكترونية الموصولة واقعيًا إلى عشرات الألياف من مصادر الأخبار الوطنية، والعالمية ابتداء من أكبر التلفزيونات التي بدت تلعب دورا مهما في الإعلام بالمنطقة إلى أصغر جريدة جهوية في البلد.

وقف ينظر إلى الشاشات المعلقة على جدار الحجرة الصغيرة في اللحظة التي أحس فيها بدخول العميل أرزقي. سيدي لقد وصلت إشارة من العميل المقيم. ثم قدم له إحدائيات المكان الذي اتصل به آخر مرة.

رفع المقدم ورقة المعلومات، ثم دسها في جيب سترته، ونادى على ملازمه المخفي.

هيا بنا.. علينا أن نلتقي بالعميل المقيم résident قال المقدم لملازمه المخفي الذي عاد من القرية بغير الوجه الذي ذهب به بعد أن أوصل جثة عزيز لأهلها.

فكر أن عليه أن لا يصب الملح في جرح ملازمه الذي بقي صامتا منذ أن عاد من تلك القرية الصغيرة، رغم أن غيابه أثار انتباه السيد. لهذا اكتفى بأن سألته بعدما ركبا السيارة عن العنصر الثالث في المؤسسة القديمة. أجاب بأنه يعرفه جيدا.

آخر إشارة اتصال رصدت له في مطعم الكوليس أضاف المقدم سنرى ما الذي سنجده هناك !

نعم ، مطعم السيدة زفيرة، أعرفها. أجاب الملازم .

حرك المقدم رأسه بعدما أشعل سيجارة وهو ينظر نحو الشارع الذي اقتربت سيارتهم منه، مشيرا لملازمه كي يتوقف في ناصيته القريب من المطعم، ثم نطق وهو يخرج دخان سيجارته من النافذة. تقصد السيدة التي قطعتم رأس زوجها !

صمت الملازم. بل، قل هو من قطعه! فلتت من طرف لسانه الإجابة متحسسا أن رئيسه ما كان له أن يقول تلك العبارة لو لم يكن مستاء منه.

حينما أكمل المقدم تدخين سيجارته وأطفأ عقبها على مطفأة السيارة. التفت لملازمه الذي بقي لحظتها ينظر بامتداع نحو واجهة المطعم وهو يفكر بحيرة في سخرية رئيسه، ثم فجأة انتبه لرجل خرج من المطعم وراح يترنح وهو يضع ذراعه على خصر فتاة عشرينية.

فكر أن الرجل ليس غريبا عليه في اللحظة التي قاطعه فيها المقدم

ما لم أفهمه مالذي جاء بمراد للعاصمة في هذا الظرف؟!؟

هل يفكر بجلب المتاعب لنفسه؟ استطرد المقدم متسائلا قبل أن يفتح باب السيارة.

هو لا يفكر بالمتاعب فقط، بل هو آلة قتل ! أجاب المخفي بعدما انتبه لرئيسه الذي ترجل لحظتها من السيارة متجها نحو الحارسين اللذين بدوا مثل البودي غارد. نزل الملازم هو الآخر بعدما رأى الرجل المترنح يركب سيارة أجرة مع الفتاة العشرينية وراح يتبع رئيسه. وقف المقدم أمام أحد الحارسين بدا منشغلا بغلق باب المطعم. كان هذان الحارسان يقفان كما لو أنهما تمثالان حجريان وظيفتهما أن لا يسمحا إلا لزبائن معينين، أو أولئك الضباط المعروفين الذين كانوا يدخلون المطاعم الفاخرة، وأنوفهم معلقة نحو جباههم، دافعين في كل مرة ببطاقات هويتهم العسكرية في وجه البودي غارد الذي يهز رأسه خوفا، ولا يستطيع سوى أن يقول لهم تفضلوا، مرحبا !

قال المقدم بعدما حيّاه الحارس الذي أشار لزميله بأن يتوقف عن إغلاق المحل. قل لسيدتك إنني أود رؤيتها. نظر إليه الحارس بريية في الوقت الذي جاءه صوت السيدة من الداخل. مرحبا بالغالي ! التفت الحارس وإذا بالسيدة زفيرة تقف أمام العتبة مشيرة نحو المقدم كي يتفضل داخل المحل. دخل المقدم بعد أن أشار برأسه من بعيد لملازمه المخفي كي ينتظره في السيارة بعد أن توقف أمام الحارسين مدهوشا من ترحيب السيدة برئيسه. أشارت السيدة برأسها للملازم دون أن تطلب منه الدخول بعد أن مشت أمام المقدم في رواق المطعم، ودعته للجلوس إلى طاولة صغيرة كانت قريبة من مرفع البار قبل أن تبتسم في وجهه رافعة معصمها الصغير في حركة من يبحث عن ساعته. مدة طويلة لم تأت لزيارتنا سيادة المقدم ! لا أعتقد أنك جئت لتناول وجبة عشائك في هذا الوقت المتأخر قالتها وهي تضع خصرها على الكرسي المقابل له. مشاغل يازفيرة. في الحقيقة جئت في وقتك ! قالتها قبل أن تصمت بعد

أن رأت خادمتها الوهرانية شهيناز قادمة تحمل صينية صغيرة عليها زجاجة نبيذ، وكأسين من الكريستال طويل العنق.

رفع المقدم ناظره نحو نهدها النافر فشعر بقشعريرة تعبر مسامات جلده لكنه كرز على جسده بعدما جاءت صورته شيراز. كان كلما نظر إلى وجه شهيناز أو إلى تقاسيم جسدها الرخامي، إلا ووجد صعوبة في إقناع نفسه بعدم الشبه بينها، وبين حبيبته التي كان لا يسمع صوتها إلا نادرا عبر الهاتف.

انتبه لصوتها فجأة وهي تقف فوق رأسه مرحبة به ولكنها الوهرانية، قبل أن تشير إليها سيدتها بأن المقدم صائم الليلة عن الشرب.

ابتسم المقدم في وجه الخادمة.

فعلا شهيناز الوقت غير مناسب، ثم هز رأسه معذرا لها قبل أن يلتفت لوجه زفيرة : خير إن شاء الله ! ماذا كنت ستقولين؟

سأل عنك مراد !

يعني أن الميت قد خرج من قبره ! رد بعد أن غادرت شهيناز مستاءة من لامبالاته التي أظهرها لها على غير عادته بعد أن كان يحسبها بارتجاف مشاعرها كلما وقفت أمامه، رغم اصطدامها في العديد من المرات بتقلب مزاجه وببرودة مشاعره، وتهرب به مذهبا. كان يكتفي بالنظر إليها، ثم يجلس صامتا، وأحيانا يقف متعجلا أمام المرفع بجانبها بعد أن يكرع كأسا من البيرة بقلق، ثم يغادرها مرددا: عندي شغل، الوظيفة تمنعني حتى من النفس يا عزيزتي شهيناز. تبسم له، ثم تنتظره أسبوعا آخر لتخدمه بمشاعرها. حينما رآته داخلا للمطعم في هذا الوقت المتأخر فكرت أنها فرصتها كي تجلس معه، وتناول به بيدها مثل حبيب كأسا من النبيذ لعلها تفتح في قلبه طريقا لمشاعرها التي كانت تزداد تعلقا به كل يوم.

لهذا جئت يازفيرة في هذا الوقت المتأخر، لا أعرف ما الذي دهاه ليعود للعاصمة في هذا الظرف؟! !

صمتت زفيرة وهي تنتظر في عيون المقدم الذي استطرده سائلا. وهل ترك رسالة، أو قال شيئا؟

بلى، هناك أمانة تركها لك. أجابت وهي تقف مستأذنة منه، متجهة نحو السلم المؤدي لغرفة مكتبها في الطابق العلوي.

بقي المقدم ينظر إليها وهي تختفي واضعا يده تحت ذقنه، متسائلا عن أولئك الذين أخرجوا عميل السيد إلى السطح.

بعد برهة عادت زفيرة وهي تحمل رسالة سلّمتها له. التقطها من يدها ودسها في جيبه، ثم وقف مستأذنا بعدما دفع بخطواته نحو الباب الخارجي. عند المرفع ودعها شاكرا لها استقبالها.

رافقته عبر الرواق إلى الباب الخارجي في اللحظة التي اقترب منها هامسا لها حينما شعر بغياب شهيناز. بلغى سلامي لشهيناز، قولي لها مرة أخرى سوف أتناول معها العشاء وكأس نبيذ.

ثم خرج إلى ملازمه المخفي الذي وجده لا يزال صامتا أمام الحارسين، يفكر.

فتح المقدم الرسالة، بعدما ركب السيارة وبدأ يتتبع حروفها.

لقد عاد عملاء المؤسسة القديمة للوظيفة. وقد نفذ أحدهم أول عملية بالمدينة. اسم الضحية هو ناصر ولد الغربي. عامل بمزرعة أولاد الصافي.

لابد أن هذا العميل قد كشفني. لهذا جئت العاصمة بحثا عنه.

طوى المقدم الرسالة بهدوء، ثم أخرج صورة صغيرة كانت مرفقة مع الرسالة ومدها لملازمه .

أتعرف هذا الرجل؟

مسك الملازم بالصورة وقربها من ناظره، ثم أعادها للمقدم: بلى ! هذا السكين، أحد عملاء المؤسسة القديمة.

ثم أضاف محركا رأسه. لقد كان أمامك منذ لحظات فقط !

اندهش المقدم. أين ؟

ذاك الرجل المترنح الذي خرج مع تلك الفتاة من المطعم حينما كنت تترجل من السيارة. قالها الملازم ، ثم أضاف. لكني أعرف مذبأ الحلوف.

ابتسم المقدم .

جيد. اذن هي بنا لاصطياده !

جلس الرجل الكبير يفكر بعد أن قضى أكثر من ساعة في الحديث عن المشاكل التي تعترض التقارب الجزائري الفرنسي، ثم راح ينظر في وجه السيد ساغو الذي جلس طيلة تلك الساعة بامتعاض بعد أن أظهر له الرجل الكبير وجهها آخر لم يكن ينتظره. لكن ساغو بذكائه وخبثه حول استياء الرجل إلى حيرة وتركه يفكر حينما أخرج له صورة معلمه الأول في المخابرات. ثم قال له إن كنت تسأل عن السبب فيها هو. فرد الصورة أمامه.

التقطها الرجل الكبير وهو غير مصدق ثم غرق في تفكير عميق كيف أنه لم ينتبه أن السيد الذي تدرب على يده في طنجة، وأسس معه أول نواة لسلح الإشارة لايزال حيًا، ويمسك بمفاصل الدولة. حينما أخبره الجنرال بوزازة أن المبالغ لم ينته، وأن رفاق الأمس الذين توقفوا مع أزمة ال ٦٢ لايزالون يعملون في الخفاء بعدما أخفوا الأرشيف المهم في أماكن لا يعرفها غيرهم. لم يصدق ذلك وهو الذي حكم جهاز المخابرات مدة ثلاثين سنة بيد من حديد. لم يفكر يوما أن تكون في الدولة التي يديرها جماعات خفية غير التي تحركها أصابعه منذ أن رأى انسحاب رفاقه، وتسريحهم واحدا، واحدا منذ بداية 62.

منذ عملية طابيا، وأنا أفكر أن تلك الخطة وراءها مصدر خفي. هل يمكن أن يكون إخوة الثورة قد عادوا؟ تساءل في سره قبل أن يأتيه سؤال السيد ساغو كما لو أنه طلقة رصاص. من يدير هذا البلد أنت أم آخرون؟

صمت الرجل الكبير، ثم نظر في وجهه بغضب قبل أن يتراجع السيد ساغو ناظرا نحو صورة الرجل .

أظنك تعرف هذا العجوز؟

ألم تقولوا أن هذا الرجل مات مع بداية الثمانينات. و أنكم غيرتم كل عناصر الجهاز. ثم أضاف له: هذا هو الرجل الذي أفسد علينا خطتنا في طابيا.

حرك الرجل الكبير رأسه. لايمكننا أن نطلعكم على كل شيء مسيو ساغو !

حملك السيد ساغو مقوسا عينه اليمنى. كنت أعتقد أننا أصدقاء، وأنكم لاتخفون عنا عدوا مشتركا.

لم يعلق الرجل الكبير على كلامه بعدما أحسه يتلون مثل المجنون وهو يردد: دعمتك طيلة ثلاثين سنة، لهذا لا تتركني أندم !

ثم أضاف بعد أن تحرك من مكانه وراح يدرع في بلاط القاعة الفسيحة ملتفتاً : عليكم أن تثبتوا أنكم أصحاب هذه الدولة، إذا أردتم لصداقتنا أن تستمر !

عليكم أنتم أيضا أن تتخلوا عن دعمكم للقصر ! أجاب الرجل الكبير.

رفع ساغو رأسه. حسنا، سأعتبر أننا اتفقنا ! ثم أضاف مستطردا:.

أنت تعرف أن مشكلة رعبتنا لازالت عالقة، و مافعلته مخابراتكم لايزال يخرجني أمام أصدقائي. لهذا أريد استرجاع وثائقه بأي ثمن .

يمكنك أن تطمئن. لقد أخبرني عنها الجنرال، وسنعيدها لكم.

إذا أعدت لي وثائقه فستكون كل قوتي، وقوة أصدقائي إلى جانبك.

حرك الرجل الكبير وجهه ويديه وهو يردد مصافحا السيد ساغو. مرسى مسيو ساغو.

خرج السيد ساغو وبقي الرجل الكبير يفكر في الطريقة التي حدثت بها مدير الأمن الفرنسي، وبالصورة التي تركها على طاولة مكتبه، مستعيدا ما قاله الجنرال يوم قدم له تقريراً كاملاً عن اجتماع المجلس السري و فاجأه بوجود وحدة سرية تسمى سمير لها عناصر في كل المدن.

ثم أضاف له أن رجل من رجال المؤسسة القديمة الذي طلب منه الاختفاء قد تبين اشتغاله مع هذه الوحدة. وأن كل التقارير التي كانت تصل إلى المجلس عن رجالنا كانت ترسلها هذه الوحدة.

إن لم نفعل شيئاً، فلن يبقى لنا وجودُ قال الجنرال.

لن أسمح بذلك! صرخ الرجل الكبير.

بقي الجنرال صامتا، ثم نطق في سرّه: ألم تقل إنك صاحب الدولة؟!

التفت الرجل الكبير بعدما تفتن لصوت مساعده السياف الذي دخل لحظتها متعجلا بعدما ألقى التحية العسكرية وبقي واقفا.

ماذا عندك؟ سأل الرجل الكبير.

بدأت عناصر وحدة سمير تطارد في رجلنا.

قال المقدم لملازمه بعدما دخلت سيارتهم الطريق السيار بعد مرورها بشاطئ زر الددة.

علينا أن نوقف رجل المؤسسة القديمة، لنعرف من الذي وراءه ؟!

هناك مكان كنا نلتقي فيه قبل بداية المحنة، هو أحسن مكان يمكنه أن يختبئ فيه. رد الملازم في اللحظة التي أشار فيها للمقدم كي يعبر من خارج مدينة سطاولي في اتجاه سيدي فرج.

هل يمكن أن يكون هذا العميل منتميا لوحدة القصر؟. سأل المقدم

لا أعتقد !

رجال المؤسسة القديمة بعد حل المؤسسة تحول الكثير منهم إلى مرتزقة خاصة أولئك الذين شطبت الدولة أسماءهم. هناك من غير له اسمه واخرجوه للخارج، ولعب دور الضحية. وهناك من بقي يشتغل في الخفاء.

في تلك اللحظة أشار الملازم للمقدم كي يوقف السيارة قرب مدخل غابة باينام في الجهة المحاذية لمنتجع إقامة الرئيس.

هز الملازم رأسه. سنترجل، وندخل الغابة. هناك كوخ في عمق الغابة كنا نتخذة مكانا سرياً للقاءاتنا. كان في الماضي كوخا لحارس الغابة. المكان بقي مجهولا رغم الحراسة الشديدة التي تحيط به إلا أنه لا يخطر على بال أحد.

نزلا منحدرًا، ثم دخلا عبر محج صغير في اتجاه أشجار الصنوبر البحري التي كانت تقف سامقة في تداخل كثيف مع أعشاب السرو و الشوك. كان يبدو على المكان أنه خال من أي أثر لوجود بشر بسبب

إشارات التحريم التي وضعت في الطريق العام على بعد أكثر من عشر كيلومترات من الغاية خاصة أنه لا يبعد عن قصر جنان الميثاق سوى خمس عشرة دقيقة مشياً على الأقدام عبر الطريق المعبد الذي يعبر على باب معهد باستور المعروف.

بدا على الملازم المخفي أنه يدرك جيداً مساره وهو يخطو بخطوات واثقة بين تلك الأعشاب، والأشجار اليابسة التي جرفتها السيول في المنحدر. في اللحظة التي رفع فيها المقدم يده بعدما تركه الملازم وراءه.

أتسمع ! نطق الملازم.

أرعى المقدم أذنه. لا أسمع شيئاً.

كانت أصوات زقزقة العصفير تملأ الأجواء. في اللحظة التي نطق فيها الملازم مرة أخرى.

استمع جيداً ، أحدهم قادم. أضاف الملازم قبل أن يطلب من المقدم الإسراع في الاختباء.

اختبأ المقدم بجانب الملازم الذي انبطح وراء أكمة، وبدأ يتحسس ان خطوات بدت تقترب أصواتها منهما. كانت دورية صغيرة لحراس القصر تجوب المنطقة من حين لآخر.

سنعود. جاء صوت قائدهم

الطريق نظيفة. نطق جندي الاستطلاع.

توقف الفوج الصغير أمام الأكمة التي اختبأ فيها المقدم وملازمه. أخرج قائدهم منظاراً صغيراً، وبدأ يراقب كما لو أنه اشتتم رائحة بشر في الأجواء. ركز منظاره جهة المرتفع المؤدي لطريق العام. وحينما لم ير شيئاً رفع يده مشيراً لأتباعه بالاتجاه نحو طريق آخر. (خلف دور).

بهذه اللازمة العسكرية عاد رتل عساكر الحراسة من نفس المحج الصغير الذي جاءوا منه، ثم اختفوا بعدما غيبتهم محج آخر.

بدأ المقدم ينظر نحو المخفي. أليسوا هؤلاء من حراس القصر ؟

نعم حضرات، هذه فرقة مناوبة من الحرس الجمهوري. توجد مفترزتهم على مكان قريب من هنا، وهي مكلفة بحراسة فيلا إقامة الرئيس.

كانت هذه الدورية رابع دورية تمر من نفس الطريق. تقوم بتمشيط هذه الجهة، رغم أن المنطقة محرمة، ولا يدخلها أي مدني .

ابتسم المقدم: طوال الوقت الذي قضيته في العاصمة، لم انتبه أن في هذه الغاية كل هذا الحذر. ثم وقف بعدما أشار له الملازم بأن عليهما أن ينزلا منحدرًا آخر ليبتعدا عن طريق الدورية. نزل الملازم، ثم تبعه المقدم بصعوبة. كانا كلما توغلا في الغابة بدأ يصعب عليهما المرور نظرا للأحراش الصعبة التي لا يمكن العبور منها بسهولة، لكن الملازم كان يعرف جيدا طريقه لهذا سبق المقدم بخطوات كثيرة وبقي يلتفت نحوه من حين لآخر إلى أن توقف في النهاية أمام صخرة كبيرة. نزل الملازم مقرصا، وأخرج منظاره الصغير.

انبطح المقدم بجانبه وهو يلهث في الوقت الذي قال له الملازم. انظر حضرات. هاهو الكوخ الذي حدثتكم عنه، لا يبعد أكثر من ٢٠٠ م.

أخذ المقدم المنظار من يد ملازمه وراح يراقب المكان، هازا رأسه . يبدو، هذا الكوخ مهجورا !

نعم سيدي وهذا هو سرّه. في الحقيقة يمكن أن تقول عنه أنه قاعدة صغير لانطلاق العمليات. كان يستعمله عملاء المؤسسة القديمة. كنا نتخذة قاعدة خلفية. لا أحد يشك أنه يوجد مكان مثل هذا في قلب إقامة الرئيس التي تتخذ أكثر من ٢٠٠ هكتار كمساحة محرمة، ومسيجة. لا أحد سيفكر بوجود قاعدة اتصالات هنا.

في تلك اللحظة انتبه المقدم لأحدهم خرج حاملا قميصا وراح يعلقه على سلك نشر الغسيل.

انتبه ! خرج أحدهم من الكوخ قال المقدم، ثم أضاف. هل هذا هو الرجل؟
أخذ الملازم المنظار. لا، ليس هو. ربما أحد رجاله.

إذن علينا أن نلتف من الجهة الأخرى، حتى نتبين بوضوح نافذة الكوخ.

في تلك اللحظة قفز المقدم وراء ملازمه الذي اتجه نحو صخرة ملساء مسدنة كبيرة، كانت بجانبهم حيث بدت كما لو أنها تنزل من مرتفع. التف الملازم حولها، ثم رفع منظاره. بدا له شخصان يجلسان على طاولة، أحدهم صدره عار، والآخر يرتدي تريكو لحم(تبو) تقف فوق رأسه فتاة عشرينية تدخن سيجارة. يلعبان لعبة الورق.

أنظر، هذه هي الفتاة التي رأيتهما تخرج من مطعم زفيرة مع صاحب (تريكو اللحم) الذي يسعمل نظارات شمسة.

أخذ المقدم المنظار. إذن ذاك هو العميل السكين !

نعم سيدي .

حوّل المقدم المنظار نحو الرجل الثالث الذي دخل الكوخ حاملا زجاج نبيذ بيده ، ثم جلس وبدأ يحرك في زجاجة النبيذ أمام الفتاة.

هناك ثلاثة أشخاص في الكوخ. و الفتاة ! قال المقدم. ثم أنزل المنظار وسلمه للملازم.

إذن سنباغتهم . قال المقدم ، ثم حرك سبابته والوسطى وإبهامه إشارة لذهابه هو من الباب ، ولملازمه كي يلتف من الجهة الخلفية للكوخ .

علينا أن نمسك الخنزير حيّا !

هز الملازم رأسه، وعاد أدراجه ملتفا حول الصخرة.

سأناك منك يازبي هذه المرة. نطق الرجل

ضحك السكين. نيك أمك ستدفع لي بالأورو يا واحد العطاي، خذ. لاز دوبيك. أخرج الورقة صارخا.

جلست الفتاة على الأريكة في اللحظة التي اقترب منها الرجل الثالث الذي كان يحمل قارورة روج بيده، مرددا

غُلبت الروم في أدنى الأرض ياالبسكري. سهرة سيدي فرج خالصة من عندك. السكين راه معمد عليك هذه المرة.

صبت الفتاة كأسا من النبيذ، و وقفت به، متجهة نحو السكين بعدما أحاطته بذراعها. خذ حبيبي.

نطق صاحب النظارات الشمسية بعد أن كرع من كأس الفتاة دون أن يمسح شواربه التي تقاطرت منها حبات النبيذ.

ايه يازبي، وكان شفتوا شحال، رافدة معاها ديك الوهرانية، كنتم بطلتم قحاب سيدي فرج!

(ياكوأنا معجبتكش ياواحد العطاي.)

ضحك عاري الصدر الذي كان يلعب معه الورق. قهقههقهقهقه ما ديريش عليه فريدة. ثم أضاف ياك قلت لك ديني معاك لألجي alger.

وين نديك؟ نكملوا العملية، وبعدها نيكو كل ألجي ! قالها وهو يلم في الأوراق، مديرا رأسه بخطف نحو الفتاة التي تورم وجهها و عادت للجلوس على الأريكة وهي تسبّ.

رمى الأوراق أمام عاري الصدر محاولاً أن يقف، فخطفه صوت انفلاق الباب الخشبي للكوخ، بفعل ضربة المقدم، الذي تقدم لحظتها مطلقاً الرصاص نحو صاحب زجاجة الروج الذي كان يتلمس ساق الفتاة .

انقلب السكين على ظهره، مخرجاً مسدسه من تحت الطاولة، وبدأ يطلق النار اتجاه المقدم. صارخاً مدهامة.

بقيت الفتاة تصرخ بعدما انقلبت وراء الأريكة في اللحظة التي صوب فيها الملازم من النافذة رصاصه نحو عاري الصدر الذي تهاوى لحظتها نحو الأرض.

بقي المقدم يطلق الرصاص وهو محتّم جهة الباب. نطق المخفي صارخاً ارفع يديك أيها الكلب، واضعاً رأس مسدسه في رأس السكين الذي لم ينتبه لجهة النافذة حيث قفز الملازم فجأة بعدما ارتمت الفتاة مدعورة تحت الأريكة وهي تصرخ.

بقي الرجل الثاني يتوجع ويئن بعد أن أصابه المقدم في كتفه وهو يردد فوق رأسه. وقعتم أيها الأنجاس. ثم التفت نحو السكين الذي كان يحاول الوقوف بعدما رمى مسدسه على الأرض. حاول الرجل الذي توقف عن الأنين أن يضغط على زناد مسدسه في ظهر المقدم. لكن المخفي كان سريعاً فوجه طلقة في وجه الرجل الذي انهار بعدما تفجر الدم من رأسه على وجه الفتاة التي كانت لا تزال تصرخ وهي منكبة على وجهه تحت الأريكة.

هز المقدم رأسه شاكراً ملازمه، ناظراً نحو جثة الرجل.

في تلك اللحظة قيد الملازم يدي السكين بعدما دفعه بركلة أمامه.

ما زلت نجسا أيها اللعين !

ثم أمسك الفتاة من ذراعها. نظر إليها.

اعطني أوراق هويتك.

ما الذي جعلك ترافقين هؤلاء !

بدت الفتاة مذعورة .

لم تقفل حتى اللاج. مينور سيدي أضاف الملازم.

أدار السكين رأسه نحو الملازم. ألم تشارك معي في تلك النجاسة أيها المجنون.

أسرط لسانك النجس، وتقدم أيها المجرم. صرخ المقدم وهو يضرب السكين بعقب مسدسه على رأسه حتى تهاوى مغمي عليه.

ثم أشار لملازمه بأن يتصل برجال المخابرات كي ينظفوا المكان ويأخذوا الفتاة التي بقيت لحظتها مدعورة .

بصق الملازم في وجه السكين الذي كان يحاول فتح عينيه.

أحتاجه. سأسلّمه لك بعد التحقيق سيادة الملازم.

رفعه الملازم من الأرض، ودفعه أمامه خارج الكوخ.

بقي الرجل الكبير ينصت لمساعدة السياف الذي كان لايزال يتحدث عن تحرك وحدة سمير التي بدأت تجمع في تقاريرها لأجل إدانة قيادات المؤسسة القديمة. ثم توقف بعدما قاطعه الرجل الكبير.

دعهم يخرجون للسطح، فلن تتفعهم تلك التقارير !

ثم ، سأله عن مهمة الوثائق.

لقد وعد ولد الصافي أن يحضرها نهاية هذا الأسبوع .

ثم واصل السياف الحديث عن الإجراءات التي اتخذت لأجل فك الحصار عن جماعات الحدود التي بدأت تطالها مضايقات النائب العام، وحينما ذكر جماعة وهران نظر إليه الرجل الكبير قبل أن يتوقف في عبارته الأخيرة.

هل انتهت مشكلة جماعة وهران ؟

نعم سيدي . أوقف السيد علاوي حربه الاعلامية .

وماذا عن السيد هواري هل نفذ ما طُلب منه؟

نعم سيدي. أقنع شريكه بالدخول للجزائر.

جيد. قالها الرجل الكبير، ثم راح ينقر بأصابعه على سطح طاولة المكتب، مستعيدا صورة رجله اللذين دفعهما للتنافس إلى حد الاقتتال لأجل السيطرة على برونية الحدود التي كانت دائما من نصيب خليل ولد الصافي قبل أن يدخل السيد هواري في الخط.

قال الجنرال يوم سأله الرجل الكبير عن رأيه في خليل ولد الصافي: ألم أقل لكم ولد الصافي لم يعد يصلح للوظيفة! أضعفته ابنته، وزوجته الراحلة. أفضل سي هوارى عليه لأنه رجل قوي، و وافي.

ما قدمه السيد خليل من خدمات للمجلس يجعل من حقه أن يأخذ فرصة أخرى قبل أن نقرر الاستغناء عنه خاصة أنه أفضل رجل يمكنه أن يجلب لنا وثائق الرعية الفرنسي.

أجاب الرجل الكبير الجنرال بعدما استعاد الصراع الشرس بين الرجلين.

ما قاله السكين عن المدينة لا يطمئنني ! أجاب الجنرال .

تدخل السياف. ولد صافي رجل غير مؤتمن، ولا أعتقد أنه لايزال كما عرفناه سابقا ! لكننا مجبرين على الاستعانة به.

نظر الرجل الكبير نحو الجنرال.

وماذا قال رجلك عن ولد صافي؟

قال إن ولد صافي منشغل بنفسه، وقد ترك كل الأعمال لأخيه سعيد. لهذا لم نشاركه في عملية عامل المزرعة.

كما ذكر أيضا شيئا عن رجلنا القديم الذي كان مختفيا !

هز الرجل الكبير رأسه تقصد مراد ! نطق اسمه، ثم صمت.

نعم مراد دوركال الذي طلبتم منه الاختفاء .

لقد أرسل إلينا رسالة بأنه في العاصمة، ويطلب لقاءنا.

نعم هو! قال رجلنا إنه يتصل مع الرجل الخليجي.

هل يمكن أن نثق به سيدي. أضاف السياف .

لا تشغل بالك به، في كل الحالات مراد ابن الدولة ولا يمكنه أن يفعل شيئاً يضر بمصالحها !

استفاق الرجل الكبير في اللحظة التي انتبه لمساعدته الذي ردد على مسمعه مرة أخرى.

لقد أرسل هوارى رسالة يقول إن شريكه سيحضر قريباً.

جيد ، أكمل تقريرك، إذن !

حاضر سيدي. قالها السياف ثم خرج.

بقي الرجل الكبير يمسك بتلك الصورة التي تركها له السيد ساغو وراح يفكر كيف يمكنه أن يصل لصاحبها ولعناصر وحدته التي قال له عنها الجنرال أنها مزروعة في مفاصل الدولة.

ثم اقترح عليه أن يرمي بطعم في الساحة ليجعل عناصر هذه الوحدة يظهرون للسطح.

جيد. قال الرجل الكبير، ثم أضاف. وماذا عن السيد علاوي سيادة الجنرال؟

لقد أنهى اتفاه من الرجل الفرنسي، وفعل كل ماطلبناه منه.

و هل أوقفَ حربه حقاً، أم زاد في تزهير نارها ؟ نطق الرجل الكبير بسخرية.

لقد طلبت منه أن يوقفها لأن الرجل صار تحت رحمة المؤسسة، وقد دفع ثمن رأسه.

مايهمني الآن هو دخول السيد مصطفى منصور للبلاد أجاب الرجل الكبير. تدخل السياف. إذا كان السيد مصطفى هو ورقتنا للضغط على القصر فلا بد أننا سنجد أثرا لوحدة سمير من خلاله .

صمت الرجل الكبير الذي بدأ يفكر كيف أن يقوم بقص كل الأجنحة التي يستعملها القصر بداية من المستثمرين الاقتصاديين الذين بدؤوا يقدمون دعمهم للرئيس في توجهاته الجديدة مع الأمريكان.

سيدفع مصطفى منصور ثمن انحيازه للقصر ردد الرجل الكبير أمام الجنرال.

السيد علاوي يعرف كيف سيتصرف مادام قد اتفق مع الفرنسيين، فلن ينجو أي مستثمر أثبت ولاءه للقصر قال الجنرال بعدما حمل فنان قهوته وارتشف رشفة منه مستعيدا وجه وزير الطاقة الذي اختفى عن الأنظار بعدما أخرج له النائب العام ورقة بحث.

أريده أن لا يجد مكانا ليختبئ فيه ! قال الرجل الكبير. ثم أضاف السيد علاوي لا يستطيع وحده أن يجابه رد فعل الأمريكيين الذين باعهم.

انتبه الجنرال لحيرة الرجل الكبير.

سألت السيدة نيكول في آخر لقاء بها عن صمتها تجاه ما يحدث، لكنها لم تقل شيئا. اكتفت بالصمت، ثم قالت من الأفضل لكم أن تكونوا في صفنا.

ضحك الرجل الكبير: هل تريدنا هذه العاهرة أن نقبل يد شرطيتها البدوي؟

القصر نفسه يرفض ذلك، لأنه يعرف أن أمريكا هي من تتحكم في حالة صعود البترول هاته، وستخفضه إلى أدنى مستوياته حتى تستطيع محاصرة الدول التي لم تدخل الصف.

لهذا قلت لسيد علاوي أن لا يتوقف عن تحريك الشارع في الجنوب حتى نمنع توقيع تلك العقود مع الجانب الأمريكي. قال الجنرال

فكر الرجل الكبير أن أمر الوقوف أمام الأمريكيين لن يكون سهلا دون كسب الفرنسيين. لكنه تذكر أن الأمر سيكون شبه مستحيل مادامت لم تصله وثائق الرعية الفرنسي الذي قال له السيد ساغو ، لا يمكن للأخوية أن تصمت في حالة وقوع تلك الوثائق في أيدي عجز المالغ. لهذا ستكون صداقتهم مشروطة بتمكينهم من وثائقهم السرية .

وقف الجنرال : أمامنا طريق طويل إذن !

نعم سيادة الجنرال . سنرى ما سيفعله خليل بالمهمة التي كلف بها، وبعدها يمكنك أن تطلق عملاءك على وحدة عجز المالغ .

حسنا. سنبقى على اتصال. قال الجنرال بعدما دفع بخطواته اتجاه الباب المكتب حيث وجد حارسين بلباس عسكري قدما له التحيا و رافقاه إلى غاية بوابة المصعد. فتح أحدهم له باب المصعد الذي كان يوصل إلى السطح.

في تلك اللحظة حمل الرجل الكبير سماعة الهاتف واتصل بمساعده. أريدك أن تدخل صديقنا الشيخ للجزائر.

قال خليل لأخيه سعيد بغضب وهو ينظر نحو النافذة: مادمت قد (صفيت) الرجل دون إذن مني، واستعنت بعمل مخابراتي من العاصمة فلا أعتقد أننا بحاجة لحرب مع الوهراني !

كنت مضطرا يا أخي. منذ أن رحلت المرحومة أم شيراز، وأنت منشغل الذهن، كل أعمالنا تعطلت.

تنهد خليل، كنت مضطرا إذن! قالها مرتين وهو يعض على شفته السفلى بعد أن جلس على الأريكة بتوتر. ثم أشار بيده: سأعفو عنك هذه المرة، وإن أعدتها مرة أخرى، سأفصل رأسك عن عنقك!

نعم أخي !. قالها منكسا رأسه.

في محاسبة رجالي لا أريد لأحد أن يتدخل. الآن يمكنك أن تذهب، وتأتيني بالوثائق.

تلمس سعيد رأسه قبل أن يغادر الفيلا. نعم أخي سأفعل!

حينما وصل للعتبة تذكر شيئا فعاد أدراجه لصالة الفيلا.

اسمحي لي أخي نسيت إخبارك عن رجل الحزب القادم من العاصمة. قال لي سي بورقة أنه يريد تنصيب المحافظ الجديد.

حرك خليل يده. افعل ما تريده، فلست مهتما لا بالحزب، ولا بتلك القسمة اللعينة.

خرج سعيد، وترك أخاه خليل يفكر في الحرب التي استنزفته لعدة سنوات دون أن يتمكن من إزاحة غريمه بعدما صار السيف، والجنرال يدعمانه. قال له الرجل الكبير إما أن تأخذ منه الشارع،

وتضعفه، وإما أن تترك العمل لغيرك. كانت هذه إشارة الحرب التي تلقاها خليل من لسان الرجل الكبير منذ أكثر من عام مضى لكنه لم يعرف لم طُلب منه أن يتوقف في الوقت الذي اقترب فيه من هزيمة غريمه؟.. وأن يهتم بمشكلة وثائق الرعية الفرنسي، لأن إحضارها هو من سيجعله يكسب ثقة المؤسسة.

كان لابد له أن يعرف أين ستأخذه هذه الطريق التي أحس أنها ستأتي على نهايته خاصة حينما قال له السيف صراحة إنك شخت على المهمات الصعبة ياسي خليل منذ أن رحلت زوجتك.

نظر إليه يومها متدسسا مرارة السخرية في كلامه لكنه فهم الرسالة من وراء ذلك الكلام لهذا أول ما فكر فيه هو أن يؤمن على نفسه، وعائلته من هؤلاء، لهذا أرسل لرجله في العاصمة.

في تلك اللحظة دخل سائقه لخضر.

لقد وصل سليم من العاصمة وهو ينتظر الآن دخوله.

هز خليل رأسه، أدخله إلى غرفة الضيوف.

وقف ولد الغربي على شاهد قبر ابن عمّه ناصر الذي كتبت عنه الجرائد أنه مات منتحرا في فندق النجمة بعدما وجدوا في غرفته كميات كبيرة من المخدرات.

قال في داخله، لقد وعدتك يابن عمي، سأوصل من قتلك إلى حبل المشنقة.

ثم راح متجها نحو باب المقبرة حيث كان ينتظره رفيقه الماركسي الذي بقي واقفا بعد أن غادر القلة من الشباب مع العجوز المقبرة بعد أن شيعوا ابن عمّه إلى قبره، وصلى عليه بلخوش.

هذه هي الدنيا يا رفيقي جمال. نطق الماركسي مكسرا الرتابة الجنائرية التي أحسها في ملامح صديقه ولد الغربي الذي كان يمشي متثاقلا بعد أن عبروا حي سيدي بوجمعة متجهين نحو طريق الحديقة الكبيرة .

كان يكتفي بتحريك رأسه في كل مرة طوال الطريق تاركا رفيقه الماركسي يتحدث، كما عادته عن توحش البرجوازيين الذين امتصوا دم الشعب، وأن البؤساء حينما يموتون لا يمشي في جنازتهم أحد.

إنهم يغتالون أبناء هذا الشعب دون أن يحاسبهم أحد. قالها الماركسي.

بقي ولد الغربي منكسا رأسه، وفي داخله تزامحت أكوام الكلمات التي تكتلت مثل ذخيرة حية، أراد أن يطلقها في وجه الماركسي. لا يمكنك أن تصبرني بتلك الكلمات الجوفاء. فأنا أعرف من قتل ابن عمي. لكنه تراجع قبل أن يشير له بأن يجلسا على المقعد الحجري.

أعرف أنك لا تقبلُ عزاء أحد. لكن يا جمال بهكذا طريق فأنت تفقد قوتك، وتركيزك فيما ينتظرك .

في تلك اللحظة جاء أحد الشباب لاهثا ليخبرهم أن جماعة من الشباب تجمعوا أمام القسمة بعد أن قالوا لهم إن رجلا مهمًا من العاصمة جاء لينصب محافظًا جديدًا.

أدار ولد الغربي وجهه جهة المقهى كما لو أنه لم يرد أن يسمع أي شيء عن السياسة في الوقت الذي صرف الماركسي الشاب الذي أحس أنه فتح جرحا آخر في صدر صديقه ولد الغربي بعدما فلتت من طرف لسانه عبارة القسمة التي صار ولد الغربي يكره حتى سماع اسمها بعدما جرّ بورقعة البساط من تحته وطرده من الحزب في انتخابات عام العسكر . يومها دفع ولد الغربي استقالته من الحزب، وراح يؤسس جبهة معارضة مع رفيقه الماركسي، محاولا الترشح في كل مرة في قوائم حرة. كان يعرف أنه يحارب طواحين الهواء ، وأن هؤلاء الذين يناصبونه العداء لمجرد أنه إنسان صريح، يرفض أن يلوث يده بالرشوة وبتهب أموال الشعب، أنهم لا يساوون شيئاً دون قوة الإدارة، والعسكر التي تدعمهم. لهذا كان يجد نفسه عاجزا عن جمع توقيعات الترشح، بسبب المنطق المثالي الذي كان يفكر به مع الماركسي الذي ردد عليه حينما التقيا في حانة مكثر قبل أن تغلق أبوابها بسبب تحالف بقايا جماعة أي نصر الذين تابوا بعد أن وضعوا أسلحتهم التي كانوا يوجهونها للشعب مع السلطة، وعادوا من الجبال كما لو أنهم لم يطلقوا رصاصة واحدة، ولم يمرروا سكيناً واحد على رقبة بريء.

قال له الماركسي هل كنا مخطئين يوم آمنّا بالحشود التي دمرتنا في النهاية؟

بكي يومها ولد الغربي مثل طفل، وهو يكرع من زجاج الزجاج، ثم قال له. لم أكن أصدق أنهم سيبيعونني، ويرفضون حتى توقيع ترشحي.

لأننا آمنّا بأننا في بلد القانون، ورحنا نملاً استثمارات الترشح بالطرق القانونية التي لم يكن يتبعها أحد. الناس هنا لا تهتم بالسياسة. أضاف الماركسي.

العسكر هم من دمروا البلد. نطق ولد الغربي، وهو يدفع (بقرعة) الروح أمام الماركسي.

قال آخر: الناس تهتم بأصحاب الذياشين، ولمن يدفع أكثر.. يا ولد الغربي.

لحظتها همس الماركسي مقربا فمه من أذن الرجل، ليسوا كلهم يا رفيقي.

ثم التفت لرفيقه ولد الغربي مربتا على كتفه : أتذكر يا جمال يوم ساندتني في الترشح ضد بلفوفة في قيادة منظمة الشبيبة في زمن الحزب الواحد. حينما قال لنا المحافظ علينا أن نحتكم لقوانين الحزب، وليس لقانون المنظمة.

أتذكر يومها كيف أني سببته، وعريت عليه مثل مجنون، وعلى بلفوفة، ولعنت الجميع حتى جاءتني الشرطة. يومها منعهم عني قائد الناحية العسكرية. أتعرف ماذا قال لي بعدما وقفوا كلهم ضدي، وأرادوا توريطي بتهمة القذف العلني ومعارضة النظام .

نظر إلي الرجل العسكري، وهمس في أذني. لازلت أذكر كلماته.

إذا أردت أن تقضي على عدو يتفوق عليك في كل شيء عليك أن لا تواجهه وجها لوجه. التف حوله دون أن يشعر، وفي الوقت المناسبة ستجد نفسك أحطت برقبته حينها أجهز عليه بالطريقة التي تريدها.

الوقوف ضد التيار، ليس سوى انتحار يابني !

بقي ولد الغربي ينظر بعجز نحو الماركسي. كان يعرف بعد كل التجارب المريرة التي مر بها، أن الناس في مدينته صاروا يجرون وراء المال، والسلطة حتى صاروا عبيدا لولد الصافي وجماعته، الذين رشوا كل من يقف أمام طموحاتهم، أو اغتالوه، كما فعلوا مع ابن عمه،

الذي رفض أن يمرر لهم شحنة الهيروين، والأسلحة من المدينة إلى العاصمة، بعدما اكتشف بالصدفة أن الصناديق التي كان ينقلها من الحدود للعاصمة، لم تكن صناديق بطاطا كما كان يردد عليه رئيسه في المزرعة، بل صناديق ممتلئة بقطع المخدرات و ببذرة الهيرون التي كان يصنعها البروف السوري الذي جلبه سعيد ولد الصافي، وقطع السلاح التي كان يخزنها في مستودعات مزرعته، ويرسلها تباعا إلى جهات مختلفة من الوطن.

لم تكن الناس لتهتم بمثالية ولد الغربي، أو بغيره، والغالب أن أولئك الذين كانت مهنتهم جمع التوقيعات الكثيرة بطرقهم الملتوية بعد أن يقوموا بوضع أسماء وهمية بأرقام، وبطاقات وهمية أيضا، كانوا لا يترددون في دفع الشكارة تحت الطاولة، لتوقع لهم آلاف أوراق الترشيحات، ويُقبلون في النهاية في القوائم الحرة، أو في قوائم الأحزاب المجهرية التي تناسلت مثل الفطر. بلفوفة فعلها بعدما طرده بورقعة من الحزب، ونجح في الانتخابات البرلمانية التي أراد العسكر فيها أن يقطعوا الطريق أمام الإسلاميين، ويعاقبوا الحزب العتيد بعد أن ذهب زعيمه في معارضته إلى أقصى حد بعدما فضل الذهاب مع الاسلاميين لسانت جيديو.

أدرك يومها ولد الصافي اللعبة ودفع استقالته من الحزب العتيد.

قال لهم بلفوفة وهو يجوب شوارع المدينة فوق شاحنة مرددا بمكبر الصوت إن (لمحرقة ٤) هم من جاءوا بي. تحيا لمحركة، وتحيا الشيبية.

نظر إليه العجوز بنصف عين، ثم قال له: لمحركة فكروا أنك ستتقدم.

ضحك بلفوفة بعدما توقفت شاحنته أمام المقهى، أيها العجوز عليك أن تؤمن بإرادة الشباب، ثم رفع إبهامه وسبابته وقاربهما كما لو أنه يسبح باسم الدولار، وبهذا أيضا. ثم غادر وهو يقهقه .

فَكَرَّ وَلَدَ الْغَرْبِيِّ أَنَّهُ لَنْ يُلْدَغَ مِنْ نَفْسِ الْجَرْحِ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُمْ، وَيَلْعَبَ لَعِبَتَهُمُ الْقُدْرَةَ، أَوْ يَتْرَكَ لَهُمْ حَلِيَّةَ السِّيَاسَةِ لِيَلْعَبُوا فِيهَا كَمَا يَشَاؤُونَ، أَوْ يَعُودَ لِبَحْوثَاتِهِ وَجَرِيهِ وَرَاءَ اكْتِشَافِ الْمَحَطَّاتِ الْأَثَرِيَّةِ بِالْمَنْطَقَةِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ صَدِيقُهُ الْمَرَابُؤُ الْأَبَ جُوزَافَ.

اسْتَفَاقَ لِحَظَّتِهَا عَلَى صَوْتِ الْمَارْكَسِيِّ الَّذِي سَأَلَهُ إِنْ كَانَ يَرِيدُ مَشَاهِدَةَ مَا سَيَحْدُثُ فِي الْقِسْمَةِ.

نَظَرَ إِلَيْهِ. عَلَيْنَا أَنْ لَا نَفُوتَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ الْمَرْتَقِبَةَ بَيْنَ انْتِهَازِي الْحِزْبِ الْعَتِيدِ، وَجَمَاعَةِ بَلْفُوفَةٍ. وَقَفَ مَتَمَاسِكًا، ثُمَّ أَضَافَ. وَهُوَ يَبْتَسِمُ الْيَوْمَ خَمْرَ، وَغَدًا أَمْرٌ يَا رَفِيقِي هِيَ بِنَا لِنَشْهَدَ صِرَاعَ الْأَوْبَاشِ.

ابْتَسَمَ الْمَارْكَسِيُّ هَكَذَا أَرِيدَكَ يَا رَفِيقَ. ثُمَّ رَاحَا مَعَانُوحَ مَقْهَى الْعَجُوزِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْقِسْمَةِ، وَبَدَأَ يَتَابَعَانِ مَا يَحْدُثُ. حِينَمَا رَأَى وَلَدَ الْغَرْبِيِّ بُورُقْعَةً مَتَابِطًا ذِرَاعَ سَعِيدٍ وَلَدِ صَافِي، وَبِجَانِبِهِمُ الرَّجُلَ الْقَادِمَ مِنَ الْعَاصِمَةِ، وَمَعَهُمْ مَجْمُوعَةٌ رِجَالُ غَرْبَاءَ مُسْلِحِينَ، بَصَقَ عَلَى الْأَرْضِ. عَرَفَ أَنَّ أُولَئِكَ الشَّبَابَ لَنْ يَكُونُوا سِوَى (خُضْرَةٍ فَوْقَ طَعَامٍ) كَمَا قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ، حِينَمَا رَأَاهُ يَرُدُّ كُلَّ مَرَّةٍ، أَنَّ شَبَابَ الْمَدِينَةِ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ سَيَغَيِّرُ هَذَا الْفَسَادَ. هَذَا الْمَارْكَسِيُّ رَأْسَهُ مَرْدَدًا الْمَعْرَكَةَ مُحْسُومَةً يَا رَفِيقِي، دَعْنَا نَدْخُلَ مَقْهَى الْعَجُوزِ.

لَوْلَبَ وَلَدَ الْغَرْبِيِّ عَيْنِيهِ مَقْتَفِيَا خَطَى الْمَارْكَسِيِّ، ثُمَّ تَبَعَهُمَا بَعْضُ أَتْبَاعِهِ مِنَ الشَّبَابِ الَّذِينَ غَادَرُوا التَّجَمُّعَ حِينَمَا رَأَوْا سَعِيدَ وَلَدِ الصَّافِي يَتَوَعَدُ بِلْفُوفَةٍ.

بَقِيَ بِلْفُوفَةٌ وَاقِفًا مَعَ كُلِّ (لَمَحْرَقَةٍ) الَّذِينَ جَمَعَهُمْ، بَعْدَ أَنْ وَزَعَ عَلَيْهِمْ قَارُورَاتِ الرِّيكَارِ الْمَهْرَبِ، وَأَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَلْفَ دِينَارٍ، وَهَوَاتِفَ نَقَالَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَتَحَرَّكُوا مِنْ أَمَامِ عَتَبَةِ بَابِ الْقِسْمَةِ، حَامِلِينَ عَصِي وَهَرَاوَاتٍ، وَبَدَأَ يَتَوَعَدُ أَتْبَاعَ بُورُقْعَةٍ بِحَرْقِهِمْ أَحْيَاءَ إِنْ هُمْ عَبَرُوا عَتَبَةَ الْقِسْمَةِ.

الانتهازي يقتله الانتهازي ردها الماركسي، وهو ينظر في وجه العجوز.

في تلك اللحظة تناهى إلى سمعهم صراخ (لمحرقة) وبدأ الغبار يتصاعد جهة القسمه حتى وصل عتبة المقهى في اللحظة التي التفت فيها الماركسي. كانت الشرطة تطوق المكان على رأسها المحافظ سليم.

قال العجوز سيعود بورقة، وسيطرد بولفوفة وجماعته من القسمه، رغم حصانته البرلمانية. نطق شيخ من شيوخ المقهى. سي بولفوفة يتمتع بالشرعية، وبورقة انسحب من القسمه، فلماذا يريد أن يعود إليها؟

واش من شرعية بالحاج؟ قال الماركسي

هؤلاء كلهم خماج بلا شرعية. لا أحد انتخبهم، لا في هذا الحزب، و لا حتى في النيابة البرلمانية.

قال ولد الغربي متبرما، العسكر... العسكر هو الذي رجح كفتهم في الانتخابات السابقة.

رنت عبارة العسكر في رأس الماركسي، ثم توالى عبارات أخرى مثل السيل في المقاهي، والشوارع، والحمّامات بأن الأوضاع الأمنية التي قيل إنها تحسنت منذ مجيئ الرئيس الجديد، ليست مقنعة. وأن تدخل العسكر في الحياة السياسية يؤكد أن الأوضاع الأمنية التي قالوا إنها تحسنت إلى حد كبير مع الرئيس الجديد، لم تعد تطمئن أحدا. بل ستعود بأكثر ضراوة بعد أن سمع الجميع أن عامل المزرعة ابن عم ولد الغربي قُتل لأنه أفشى سرّ أولاد الصافي المرتبطين بالدولة، وبالعسكر.

لفقوا له تهمة بيع المخدرات. كما قالوا إنه مجنون.

أحس ولد الغربي أنه لم يعد يطيق سماع هذه العبارة من أحد. ارتشف قهوته بمرارة، ثم انسحب إلى ركن قصي في المقهى، دون أن يكلم العجوز، الذي اكتفى بالصمت كعادته، قبل أن يبصر صديقه بلخوش داخلا للمقهى.

بقي ولد الغربي في الركن يفكر. كيف له أن يوصل الرسائل التي تدين ولد الصافي، وتدخله، ومن معه لسجن المرسى؟

نعم. يا سليم، اسمعك ! قالها خليل بعدما جلس أمام رجله الذي راح يعدل من جلسته في غرفة الضيوف.

لقد وجدت من نستطيع أن ننثق به في المخابرات سيدي.

من !؟

ابن مدينتك، وأعتقد أنك تعرفه جيدا، اسمه المقدم مهدي !

من يكون هذا المقدم مهدي؟ سأل خليل بغرابة.

عطوان ابن بلخوش ! الرجل الذي تطلقون على والده ابن الحركي.

أعد ما قلته ياسليم ! عطوان بن بلخوش هو المقدم مهدي قالها باندهاش محركا يديه ووجهه، ثم أضاف اسمع بهذا الفتى، كل أجهزة الدولة تحترمه لما فعله في عملية طابيا .

لقد تعرفت على أحد رجاله صدفة في حفلة زفاف قريب لي. كنت أعرف أن قريبي يشتغل مع المخابرات، لكنني لم أكن أعرف أنه يشتغل في المخابرات المضادة التي بدأنا نسمع بها مؤخرا.

لقد أخبرته عنك، وعن نيتك في لقاء جهة تكون لها سلطة في المخابرات.

فوعدني أنه سيهيء لقاء خاصا، وأعطاني رقمه كي أسلمه لك.

في تلك اللحظة أخرج سليم ورقة صغيرة من جيب سترته ومدّها للسيد خليل: تفضل ! يمكنك الاتصال به متى شئت.

تنفس خليل، فاتحا عينيه وهو غير مصدق أن يكون الرجل الذي طرد والديه يوما، ورفض أن يزوجه ابنته شيراز، يكون رجل دولة مهما. وضع إصبعه على فمه وغرق في التفكير، مرت عليه صورة تلك الرسالة التي تلقاها منذ زمن من أجهزة المخابرات تطلب منه الابتعاد عن عائلة بلخوش.

ردد داخله كيف لم انتبه يومها ! حتى شيراز قالت لي أن عطوان يشتغل بجهاز الأمن الخارجي لكنني لم أصدقها.

التفت نحو رجله الذي بقي صامتا.

شكرا سليم، يمكنك أن تعود للعاصمة، سأكون هناك مع بداية الأسبوع.

حرك الرجل رأسه مستأذنا، ثم انصرف تاركا خليل جالسا على أريكة غرفة الضيوف، يفكر ماذا يمكنه أن يقول لعطوان ابن بلخوش حينما يلتقيه.

درع المقدم بلاط المستودع عاضا على أسنانه من الحنق، بعد أن رفض العميل السكين الإعراف بأي اسم من الذين كلفوه بتنفيذ عمليات القتل. رغم كل التعذيب الذي تلقاه منذ أن أوصله الملازم لهذا المستودع.

جذب المقدم كرسيًا حديديًا كان في طريقه، و جلس أمام العميل الذي قيده الملازم و وضع أمامه كاميرا صغيرة وثبتها معلقة في عمود بعد أن ابتعد قليلا، وبدأ يتابع التحقيق.

حرك المقدم يده ناظرا نحو ساعته. أكثر من ساعتين، وأنت ترفض الكلام. الآن سوف تعترف رغم أنك. نحن نعرف أنك من المؤسسة القديمة وأنت أعدت للنشاط، وأنت كلفت باغتيال عامل المزرعة. لهذا من الأفضل أن تعترف، وتعطيني أسماء من الذين أعدوك للوظيفة ؟

في تلك اللحظة اقترب الملازم حاملا مطرقة حديدية. سوف أكرس عظامك إن لم تتحدث.

فتح الأسكين عن ابتسامة ساخرة . حتى وإن أخبرتك فلن تستطيعوا فعل أي شيء !

في تلك اللحظة مسكه المقدم من رقبته. ثم ضربه على وجهه بكلمة حتى تفجر الدم من أنفه. سترى أيها الحلوف كيف ستموت ببطء دون أن يسأل عنك أحد.

اقترب الملازم رافعا المطرقة الحديدية بعدما مسك العميل من ركبته.

سأبدأ بتفتيت أصابع أقدامك.

رفع الملازم المطرقة إلى أعلى وأنزلها على أصابع السكين الذي صرخ صرخة دوى لها المكان .

أنا سأتكلم سأتكلم، أبعد عني هذه المطرقة.

رفع المقدم يده نحو الملازم كي يبتعد، ثم انحنى نحو السكين :

أسمعك، كنت تستطيع أن تجنبنا هذا الأسلوب.

نحن لم نخرج منها، لنعود إليها سيادة المقدم.

- إذن من أرسلك للمدينة ؟ ولماذا قتلت عامل المزرعة؟

- أصحاب الدولة.

- من هم أصحاب الدولة ؟

الذين يشغلونك !

صمت السكين مديرا رأسه، ثم أضاف بسخرية. أنت لا تعرف من تواجه؟

أيها النجس، لازلت تتحدث بوقاحة ! نطقها الملازم بعدما اندفع نحوه مضيفا سأخبرك من نواجه ياحلوف النار. ثم ضغط على أصابعه بحذائه. فصرخ السكين متوجعا. لحظتها أشار المقدم لملازمه بالابتعاد.

ليس بعد !

دع لي، سأعرف كيف أتعامل معه.

أدار المقدم وجهه بعدما أحس باهتزاز هاتفه في جيب سترته. جذبه، وفتح على الشاشة. فإذا برسالة تصله من العميل أرزقي.

قرأ المقدم الرسالة، ثم راح متجها نحو باب المستودع . قبل أن يلتفت لملازمه.

هو لك سي المخفي، إن لم يعطيك أسماء فلا حاجة لنا به !

ثم خرج .

في اللحظة التي تجاوز فيها المقدم عتبة المستودع، سمع سؤال الملائم الذي حمل مطرقة الحديدية في يده، بعدما أطفاً الكاميرا وأبعدها وراح مقترباً من السكين. هل الجنرال من أعطاك الأمر بالقتل، أم أمك ! ؟

صرخ السكيبينيين .

بقي ولد الغربي صامتا في الركن لأكثر من ساعتين، يحتسي فنجان قهوته التي أحضرها له النادل الهيسوف. كان يحاول إبعاد فكرة انتحار ابن عمه من رأسه ناظرا في كل مرة لأولئك الزبائن الذين لم يكفوا عن الثرثرة، ثم حول ناظره نحو زجاج واجهة المقهى حيث كان الغبار الذي أثارته عجلات سيارات الشرطة لايزال يغلف أجواء المكان .

نطق بلخوش الذي كان قد التحق بالمقهى بعدما أحس بالعجز يقف صامتا هو الآخر وراء مرفعه على غير عادته .

مابك عمي منصور، ما الذي حدث؟

التقيت الماركسي في الطريق أخبرني أنها ناضت في القسمة بين ولد صافي وبلفوفة .

ايه يا وليدي واش تتسنى من سعيد ولد الصافي، وبورقة وحتى ذاك النائب المزيف نتاع بلفوفة، ربي ضربهم في بعضهم .

قلتها للماركسي خليهم يخلأوا !

بقي العجز يستطرد في سرد ما وقع أمام القسمة، ثم فجأة شد رأسه قبل أن يتهاوى على آلة البريسيار الصغيرة التي كانت وراءه.

قفز بلخوش نحو يده ممسكا بها. واش بيك عمي منصور؟

انتبه ولد الغربي للجلبة التي أحدثها بلخوش أمام المرفع .

مسك بلخوش بذراع العجز، محاولا إخراجها من وراء المرفع، و أجلسه على كرسي صغير كان قريبا منه، ثم أمر الهيسوف بفتح السقيفة بعدما وقف فجأة بتوتر أمامه مع ولد الغربي.

افتتح السقيفة ياولدي الهيسوف. ثم انحنى نحو العجوز طالبا من ولد الغربي مساعدته مرددا. تعال عمي منصور.

دخل بلخوش وولد الغربي يمسكان بذراع العجوز الذي اسود وجهه بالعرق، دون أن يتفطن له أولئك الشيوخ، و لا حتى الشباب الذين كانوا لايزالون يثرثرون وهم ينظرون بفضول جهة القسمة حيث كان بورقة يقف مع المحافظ سليم الذي أنهى حديثه مع النائب بلفوفة.

بقي العجوز يشد رأسه مستعيدا وعيه بعد أن ناوله بلخوش كأس ماء كان النادل الهيسوف قد تبعهم به إلى السقيفة.

اشرب يا عمي منصور !

تناول شربة ماء، ستستريح عمي منصور. أضاف ولد الغربي.

تناول العجوز كأس الماء كاملا، ثم أدار وجهه متنهدا بعدما أحس بانجلاء خيوط الغشاوة من عينيه. لاتقلقوا عليّ! نوبة الضغط اللعينة، أصبحت هذه الأيام تلازمني كلما تعبت. ألم تتناول دواءك؟ قال ولد الغربي كما لو أنه نسي كل ذاك الكدر الذي لازمه طوال ذاك اليوم.

بلى، تناولته ياوليدي جمال! لكني لست بخير. منذ جاءني أولئك الغرباء يريدون أن أبيعهم مقهاي بالسيف. نطقها العجوز مثل طلقة الصاشم.

نظر ولد الغربي نحو بلخوش. أعرفهم أولاد الصافي، رأيتهم مع رجل أجنبي يهددون العجوز ليبيعهم مقهاه.

لا عليك، لن يأخذ منك مقهاك أحد. قال بلخوش وهو يربت على كتف العجوز.

نطق العجوز بحنق كما لو أنه استعاد كل قوته. ولد الصافي، وبورقة، والأجنبي، وكل أبناء العاهرة حقروني.....

أحس بلخوش بحشرجة صوت العجوز الذي تغير كما لوأنه أصيب
بخدش وهو يخرج كلماته بانقهار المثلول.لم يستطع أن يقول له شيئاً،
بقي مدهوشاً لأول مرة يرى فيها منصور منهاراً بهذا الشكل المريع.
وضع يده على كتفه. ثم نطق بأسف: هناك قانون ياعمي منصور!....
هناك قانون، لن يأخذوا منك شيئاً لاتريد بيعه لهم.

آه يوليدي، لاتحدثني عن القانون مع هؤلاء. قالها بصوت مجروح وهو
ينظر لولد الغربي الذي انكفأ صامتاً.

هناك دولة وسط دولة في هذه المدينة، ثم أغمض عينيه على حزن. ثم
فتحهما منتبها :

لا عليك يابني. في النهاية جاء اليوم لأغادر هذه المدينة !
ماذا تقول ياعمي منصور؟ سأل بلخوش باندھاش

نعم، يوليدي كما تسمع، نسيت أن أخبرك بأن مصطفى أرسل إليّ أنه
في العاصمة !

خبر يفرح. نطقها ولد الغربي كما لو أنه انتبه لآخر عبارة نطقها
العجوز

عاد مصطفى! الحمد لله. عليك أن تفرح عمي منصور، ألم تكن تنتظره
طيلة هذه السنوات؟ أضاف ولد الغربي.

زفر العجوز مستعيداً ما مرَّ عليه يوم تركه ابنه دون إذن، ثم نطق من
أعماقه: لا أدري! قلت للرجل الذي أخبرني، تعال غداً.

في تلك اللحظة قال بلخوش بعدما رأى الهيسوف يدخل حاملاً قنينة
الدواء .

تناول دواءك عمي منصور، ولا تفكر الآن سوى في صحتك.
ربي يجيب الخير. قال ولد الغربي.

بقي الملازم المخفي يفكر في الأسماء التي أخذها من اعترافات العميل
السكين قبل أن يطلق رصاصة في رأسه.

لقد بدأوا حربهم. قال الملازم في سرّه قبل أن يخرج هاتفه، ويمرر
أصابعه على رقم المقدم .

نعم، المخفي. رد المقدم الذي كان يجلس مع المساعد صَفَر في مكتبه
يتحدثان عن رسالة الرجل الميت التي تسلمها من السيدة زفيرة.
أسمعك.

أخذت منه اللازم، ونظفت المكان .

أنتظر تقريرك !

حاضر سيدي. رد الملازم قبل أن يغلق هاتفه .

نعم يا صَفَر، أنت أخبر السيد بتطورات الأخيرة، وأنا سوف أحضر
تقريراً كاملاً عن تحرك جماعة المؤسسة .

وقف المساعد صَفَر مصافحاً المقدم .

شكراً سيادة المقدم.

حينما خرج المساعد بقي المقدم يفكر في العمليات التي كان سينفذها
السكين، وجماعته في العاصمة.

في تلك اللحظة دخل العميل أرزقي .

لقد سلّمنا الفتاة لدرك بلدية سطاولي، قالوا إنهم كانوا يبحثون عنها مدة شهر بعدما قدم أهلها بلاغا باختفائها.

شكرا أرزقي. الآن عليك أن تتسق مع الملازم، وتحضرا ملفا مع كل الصور، وتسجيلات التنصت التي أخذتموها لرجل الأعمال الفرنكو جزائري.

حاضر سيّدي .

قدم العميل التحية، وخرج من المكتب تاركا المقدم يستعيد ماجاء في رسالة الرجل الميت مرددا في سرّه. لا بد من قطع الطريق أمام الجنرال !

ثم خرج باتجاه حجرة المراقبة .

في الرواق بدأت تدور في رأسه كلمات المساعد صفر الذي حدثه عن قرار السيد بتصفية رجل الأعمال الفرنكو جزائري بعد أن طرح عليه سؤالا لم يكن ينتظره عن عنصره الذي اعتقل في فندق الهيلتون .

هل قال لهم المرحوم عزيز شيئا عن وحدة سمير ؟

صمت المقدم، لا أستطيع أن أؤكد لك أي شيء. عنصرنا مدرب على تحمل صنوف التعذيب. لكنني أعرف أساليب الديك، وأعرف ما يمكن أن يستعمله لاستنطاقه !

علينا باتخاذ التدابير الاحتياطية. أضاف المقدم.

أرسل حافظ الأختام رسالة يقول فيها أن جهات في المخابرات تراقب خطوط اتصالاته الآمنة. قال المساعد صفر.

ما داموا قد كشفوا مراد في المدينة. فهو لاء يعرفون عنا كل شيء. أجاب المقدم.

السؤال الذي يبقى مطروحا سيادة المقدم لماذا أرسلوا عميلهم لاغتيال عامل بسيط.

هل تعتقد أن عملية مثل هذه مجرد صدفة ؟

لا أعتقد ! أجب المقدم ، ثم صمت بعد أن وقف، وراح متجها نحو المقعد المواجه للمساعد. منذ كشفنا عن وحدتنا، ونحن ننتظر رد فعلهم. وأساليب التصنت والاغتيالات ليست غريبة، على الأقل بدأوا يخرجون من جحورهم !

ومسألة الصحراء هل هي أيضا من تدبيرهم سأل المساعد.

يكفيهم أولاد الصافي الذين يتحكمون بطرق عبور المخدرات في الصحراء، لكن حدسي يقول إن هناك شيء آخر يبحثون عنه هناك !

نعم، وهذا ما يقلق السيد، ويقلقني ! لهذا حذرنا رجل الأعمال الخليجي من الذهاب لصحراء.

هز المقدم رأسه: سيصل تقرير الملازم، وسنعرف ! وسنقدم أيضا الصور، والتسجيلات التي تدين رجل الأعمال، والجنرال هذا المساء لرئيس الديوان. وعلى أساس قرارهم سوف نتصرف.

كانت رسالة مراد دوركال الملقب بالرجل الميت قد شغلت تفكير المقدم وكانت وحدها كافية لتجعل من ذهنه شاردة طوال النهار حتى ولو لم يتحدث مع المساعد صَفَر الذي نبهه بقلق السيد من سفر الرجل الخليج إلى الصحراء، لهذا خرج لجرة المراقبة وبقي ينتظر ملازمه بتوتر.

في تلك اللحظة دخل العميل أرزقي مع الملازم المخفي بعد أن قام بتلخيص كل المعلومات التي توصل إليها مع اعترافات السكين عن الأسماء التي جاءت مطابقة للأسماء التي ذكرتها رسالة مراد دوركال.

سأل المقدم ملازمه الذي بقي واقفا بعد أن قدم له العميل أرزقي التقرير. هل قال السكين شيئا عن الرجل الخليجي قبل أن تطلق رصاصتك الأخيرة في رأسه .

اندھش الملازم دون أن يفكر، بلى حضرات .

ترهات فقط !

حرك كتفيه، ثم التقط التقرير من طاولة حجرة المراقبة، وبدأ يقرأ في اعترافات السكين، متتبعا لسطور بعينه، محركا رأسه مصدرا صوتا مع كل عملية كان ينتظر أن يعترف بها العميل، وبالذين أمروه بتنفيذها .

كان الملازم مخفي قد سجل كل الأسماء التي جاء ذكرها على لسان السكين والتي كان مخططا لها أن تشطب من الحياة.

وحينما توقف عند اسم مصطفى منصور، نطق الملازم:

قال العميل السكين أنه تلقى أمرا من الجنرال مع رفاقه باغتيال رجل الأعمال مصطفى منصور عندما يدخل للجزائر.

حينما سألته الملازم مخفي عن كيف يتواصل مع الجنرال. صمت، ثم قال له لقد وصلت الأوامر عن طريق وسيط.

مساعد مستشار الرئاسة.

شد المقدم رأسه وهو غير مصدق. ثم أغلق التقرير، وقال لملازمه هيا بنا الآن لنسلم التقرير.

خرجا من حجرة المراقبة، وركبا سيارتهما .

حاول أن تسرع حتى نتجنب زحمة العاصمة قال المقدم قبل أن يمرر إبهامه على صفحة التقرير الذي قرأ فيها اسم صديقه مصطفى منصور مرددا في سرّه من الذي جمعك بهؤلاء يامصطفى. ثم هز رأسه لملازمه كي يتجه نحو طريق الميناء.

مرددا إذن سيقومون بأدخال الرجل لقتله.

أكيد سيدي أجاب الملازم.

حرك المقدم رأسه ويديه، ثم راح ممسكا بهاتفه ممرا إصبعه على رقم خاص مرددا بينه وبين نفسه: على المساعد صَفَر أن يتصل بالنائب العام ويقطع الطريق عليهم.

في طريق عودة بلخوش من بيت العجوز الذي تركه نائما فُكّر أن عليه أن يمر على مزرعته. قطع طريق القصر مخففا من وتيرة خطواته، فأحس بوجع ينخره تحت أسفل ظهره، حتى أنه توقف أكثر من مرة. كان آخرها جلوسه بالقرب من الرصيف المؤدي للمعتقل، الذي يجلس مثل البناية المهجورة في طريق المزرعة. أخذ أنفاسا متتالية مغمضا عينيه، ثم تحامل على نفسه، وواصل طريقه بصعوبة. اختلطت في رأسه هواجس صديقه العجوز مع أوجاع ظهره فبقي يدير رأسه ملتفتا من حين لآخر، ناظرا نحو طريق غزة المهترئ المؤدي للقصر القديم حيث يسكن صديقه العجوز الذي أحس في نبرته النازفة بحزن دفين أشعره بالخوف خاصة حينما قال له إنه سيغادر المدينة نهائيا. فُكّر أن مشكلة المقهى، وظهور ابنه فجأة، ومشكلة ولد الغربي الذي ظل يكرر في حكاية ابن عمّه قد انتقلت عدواهم إليه حتى أنه بدا يتحسس أن شيئا رهيبا قادم نحو هذه المدينة. لهذا بدا يردد كلمات الاستغفار واللفظ بطريقة مبهمة حتى وصل لمزرعته.

فتح باب المزرعة كعادته، ثم راح متجها نحو شجرة التين المسنة، ونزل تحتها مستعيدا أنفاسه. في تلك اللحظة جاءه صوت بلميلود الذي لم ينتبه له وهو يسقي شجيرات الورد .

عمي بلخوش، ياك لابس؟

رفع بلخوش رأسه بخطف.

واش ياوليدي خلعتني! لهلى تربحك، راك هنا؟ على الأقل قل السلام عليكم.

ابتسم بلميلود. سيعود عطوان، أليس كذلك !

بلى، هذا ما قالته عمّتك شريفة، كعادتها !

قالت لك إنه سيأتي. اذن لا تفكر كثيرا!

مدد بلخوش ساقه على الحصير: حقاً يوليدي. هناك أشياء أخرى عليّ أن أفكر فيها. قالها متأوها بعدما مسك بيده أسفل ظهره.

صحتك ياعمي هي الأولى !

كلكم تقولون صحتي. رد ، ثم استطرد بعدما حضرته صورة الطبيب جبريل صديق ابنه الذي أمره بعدم إجهاد نفسه حتى زرع الخوف في قلب زوجته شريفة التي صارت لا تكف عن تحذيره دائماً.

ملأت من تحذيراتكم، إن لم أعمل في مزرعتي سأموت ألا يوجد من يفكر بهذا. ردها ولميلود يصغي له في صمت، وحينما تقطن أنه ثرثر كثيراً قال لبلميلود الذي رآه لا يزال يمسك بخرطوم الماء. يكفي يوليدي ستقتل تلك الشجيرات بالماء. ثم أضاف له. اترك ما في يدك، و هيّا بنا نعود للبيت!

نعم عمي بلخوش، راني كملت.

وضع بلميلود خرطوم الماء في مكانه بعدما أغلق الاسنبور الكبير وراح متجها نحو الشجرة الكبيرة حيث اسلقتى العجوز بلخوش. فلنعد، لابد أن عمتي شريفة قلقة جدا ! في الحقيقة هي من أرسلتني إليك .

اقترب بلميلود من بلخوش الذي حاول النهوض بصعوبة دون أن يقول شيئاً كما لو أنه تذكر أن زوجته لن تكف عن خوفها عليه.

ثم ساعده على النهوض قبل أن يغلق وراءهما باب المزرعة ويترافقا إلى البيت.

ينظر مصطفى إلى تذكرة سفره إلى الجزائر على شركة (لوكس إير) التي أحضرتها سكرتيرته انجيم قبل أن يبدأ صوت زوجته سوزان يتحرك مثل موتور قديم في رأسه وهي التي ظلت تحذره من العودة منذ أخبرها أنه يتلقى دعاوى من جهات رسمية لزيارة الجزائر في هذا الوضع الخطر الذي كان الإعلام العالمي يحذر فيه من الوضع الذي يتجه نحو انفجار شعبي منذ حادثة اغتيال الرعية الفرنسي، و الهجوم الإرهابي على مركب طابيا، وتدخل وحدات الجيش الذي باركته الدول الكبرى، وقالت إنه دفاعا شرعيا عن النفس قالها بعدما أحس أنها تريد تذكيره بسنوات الحرب. أعرف ذلك يا عزيزي ! لكن ما نراه في التلغيزونات حول فساد الذين تقول إنهم يرسلون لك دعاوى رسمية يبدو مخيفا! انظر إلى أصدقائك الصينيين، أنت بنفسك قلت لي إنهم تورطوا في مستنقع الفساد. ثم جاءوا بك لتتقدمهم. ألا تعرف أنهم سيورطونك لا محالة؟

انظر لجرائد بلدك ! إنهم يحرضون العدالة ضد كل أصدقائك ؟

ألم يكن وزير الطاقة صديقك، و وزير الأشغال، أليس صديقك هو الآخر؟

انظر إليهم، كل قضايا الفساد صبوها فوق رؤوسهم.

كانت سوزان تتحدث بحق بعدما غلبتها دموعها في اللحظة التي اقترب منها زوجها وراح يلفها بذراعيه، ويحضنها إليه، مخللا بأصابعه شعرها الأشقر: أعرف أنك شديدة الحساسية من الذين يتعامل معهم مكتئبا. لكني لست عائدا لأجلهم، ولا لأجل الصينيين، ولا حتى لأجل شركتنا !

ما فعلته كان لأجل بلدي. أنا وقفت ضدهم، وقلت لهم عليكم أن تفهموا أن الصينيين لن يتأخروا في إنجاز مشروع تعهدوا به. لكنهم أغلقوا

آذانهم، وراحوا يطالبون بمبالغ خيالية. لهذا قلت لهم لا تنتظروا مني أن أكون معكم للإطاحة بهم.

هذا ما قلته لهم، وما قلته أيضا لمدير الشركة الأم في بكين بعدما طلبت منه إعفائي من الوكالة على شركتهم. خلاص حبيبتني لم يعد يرطني أي شيء بهم، إنني عائد لأجل أبي الذي لم أره منذ عشرين سنة. لا أريد أن أعود يوما لأجدّه ميتا !

ولم لم تفكر بالعودة لرؤيته قبل هذا اليوم؟ سألته زوجته.

صمت، ثم قالها بحزن وهو ينظر في عينيها، لم أكن أستطيع. لو لم يخبرني شريكي أنه ينتظرني في العاصمة لما وافقت على العودة لبلدي. أريد أن أطلب منه الصّفْح يا حبيبتني على كل ماسببته له، وسأقنعه بأن يترك تلك المدينة الملعونة ليسكن في الفيلا التي اشتريتها له في العاصمة. أو يأتي معي ليعيش هنا. هذا ما أريده حبيبتني .

تنهدت سوزان بحزن وهي تنكس رأسها. كانت ستقول له أنت لا تعرف مع من تورطت لكنها تراجعحت حينما أحست بأن زوجها كما عادته، وعادة العرب حينما يقررون شيئا يفعلونه، ولو خسروا حياتهم في النهاية. شهقت بأسى دافعة برأسها على صدره مرعدة بحزن

حسنًا ! سافر، لكن لا أريدك أن تطيل البقاء هناك.

كان الجو صافيا مع الخيوط الدافئة لشمس تموز التي بدأت تندسحب في ذاك المساء حيث كانت عينا العجوز تنتظران بصمت نحو واجهة المقهى التي لم يعد يرتادها سوى القلة من الزبائن. بقي يحرق منشغلا بصوت الرجل الغريب الذي جاءه من العاصمة.

طلبتني عمي منصور، لكنك تصرّ على الصمت، قل لي ما الذي يشغلك؟ فليس من عادتك أن تخرج في مثل هذا الوقت من مقهاك لتجلس على هذا المقعد الحجري ! قال بلخوش.

بقي العجوز ينظر دون أن يجيب صديقه الذي راح يستعيد ما قاله له يوم جنازة ولد الغربي، وأعادته عليه مرة أخرى حينما أوصله مع ولد الغربي لبيته. أشعر أنني لن أكمل عامي هذا، ولد الصافي، و الأجنبي الذي جاؤوني به سيخرجونني من عقلي، وسأترك لهم المدينة!

أغمض العجوز عينيه مبعدا فكرة أن تكون حكاية ابنه مجرد فخ حتى يصل إليه أولئك الرجال الذين طالبوه بوثائق المقهى، وبأمانة صديقه غالديانو.

قال له الرجل الأجنبي بعدما ترك سعيد ولد الصافي ينتظره أمام عتبة المقهى: نحن أصدقاء غالديانو، ونريد أن نسترد إرث صديقنا، وسندفع لك ما تريد !

اكتفى بالصمت أمامه، ثم رد عليه أنه ليس عنده أي شيء، ولن يبيعههم مقهاه.

هز الرجل الأجنبي كتفيه، ثم خرج زاعقا.

من يومها، وهو يفكر بصمت عما يمكن أن يفعله هؤلاء.

جاءته صورة ابنه مصطفى بوجهه الغريب، وهو ينظر نحو بلميلود الدرويش الذي انبطح أمام عتبة المقهى. لم يصدق يوما أن يصاب ابنه بالجنون وينظم لابن ولد الصافي وجماعته الذين ظلوا يصرخون في وجهه أمام عتبة باره، فلم يجد يومها أمامه من خيار سوى أن يتجه مباشرة إلى محافظ الشرطة الذي نظر إليه نظرة استهزاء وهو يردد على مسمعه.

من الأفضل ياسي منصور أن تغلق حانتك حتى لا تسبب لنا المشاكل، ولنفسك وجع الرأس، وأنت في هذا السن !

لا بد أنك تفكر به ! جاء صوت بلخوش مرة أخرى مكسرا شرود العجوز الذي اغرورقت عيناه في تلك اللحظة.

التفت العجوز بصعوبة، مخرجا نفسه من العمق : ومن لي غيره يا بلخوش ! مرت سنوات على غيابه حتى صدقت أنه مات. وهاهو يرسل لي رجلا غريبا من العاصمة، ويقول إنه يريد أن يراني ، وأنا لا أكاد أصدق أنه لا يزال يذكرني.

وهل وصل مصطفى للعاصمة ؟ سأل بلخوش

قال الرجل الذي أرسله إنه في العاصمة !

ربي كبير عمي منصور ! قالها بلخوش وهو يربت على كتف العجوز الذي بقي يحرك في رأسه، مرددا : لا أعرف ماذا أفعل يا وليدي بلخوش، لهذا أنا حائر !

(اتكل على الله، وروح شَوْف، ولدك) هذا ما عليك أن تفعله .

سألتني بالرجل الغريب غدا أو بعد غد لأسأله أولا لِمَ عاد مصطفى، وبعدها أقرر!؟ قالها العجوز، ثم أضاف بعدما مسح بظهر راحته دمعا انبجس من محجريه. لهذا أريد منك معروفا !

تحت أمرك عمي منصور.

التفت العجوز في جهات الشارع، ثم أخرج صندوقا خشبيا صغيرا مثل صناديق الجواهر العتيقة، مرصعا في جوانبه بخيط نحاسي، وبقل مذهب يبدو مثل الإبريم، كان قد وضعه في صاك صغير تحت الكرسي الحجري. هذه أمانة، أريدك أن تخبئها لي في بيتك. لا أريد لأحد أن يعرف عنها شيئا. إن قدر لي، وسافرت، ولم أعد فسيأتي صاحبها إليك. قالها ثم صمت.

بعيد الأثر عليك عمي منصور، تسافر وتعود بالسلامة إن شاء الله. قالها بلخوش وفي رأسه دارت أسئلة أخرى عن سر هذه الأمانة التي فاجأها بها صديقه العجوز، ماسكا بالصندوق الصغير بين يديه بعدما دارت في رأسه هواجس غريبة، متسائلا

ماذا يمكن أن يكون في هذا الصندوق الغريب؟ !

فكر محدثا نفسه، ربما يتعلق بوثائق خاصة لابنه مصطفى، لكن لماذا لا يسلمها له بيده مادام سيسافر للقاءه؟ !

تسارعت الشكوك في رأسه. ثم فكر في عودة ابن العجوز الذي تحول في زمن المحنة إلى شخص متطرف، وفطيع كما قالت له زوجته. إنها لم تر في حياتها مصطفى يحمل وجها فظيحا مثلما رأته في ذاك اليوم الذي سلمها فيه رسائل ابنها بعدما قال لها إن ابنك يشتغل مع الطاغوت. لم ينظر إليها مثل ابن، بل راح محدقا نحو الأرض دون أن يرد على تحيتها كعادته قبل أن يذهب للجامعة، ويصبح أكثر تشددا من ولد أخ الصافي. بل راح يرمي عليها كرة حقد متفجرة بعد أن أضاف لها: أخبرني والدي الطاغوت أنكم تسألون عن رسائل ابنكم !

ثم استغفر محركا شفتيه لا عنا السلطة، وكلابها، وكل الذين لا يطبقون شرع الله، ناظرا نحو الأرض قبل أن يعود أدراجه في اتجاه المسجد الكبير.

حينما سأل يومها بلخوش صديقه منصور عن حالة ابنه، صمت وبدت من تجاعيد عيذه دمة مثل وجع أحسها اليوم أكثر انجاسا في محجريه. ردد سؤاله بنبرة أخف من نبرة زوجته شريفة التي بقيت تسأله عن معنى عبارة طاغوت التي تلفظ بها مصطفى أمامها.

قالت له إن ابن منصور قد جن!

أراد منصور أن يصرخ بحزن في وجه بلخوش لكنه ضرب كفا بكف وراح يردد كما لو أنه يجترح حزنا دفيناً من مسالك وعرة داخله: أعرف كل ما ستقوله عن ابني، منذ أن عاد المعتوه من الجامعة، ووقف في وجهي مع جماعة ولد الصافي، وأنا لا أصدق أنه حقا من صلبى.

وضع بلخوش الصندوق الصغير تحت ابطه بعدما انتبه لشروء العجوز، ثم راح يطبطب على كتفه. مادام مصطفى قد أرسل لك مرسولا من العاصمة فلا بد أنه قد تغير ياعمي منصور، لا تشغل بالك .

هز العجوز رأسه . أتمنى ذلك يا وليدي.

وقف بلخوش بعد أن عانق العجوز، مستأذنا منه. أمانتك في الحفظ، والصون.

أنتظر ك غدا في المقهى قبل سفري. أجب العجوز وهو يدير وجهه باحثاً عن بلميلود الدرويش الذي اختفى من أمام عتبة المقهى .

أوماً بلخوش: إن شاء الله ، سأمر عليك بعد عودتي من المزرعة.

في الطريق أحس بلخوش بانقهار يشبه انقهار العجوز مستعيدا غبن شوقه لابنه عطوان الذي قالت له زوجته إنها كلمته، وقلبت هاتفه نواحا بعد أن قال لها إنه ربما سيؤجل مجيئه للمدينة.

أغمض عينيه لحيرة أوقعته بين أن يحزن لمصاب صديقه، أم لابنه
الغائب مرددا في سرّه : أمك تبكي سواء عدت يعطوان للمدينة، أم لم
تعد !

في تلك اللحظة كان قد قطع جادة الشارع الكبير الذي يتوسط وسط
المدينة.

أوصلته زوجته مع سكرتيرته انجي على غير العادة إلى مطار
لكسمبورغ

(فندل) وانتظرتاه حتى أقلعت طائرته في سماء المطار. حينما جلس
على مقعد الطائرة في الدرجة الأولى، راح يستعيد وجوه مدينته. والده،
و العم بلخوش، و صديقه عطوان الذي سمع أنه يشتغل بالاستعلامات
المضادة كما أخبره الرجل الدبلوماسي الذي التقاه في آخر مرة في
السفارة الجزائرية بفرنسا بعد أحداث طابيا التي لفتت الأنظار لما
يحدث في الجنوب حينما عرف أنه ينحدر من نفس مدينته. راح يصفه
له كما لو أنه يضع أمامه صورة بورترى، تفاجأ مصطفى أن نفس
المواصفات التي ردها الدبلوماسي هي نفس مواصفات صديقه
عطوان، ثم أضاف له بأنه اكتسب سمعة كبيرة جراء ما فعله في
محاربة الإرهاب في الصحراء الكبرى.

لا بد أنك تعرفه !

صمت مصطفى وكيف لا أعرف صديق طفولتي .

أحس صداها وهو يستعيد طفولته معه، مبتسما، وحزينا في الوقت نفسه
لأن آخر كلمة أسمعها لصديقه عطوان قبل عشرين سنة مضت كانت
سؤاله عن اشتغاله مع الدولة التي كان يسميها في ذلك الوقت باسم دولة
الطاغوت. انحدرت شلالات أفكاره المتناقضة في غفوته دون أن يدري
أن وجهه لحظتها قد بدا غريبا وهو يتصبب عرقا أمام المضيقة الشقراء
التي توقفت أمام رأسه وراحت تحقق إليه في صمت، وهو يحرك
شفتيه حيناً، ويضغط على حاجبيه حيناً آخر. فُكّرت أن من واجبها أن
تعلمه بوقت وجبة العشاء منذ أن أوقفت عربتها المحملة بزجاجة النبيذ
مع بعض القطع من اللحم المحمر، و بعض الصحن الصغيرة التي
احتوت أنواع من السلطة، و الجبن الهولندي. أرادت أن تقول له إنه

وقت وجبة العشاء، لكنها تراجعت حينما رأته غارقا في الغمض. كان لحظتها يشعر بأنه قد عاد طفلا ممسكا بيد صديقه عطوان، وهما يبصران وجوه رواد بار والده من ثقب باب السقيفة بعدما منعهم والده من دخول صالة البار الرئيسية. كانا يشعران بسعادة غامرة كلما رأوا سكارى مدينتهم سعداء، وهم يشربون في كؤوس كريستالية طويلة العنق قبل أن يصرعهم النبيذ فيبدأون بالترنج، والتشاجر أحيانا ليسقط بعضهم على عتبة الباب. قبل أن يصرعهم والده منصور الذي راح يطلب منهما أن يقضيا له حاجات زبائنه المختارين الذين كانوا لحظتها مجتمعين في قبو السقيفة.

كانا ينطلقان بفرح طفولي لإحضارها كما لو أنهما يعيشان لعبة. وهما يقطعان المسافة البعيدة من البار حتى سوق وسط المدينة دون أن ينتهيما تعب، ولا حتى طول مسافة. بل كان كل ذلك يشعرهما بالزهو الطفولي ليعودا بأسرع وقت لزبائنه بمتطلباتهم من الشموع، وعيدان القماري. بعد أن يدخلوا في تسابق جنوني إلى السقيفة من بابها الخلفي. كانا يتمنيان أن يريا ذاك الرجل المبارك متحسسين صوته مع صوت المختارين الذين كانوا يختفون في كل مرة. كان يقول دائما في سرّه إن لم يكونوا قد اختفوا داخل قبو فأين تراهم كانوا يدخلون؟

كان هذا السؤال يرن دائما داخل رأسيهما الصغيرين حينما يسمعا أصواتهم. حاول مع صديقه عطوان مرارا أن يعرفا مكان باب القبو الذي شعرا بأنه داخل السقيفة لكنهما لم يتمكنوا من ذلك حتى حينما تفاجأ يوم ظهر لهما أولئك السواح الأجانب فجأة في وسط السقيفة يقودهم السيد غالديانو الذي كان يشبه الرجل المبارك. رغم أنهما لم يرياها قد دخلوا من بابها الخلفي، ولا من بابها الصغير المؤدي للصالة. كانوا كما لو أنهم ير تادون متحفا وطنيا، يطلبون في كل مرة من والده أن يتركهم لشأنهم أحيانا لأمسية كاملة في تلك الأيام الزاهية من مواسم الربيع، استذكارا لحنين طفولتهم كما قال له والده يوما حينما سأله لم يفضل العم غالديانو المبيت في السقيفة، ولا ينزل ضيفا في بيتنا؟

كانوا لا يتناولون كؤوس البيرة الباردة إلا ناذرا. ثم يروحون في دهشة موجهين أبصارهم نحو الصور المعلقة على حيطان السقيفة التي كانوا يسألون والده بيعها لهم بالعملة الأصعبة. ينظر إليهم بابتسامته المعهودة، راداً بلباقة كما عادته، غامزا بعينه اليسرى نحو صديقه غالديانو الذي كان قد تنازل له عن ملكية البار بكل صورته تلك بعد إعلان وقف القتال. يومها قال منصور لغالديانو متسائلا بعد أن فاجأه بوثيقة البيع التي كتبها باسمه في غيابه لم تريد مغادرة المدينة التي ولدت فيها ميسو غالديانو؟ كل الثوار يدركون أنك كنت تساند الثورة .

نظر إليه غالديانو: ليتهم كانوا مثلك يا رفيقي منصور؟ ثم أدار وجهه الذي احتقن بالدمع، دافعا بوثيقة ملكية البار على الطاولة الخشبية التي تعود أن يضعها في عتبة الباب الصغير المؤدي للسقيفة. ثم قال له: خذ ميسو منصور ! أعرف أنك ستحافظ على هذا البار، وهذه السقيفة، ولن تغير فيه شيئا. لهذا أريدك أن تقبله مني هدية لصداقتنا.

هل كان غالديانو نادما وهو يبصر الصور؟ التي كان يعتمد أن يحضر لأجلها أصدقاءه من فرنسا. دافعا إياهم كي يتأملوها بعدما علقها ذات زمن بيده على حائط السقيفة.

نظر مصطفى نحو عطوان، وهو يسأله عن الرجل المبارك حينما أخبره والده أن عليه أن يقتني بعض الشموع له، ولجماعته لأنهم سيبيتون ليلتهم الأخيرة في السقيفة، وسيحتفلون بعيدهم المقدس. لم يكن مصطفى يفهم أي معنى لهذا العيد المقدس الذي ذكره والده، لهذا راح ينظر بغرابة نحو صديقه عطوان الذي فاجأه. هل رأيت الرجل المبارك يا مصطفى؟ نطقها عطوان وهو ينظر خلسة لوجه غالديانو. تبسم مصطفى: أنت تشك مثلي بأن العم غالديانو هو الرجل المبارك! نعم! كنت سأقول لك إنه هو لأنني البارحة حينما أوصلت له الشموع التي طلبها مني والدي. اقتربت من باب السقيفة فسمعتُ شيئا من تلك التعاويذ الغريبة التي سمعناها يوم دخلنا البار لأول مرة.

قال مصطفى لعطوان وهو يشده من ذراعه متسائلا بخوف طفولي :

" هل نعود يعطون؟، والذي لن يسمح لنا بالدخول لباره "

يقوس عطوان حاجبه الصغير مبتسما "وأنا لن أفوت فرصة رؤية تلك اللعبة، وسأدخل إلى البار ولن أراجع!" يشد مصطفى رأسه الصغير خوفا بعد أن جذب عطوان يده منفلتاً من قبضته الصغيرة، ليتسرب نحو صحن البار، وعيونه الصغيرة مشدودة نحو مشاهدة أولئك الغرباء الذين أداروا وجوههم فجأة باستغراب نحوه، ونحو رفيقه عطوان دون أن ينتبه لهم والده منصور ولا حتى بلخوش الذي كان جالسا في زاوية مظلمة يكرع كعادته في كؤوس البيرة، مثله مثل أولئك الذين بقوا واقفين بمحاداة المرفع، وفي عيونهم تيه غريب، بعدما أعادوا وجوههم حينما أحسوا بتقلص وجه صاحب البار الذي راح يشير نحو ابنه مصطفى مما جعلهم يتقنطون لهذين الغريبين الصغيرين اللذين اقتحما البار، ليكتشفوا لحظتها أنهما ليسا سوى من أبناء صاحب البار الذي خرج إليهما وهو يصرخ من وراء المرفع مشيرا نحو نادله الهيسوف كي يهتم بطلبات الزبائن، هازا رأسه بتفهم نحو أولئك المندهشين الذين كانوا يتهامسون بينهم، مرددين تحت أنوفهم " كيف يسمح رجل لطفلين بدخول البار ؟ "

ورغم كل تلك الجلبة إلا أن بلخوش لم ينتبه أن ابنه عطوان كان أحد الطفلين المعنيين بتلك الفوضى لهذا راح يحرق مرة في كأس خمرته، ومرة في أولئك الذين بدت أصواتهم تخفت وهم يهمسون لبعضهم البعض ومنصور يمر بينهم ماسكا بيد ابنه مصطفى، وصديقه عطوان ليدخلهما مرغما إلى تلك السقيفة الداخلية التي لا يدخله سوى القلة من أولئك الزبائن الذين كانوا يأتون من مدن أخرى لا يعرفها أحد.

أغلق منصور باب السقيفة الصغير خلفه، ناظرا إليهما بنظرة عتاب، ثم راح يأنبهما بصوت خفي مشيرا لهما بأن يجلسا في صمت قبل أن يتقنط لعطوان الذي ارتعشت ركبته الصغيرتان من الخوف حينما أخبره منصور أن والده هنا في البار لهذا عليهما أن لا يتحركا من تلك الأريكة الجلدية التي أجلسهما فيها حتى يعود. نظرا في عيون بعضهما

البعض بخبث طفولي، مصدرين قهقهة خافتة، قبل أن يحولا عيونهما الصغيرة بفصول نحو لعبة البيار التي بدت لهما مثل حلم، لأجله غامرا باقتحامهما عالم الكبار بتلك الطريقة الطفولية الغريبة.

كان مصطفى يدرك يومها رغم صغر سنه أن والده رغم انشغاله بباره وبزبائنه سواء أولئك البؤساء أم حتى الغرباء الذين كان بينه وبينهم علاقة غريبة إلا أنه كان أبا حنونا يعتدل في داخله مثله مثل والد صديقه عطوان جرحا جراء أشياء لم يكن يستوعبها يومها رأسه الصغير.

في تلك اللحظة تنأى إلى سمعهما صوت رجل يردد تعاويذ مبهمة، فالتفت مصطفى نحو عطوان الذي بدأت فرائضه ترتجف قبل أن يعود منصور حاملا في يده صينية صغيرة عليها كأس، وزجاجة خمر غالية الثمن، وعلبة من شيكولا تريستات، نظر إليهما واضعا إصبعه في فمه، ثم نادى الرجل الذي كان يجلس في العتمة جهة زواية السقيفة، قبل أن يتخلصا من ذلك الخوف كان الرجل الغريب الذي خرج من عتمته قد تجاوز طاولة لعبة البيار التي كانت تجلس في منتصف السقيفة ليقف فجأة أمامهما قبل أن يأخذ علبة الشيكولا من الصينية كان قد وضعها منصور على طاولة صغيرة قربهما، وأخرج منها كرتين، ثم اقترب وقدم لكل واحد منهما كرة شيكولا بعدما مرر يده بحنو برهة فوق رأسيهما، ثم عاد إلى مكانه في العتمة، كما لو أن كل ذلك قد حدث في رمشة عين، لهذا لم يشعرا إلا وهما يسمعان صوت الرجل الغريب وهو يردد تعويذته بلغة غريبة. ابتسم منصور لحيرتهما ناظرا في وجه عطوان ووجه ابنه، ثم قال لهما وهو يفتح أمامهما باب السقيفة الخلفي مشيرا بيده: "هيا اذهبا الآن !. ولا تعودا للبار لقد بارككم الرجل المبارك".

حدث هذا في أول يوم دخل فيه مصطفى سقيفة بار والده مع رفيقه عطوان، لهذا صار الأمر عاديا بعد ذلك وصار دخولهما تقريبا يحدث في كل زيارة لأولئك الغرباء من السياح الذين كانوا يفضلون بار والده،

على الرغم من أن غالديانو كان كثير الصمت أمام والده، و أمام رفاقه الذين كانوا يلحون على منصور في كل مرة أن يبيعهم الصور كلما جاء موعد عودتهم إلى فرنسا.

يبدى منصور في وجه صديقه الذي كانت تعابيره ترسم خطوط تعبٍ كان يوحي بأنه لم يعد سعيدا كعادته في زيارته السابقة.

هذا البار دون هذه الصور يصبح بلا معنى، وبلا تفاصيل، هل يمكن لأي إنسان أن يفرط بتفاصيله؟! قالها موجها كلامه لصديقه غالديانو.

انتبه مصطفى لصوت المضيفة التي كانت تشير بهمس لزميلتها أنها لا تستطيع إيقاظ رجل غارق في مثل هذا النوم. فتح عينيه هازا لها رأسه بأنه يوافقها الرأي مرددا بينه، وبين نفسه الأفضل أن تأخذي عربتك بعيدا عني !

فكر أنه لا يحتاج لشيء أكثر من رؤية وجه والده الذي أحسه لحظتها يفتح له عن ابتسامة واسعة، ارتسمت مع بعض الخطوط على جنبات عيونه الضيقة كما رآها يوم ودع صديقه الذي قال له وهو ينظر نحو الصور المعلق في باره. رغم ذلك، عليك أن تفكر في الأمر ميسو منصور !

هز منصور رأسه كما لو أنه يوافق.

ربما كانت تلك آخر زيارة لغالديانو للمدينة يقول منصور، وهو ينظر جهة ابنه مصطفى وهما يقطعان طريق شارع الحديقة الكبيرة متجهين نحو بيتهما في القصر .

حينما فكر أنه رأى طيف المضيفة تدفع عربتها مبتعدة في آخر الرواق بعدما تناسست فكرة سؤالها عن إيقاظه. أسبل جفونه للحلم، و غاص في ذكرياته المخبوءة. مدة عشرين سنة كاملة لم يكن يتذكر من بلده شيئا

سوى وجه والده بتجاعيده، وهو يشد يده، ويخبره كيف أنه تمناه دائما أن يكون رجلا ناجحا .

شعر بحزن يتصاعد من قصبات أنفاسه بعد أن بدت له نجاحاته التي حققها ليس لها أي معنى دون رضا والده الذي تركه غاضبا بعدما خيب أمله يوم التحق بجامعة أبي نصر، وخيب حتى صديق طفولته عطوان.

رغم أنه تغير كثيرا، و تخلص من أفكاره الدينية المتطرفة، وسافر خارج البلد بعدما سرقة العمل، والجري من قارة إلى أخرى إلى أن جاء اليوم الذي التقى فيه برجل السفارة الجزائرية في باريس الذي فتح له بابا من الأمل حينما اقترح عليه أن يقدم خدماته لبلده بمساعدتهم في جلب مستثمرين أجانب من الذين يتعاملون مع مكتبه، إلا أنه بقي مشدودا لطفولته وحزينا في دواخله لأنه فعل كل شيء بعيدا عن الذين أحبه وأحبهم.

تفطن لحظتها لصوت المضيفة التي قطعت عليه شريط ذكرياته وهي توقف عربتها مرة أخرى معيدة سؤالها بتوتر عن وجبة عشائه لأنها مضطرة للتوقف عن توزيع الوجبات. فتح عينيه بصعوبة مشيرا لها بأنه لا يريد منها سوى أن تتركه يكمل نومه بسلام، وأن لا توقظه مرة أخرى حتى تنزل الطائرة في مطار هوارى بومدين.

يرن اسم هوارى في رأسه فيستعيد صوت شريكه الذي أخبره بأنه قد أرسل مبعوثا لوالده، وقد وافق على لقائه في العاصمة. فتح عن ابتسامة مشوبة بالحزن مديرا صورته وهو يلتقيه بنظرة حزن، وعتاب. نفس النظرة التي نظر إليه بها منذ أكثر من عشرين عام مضت. يوم أجبره أبو نصر على حمل حاوية الوقود، و قال له أمام أتباعه، لن تكون من جماعتنا إن لم تُغيّر المنكر الذي زرعه والدك في هذه المدينة.

بكى والده يومها أمامه، وراح يقسم مرغما بأن يغلق باره بعدما أرغمه رجلان غريبان، كانا قد جاءا مع أبي نصر من أفغانستان على أن يجثو

بركبتيه أمام المحكمة الشرعية التي ترأسها أبو نصر الذي راح يردد عليه قسم التوبة عن بيع الخمر، و أن عليه أن يُغَيَّرَ باره إلى مقهى.

أراد أن يصرخ ندما، لكن صوت قائد الطائرة جاء كما لو أنه طلاقة (صاشم) في رأسه فقام مفزوعا. ليجد المضيفة، وبعض الركاب يتفرسونه بغرابة قبل أن تفاجئه المضيفة الشقراء وهي تردد عليه :

على سلامتكَ مسيو، دخلنا أجواء مطار هوارى بومدين

استفاق بلخوش من غفوته على صوت زوجته شريفة بعد أن هدّه تعب التفكير حول الصندوق الغريب الذي تركه له العجوز أمانة. سمع صوت زوجته مرة أخرى وهي تضع صينية القهوة أمامه على المائدة الصغيرة التي يفضلها.

نظر إليها وهي تغادره، دون أن يقول لها شيئاً. أخذ رشفة على الريق وراح دافعا يده نحو درج الخزانة الصغيرة بجانبه، متلمسا الصندوق الصغير. حرك أصابعه بجانبه فتلمس رسائل ابنه التي كانت ملفوفة في منديل بعد أن مرّ عليها أكثر من خمس عشرة سنة. كان كلما اشتاق له أخرجها كما لو أنه يخرج شيئاً مقدساً. هذه المرة بدا متردداً قبل أن يلتقطها. أغمض عينيه وهو يضمها لصدره، ثم فتحها، متشمماً رائحة ابنه. كان يفعل ذلك في كل ليلة قبل أن ينام، هذه المرة فعلها بعد أن بقيت تردد زوجته طوال النهار اسم ابنه.

أعاد قراءتها دون أن يخبرها. كانت زوجته لاتزال بوجهها الرمادي الحزين ترقب من نافذتها الشارع الكبير جهة الاسكة الحديدية لعلها ترى طيف ابنها عطوان الذي كانت تنتظر قدومه من العاصمة.

تشعر شريفة بقهر كلما سمعت عمّا يحدث من موت في بلدان الجوار، وأن البلد مُقدّم على سنوات سوداء كما كان يردد زوجها مع العجوز كلما جلسا يرتشفان فنجائي القهوة معا في ردهة البيت مع عطوان الذي كان يأتي مرة واحدة في الشهر.

تنظر إليهما، وتروح مرددة أمام ابنها: لن أتحمّل رؤيتك في صندوق حديدي. لن أتحمّل! يقاطعها عطوان. لا تخافي يا أمي، بلدنا آمن. وما يحدث هناك لن يحدث عندنا، ثم يضيف بعد أن يعانقها: خلاص يا أمي انتهى زمن الخوف! يردد عليها هذا الكلام مغيراً من نبرته بكلمات قبائلية، فيحس أن أساريرها تفتّح. ينظر بلخوش إليهما مبتسماً دون أن

يشاركهما الحديث محركا رأسه، ثم ينهض مرددا لازمته مع صديقه العجوز : نحن ذاهبان للمزرعة .

ابتسم وهو يقلب أوراق الرسائل، شاعرا باشتياق حار يعبر مشاعره كلما توقف عند عبارة من العبارات التي كان يسأل فيها ابنه صديقه مصطفى عن أخبار والديه. حينما أراد أن يطوي آخر رسالة لفت انتباهه اسم شيراز ، ابنة خليل ولد الصافي.

تبسم رغم الحزن، متذكرا أن زوجته كانت تراها زوجة لابنهما رغم معارضته لزواجهما: شيراز ابنتي ليست مثل والدها، إنها ملاك أبيض ! أعادتها البارحة حينما زارتها شيراز بعد عودتها من فرنسا. كان ينظر إليها وهو يجلس في ردهة البيت متمليا وجهها الملائكي. فعلا أنت ملاك ياشيراز ، كل هذا الجمال، والرقعة أخذتها عن أمك كما لو أنك لست ابنة خليل ولد الصافي.

طالما ردد هذا الكلام في دواخله لكنه كان يرفض أن يخبر به ابنه عطوان. أعاد الرسائل لمكانها في الدرج بعد أن لفها في منديل زوجته، مرتبا كل رسالة في ظرفها الخاص متسائلا في داخله لِمَ كان ابنه يرسل رسائله إلى مصطفى. كان سيسأله هذا السؤال في كل مرة يعود فيها من العاصمة لكنه كان ينسى.

نهض من سريره ناظرا إلى الساعة الحائطية، مقررا أنه أن الأوان ليذهب إلى مزرعته دون أن يدري أن ابنه لم يكن يرسل تلك الرسائل فقط لصديقه مصطفى بل كان يرسل بالمقابل رسائل أخرى له، ولأمه لكنها لم تكن تصل إلا بعد أن تمر على يد الرجل المهم المسمى السيد الذي كان يبدلها برسائل أخرى، ليضع فيها في كل مرة عنوانا بريديا لرسالة واحدة يوجهها لمصطفى من صديقه عطوان، وكأنها أرسلت من بلدان مختلفة مرة من باريس، ومرة من إنجلترا، ومرة من ألمانيا، ومرة من روسيا، ومرة من أمريكا لتصل إلى وهران، مع تغيير محتواها في كثير من المرات. كما كان يفعل الأمر نفسه في الردود التي كان يكتبها مصطفى من حين لآخر من غرفته الجامعية بوهران مثلما

فعل مع آخر رد أرسله لعطوان حينما كان في فرنسا قبل أن يتمكن منه عقار غسيل المخ، الذي غسل به ولد الصافي، وجماعته رأسه. أخبره يومها بأن والده قد تشاجر مع ولد الصافي لأنه قال له ولد الحركي، وسبّه بعدما رآه يتحدث مع ناصر ابن عمّ ولد الغربي قرب مزرعته. قبل أن يهدده بطرده من المدينة. هذا ما قاله له مصطفى، وكأنه استشعر بأن رسائله لم تكن تصل إلى صديقه، فأراد أن يكتب له عن حادثة والده لعله يطلبه على الأقل في الهاتف ليسمع صوته. كانت تلك الرسالة الوحيدة التي لم يستطع السيد أن يغيّر فيها شيئاً لكنه أرسل رسالة سرّية إلى خليل ولد الصافي دون أن يدري أُرعبه فيها، وحذره عن أي محاولة لإثارة عائلة بن عطوان .

من ذاك اليوم بدأت تتغير أشياء كثيرة في تصرفات ولد الصافي تجاه بلخوش وعائلته .

أغلق المقدم التقرير بعدما جاءه صوت الملازم متسائلا وهو يوقف السيارة في مدخل الميناء.

لماذا غيرَ رئيس الديوان توقيت اللقاء. سأل الملازم

هناك ضغوطات كبيرة تمارس على رئيسه.

هل يمكن أن يكون لديك الفرنسي علاقة بذلك!؟

الديك، لن يصمت، وسيحرك أزالامه في كل اتجاه.

هكذا ظل المقدم، وملازمه يفكران منذ أن خرجا من حجرة المراقبة متجهين نحو مكان اللقاء الذي أجله رئيس الديوان لآخر المساء دون يذكر سببا لذلك. كانت رسالة الرجل الميت، واعترافات السكين كفيلة بأن تقدم دلائل على تعامل عملاء المؤسسة القديمة التي كان يديرها الجنرال مع الأجانب.

كان عليهما أن يلتقيا برئيس ديوان المجلس السري ليقدما له التقرير الكامل، لهذا وصلا قبل الموعد بربع ساعة، وبقيتا ينتظران في مدخل ميناء الشحن. نظر المقدم نحو ساعته: كنت دائما أقول الجزائري والمواعيد المضبوطة لا يلتقيان، حتى وإن كان مسئولا !

أظن أن سي جعفر ليس من هذا النوع. وإلا كان يستطيع أن يرفض لقاءنا. رد الملازم تلقائيا ثم رفع معصمه. لازالت ثلاث دقائق يا حضرات.

كل دقيقة، هي عام. انظر لم يبق أحد في الميناء، حتى عمال المرسى غادروا.

صمت الملازم، وبقي المقدم ينظر جهة مدخل المرسى لعله يبصر سيارة تدخل من هناك، أو أي حركة بعدما بدا له الميناء مهجورا. ففكر متسائلا ماذا لو أرسل رسالة خاصة للسيد جعفر يستفسره عن تأخره. في اللحظة التي بدأ يمرر أصابعه على رقمه رن الهاتف في يده.

قال الملازم مشيرا بيده لجهة المرفأ.

انظر حضرات: إنه هناك !

نعم سيادة الرئيس، قال المقدم بعد أن فتح على رنة المكالمة.

جاء الصوت: أترك سيارتك، وتعال وحدك إلى مرفأ السفن القريب.

- حاضر. أقفل جهازه، مشيرا لملازمه بأن يبقى في السيارة.

قلت لك إنه هناك ! أعادها الملازم، ثم أضاف بعد أن رأى صمت رئيسه الذي حمل التقرير، ونزل من السيارة متجها بخطى واسعة دون أن يلتفت لصوت الملازم الذي أضاف حينها. سأنتظرك هنا !

حينما وصل لحافة المرفأ الذي كان يومها غاصا بسفن الشحن الأجنبية، التفت في كل الجهات، فلم ير أي أحد. لا العمال، ولا حراس الميناء. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء من يوم السبت، وكان شفق السماء محمرا وهو يلامس في الأفق البعيد سطح البحر. وقف المقدم على رأس حلقة مدفع من المدافع التي غرستها فرنسا الغازية في زمن الداي حسين في حافة الميناء. قال في سرّه كانت العجوز ستدخل من هذا الميناء لولا هذه المدافع التي ردمت رؤوسها بالأسمنت. نظر نحو الأفق البعيد الذي كان يقترب من الغرق في البحر مشكلا لوحة زيتية مع تلك الأضواء القليلة المشتعلة بجهات المرفأ التي تشبه اللازورد المرصع بالنجوم.

خطا بعض الخطوات على حافة المرفأ في اللحظة التي لمح فيها طيفا واقفا في الجهة الأخرى للحافة، حينما وصل إليه وجده يقف على حلقة مدفع من تلك المدافع، ملتقفا جهة السفن الصغيرة التي بدت متراصة مثل حبات السردين في علبة.

قال الرئيس وهو ينظر نحو المدخنة التي كانت ترسل دخانا أسود نحو السماء: هل أحضرت المعلومات التي قلتم إنها تدين عضو مجلسنا؟

كان الرئيس يتحدث دون أن يلتفت، كما لو أنه لا يرغب في هذا اللقاء الذي بدا في غير صالح سيّده حافظ الأختام الذي قال له إن السيد باتهاماته لعضو من أعضاء المجلس قد فتح علينا، وعلى نفسه النار.

تفطن المقدم للنبرة الغريبة في كلام رئيس الديوان لهذا ردّ دون أن يعلق على كلامه. أتمنى أن تهتموا بهذا التقرير، ثم بعدها يمكنكم أن تقررُوا، أو حتى تحكموا علينا بأننا نتدخل في شؤون مجلسكم.

هز الرئيس كتفه بعد أن استدار، ماذا يده، ماسكا التقرير من يد المقدم قبل أن يتجه نحو السيارة السوداء الألمانية التي كانت تنتظره في الجهة الأخرى من المرفأ مرددا. أتمنى أن يكون في تقريركم شيء يستحق عناء هذا اللقاء.

أغمض المقدم عينيه، كما لو أنه أحس بنوع من الإهانة، لكنه لم يستطع الرد على كلامه، بل هز كتفيه، ضاغطا على قبضته بعدما رأى السيارة السوداء تقترب منهما، قبل أن تتوقف، ويصعد فيها الرئيس.

— كن على يقين أننا سنلتقي مرة أخرى. قالها وهو يخرج سيجارة من علبة مالבורو كانت في جيب قميصه. أشعلها بتوتر قبل أن يتوجه إلى سيارته حيث كان رفيقه الملازم المخفي ساهما يقلب في أوراق نسخة أخرى قبل أن ينطق، وهو يحمل صورة كبيرة من الصور التي أخرجها من التقرير. هل يمكن أن يدين المجلس رجلا مثل هذا كان رئيسا

للمجلس السري قبل أن يُبعد منه ؟ سأل الملازم بعد أن أشعل محرك السيارة.

سنرى ذلك، عليهم أن يتحملوا مسؤوليتهم.

كم تبدلت ملامحه حتى كدت لا أعرفه !

التفت المقدم دون أن يجيب وبقي يتتبع في السيارة السوداء التي كانت تخرج من الباب الكبير للميناء.

انكمش الملازم ماسكا بمقود السيارة ، متحسسا صمت رئيسه الذي بقي شارد الذهن.

ضغط على دواسة البنزين، فتحركت السيارة، وتحرك معها كلام الرئيس في ذهن المقدم حتى أنه نسي أن يرد على كلام ملازمه الذي ظل طوال الطريق يسأله عن رد فعل رئيس الديوان حينما سلّمه التقرير.

حينما خرجوا من الميناء بقي طيف رئيس الديوان وصوته يرن في رأس المقدم مستعيدا ليلة لقائه به لأول مرة في قبو قاعدة الأميرالية.

نطق يومها رئيس الديوان وهو يرافقه إلى مصعد المخرج عبر الرواق البارد. عليك أن تبلغ السيد اعتذاراتنا على سوء الفهم، ما قامت به وحدتكم كان عملا احترافيا، لهذا سنهتّم بما جاء في تقاريركم بعد أن ننتهي من عملية طابيا.

كان يتمنى أن يسمع كلاما مثل هذا في لقائه الثاني به لكنه تفاجأ بلا مبالاته وتغيّر نبرته.

فتح المقدم عينيّه وهو لا يزال شارد الذهن في سياراة الطويوطا الرمادية التي كانت تلتهم الطريق البحري الطريق البحري بسرعة

مائة كلم في الساعة متحسسا يد رئيس الديوان وهي تمسك بالتقرير
مرددا : عمل رائع تقومون به. قالها ثم راح ينظر إلى الصورة .

توقف ولد الغربي في الساعة المتأخرة من المساء وهو يحمل في يده جريدة متنفخ البطن التي كتبت عن انتحار ابن عمّه ناصر، بعدما قطع نصف الشارع الطويل الموصل للمحطة البرية الذي بدا فارغا إلا منه، متحسسا أنه لم يعد يتحمل ضغط ضميره الذي تحوّل إلى أسطوانة مشروخة منذ أن سمع بأن محافظ الشرطة سليم قد أغلق ملف قضية ابن عمّه. بعد أن جاء تقرير الطبيب الشرعي بعد أكثر من أسبوع يردد ما رددته الشارع بأن ابن عمّه مات منتحرا.

وقد كتب أحد المراسلين السفلة من مدينته عن حادثة الانتحار بشيء من التشفي، الأمر الذي جعله لاينام. أسبوعا كاملا وهذه المدينة تتناقل خبر الانتحار كأنه جرم. جعل من إمام حيهم يرفض أن يصلي على جنازة ابن عمّه.

مدينة مناقفة ! نطقها بمرارة.

قال له الماركسي. إن لم تُثّر المدينة ضد خماج السلطة، والدين، فلن يتغير شيء.

كان سيقول له (واش دَخَل) الدين فيما فعله ولد الصافي بابن عمّي! لكنه تذكر صمت الإمام، والكثير من المتتبعين في مدينته أمام ماحدث.

أضاف له الماركسي بعدما عدل من البيري الذي كان يعتمله مثل علامة خصوصية .

كنت أرفض أن انتخب منذ أن (هردونا بالفيس)، لكنني هذه المرة سأساندك يا رفيقي. ترشح فقط ضد أولاد القحاب! سنفعل أكثر مما يفعلونه.

تذكر كلامه وهو ينظر للجريدة التي بدأت الحديث عن العمليات الإرهابية التي كانت تحدث في العاصمة، وفي أطرافها بنوع من التعقيم. وأصبحت تتحدث عن السخافات.

أما أن لهذا الجبن أن ينتهي؟ ردد في سرّه.

قال له أحد الشباب كان يجلس بجانب الماركسي: لا نيابة، ولا (شكوبي) ينفع في هذه المدينة، يكفيك كابوس، وكرتا حتى تكون قويا ياسي جمال. أنا لن أصوت في الانتخاب لا عليك، ولا على أي أحد من هؤلاء.

تنفس بمرارة، ثم راح يبصقها مثل نخامة على الأرض. يلعن جدّ أصحاب العمائم، والكوستيمات، واللّحي، وكل عطايين النظام، والمنافقين أينما وجدوا.

تأبط الجريدة، ورمى خطواته في الشارع متأففاً، وعلى طرف لسانه كلمات السبّ التي أحس أنها تخفف عنه وجع الضمير الذي بدا يتحرك كصداع نصفي في رأسه. حينما اقترب من الحديقة الكبيرة عادت إلى رأسه كلمات الطبيب الشرعي لمستشفى محمد بوضياف الذي نطقها ببرودة الميت وهو يسلمهم جثة ابن عمّه. للأسف ابن عمّك مات منتحرا.

قال له الماركسي. حتى الانتحار فلسفة، لو كان هذا الطبيب المزيف يفقه!

نظر إليه بغيظ، كان سيقول له، وهذه الرسائل، لكنه تراجع متحسسا أنه سيدخله معه في متاهات قد تقصر من عمره، أو تزيده بؤسا على بؤسه الذي يعيشه. لهذا فضل أن يكتم سرّه، ويتحمل لوحده عبء خطورة الرسائل التي تركها له ابن عمّه بعد أن حذره قبل أن يقتل من فتحها حتى يجد من يثق به في المحكمة. وكيل الجمهورية اشتراه ولد الصافي،

وأراد أن يرميني في (سبيطار سيد الشحمي^٥) قالها ناصر، وهو يرتجف بذراع واحدة. ثم أضاف لا أريد أن يعرف عن هذه الرسائل أحد. سأتدبر أمرها إن لم يحدث لي مكروه، وسأسافر بها للعاصمة لأسلمها لولد بلخوش. سمعت أنه (حكومة^٦). نظر إليه لم لا تسلمها لعمي بلخوش، وهو يسلمها لابنه حينما يعود؟

أنت لا تعرف شيئاً يا جمال! ثم نظر نحو ذراع المبتورة. مجرد أن أفكر بتسليمها لأي كان، سيصلون إليّ. أنت الوحيد الذي أثق به.

كانت هذه آخر جملة سمعها من ابن عمّه في تلك الليلة التي جاءه فيها هارباً.

توقف متحسّساً حمى تصاعدت من صدره قبل أن يجلس على المقعد الحجري المصنوع من الغرانيت قرب الساعة الشمسية التي بناها الضابط (كرافت هال ميير) ذات زمن ليستدل بها مُعَمَّرُو المدينة عن تقلبات الوقت الذي لم يكن يشبه هذا الوقت الذي أضحى متسارعاً، ومجنوناً، وكأنه يهرب نحو مستقر غامض.

نظر نحو الجدارية التي زينت بها الساعة وراح يتساءل في داخله كيف يمكن لهذه المزولة أن تقاوم هجمات الخراب المتتالي، ونحن فشلنا حتى في مقاومة رجل مثل ولد الصافي .

⁵مستشفى للأمراض العقلية بمدينة وهران

⁶معناه يشتغل في الأمن

في الطريق السريع الذي دخلته السيارة السوداء المتجه نحو نادي الصنوبر حيث بدأت تخف حركة الازدحام التي عادة ما كانت خانقة في مسار العاصمة برج البحري. فتح رئيس الديوان أول صفحة من التقرير الذي استلّمه وراح يقلب في صفحاته، رافعا في كل مرة صورة من الصور التي جاءت فيه، قبل أن يتوقف عند نفس الصورة التي قدمها له المقدم يوم التقاه في القاعدة البحرية.

تذكر أنه قال لحافظ الأختام إن الرئيس السابق للمجلس بدأ يحرك الماء الراكد، وبدأ يرسل في ملفات تدين الكثير من رجالات الدولة إلى النائب العام، ثم أضاف له بأنه على علاقة بنفس العضو الذي عارض دخول الجانب الصيني في المناقصات الكبرى. رد حافظ الأختام معيدا صورة الرجل داخل المغلف مغلقا على الملف في خزانته السرية: لا يمكنني فتح أي تحقيق، ولا حتى دعوة المجلس لاجتماع طارئ في هذا الظرف الحرج. السيد يريدنا أن نُسرع في عمليات التنظيف، وينسى أننا لا نستطيع تغيير كل شيء مرة واحدة.

أضاف رئيس الديوان، وكأنه قرأ أفكار المقدم الذي كان يردد في سرّه، وهو يرمي خطواته في الرواق الحجري البارد داخل القبو. أنتم لا تفعلون شيئا، حيال المعلومات التي نقدمها لكم !

كن متيقنا سيادة المقدم أننا نفعل كل ما باستطاعتنا، لكن لكل شيء وقته.

نفس العبارة التي رددتها حافظ الأختام إننا نحتاج للوقت قبل أن يردف: اسمع يا جعفر ! أنا أعرف جيدا الجنرال، وأعرف الرجل الذي وراءه، ربما نختلف معهم في تسيير الدولة، لكن مسألة الخيانة لا أعتقد! مفاعله المؤسسة القديمة رغم تجاوزاتها يبقى مهما لأنها حافظت على بقاء الجمهورية. قالها، ثم صمت برهة، قبل أن يلتفت عائدا إلى قاعة الاجتماعات. إلا الخيانة يا جعفر، لا أريدك أن تعيدها على مسمعي.

كان صوته يرددها قبل أن يسمع صوت رئيس الديوان. نعم سيّدي ! أنا أيضا قلت هذا الكلام للمقدم .

كان جعفر يستعيد كلام حافظ الأختام، وهو يقلب أوراق التقرير الذي جمعت فيه اعترافات أحد عملاء المؤسسة القديمة عن الخطط التي أراد رئيس الجندرمة الفرنسية تنفيذها في الأيام القادمة ضد شخصيات ورجال أعمال مهمين .

ردد في سرّه هذه معلومات أخطر من تلك التي أرسلوها في الملف الأول. لكنه كان يعرف أن رئيسه لن يغيّر رأيه بخصوص ما يطلبه السيد.

— أعرف أنه من الصعب إقناع المقدم، أو السيد بوجهة نظرنا، فليس الوقت وقت محاكمة رجل يتحكم بكل إدارة الأركان، والمخابرات قالها حافظ الأختام مستعيدا صوت الجنرال الذي راح يردد أمامه بعد أن أخبره بفوز الشركات الصينية بالمناقصات الكبرى التي أعلنها القصر.

الصينيون أوغاد، لن يهنأوا بها ! سيُدْفَعُهم إرهاب الإدارة ثمن جراتهم.

إن لم تتصرفا في أسرع وقت ستكونان مجبرين على تقديم إجابات للسيد دار هذا الصوت في رأس جعفر بعدما اقتربت السيارة السوداء من باب الفيلا التي انفتحت كراجها أتوماتيكيا.

جلس قسطنطين رجل الجندر ما من وراء مكتبه، وهو يحمل جهاز هاتفه مرددا

حسنا. لقد وصلت الدفعة الأولى لمراسليا.

.....

لكن عليك أن تلتقي بمدير الميناء، لترسل الدفعات الأخرى، فهو ينتظرك.

.....

مرسي مسيو علاوي، بون شونس bonne chance.

أقل الديك الفرنسي جهاز هاتفه معدلا من جلسته، وراح يتفحص وجه السمينية الذي قال له إنه مستعد لفعل أي شيء حتى يضرب عجوز المالع، ومن معه ضربة قاصمة .

هل أدركت حقا أن هذا العجوز هو من شطب اسمك من الدولة ؟

حرك السمينية رأسه في اللحظة التي دخل فيها الأصلع.

مرددا. ألم تبدأوا الاجتماع بعد.

كنا ننتظرك. رد قسطنطين.

أخذ الأصلع مكانه دافعا بجملته استيائه. لقد قمتم ببيعنا ميسو قسطنطين. نحن فتحنا لكم جميع أبوابنا، وجعلنا الجيش تحت إمرتكم، ومنحناكم أجواءنا لتدافعوا عن مصالحكم في الساحل، ووضعنا حتى القضاء تحت تصرفكم، وانظر.. أنتم لمن منحتكم الحكم. بين أيدي من!؟

حرك قسطنطين رأسه مساكاً بأطراف طاولة مكتبه. أنت على حق مسيو صحراوي! لكن نحن أيضاً باعنا الأمريكان، و باعنا نيكول، لكننا لن نصمت. ثم التفت نحو السمينة الذي لولب عينيه.

لهذا جمعكما اليوم. أريد أن أصحو كل يوم لأسمع خبراً عن الموت. أنت ستعمل على التفجيرات، وزرع الخوف في قلوبهم. يجب أن تعيد إلى أذهانهم صورة التسعينات.

قرب السمينة وجهه من الديك الفرنسي. هذا سهل جداً، ولكن قبل ذلك دعنا نقتل أولئك الذين شطبوا أسماءنا من الدولة!

إذا قمت أنت بالعمليات عسكرية ضد رجال الدولة، ماذا سنفعل نحن؟! أجاب الديك رافعاً يده متفرساً في وجه السمينة الذي قام من مكانه.

هذا شرط قبل أن نبدأ في تنفيذ عملياتنا.

حسناً، إذن عليك أن تتسق مع مسيو صحراوي فهو يعرف أصدقاءه القدامى .

انكمش الأصلع في مكانه. أنتما تعرفان أنني رجعت حديثاً للعاصمة لأجل البدء بمرحلة جديدة، وقبل أن نفعل أي شيء، عليك بتنفيذ وعدك بإصلاح أمورنا.

هز الديك رأسه. أنتما قوما بعملكما، ونحن سنعيدكما لرأس المؤسسة، لكن احذرا أن تفعلوا شيئاً دون أن تعودا إليّ! قالها وهو ينظر نحو الأصلع.

كان عليّ أن أفعل ذلك حتى يعرفوا أننا عدنا، ولم يعد الوقت وقت اختباء. وأنا مازلت على وعودي السابقة لكما. هذا تطور جيد نطق السمينة. ثم أضاف متسائلاً: ماذا سنفعل بالرجل الميت الذي عاد للبحث عن مجموعته القديمة؟

دعوه لي ! نطق الأصلع، ثم أضاف رافعا ناظره نحو الديك الفرنسي.
أنا سأهتم بآينه، وأنت ستطلق النار على الذين يحمونه.

ضحك الديك. لن يحميه أي أحد! بلغ عنه أنت المستشار، وأنت ستري
إن كان سيجد أين يختبئ، و دَع الباقي علينا.

عض الأ صلع على أسنانه بعدما تراءى له وجه الرجل الميت، فصمت
دون أن يضيف شيئا.

اسمعا جيدا، أريدكما أن تركزا في شغلكما، ولا أريد أي اتصال. سأعود
للجنوب لأنهي أمرا مهما، وبعدها وسترياني وعدي لكما.

إذا وصل عجوز المالمع للوثائق فسننتهي جميعا، وينتهي عملنا بالجنوب.
نطق السمينة.

لن يصل إلى شيء تأكد، مادمت تقوم بعمليات داخل المدن، فسئسل
على رجلنا التحرك في الجنوب.

أنهى الديك كلامه وبقي ينظر للعميلين اللذين بقيا يتحدثان إلى بعضهما
البعض بتوتر كما لو أنهما غريمان، مستعيدا صوت علاوي الذي قال
له إن عجوز المالمع يضغط عليه.

نظرا إليه بصمت، وهو يمسك بفنجان القهوة في مكتبه.

تأكد مسيو علاوي أن القصر لن يستطيع أن يفعل شيئا دون إذن منا،
لهذا لا تفكر في تهديداتهم .

أنت تعرف أننا كنا دائما ندعمك، ولازلنا.

ارتشف علاوي رشفة من فنجان قهوته بعدما انفتحت أساريه لكلام
العميل الفرنسي الذي بدا واثقا من خطته التي ستفتح مرحلة جديدة
بالبلد. ثم فجأة تلبد مزاجه بعدما وقفت في رأسه صورة الرجل الكبير.

هل يعلم الرجل الكبير بهذه الخطط؟ جاء صوت علاوي مندفعاً.

قلنا له إننا سندعم مجلسه. أجاب قسطنطين

أوكي(ok)، ميسو قسطنطين. سأفعل ما تطلبونه.

في هذا الطرف نريدك أن لا تتوقف عن تحريك الشارع في الجنوب حتى لا تلتفت انتباه أصدقائك الأمريكيان. تصرف بصورة طبيعية مثلما فعلت دائماً، وأخبر أصدقائك الذين لا يزالون يفكرون بالاستثمار إن الأمن غير مستتب، و أن النظام منقسم على نفسه. رد قسطنطين بعد أن رشف رشفة أخرى من فنجان قهوته. ثم أضاف وهو يدفع بيده ملفاً لقائمة الجنرالات الذين سيخرجهم القصر من الباب الضيق.

أنشر هذه القائمة !

التقط علاوي الملف، وتقرس في إمضاء الرئيس تحت قائمة الجنرالات الذين سيخرجهم القصر بعد أن وصلوا لسن التقاعد.

أنت تعرف ميسو قسطنطين أن نشر قائمة مثل هذه لها نتائج سيئة على الصحيفة، وعلى كل أعماله، وقد بدأوا يفتحون السوق لرجالهم لمنافستي.

حينما تقطن السيد قسطنطين لذكاء السيد علاوي قال له، وهو يبتسم.

الآن فهمت لِمَ طُلِبَ منا أن نُسلمك هذا البلد.

ضحك السيد علاوي :شكرا ميسو قسطنطين، الصداقة تتطلب الثقة .

الثقة هي القوة التي نمحك إياها ميسو علاوي، ثم مدّ له يده مضيفاً: المهم اتفقنا .

اتفقنا ! رد السيد علاوي وهو يصافح العميل.

لحظتها استفاق قسطنطين على صوت الأصلع الذي بقي يردد في وجه السمينة. يمكنني أن أتدبر الخرائط من أصدقائي القدامى، ولكن عليك أن تباعد عن رجال الأمن، لا أريد أن يقتل رجل آمن واحد.

هز السمينة رأسه ناظرا نحو الديك. غدا ستقرأ عن الموت في شارع حسيبة.

دخل جعفر إلى فيلا موريتي، وصعد مهرولا نحو مكتب حافظ الأختام الذي وجده يتصفح في جريدة باللغة الفرنسية كان قد أحضرها ساعي المجلس، مرددا في سرّه : أي علاقة تجمع بين الجنرال، و الرجل الأجنبي. ثم راح يضع الجريدة جانبا قرب الأوراق التي بدت مبعثرة على سطح طاولة مكتبه بجانب مجموعة من الصور. التقط منها صورتين كانتا موضوعتين في حاشية الطاولة حينما أحس بصوت خطوات سكرتيه قد توقفت. التفت ناظرا إليه مشيرا له ليجلس حتى ينهي ما كان يبحث عنه.

قبل أن تخبرني عن أي تقرير من تقارير السيد، أريد أن أسألك من سرب قائمة الجنرالات التي كنا سنحيلهم على التقاعد.

صمت رئيس الديوان، ثم أجابه. القائمة وصلت للقصر كما أمرت سيّدي، ثم أرسلت إلى مراكز التنفيذ. لكني لا أعرف من سربها للصحافة

اسمع يا جعفر أعرف أن تخمينات السيد كلها صحيحة حول خيانة بعض الأعضاء، ولكن مع ما يحدث في كواليس القصر، و ما يحدث في الجنوب سنجد أنفسنا مكبلين. انظر لقد سربوا كل جلسات المجلس، وتقاريره التي وقع عليها الأعضاء. قالها وهو يرفع صورة لأحد رجال الأعمال. انظر أليس هذا الرجل هو صاحب الجريدة الذي شطبه القصر من الوزارة.

كانت الصورة مأخوذة لسيد علاوي وهو يسلم حقيبة سوداء لأحد الحراس الشخصيين لعضو المجلس، ثم راح يقلب الصورة الأخرى وإذا بنفس الرجل مع عميل المخابرات الفرنسي يجلسان على طاولة عشاء.

اقرأ ما يقوله عن القصر ! أضاف حافظ الأختام

أخذ جعفر الجريدة، وبدأ يتتبع في سطور الافتتاحية التي كانت تشير إلى أن القصر بدأ يسرح في الجنرالات المتورطين في قضية طابيا.

ثم فتح الجريدة فقرأ عنوانا كبيرا في الصفحة الأولى كُتب بالبند العريض: رئيس حزب يتهم رئيس المخابرات بالتهاون الأمني في الجنوب.

ثم قرأ عنوان جريدة أخرى بالفرنسية كُتب فيها بالبند العريض، وباللون الأصفر. جنرالات في الأجهزة الأمنية سيحالون على التقاعد.

المحكمة السويسرية تكشف عن مدخرات وزير الطاقة في بنوك سويسرية ٢٠٠ مليون أورو .

خبر آخر عن صفقات شراء شقق، وفيلات في باريس لمسؤولين مهمين في الحكومة.

نظر جعفر لوجه حافظ الأختام الذي رفع رأسه مرددا. من أين نبدأ إذا كانت كل هذه الأخبار، وكأنها هجمة شرسة! أعرف أنك جئت بتقارير أخرى عن هؤلاء، لكني أخبرك أننا لانستطيع أن نفعل شيئا. ثم فتح ملفا كان على طاولته، وقال لسكرتيه اقرأ هذه الصفحة.

تقرير من الأركان.

تغييرات كبيرة ستمس المناصب العليا في الجيش. ثم فتح الجريدة. انظر لهذه القائمة، وقارن بينها، وبين التي أرسلناها للقصر !

سأل المساعد من هذا الذي يمكنه استعمال، خاتم الدولة؟

هناك تباين كبير. بين القائمتين !

عادة التقارير تأتي عن طريق الجنرال إلى المجلس. لكن هذه القائمة جاءت من القصر ممضية من الرئيس، ولا أعتقد أن أمرا كهذا سيمر على الجنرالات بسهولة.

إذن ما العمل سيادة الرئيس؟! سأل بعد أن نسي تقريره الذي استلمه من المقدم.

لا شيء يا جعفر! نبش ما تحت الحجر في هذا الظرف، يعني إعلان حرب ضد أجهزة الدولة، وأنا لا أستطيع أن أجازف. لهذا سنقف في الحياد، ونترك هؤلاء الذين يتكالبون على السلطة، لنرى من سينتصر في النهاية.

وماذا عن السيد؟ سأل جعفر

السيد، يفعل ما يراه مناسباً.

نظر مصطفى بعد خروجه من المطار نحو السماء الصافية للعاصمة التي غادرها مرغما، متسائلا كيف لم يفكر بالعودة رغم أن التهم التي صدرت بحقه، حينما سافر في ذاك اليوم المشؤوم مع سوزان، قد أسقطت بفعل قانون المصالحة الوطنية قبل هذا الوقت بكثير. حتى أن جل أعماله في السنوات الأخيرة ارتبطت بشركات مع رجال أعمال من بلده. أما الشركة التي أسسها منذ أكثر من أربع سنوات فهو لا يراها إلا عبر الكاميرات المتصلة مع شبكة الأنترنت. أخبرته زوجته سوزان أن هؤلاء الذين يقول عنهم إنهم شرّكاء سوف يورطونه، وستكون أول ضربة له من خلال هذه الشركة التي لم يزرها يوما، لكنه قال لها إنه مُساندٌ من رجال كبار في الدولة، وشركته تشتغل في السليم.

في السنوات الماضية ربما كنت أوافقك، لكن بعد أن بدأ التناحرن لأجل السلطة في بلدك يظهر للسطح، فلا تنتظر أنهم سيفكرون في صداقتك لهم؟ قالت سوزان.

فكر وهو يمشي بجوار شريكه الذي استقبله في القاعة الشرفية للمطار أن هواجس زوجته التي أبغدها بصعوبة في كل مرة كما لو أنه يعاند أحاسيسا كان هو نفسه يشعر بها من خلال نبذة شريكه التي تغيّرت في الأشهر الأخيرة، وأصبح يعتمد الهروب من أسئلته عن الشركة، وعن صحة الأخبار التي كانت تتداولها الكواليس في السفارة الجزائرية بفرنسا.

قال له آخر مرة التقاه فيها في باريس أن هناك جهات تريد توريط رجالات الرئيس.

صمت السيد هوارى، ثم رد بعد برهة من التفكير: كلام جرائد فقط ياشريكي، أنت تعرف أن التغيرات الحكومية الأخيرة قد أثرت في الساحة السياسية خاصة مع مجيئ طبيب العظام لوزارة الصحة،

والتوقيفات المتكررة لمدراء المؤسسات الاستشفائية التي بدأها حتى أصبح كلٌ يشتكى منه خاصة بعد أن فرض المراقبة الشديدة على المخابر التي نستورد منها الأدوية، وأدوات التجميل .

هذا الوزير شكاك ! قال مصطفى

ليته كان شكاك فقط، بل مصاب بهوس إسرائيل. أتعرف أن هوسه أوصله لإرسال لجنة وزارية للمخابر التي نتعامل معها في المكسيك.

ضحك مصطفى، يعني أنهم يخافون أن تكون أدويتنا مستورد من إسرائيل !

بلى، لهذا لا أريد أن أشغلك بهذه الترهات.

هز مصطفى رأسه يومها، وفكر أن أمر المراقبة أمر عادي.

أما في المرات الكثيرة التي كان يتصل فيها بشريكة عبر الشاشة الصغيرة للحاسوب التي كان هوارى يحرص فيها على الحديث عن الشركة، كان يحدث ذلك حينما يستلم شحنة الأدوية فقط التي كانت تشحن من باريس ليستلمها رجاله ويوزعونها ضمن الشبكة التي يتحكم فيها الرجل الدبلوماسي الذي اشترط على مصطفى عند لقائه بالسفارة في باريس أن تكون الإدارة، والتسيير تحت وصاية أحد شركائه المسمى هوارى الوهراني.

حينما التقى بالجنرال الذي كان وراء الرجل الدبلوماسي، وأراد أن ينقل إليه تخوفه من الأحداث التي يسمع عنها في البلد، والتي اشتكى منها الصينيون أنفسهم بعدما أصيبوا بقوبيا مواعيد التسليم التي التزموا فيها بتسليم المشاريع. صمت الجنرال، ثم طلب منه أن يقول لهم إن عليهم أن يدفعوا أكثر مما كانوا يدفعونه في السنوات الأولى .

بقي منذ ذاك الحين يفكر كيف أنهم انقلبوا عليه ليجد نفسه بين فكي كماشة لا هو يستطيع خيانة موكله، ولا هو يستطيع الرضوخ لضغوطات الرجل الدبلوماسي، وجزأه.

نظر مصطفى إلى وجه هوارى الذي طمأنه أن أمور الشركة تمشي مثل الساعة، وما يحدث للمستوردين لن يمس شركتهم لأنهم يتبعون القوانين ولا يوجد أي خطر.

كانت ملامح هوارى قد تغيرت كثيرا بعد مرور عشرين سنة حتى أن مصطفى ما كان ليعرفه لو لم ينطق الرجل الدبلوماسي باسمه قبل أن يعانقه مرددا: هذا أنت سي هوارى! سعيد جدا أنك حضرت بنفسك لاستقبالي قالها مستعيدا ذكرياته يوم التقاه أول مرة في باريس.

رد هوارى: (كنت دوما نقول غير الجبال اللي ما يلتقش)، أما الرجال فيلتقشون حتى وإن قطع بينهم البحر. إذن، سأكون أنا الغريب بينكما ! نطق الرجل الدبلوماسي راسما ابتسامته، ثم أتبعها بقهقهة مربتا على كتف مصطفى. وباليه الآخر رفع سقاره الكوبي. الغريب الوحيد هو الشيطان ! أما أنت سيادة المستشار، فأنت الملاك الدبلوماسي الذي لاقى بيننا . رد مصطفى بلباقة رافعا في كأس الويسكي. ضحك هوارى بعد أن توردت جبهته العريضة رافعا هو الآخر كأسه. نخب شراكتنا التي تبدأ من (كان) بلاد الجن، والملائكة. ردد الجميع مرة واحدة، وهم يقرعون جوانب كؤوسهم ببعض في لقطة تشبه لقطات الأفلام الأمريكية قبل أن ينطق الرجل الدبلوماسي مرة أخرى: أكيد سيكون لنا أعمال أخرى مستقبلا مع سي مصطفى. فبلادنا اليوم غير التي تركتها في التسعينات. انظر لهذا الشاب الجزائري الذي يجمعنا اليوم في قصره، هو مثلك شاب طموح نموذج لرجل الأعمال الناجح، أنت أيضا يمكنك أن تكون مثله في بلدك. لهذا ستكون شركة (فارمستيم) بدايتنا معا، وسأكون في حسن ظنكم . رد مصطفى.

من يومها أصبح هوارى الوهراني مديرا مسيرًا للشركة، و أول من حَضَرَ لاستقباله في مطار (هوارى بومدين) بعد أن راح يرحب به،

وهما يمشيان في رواق المطار جنباً إلى جنب، مردداً في كل مرة. عودة ميمونة سي مصطفى، العاصمة نورت. منذ لقاء باريس ! أليست رائحة بلدنا أجمل يا شريكى؟ قالها مستطرداً، مصدراً قهقهة حادة قبل أن يشير لرجل من معاونيه بأن يهتم بإجراءات سحب الأمتعة، ولآخر كان قد وقف ينتظر إشارته، بأن يُحضر السيارة جهة القاعة الشرفية للمطار. شكراً سي هوارى أكثر من عشرين سنة لا شيء تغيّر فيك ! قالها محرّكاً ذراعيه للتخلص من تعب بدا على وجهه الشاحب قبل أن يصمت لبرهة مستعيداً جرحاً طالما عذبه في منفاه، منذ غادر بلده مثل هارب.

سأله كما لو أن السؤال قد انفجر في حلقة الجاف. هل وصل والذي للعاصمة ؟

هز هوارى رأسه : غدا على أكثر تقدير ، ستلتقيه، لا تقلق ! أرسل البارحة رسالة، وقال إنه سينهي بعض الأشغال، وسيحضر في الموعد.

مط مصطفى شفته السفلى ناظراً نحو شريكه الذي بقي يتتبع حركة رجاله الذين أحاط بعضهم بالمكان، وبعضهم الآخر راح يضع حقائب السيد مصطفى في صندوق السيارة، ثم التفت جهة صوت مصطفى الذي استطرّد: ايه... ياسي الهوارى، نصف عمري قضيت في الخارج، ولا أدري كيف نسيت فيها والدي ؟ أضاف بنبرة حزن بعدما رأى نظرة شريكه المتفحصة تبحث عن شيء ما، قبل أن يسأله، نطق هوارى وهو يشير بيده نحو السيارة التي توقفت أمامهم في مدخل قاعة التشرّفات : الآن يمكننا أن نذهب سي مصطفى !

فتح أحد الرجال باب السيارة السوداء محرّكاً جسده كاملاً بالترحيب منحنيًا مثل راهب بوذي. تفضل سيّدي.

أحنى مصطفى رأسه بعد أن مرر آخر نظرة على واجهة المطار دافعاً بجسده داخل السيارة الهامر، المصفحة، و المضادة للرصاص قبل أن تتحرك بهما خارج المطار متوسطة بين سيارتين سوداوين من نوع مرسيدس للحرس الخاص.

بدأت ملامحه توهي بالدهشة، وهو ينظر نحو البنايات الزجاجية الشاهقة التي استحدثت بالقرب من المطار كما لو أنه يريد أن يقول شيئاً لشريكه (من قبيل تبدل وجه العاصمة. وأن هذه المشاريع الكبرى ما كانت لتتجزأ لولا إرادة الرئيس الجديد، وأنّ الصينيين عفاريت !)، لكنه عدل عن هذه الفكرة، بعد أن حضرته عبارة الرجل الدبلوماسي عن قدرة شريكه على التحمل، وإبهار شركائه دائماً في الأوقات التي لا ينتظرونه فيها .

كان سيقول له: أي نوع من الرجال أنت ياسي هواري؟" لكنه تراجع حينما رآه شارد الذهن هو الآخر. في تلك البرهة الشاردة قفز صوت الدبلوماسي في رأس هواري بعد لقائهم بباريس، متحدثاً عن الامتيازات التي أضحي هذا الرجل يحصل عليها من أصحاب القرار، وكيف أنه استطاع أن يكون وسيطاً مهماً بين الصينيين، والقصر، ويكسب ود الجميع بمن فيهم الرجل الكبير الذي كان مهتماً جداً بدخوله للبلاد.

قال في سرّه. ها أنذا أوفيت بوعدتي، وأدخلت رجلكم المهم للبلاد !

أغمض عينيه على هذه العبارة التي بقيت عالقة في ذاكرته يوم أرسل له برقية تخبره بموعد مجيئه للجزائر. قال له وهو يرى صورته الحية في هاتفه الخليوي: أدرك أنك لم تأت استجابة لطلباتي المتكررة التي كنت أرسلها إليك، بل لأنك اشتقت لوالدك ! لهذا سأختصر عليك هذه الحيرة، وأعلمك أنه بخير، وأنه بلغني رسالة بعدما أخبرته بشراكتنا، وقلت له إنك تنوي الدخول للجزائر لأجل رؤيته، لكنك لا تستطيع أن تأتي إليه للمدينة في هذا الوقت العصيب، لهذا قال لي بأنه سيحضر للعاصمة ليلتيك. تبسم له مصطفى من وراء شاشة الهاتف، فاتحاً عن أساريه. كنت أعرف أنك ستفاجئني بأمر ما، لكني لم أتوقع هذه المفاجأة الرائعة يا صديقي هواري. شكراً لك من كل قلبي ! قالها وهو يحدق في وجهه الذي عكسته صفحة الشاشة الصغيرة بفرح طفولي، متتهداً بعد أن نادى زوجته سوزان. وراح يردد عليها مثل طفل: تعالي سوزان، اسمعي ما قاله شريكنا. أخيراً رضي أبي أن يلتقيني !

ابتسمت له وهي تطوق عنقه بذراعيها من خلفه، مبصرة وجه شريكهما
هواري الذي حيّاها بيده من داخل شاشة جهاز الهاتف.

فكّر مصطفى محدقا نحو شريكه الذي بقي شارد الدهن وهو ينظر نحو
البنائيات الزجاجية التي استحدثتها الرئيس الجديد، متسائلا :لم أكن أظن
أن والذي سيقبل بالمجيء للعاصمة، ماذا فعلت له ياسي هواري؟
نطقها، ثم أضاف وهو يلتفت لزوجته، لم أكن أعرف أن شريكنا يمكنه
إقناع والذي بهذه السرعة ! أعرف مزاج والذي، دائما يقسم بأغلظ
أيمانه للجميع أنه لن يغادر مقهاه سوى إلى القبر. فكيف به يغادر
المدينة كلها، ولو قالوا له أن الجنة مفتوحة في مكان آخر ! أضاف
بغربة، ثم صمت مرة أخرى.

كانت أوجاع الماضي تطارده بعد أن قطع كل علاقاته بوالده، وبرفاقه
بالمدينة خاصة بعد التحاقه بجماعة أبي نصر التي قامت له بعملية
غسيل مخ لم يصدق حتى بعد أن أصبح رجل أعمال معروف أنه قد آمن
يوما بأفكارهم الأو صولية المتطرفة ليصبح مستعدا للموت لأجلها حتى
كاد أن يقوم بقتل والده دون أن يرفّ له جفن. لكن قدره تغيّر في آخر
لحظة حينما زرعت فيه سوزان مع السيد الوشني معنى أن يفكّر بعقل،
و يحب الإنسان، ويتصالح معه، ومع نفسه أولا. بدا له الطريق الذي
سلكه مع الجماعة يوم دخلت البلاد في دوامة قتل كما لو أنه دخل طريقا
جحيما، ماكان ليعود منه سوى في صندوق هذا إن وجد من يعيده
لمدينته.

أعادته أفكاره لوجه شريكه الذي انشغل لحظتها بهاتفه بعدما وصلته
رسالة من رجله بالمدينة.

أدار وجهه بعد أن قرأ رسالة هاتفه. كما قلت لك سي مصطفى غدا
سيأتي عمي منصور مع سائقي.

أراد مصطفى أن يطلب منه أن يكلمه، لكنه لم يستطع نطقها. شعر بنوبة
خوف ورعب. كيف سيكلم العجوز ! وماذا سيقول له بعد كل هذا

الغياب؟ وجد نفسه قي النهاية عاجزا، فأدار وجهه بصمت نحو واجهات المباني التي تغيرت بفعل البحوحة التي ردهه الدبلوماسي على مسامعه حينما قال له أدخل بلدك مادامت (البحوحة المالية ياسي مصطفى) !

سمع صوته، وهو يشير له كيف أن بلده قد تغيرت كثيرا.

كانت المباني الزجاجية الشاهقة تشده على طول الطريق الذي قطعه من المطار خاصة مع تلك الزحمة المرورية، والتوقيات المتكررة التي أضحت وجها يوميا للعاصمة. في كل مرة تتوقف بهما السيارة، فتتناهى إلى مسامعه أصوات ركاب حافلات النقل الحضري وهم يصرخون في تدمر فتعيده صراخاتهم لعبق نكهة ناس مدينة وهران، وضجيج شوارعها الكبيرة من (لافك سونطرال) إلى غاية (بلاص دارم)، مرورا (بالمدينة الجديدة) التي سأل عنها مرة واحدة شريكه حينما التقاه في باريس. قال له بحسرة، وهران لم تبق كما كانت.

أحس يومها بغبن غياب صور طفولته في أوربا، شاعرا بانفلات أحاسيسه المرفهة التي كان يحاول استعادتها عبر اللوحات التي كان يرسمها في غرفته الخاصة بعدما شجعت زوجته كي يعود للرسم، ليتخلص من كوابيسه التي كانت تطارده في السنوات الأولى من استقراره في لكسمبورغ بعدما أسر لها بأنه لم يعد يطبق رؤية وجه الأستاذ الوشني مدرجا بدمه في منامه. كانت مجمل اللوحات التي صفتها زوجته في تناسق في غرفة القبو تُهَرَّب الكثير من صور الرعب الذي حدث يوم بدأت آلة الموت تتحرك في وهران. كان يتخلص من توتره عبرها كما كان يفعل في مرافقته مع تلك الصور التي تشبه بورتريهات لنساء كان يرى فيهن وجه أمه التي لم يعرفها، ولم يرها.

تنظر سوزان أوسو إلى وجهه فترى غابة حزن تكبر كلما غرق في صمته فتستعيد يوم تعرّفت عليها، وأحبته من أول نظرة، أو بسرعة المائة كيلومتر في الساعة كما كان يردد عليها حينما كانت تقول له إنها أحببت خجله الذي يشبه خجل العظماء. ثم تقربُ منها نحو شفاهه مرددة عليه أنه ملاكها الحوريّ حتى حينما كان يركن صامتا في آخر المدرج،

كما لو أنه يعيش غربة من دراسته في الجامعة. رغم ذكائه الحاد، وسرعة بديهته في الإجابات التي كان يرد فيها بخجل كلما فاجأت شروده عن المحاضرة بسؤال مباغت.

من يومها راحت تتقرب منه، و تشجعه كي يخرج من عزلته خاصة بعدما صرح لها فجأة أنه لا يرغب في الدراسة.

كانت سوزان ذكية في تعاملها معه بعد أن أصبحت تهديه كل مرة كتابا من الكتب التي كانت تحضرها معها خصيصا للمحاضرة. وتخبره بأنها مهتمة بمعرفة الإسلام الصحيح، الذي كان يفكر يومها أنه الوحيد الذي كان يهتم بتطبيقه، بين كل أولئك الطلبة المستهترين. تنظر إلى عيونه الخضراء وهي تحدثه عن الإنسان، وعن الحب، فينكس رأسه خجلا. ثم تصمت لتتركه هو الآخر يتحدث عن مشروعه الإسلامي الذي زرعه أبو نصر، و الرجل الأفغاني في رأسه، حتى صار يعتقد أنه الحل الوحيد لمعضلات العالم. قبل أن يحدث ذاك الانعطاف التاريخي في حياتهما جراء اغتيال السيد الوشني، واتهامه بقتله، وهروبه معها في النهاية إلى لكسمبورغ بعد تهديدات الموت التي وصلتتهما من جماعة أبي نصر الذين أحسوا أنه كان يخدعهم حينما راح يخفي عنهم حقيقة ما كان يحدث في تلك الاجتماعات السرية التي كان يقوم بها السيد الوشني في بيت الأنسة سوزان.

حينما وصلا إلى لكسمبورغ فتحا معا مكتب دراسات تقني، و بدأ حياة مختلفة جدا، بعد أن تزوجها، وراح يؤسس حياة جديدة بعلاقات وفرتها له عائلته الثرية، التي فتحت له في مدة قصيرة تعاملات مع رجال أعمال مهمين، جعلت من مكتبه الدراسي، معروفا على المستوى الأوروبي، والعالمي. كان من السهل عليه كرجل أعمال ذكي أن يتعرف على رجال مهمين من بلده بعد أن قدم لهم خدمات مع شر كائه من الصينيين، والأمريكان.

في الطريق المزدوج تقطن أن عليه أن يشير لشريكه بأن يأخذ طريقا مختصرا في اتجاه فيلا زوالدة التي كان قد اشترىها من (كينغ

الراي)الذي التقاه في حفلة أقامها رجل الأعمال الشاب —(كان) بعدما أنهيا كل معاملات الشراكة بينهما. يومها بدأت تتدابه فكرة العودة لرؤية والده لهذا لم يتردد بعدما وصلته رسالة شريكه بأن والده سيأتي للعاصمة. رغم أنه تلقى قبلها رسالة رسمية من جهات نافذة في الدولة تطلب منه الدخول لبلده كضيف شرف في منتدى اقتصادي كان سيقام بداية السنة حول أفاق الاستثمار. لكنه تحفظ ورد بدبلوماسية خاصة بعدما التقى برئيس البترونا الذي أسر إليه أن البلد مقبلة على فوضى عارمة.

فكر في كلامه حينما جاءته دعوة الرجل المخابراتي الذي أرسله الجنرال إلى مكتبه. قال له بعدما قدم الرجل نفسه على أنه مُرْسَلٌ من جهات نافذة بعد أن طرح عليه فكرة التخلي عن الصينيين إن كان لا يريد التورط معهم في المستنقع ! صمت مصطفى، ثم قال له إنه سيفكر في الأمر. بعدها بشهر وصلته رسالة على مكتبه في لكسمبورغ تلقتها سكرتيرته انجيم التي قالت له إن رسالة عاجلة قد وصلته من مكتب شركة (فارمستيم) تعلمه أن رجال من المخابرات يسألون عنه. لم يفكر أن الأمر سيتعلق بالانضمام إلى هيئة أرباب العمل، أو إلى فكرة طلب الجنرال، لهذا تلفن لشريكه وهو يمسك بالبرقية مستفسرا عنها. رد يومها شريكه أنه لا يعلم عنها شيئا، وأنها رسالة عادية سيتكفل بها هو بنفسه. ثم أضاف له أن انضمامه لأرباب العمل، وفسخ عقد وكالته مع الصينيين سيكون في صالح شركتهم، وفي الوقت نفسه هو تعبير عن وطنيته، وحبه لبلده لأن الصينيين أو غاد. رد عليه أنه يكفي أن يساعد بلده من وراء البحر، وأن أي دعوة له للدخول للجزائر لن تكون سوى محاولة للنيل منه !

وأن وطنيته ليس لها أي علاقة بوسطاته مع الصينيين. صمت حينها السيد هواري، ثم أردف قائلا : هذه الدعوة رسمية من أناس نافذين ، وبضمانات كبيرة. هم يطلبون منك الانضمام لهيئة البترونا التي ستتشكل من جديد بعد اغتيال رئيسها السيد علاوي. في تلك اللحظة

استحضر مصطفى صوت السيد علاوي، وصوت رجل المخابرات الذي أنهى حديثه يومها بأن السيد الكبير مهتم بدخوله للبلد.

يستعيد مصطفى صوت زوجته من داخل رأسه حينما حذرتَه بقبول أي دعوة تصله من الجنرالات. لكنه راح يهدئها بأن عودته ليست مرتبطة بأمور العمل، بل بروية والده. فكَرَّ أنه قد كذب عليها لأول مرة في حياتهما الزوجية بعد أن أحس بأنها تبالغ دائماً في حساسيتها تجاه مسؤولي بلده. قال في نفسه لا يمكنني أن أفوت فرصة العمر خاصة مع أناس هم أصحاب الدولة الحقيقيون. لهذا لم يتردد في عودته خاصة بعدما أدرك أن هذا الرجل هو الوحيد الذي يستطيع بنفوذه أن يقدم له التسهيلات الضرورية لتوسيع أعماله الاستثمارية الجديدة التي بدأها منذ تعرف على بعض رجال الدولة الذين كانوا يسألونه تحويل نسب الصفقات التي كان يجري لأجلها الوساطات مع شركات عالمية إلى بنوك في سويسرا بأسمائهم.

قال لزوجته مرة أنه لم يعد يفهم هؤلاء، من جهة يحرصون على إدخال أموالنا للبلد، ومن جهة أخرى يقومون هم بإخراج المليارات، ويضعونها ودائع في بنوك سويسرية. صممت برهة زوجته، ثم قالت له: هؤلاء هم من سيقضي على مستقبلك، ومستقلنا، ثم لاذت بالصمت مرة أخرى. اعتقد لحظتها أن زوجها تبالغ كما عادتْها بسبب حقدها على من يحكمون البلد لهذا رد عليها. ألا يكفي أنني وثقتُ وساطة مكتبنا مع الصينيين. بقيت سوزان صامتة.

مرت شهور على حديثه مع زوجته لكنه بقي دائماً يسلك طريق التحفظ أمامها، ويتهرب أحياناً من إعطائها جواباً صريحاً عن أسئلتها التي لم تكن تتوقف كلما جاءتْه برقية، أو هاتف من بلده، أو أي دعوة من أولئك الرجال الرسميين الذين كان يلتقيهم في حفلات السفارة في البلدان الأوروبية.

فَكَرَّ أن يحمي جانبه من خلال جهة لها نفوذ في الدولة الخفية.

قال في نفسه، وصوت زوجته سوزان يدور (كما توريلون) في رأسه بعدما حذرته بأن التعامل مع أولئك يشبه اللعب بالنار.

— لن أفوت فرصة ضرب عصفورين بحجر واحد. قالها بعدما أحسها تنظر إليه بنوع من الحزن، والحدسة مرددة: أرجوك مصطفى لا تذهب إليهم في هذه الظروف.

فتح لها عن ابتسامة، ثم عانقها: لا يمكنك حبيبتي أن تجعلني من ترهات الإعلام تسيطر على عقلك. كل ما تبثه تلفزيوناتكم مجرد تهفُّؤاتٍ. الجزائر ليست جزائر التسعينيات. لقد تغيَّرت أشياء كثيرة منذ أن جاء الرئيس الجديد. صارت بلدا آمنا، و لست هنا لأذكرك أن أصدقائي الفرنسيين، وحتى الأمريكان هم من يقول هذا. كلاً ! بلدك لم تتغير. قالتها وهي تضع رأسها بين راحتيها. اقترب منها، ضمها إليه، ثم أرفف. تركناها تحترق في سنوات الماضية، لكن ليس بالصورة التي كانت تصورها قنواتكم. حينما وصلنا إلى هنا، أنذركين ! ألم يأت كل صحفي هذه التلفزيونات، وقالوا لنا، عليكم أن تقولوا أن الجيش يطاردكم، وأنه يقوم بذبح شعبه. أليس هذا ما أرادوه ؟ ردها مرتين بعدما أجهشت أمامه بالبكاء قبل أن تضع رأسها على صدره. رفع لها رأسها، ثم قبلها، وأخذها من ذراعها، وجلسا معا على الأريكة وراح يمسح دموعها. لم تستطع سوزان لحظتها سوى أن تلفه بذراعيه محركة خدها على رقبته. لا عليك حبيبي، يمكنك أن تسافر، ولكن ليس لرؤية أولئك الرسميين، بل لرؤية والدك فقط !

كان يدرك أن زوجته ليست مخطئة في تشكيكها بأولئك المسؤولين، لكنه بالمقابل لم يكن يريد أن يسيطر عليه خوفها .

قال في نفسه رغم تكالبهم على الرشاوى، و النهب بتلك الطريقة التي لا تشبه سوى طريقة قطاع الطرق الذين لن يطول بهم الطريق حتى ينكشفوا، إلا أنه لن يدخل لعبتهم خاصة بعدما طمأنه أحد أصدقائه من المستثمرين بضمانات القصر. وبأنه سيكون أحد رجال البترونا الممثلين لها في الخارج مادام لا يريد الاستقرار في بلده .

تنهد بعد أن فلتت منه عبارة " ربي يجيب الخير ! " قالها لزوجته بلغة عربية كانت تفهم منها الكثير. ردت وهي ترفع رأسها . أمين .. بعد أن ودعته في مطار فيلدن. استعاد غفوته في الوقت الذي تراءت له فيلا زرالدة التي حيث توقفت أول سيارة من سيارات رجال الحراسة أمام كراج سورها الكبير.

اعتذر رئيس الديوان في اليوم الثاني حينما تلفن له المقدم يسأله عن ردهم. نحن نعتذر، لا يمكننا مساعدتكم بأي شيء.

لا أعرف ماذا يفعل رئيسك في ذاك المجلس مادام لا يستطيع فعل شيء. جاء صوت المقدم متوترا دون أن يفكر بعد أن قلل من سرعة سيارته التي كانت تقترب من ميناء سيدي فرج. عليكم أن تفهموا أن المجلس لا يستطيع أن يشارككم هذه الحرب، هذا ما يقوله الرئيس. أنتم قوموا بوظيفتكم. أضاف رئيس الديوان قبل أن تتلاشى مكالمته في الفراغ.

التفت المقدم لملازمه الذي بدا صامتا، شادا بين أصابعه سيجارته التي احترقت لوحدها طوال الطريق منذ خرجا من المكتب بعدما جاءت رسالة ثانية من الرجل الميت يطلب لقاء عاجلا.

كنت أعرف أنهم لن يفعلوا أي شيء. نطق المقدم كما لو أنه يكلم نفسه بعدما أحس بشرود ملازمه المخفي الذي كان غارقا في صورة السيدة زفيرة مع مراد دور كال الذي قال له يوم كان معه في الجبل أن تلك الفتاة التي أرسلها للعاصمة، لم تكن سوى حبيبته التي أحبها في مدينته قبل أن يزوجها والدها غصبا لذلك التاجر الإرهابي الذي قطع رأسه.

حرك الملازم رأسه متسائلا في سره. لماذا عدت يامراد؟ !

سأله هذا السؤال يوم التقاه في قرية بني بوبلان حينما كان يوارى جثمان صديقه عزيز التراب.

قال له يومها. موت رفيقنا عزيز ماهو إلا البداية، ثم أضاف له قل للمقدم إن هناك من بدأ يحرك في عناصر المؤسسة القديمة. ثم ذكر له أن ظهور عميل مثل السكين يعني أنهم سينفذون عمليات كبيرة.

اندهش المخفي يومها لسماعه اسم السكين الذي كان هو الآخر مسجلا كرجل ميت في السجلات الرسمية، لكنه لم يكن يعرف أنه عاد للوظيفة مع المؤسسة القديمة.

بعد أن تلقتي الرجل الميت سنعرف ما الذي يريده نطق المقدم بعدما أحس بشروود ملازمه، ثم أضاف في وجه ملازمه الذي التفت نحوه ، وفي رأسه كانت لاتزال تدور صورة الرجل الميت.

هل أخبرك مراد عن ارتباطات السكين؟ سأل المقدم . لا لم يقل أكثر من الذي قلته لك حضرات.

صمت المقدم.

وماذا عن قضية الرعية الفرنسي ! نطق الملازم بحيرة.

بسببه نعيش هذه اللخبطة. وحتى ربّ حافظ الأختام لا يريد مساعدتنا. تكلم المقدم بغضب، وكأنه يكلم نفسه، ويكلم في الوقت ذاته ملازمه.

ألم يقل إننا قمنا بعمل جبار. نطق الملازم ناظرا جهة النافذة. نعم ! هذا مايردده الجميع حتى رئيس ديوانه جعفر ، لكن حينما ترى أفعالهم تتعجب! لهذا عملنا سيبقى ناقصا مادمنّا لم نجد رأس الخيط قبل أن تحدث الكارثة.

لكن لماذا جاء مراد للعاصمة؟ سأل الملازم.

لهذا سألتك عن السكين؟ قاطعه المقدم، ثم أضاف. و إلا كيف تفسر مطاردتهم له، و لماذا أخرجوه بهذه الصورة؟ لا تندهش إذا ما حملوه كل عملياتهم القذرة التي سينفدونها.

زفر الملازم، وراح يردد. لم أعد أفهم شيئا !

من الأفضل أن لاتفهم ياعزيزي المخفي خاصة في هذا الوقت.

حرك الملازم كتفيه، مديرا ناظره نحو وجه المقدم الذي بقي يتكلم وهو ينظر من حين لآخر نحو واجهة البحر ، ثم انتبه ألم يتصل المساعد صفر سأل المقدم ملازمه.

لقد ترك رسالة بأن الطرد قد وصل للمطار نهار اليوم.

حرك المقدم رأسه مرردا في سرّه . إيه يامصطفى لا اعرف لم عدت وما تريد من مجيئك بعد عشرين سنة من الغياب !؟

بدا البحر يومها صافيا، و صامتا مثل طبقة زيت، قبل أن تقاطع شرود المقدم رنة رسالة كانت قد وصلت هاتفه.

أخرج هاتفه بتعجل فاتحا الرسالة.

اعتقد أنها رسالة من المساعد صَفَر. قالها بعدما راح الملازم يُشعل للمرة الثانية ما تبقى من عقب سيجارته التي انطفأ جمرها بين أصابعه.

حينما أرسل المساعد صَفَر رسالة مقتضبة للمقدم يعلمه بأنهم رصدوا مكان رجل الأعمال في الميناء بعد أن وصل إلى مكان المراقبة كان قد أخذ من يد العميل أرزقي المنظار الذي كان يرصد به تحرك رجال علاوي وهم يدخلون، ويخرجون بشاحنات صغيرة من المستودعات القريبة، ويدخلون ميناء الشحن.

بقي العميل أرزقي يتابع مع مجموعة من العملاء الذين تداولوا على المراقبة حتى وصلت الإشارة بأنه قد تأكد أن الهدف يقوم بتهريب أموال سائلة عبر الميناء من خلال حاملة نفايات الحديد التي تمتلكها شركته.

كان علاوي لا يزال يتكلم مع مدير الميناء في مكتبه، طالبا منه أن يسرّع في عملية النقل مع شركات أخرى لأجل كسب الوقت.

أنت تعرف أنني لم أتأخر يوما عن أي خدمة طلبتها مني سي علاوي، لكن هذه المرة، الأمر صعب جدا !

لقد بدأوا يرسلون مفتشين من الوزارة.

نظر إليه علاوي : تحدثنا عن الصفقة، وانتهينا، و أخذت نصيبك من محركات الطائرات الأمريكية، لهذا لن أسمح لك بالتراجع. ولا يهمني حتى وإن جاء الوزير بنفسه ليراقب ميناءك. إن أردت أن نرفع من عمولتك فأنا موافق، لكن عليك بتسريع العملية عبر شركة (سفي أرجون) المختصة بتصدير نفايات النحاس.

صمت المدير محركا رأسه. ما قام به رجالك طيلة أسبوع كامل جلب إلينا الانتباه، لهذا سيكون هذا آخر تعامل بيننا. الأمر لم يعد مثلما كان سابقا سي علاوي، عليك أن تفهمني !

أوكي OK ميسو محفوظ. أنهى هذا الشغل، وأعدك أنها آخر عملية.

في تلك اللحظة سلم المساعد صفر المنظار إلى العميل أرزقي بعدما حدثته نفسه بقتص الهدف حتى قبل أن ينهي كلامه مع مدير الميناء.

دفع مدير الجمارك يده ليصافح السيد علاوي في اللحظة التي خطفه صوت رصاصة اخترقت زجاج النافذة، وعبرت قلب علاوي الذي انحنى برأسه صارخا قبل أن يسقط على الكرسي.

قفز المدير نحو الجدار بعدما توالى طلقات الرصاص في غرفة مكتبه. انبطح زاحفا تحت طاولة المكتب حيث كان وجه علاوي قد تشنج من النزف. بدأت أصوات رجاله تتعالى، وسمع تبادل لإطلاق النار حيث بدأ رجال أمن الميناء يصبون رصاصاتهم في جهة الربوة المحاذية للبحر.

نظر المساعد صفر نحو أرزقي، ثم أشار له بالانسحاب، الهدف لن يتحرك مرة أخرى ! قال صفر

هز أرزقي رأسه بلى، حضرات، ثم صعدا السيارة التي أفلعت إقلاعة جنونية.

في الطريق فتح المساعد كناشة صغيرة كان قد أخرجها من جيب سترته وراح مشطبا على اسم علاوي مرددا. أرحناك من عناء قطع البحر أيها الخائن.

كل الأسماء التي كانت في ذهن المساعد قابلة للشطب هي لشخصيات نافذة أثبت تورطها في تخاير مع جهات أجنبية، وعربية، و في تهريب الأموال الصعبة عبر الميناء، أو عبر مهربي الصحراء الكبرى.

حينما قرأ المساعد صفر الملف الذي سلمه له السيد عن الأعمال الوسخة التي يقوم بها هذا الرجل مع شبكات تهريب الأموال التي ترتبط مع

بعض الأجانب. ففكر أن يعمق تحرياته حول شركات هذا الرجل فذهل للحقائق التي اكتشفها مصدره الذي أرسل إليه تقريراً يذكر فيه بأن مُصدري النفايات الحديدية يقومون بشتغيل شبكات البطالين الذين يقومون بتقطيع البنايات الحديدية، وتحويلها إلى نفايات للتغطية على أفعالهم، وأن هؤلاء يديرون شبكة تمتد من العاصمة مروراً بوهران، وتنتهي في الصحراء الكبرى، كما تقوم شبكة البطالين بالحفر، والتنقيب عن القنوات الزراعية التي تمتد لمئات الكيلومترات بين وهران وتلمسان، ليتم سرقتها خاصة تلك الخاصة بالمياه، والمنجزة في عهد الاستعمار وقد بيع القنطار الواحدة من هذه المادة بـ ١٨٠٠ دج. كما يقوم هؤلاء بسرقة المحولات الكهربائية المصنفة في خانة العتاد الذي يشكل خطراً على صحة الإنسان لاحتوائه على مادة الاسكرال التي تسبب أمراض سرطانية، الممنوع تداولها منذ ١٩٨٥، ولم تتجو حتى بالوعات قنوات صرف المياه القدرة من شبكات مُصدري النفايات الذين لم يكتفوا بهذه الأفعال، بل أضافوا لها تحريك الشارع حيث قاموا بدفع أموال باهضة لأجل إشعال فتيل الربيع العربي من الجنوب.

جذب المساعد صورة أخرى بعدما أنهى قراءة التقرير. وكانت الصورة لرجل مُلثج، رفعها أمام ناظره.

أليس هذا هو المدعو أبي نصر الذي تفاوضت معه المخابرات. سأل أرزقي وهو يرمي طرف عينه نحو الصورة.

بلى ! يريدون أن يقهروا به هذا الشعب.

وسيفعل أكثر من ذلك ماداموا قد سمحوا لرجاله أن ينشطوا في خلايا إرهابية في الساحل. قالها دون أن يلتفت للعميل أرزقي، ثم راح يقلب في صفحات كناشه، واضعاً خطوطاً تحت الملاحظات التي كان قد نقلها من ملف سري وقعه حافظ الأختام. دُونت فيه باللون الأحمر العريض. لقد تمت المصالحة مع هذا العميل، وغيّرت كل وثائق هويته، وهو يعيش الآن في الخارج. خرب الدولة، واستباح دم الأبرياء، ثم يسرح كما لو أنه لم يفعل أي شيء ! استطرد المساعد صفر في سرّه

بعدها أغلق كناشته وراح يستعيد الرقم السري الذي وضع أمام اسم أبي نصر ١١٥٤ . ثم أردف مادمتم دخلت هذا التراب الطاهر لن أسمح لك بأن تعيش يوماً واحداً.

وأين تريد أن أوصلك سيدي سأل أرزقي.

خذني لمقر السيد. ثم اذهب إلى حيث أمرك المقدم المهدي.

حرك أرزقي رأسه حاضر سيدي.

كانت السيارة لحظتها تتجه نحو أعلي العاصمة.

كانت الساعة تشير إلى الحادي عشرة صباحا حينما نزلت طائرة الخطوط الجوية الجزائرية القادمة من لندن على مطار هوارى بومدين.

بقي السياف يراقب عبر منظار صغير من سيارته التي ركنها بعيدا عن مدرج نزول طائرة البوينغ في اللحظة التي أمر فيها رجلاه بالدخول للمطار والاتجاه حيث ستوقف الطائرة .

حينما توقفت الطائرة، وتوقف معها صوت المضيفة التي اتجهت لفتح الباب الصغير المفضي إلى سلم متوسط الحجم، أنزل بطريقة آلية حتى لامس الأرض. نزل أبو نصر مع بعض الركاب القلائل من رجال الأعمال والشخصيات الذين اختاروا الدرجة الأولى حتى يتجنبوا الفوضى، والخدمة الرديئة التي تعودت شركة الخطوط الجوية الجزائرية أن تبرع في تقديمها لزبائننا خاصة أصحاب الدرجة الثانية. جال الشيخ بصره بعدما وضع يده على حافة السلم كما لو أنه يبحث عن شيء في اللحظة التي توقفت فيها شاحنة بيضاء صغيرة لنقل المسافرين من المدرج إلى قاعة النزول. كان المسافرون القلائل يتقدمون ببطء كما لو أنهم لا يهتمون بشيء سوى بأنفسهم حيث بدت على وجوههم نوع من الجدية الصارمة التي جعلتهم لا ينتبهون لغرابية الشيخ الذي رافقهم طيلة رحلة لندن الجزائر بعدما بدا بلحيته الشائبة التي كساها بعض البياض، متأخرا عنهم. تحرك هو الآخر ببطء. لم يكن يريد أن يثير أي شبهة إليه خاصة وأن صورته التي تتداولها الصحف في تسعينيات القرن الماضي بصفته أشهر إرهابي دموي لازالت في ذاكرة الكثير من الناس الذين فقدوا أبناءهم.

كان وجهه قد تغير بعد أن صار ناصعا، ومحمرا، وزادت كثافة لحيته التي منحتها بعض الوقار، لهذا بقي يمشي خلفهم ببطء في الوقت الذي انفتحت أساريره لصاحب النظارات الشمسية الذي لوح له من بعيد. خطا خطواته الأولى على مدرج مطار هوارى بومدين مرددا في سرّه

الحمد لله، ها أنذا أعود إليك أخيرا يا أرض الإسلام. حينما توقف عند الرجل الذي نزل من السيارة الحكومية التي بقيت متوقفة على المدرج رقم ٥، قريبا من مكان توقف طائرة البوينغ ٧٧٧.

فكّر في الرسالة التي تلقاها من الرجل الكبير لأجل الدخول للبلد.

كل أملاكه، وأعماله التي تركها في الجزائر صارت الآن جاهزة قانونيا لتنتقل باسمه بعد كان يديرها بعض العملاء من رجاله باسم جمعيات خيرية وباسم شركات تصدير لآلات كهرومنزلية. لكن الشيء الذي بقي معلقا في اتفائه مع أصحاب القرار، يوم سلمهم كل رقاب أمراء الجبل كان هو توقفه عن ممارسة السياسة. وإبقاء بعض رجاله في الصحراء تحت تصرفهم.

لهذا كان أول سؤال على هاتف الرجل الكبير قبل حتى أن يرد على رسالته هو اشتراط عودته بفتح المجال السياسي أمامه، وأمام جماعته، وبعودة عناصره الجهادية، وإعادة تشكيل حزبه من جديد.

كان رد الرجل الكبير ايجابيا، وأضاف له أنهم يحتاجونه لإضفاء الشفافية على نقاشات تعديل الدستور التي كان القصر قد أعلن عنها تحسبنا للاستحقاقات القادمة .

استقبله رجلان بلباس مدني بدا من مظهريهما أنهما رجال حراسة خاصة. دفع الرجل الأول بيده إلى الشيخ ليصافحه بعدما نزع نظاراته الشمسية، ثم تقدم أمامه وانحنى مرددا بعدما فتح له الباب الخلفي لسيارة المرسيديس: مرحبا بك سيدي الشيخ.

هز الشيخ رأسه بعدما تقدما خطوتين، وركب المقعد الخلفي لسيارة الحكومية السوداء، ثم ركب الرجل الذي لوح له في الجهة الأخرى.

كان أبو نصر، أو الشيخ كما صار يسمى نفسه يتمتم بأدعية تحت أرنبة أنفه في اللحظة التي أعاد فيها الرجل نظاراته الشمسية، ونطق :

سنذهب إلى حيث تنتظر ك الجماعة.

كيف هو حال الرجل الكبير؟ سأل الشيخ

بخير ياشيخ، وقد طلب مني أن أهتم بكل طلباتك .

كانت سيارة المرسيديس قد خرجت من المطار عبر الطريق الخاص الذي تخرج منه عادة السيارات الحكومية، واتجهت نحو طريق المؤدي لضاحية الجزائر الكبرى حيث توجد الفيلا الخاصة التي أهداها الرجل الكبير للشيخ عند توقيعه على توقيف إطلاق النار بين جماعته، والجيش. والتي كان ينتظره فيها بعض قيادات لاياس (AIS).

في الطريق رنَّ هاتف الرجل صاحب النظارات الشمسية .

فتح هاتفه. نعم سيدي .

التفت الرجل جهة الشيخ. معك الرائد.

مرحبا .

نعم كل شيء على مايرام . أشكركم على الاستقبال .

...

إن شاء الله سأكون غدا جاهزا .

أغلق الشيخ الهاتف، وسلمه لصاحب النظارات الشمسية الذي وضعه في جيب سترته .

يمكنني أن أعود صباحا لاصطحابك. قال الرجل

هز الشيخ رأسه .

لا داعي لذلك يا بني، يمكنك أن تبلغ سيدك السلام، هناك من سيوصلني
غدا إليه.

فكر الرائد السياف وهو يعيد إخراج هاتفه بأن مسألة الشيخ ابي نصر
ستكون منتهية مادام قد دخل التراب الجزائري، وأنه سيكون الحجرة
التي ستعيق تحرك الإسلاميين الذين اعتمد عليهم القصر ليكونوا بديلا
عن رجال الرجل الكبير.

مرر أصابعه على رقم السيد هواري.

نعم . أين أنت ؟

في المكتب، وبعد ساعة سأخرج لتفقد ضيفنا .

جيد ! مهمتك ستنتهي عندما يستلم رجلنا الطرد . ولا تنس، غدا .

بلى، سيدي.

قبل أن أنسى أرجو أن لاتحدث شريكك عن اقتحام الشرطة لمكاتب
الشركة، ولا عن أي شيء يخص العمل.

كون هاني سي السياف، مادام الإعلام لم يعلن عن أي شيء، فصاحبنا
لن يعرف أنه متابع من الشرطة القضائية !

أوكي o.k، سنبقى على اتصال!

أغلق السياف هاتفه، دون أن ينتظر ردا من هواري الذي أمر رجاله
بتحضير السيارات التي سترافقه لذهاب إلى فيلا زرلدة حيث ترك
شريكة مصطفى منصور.

جلس مراد دوركال على صخرة من الصخور التي امتلأت بها حافة ميناء سيدي فرج، حاملاً بيده اليمنى صنارة صيد وفي يده اليسرى مسك بنظاراته الشمسية التي كان يرفعها نحو وجهه من حين لآخر كلما أحس بنزول حبات العرق جراء الحرارة الشديدة التي كانت تلتفح في سواحل العاصمة في ذاك الوقت. أعادها فجأة بعد أن تنهى إليه صوت خطوات بدأت تقترب منه. في تلك اللحظة وقف المقدم بجانبه بعد أن انحنى ليجلس بقربه، مكسلاً ساقيه لتتدلى نحو سطح أمواج البحر التي كانت تأتي هادئة يدفعها المد. قلت لك اختفي بالمدينة، ولم أقل لك تعالى إلى العاصمة لاصطياد السمك !

لم تعد مدينتك آمنة.

استلمت رسالتك لكنك، لم تقل عن سبب وجودك بالعاصمة ؟

أنا قتلت مئات الأشخاص عديمي الشرف، ورميتهم في هذا البحر لكني لم أملاً البحر بهم بعد ! لو سألت هذا الميناء لأخبرك، والآن انظر كم كثر السمك منذ اختفينا.

وقف المقدم، ورمي خطواته على الحافة، ثم التفت : هل تعرف أنك رميت صنارتك في المكان الخطأ يامراد؟

كنت أعرف أنك ستقول هذا الكلام !

لقد وضعوا لك طعم، وأنت ابتلعتة!، لو وضعت في صنارتك بعض الدولارات، لرأيت كم ستصطاد.

ابتسم الرجل الميت، نازعاً نظارته الشمسية: أنت محق، لكن ما مصير ما وعدتني، هل أضعه هو الآخر على الصنارة؟

اقترب المقدم، ثم انحنى نحوه. قف عندك ! كلمتي هي شرفي ! وحينما وعدتك. قلت لك: ابق في المدينة، ولا تتحرك.

ألا تشاهد التلفاز؟ سأل مراد وهو يدور في عجلة خيط الصنارة.

ذاك هو الطعم الذي رموه، و أنت ابتلغته للأسف، وقمت من قبرك.

لقد أرسلوا أحد رجالهم إلى قبري.

إذن، كانوا يعرفون أنك موجود !

صمت مراد دور كال . ثم نطق. قالت الدولة اختفي تحت الأرض فاخفيت. لكنهم أرسلوا من يحفر على قبري.

حرك المقدم رأسه. السكين، انتهى.

إذن ، وعدك وعد مقدم المهدي. أليس كذلك؟

بقي المقدم ينظر نحوه، هازا رأسه.

المهم لا تتصل بي مرة أخرى لأجل أمر مثل هذا.

مادام وعدك وعدا. فلن أتصل مرة أخرى.

أترك لي رجال المؤسسة، سأجمعهم لك في سلة واحدة ، وأجلبهم لقبرك.

نعم، هذا هو الكلام .

في تلك اللحظة رن هاتف المقدم الذي مشى خطوتين مبتعدا عن الرجل الميت، ثم رد. نعم.

سيدي عَلِمْنَا بمكان الأصلع.

أين أنت أرزقي.

قرب عمارة ميشلي، بحي تليملي

ابق مكان سأتي !

أغلق هاتفه، ثم التفت نحو مراد دوركال. لا أريدك أن تتصرف دون إذن مني.

هز الرجل الميت رأسه ، ثم التفت، راميا صنارة الصيد بعيداً عن المكان الذي كان يصطاد فيه.

وقف أرزقي يراقب بيت الفتى من مقهى بعيد في حي تليملي بعد أن تلفن للمقدم، وأعلمه بظهور أحد عناصر المؤسسة القديمة كما كان متوقعا.

دخل الأصلع البيت بعدما نزل من سيارة هامر في الشارع الكبير، ثم مشى مع رجلين بَدَوا مثل حارسين شخصيين وهما يقفان أمام عتبة البيت بعدما أمرهما الأصلع بانتظاره.

اقترب أرزقي من ناصية الشارع، وبقي يراقب عن قرب الحارسين اللذين وقفا متأهبين أمام العتبة، وراحا يحركان رأسيهما في اتجاهات الشارع كما لو أنهما كان لا يرغبان في أن يمر من هناك أي مارّ .

سأل الأصلع الفتى الذي جلس وراء مكتبه

لِمَ لا يصدق الناس أن والدك قد مات؟ ولماذا يطاردونه؟ سأخبرك إن كنت لا تعرف ! مادمت تجلس وراء هذا المكتب صامتا، ومستريحا، فإنهم سيظلون يطاردونه.

حرك الفتى يديه على الطاولة. هل تعتقد أنني أرغب في هذا المكان، وفي هذه الحالة ياعمّي الصحراوي. أبي لا يريدني. أتعرف ! أبي ميت.

اسمع يا بني، إذا أنت تركت الساحة، واختبأت في هذا المكتب فلا أحد سيُصدق أن والدك ميت، وحتى ينسى الناس اسم والدك يجب أن يكبر اسمك، وتأخذ أنت مكانه.

إذا خرجت سنتيمترا واحدا عن كلمة أبي، سيكسر عظامي، ولن يرحمني، وأنت تعرفه.

بنيّ ، اسمعني جيدا ! و والدك ضحى لأجلك كثيرا، و توضيحته لها حدود معينة فقط، لأنهم لن يتركوك حيّا بعد أن عرفوا أنه حي. فكّر في كلامي واحسبها جيدا، وقرر إن كنت تريد ترك حياتك البائسة هذه تحت القدر، أم لا.

رفع الفتى رأسه، بعد أن جمع يديه في حجره بحيرة : لا أعرف يا عمّي، والله لا أعرف ماذا أفعل؟

اقترب الأصلع بعدما خطا خطوتين، ثم أخرج مسدسا من خصره ووضعه أمامه على طاولة المكتب: الأمر سهل جدا. أولاً دغ هذا المسدس معك، وبعدها قرر، وعمّك صحراوي سوف يقول لك ماذا ستفعل !

بقي الفتى مترددا قبل أن يرمي يده ملتقطة المسدس في اللحظة التي خرج فيها الأصلع، وتركه حائرا، وهو يمسك بمقبض المسدس.

وصل المقدم مع ملازمه المخفي بعدما نزلا من سيارتهما في آخر الشارع. تعقب أرزقي الأصلع الذي خرج بعدما تبعه رجلاه نحو سيارة كانت قد توقفت لحظتها لتقله في وسط الشارع. نزل رجلا طويل بربطة عنق ليفتح الباب الخلفي.

هل من خبر؟ سأل الأصلع الرجل الطويل الذي رد عليه وهو يفتح له الباب. إنهم ينتظرونك سيدي.

كان أرزقي يصوب مسدسه ممسكا بالزناد نحو رأس الأصلع الذي كان لايزال يسأل رجله.

رن هاتف أرزقي الذي جذب إصبعه من الزناد وراح يخرج هاتفه باليد الأخرى.

أرزقي، توقف! لا تطلق النار. جاء صوت المقدم الذي كان يطل من (قنّت) الشارع.

بقي أرزقي ينظر نحو سيارة الأصلع وهي تغادر المكان في الوقت الذي توقف أمامه المقدم.

لقد انفلت من بين يدينا قال أرزقي.

لن يفلت ! قاطعه المقدم، ثم أضاف. ابق أنت مع ابن مراد دوركال، وسأتعقبه أنا، والمخفي، لنرى أين سيذهب عديم الشرف هذا.

بقي هوارى ينظر نحو مصطفى وهما جالسان على الأريكة الجلدية الوثيرة في فيلا زرادة بعدما سأله عن أعماله في مدينة وهران مستعيدا كل خساراته التي تلقاها مؤخرا من غريمه خليل، وكيف صارت المداهمات، والاعتقالات هاجسه بعد أن راح فيها أغلب رجاله جراء تخلي الجهات الخفية عنه بعدما أوصلوا المعلومات عن مخازن رجاله إلى النائب العام الذي فتح تحقيقا بعد الهجمة الإعلامية التي قادتها جرائد علاوي، و جرائد منتفخ البطن ضد رجال الأعمال في الجهة الغربية، والتي مثلت مدينة وهران مركزهم كمدينة روج الإعلام أنها تحت قبضة مافيا المخدرات. لا لشيء إلا لأجل الضغط على جماعة القصر، وإضعافهم أمام الرأي العام الذي كان لايزال منشغلا بالحكومة التي قام القصر بتغييرها عدة مرات، وفي النهاية رضخ لتعديل الدستور.

ما الذي يريده هؤلاء من السيد مصطفى؟ سأل نفسه بعدما انتبه أن أولئك الذين يقولون أنهم يحمونه أصبحوا لايفعلون شيئا لأجله.

حرك رأسه وهو لايزال ينظر نحو شريكه بقي فاغر الفم منتظرا اجابة لتساؤله حينما فتح شاشة البلازما، ورأى التعتيم الإعلامي على ماكان يحدث.

ظهرت مذيعة قناة من قنوات الخاصة مرددة خبراً عن الموت المفاجيء لرجال الاعمال السيد علاوي. وقرأت رسالة التعزية التي وجهها القصر إلى عائلته.

ردد في سرّه. تستحق تلك القتلة.

انتبه في تلك اللحظة لصوت السيد مصطفى.

هل ستعاد توزيع الوظائف على المجلس الجديد؟ أضاف مصطفى سؤالاً مفاجئاً بعدما أحس بصمت شريكه.

لا أدري ماذا أقول لك ! نطقها هوارى بتوتر بعدما أحس بأن شريكه يعرف أشياء كثيرة عن كواليس أصحاب القرار الذين اشترطوا عليه أن يقدم لهم رأسه إن أراد الانضمام للمجلس الجديد بعدما دفعوه دفعا للدخول في شراكة معه عبر مستشار القصر الذي كان يعرف أنه يلعب على الحبلين حينما قدمه كشريك في شركة كانت تدار أعمال أخرى باسمها، والتي لم يسمح له بأن يطلع عليها حتى بعد أن أصبحت تسير باسم شريكه.

حينما يستعيد كل هذا من ذاكرته يحس بفجيرة الخيانة.

قال له السيف. عليك أن لا تخبر شريكك بالتحقيقات السرية التي باشرتھا المخابرات في شركة فورستيم.

صمت يومها مرددا في نفسه. كيف يمكنني خيانة رجل أنقذني يوما منهم في وهران؟

أحس هوارى بوجع الضمير وهو يستعيد من ذاكرته ما كان يفعله قبل أن يتعرف على مصطفى في وهران حينما كان يتعامل مع جماعة أبي نصر كوسيط بينهم، وبين مافيا الشارع الذين كانوا يتاجرون في كل شيء حتى في بيع نفايات الحديد، والسيارات المسروقة، وفي الوقت ذاته كان يتعامل كمخبر للمؤسسة القديمة التي أسسها الجنرالات، حينما كشفت الجماعة وضعوا في طريقه مصطفى منصور وخططوا لقتله توريطه معه في النهاية.

قال له الجنرال. وضعناك كي تراقبهم لا لتوصل لهم أخباراً عن تحرك وحدتنا. لو أمسكت عليك مقدار شظية لقطعت رأسك في بلاص دارم.

وقال أبو نصر لمصطفى. سنقطع رأسه في النهاية، ونعلقه على باب كشكه في مدخل الجامعة، يظننا أغبياء خادم الطواغيت.

كان أبو نصر وجماعته يضغطون عليه بعد أن صار مُداناً لهم بحياته لأنهم سمحوا له بتوزيع مخدراته في وهران، وضواحيها قبل أن يطلبوا منه أن يزودهم بالمعلومات عن رؤوس اليساريين في الجامعة مقابل كل معلومة كان يتلقى ملايين الدينارات خاصة المتعلقة منها بتحريك الأهداف التي كانت في قائمة الموت منها السيد الوشني مدير معهد الفلسفة، وأستاذة الحقوق البلجيكية التي كانت تخرج أديانا مع مصطفى دون أن يعرف أنه أحد أتباعهم المكلفين بتنفيذ ذاك المخطط .

يومها كان مصطفى طالبا في الحقوق، في سنته الأولى تربطه بهواري علاقة زبون دائم لكشكه المعروف أمام الجامعة. دون أن يعرف أنه مندرس عليه من الجماعة، مكلفٌ بمراقبته بعد أن كان يظل أغلب الوقت معه في الكشك كما كان مكلفا أيضا بتصفيتهم ثلاثتهم حتى بعد أن تشككت بينه، وبين الأستاذة الأجنبية علاقة غرامية. كان عليه أن يقوم بنفسه بتنفيذ الاغتيالات التي قررت الجماعة أن تكون مع مناسبة عيد الطالب.

نطق هواري كما لو أنه أراد أن يهرب من وجع ضميره، ناظرا لوجه شريكه، وهما جالسان في صالون فيلا زرلدة: " إيه ياسي مصطفى لا أدري كيف أرد جميلك ! منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا أستعيد موقفك معي يوم أعلمتني بأن الجماعة تريد توريطي في اغتيال مدير معهد الفلسفة الذي أغتيل في مقر الباكس. رد محركا وجهه: في الحقيقة ياسي هواري، يومها كان مصيري أيضا معلقا بك. كنت أعرف أنك عميل مزدوج تشتغل أيضا مع الجنرال. لهذا أردت أن أقدم لك خدمة، وبالمقابل أوجه رسالة إلى الذين كنت تعمل معهم، بأنني مستعد لتقديم معلومات عن أخطر جماعة إرهابية في الجهة الغربية، لكن اغتيال السيد الوشني قلب كل شيء، وجعلني متورطا أكثر منك. أذكر يومها أنني كنت مع السيد الوشني في سيارته، وكان من المفروض أن أقتله

في منزل الأستاذة سوزان حيث قررنا أن نحتفل معا، ثم أكمل المهمة بقتلها، وقتلك في احتفال طلبة اليسار الذين كانوا يحضرون للاحتفال بعيد الطالب، وألتحق بهم في الجبل. لكنني حينما ركبت سيارته، وبدأت أنظر إلى وجهه وهو يحدثني عن أمه، وكيف أنها لا تكف عن سؤاله عني منذ أن تناولت عندهم ذاك الفطور الرمضاني. ردها كما لو أنه أحس بشيء غريب في ملامحي التي فقدت تعابير الإنسان بداخلي لأنني كنت بين نارين، نار الجماعة التي أرسلت بعض الإخوة لمراقبة تنفيذي للعملية، ونار علاقتي به، وبالأستاذة سوزان التي كنت قد تعلقت بها، وعرفت معها معنى أن تحبك أنثى. كنت أحس أنني محتاج لأبكي على صدرها عاما كاملا، وفجأة وجدنتني أطلب من السيد الوشني التوقف بجانب الطريق المؤدي إلى (كناسثال). قلت له بعد أن قررت التخلص من وجع الضمير: أريد أن أحدثك على أمر خطير !

قوس حاجبه مبتسما، ظانا أنني سأخبره بعلاقتي بسوزان :

أعرفك يا جنّ. سقطت، ولم يُسمّ عليك أحد !

قالها وهو يضحك. لم ينتبه إلا ورأس مسدسي في صدغه. انصعق بعد أن تلبدت ملامحه، وصارت فجأة بقتامة لون ليل شتائي دامس. ركن السيارة جانبا، وبدأ ينظر إليّ برعب محركا شفثيه بصعوبة، دافعا بكلماته الوهرانية ليتر جاني بأن لا أقتله. كانت كلماته متقطعة كما لو أنها تخونه هي الأخرى. غيرت وجه المصورة نحوي، مقلبا المسدس، وقلت له : تفضل سي الوشني، لا تخف ! هذا هو الأمر الخطير الذي أريد أن أحدثك عنه . ثم نظرت في المرأة العاكسة فرأيت سيارة من نوع سيطروان بيضاء تتعقبا، فقلت له: شغل المحرك دون أن تنتظر خلفك، واتجه نحو جهة الغابة المحاذية للبحر، هناك من ينتظرني أن أقتلك ! هناك سيارة إرهابيين خلفنا يريدان تصفيتك. كان مقررا أن أنفذ فيك حكم الجماعة لكنني عجزت عن فعل ذلك، لهذا لا تخف، سأحميك منهم .

كانت يده ترتجف، وهو يمسك بمقود السيارة بعد أن فقد حركة شفتيه، فلم يستطع أن يعلق بكلمة واحدة على كلامي إلى أن وصلنا إلى طريق ضيق فانعرج بالسيارة وسط الغابة، وحينها أضفت، وأنا أمسك بيده المرتجفة. هنا ! أوقف السيارة، وانزل بسرعة.

فتحنا أبواب السيارة ونزلنا مسرعين، فتوقفت السيارة التي كانت تطاردنا ونزل منها شخصان يرتديان ألبسة رياضية مع أحذية باسكات، وراحا يلاحقاننا. قلت لسيد وشني عليك أن تختبئ في الغابة، لكنه لم يسمعني بل راح هاربا نحو منحدر طانا أنني أردت فعلا أن أقتله. تبتعه صارخا خلفه: توقف لا أريد أذيتك ! لكنه لم يتوقف حتى وصلت رصاصة أحد الرجلين إلى رأسه. كان قد التف في الجهة الأخرى. رأيت السيد وشني لحظتها يتهاوى أمامي، فلم أستطع أن أتحمّل، فنزلت أرضا، ورحت زاحفا نحو صخرة كانت أمامي مصوبا مسدسي نحو الرجل الذي اقترب من جثة السيد وشني، و أراد أن يطلق رصاصة أخرى في رأسه وهو يردد بحقد : هذه نهايتك يا عدو الله. لم يكملها حتى كنت قد فجرت رأسه برصاصتين أردتاه ميتا في حينه. بعدها زحفت نحو السيد وشني ورحت أرفع رأسه لأضعه فوق ركبتي صارخا بحزن: سي الوشني سامحني ! لِمَ هربت مني؟ لم أكن أنوي أذيتك. كان لحظتها لايزال يحاول فتح عينيّه، ثم نظر إليّ وزفر زفرة غاس بعدها في العدم.

حينما رأى الرجل الآخر رفيقه قد سقط قرب جثة السيد الوشني تراجع هاربا، و ركب سيارته، وغادر. كنت سألحق به لكنني فقدت الدم في ركبتي. جلست أنظر إلى الجثتين، جثة السيد الوشني التي كانت لا تزال رائحة دمه في أصابعي، وجثة الرجل الذي بدا مثل فتى، كان لا يبدو عليه أنه صعد الجبل يوما. قلت في نفسي أيهما عدو للآخر؟ السيد الوشني، أم هذا الفتى الذي لا يبدو على ملامحه أي شيء يوحي بأنه مجرم، أو حتى من الجماعة التي كنت أعرف قياداتها، والكثير من عناصرها في مدينتي، وهي التي شكلت أخطر جماعة تحت إمرة أبي

نصر. لهذا رحت دون أدري أحاول الجري نحو سيارة الوشني بعدما فقدت نبضي.

كانت صورة وجه السيد الوشني عالقة في ذهني حينما اقتربت من مقر الباكس حيث ركنت سيارته في الشارع القريب منه ورحت مسرعا نحو منزل الأذسة سوزان التي وجدتھا تنتظر مجيئي مع السيد الوشني. أخبرتها بعدما حاولت أن أتماسك وهي تشدني من ذراعي الذي كان ملطخا بالدم. متسائلة بخوف بلغة فرنسية متوترة عن الذي حدث.

ميسو وشني مات ! قتلها وأنا أشد رأسي أمامها، ثم أضفت لها بعدما راحت مسرعة للمطبخ كي تتولني كأس ماء بارد: أنني لا أستطيع أن أبقى في وهران بعد هذه اللحظة. سيتهمونني باغتياله قتلها بخوف، وأنا أدور بلا وعي في وسط الصالة، وحينما لم أسمع أي رد منها تبعتها إلى المطبخ ومسكت من يدها كأس الماء البارد الذي كانت تهم بإحضاره. دون أن أنظر في عينيها المتعبتين بالدھشة والحزن، رحت صابا الكأس في جوفي، ثم جلست على كرسي طاولة المطبخ لعلني ألتقط أنفاسي، مدخلا أصابعي في جيب قميصي، وأخرجت لها ورقة مكتوبا عليها كل أسماء الذين تريد الجماعة تصفيتهم قبل شهر رمضان.

نظرت إلي وهي لازالت واقفة بجانبني، ثم قالت بعدما بقيت للحظة تحديق في الورقة التي وضعتها أمامي على الطاولة. بدت وهي تمسك بوجهها كما لو أنها تتهجي في الأسماء التي كتبت بخط مغربي.

فجأة نطقت بأسى بعدما طفحت منها حبات الدمع، وهي تحضنني : ماذا سنفعل الآن يا مصطفى ؟ هؤلاء لن يتركوا أحدا !

ليس لنا، أي حل ياسوزان إلا أن نغادر معا هذا البلد. قالتها حينما أدركت أن لا حل أمامي سوى النجاة بجلدي من هؤلاء.

عليك بتوضيب حقيبتك اللحظة. ثم واعدتها أنني سألتقي بها في المطار على الساعة السادسة مساء. يجب أن نهرب للكسمبورغ !

لا اعرف لم جاء على لساني اسم لكسمبورغ، ربما لأنني سمعت أن والديها يقيمان هناك.

نزلت بعد أن دخلت الحمام، ونظفت ذراعي وسترتي من الدم، ثم غسلت وجهي، وقمت بخلق دقني. حينما خرجت للشارع، وضربني تيار هواء البحر، فكّرت فيك ياسي هوارى لهذا ذهبت إلى غرفتي الجامعية، و أخذت كل أوراقى وجواز سفري، ثم تلفنت لك، وطلبت منك فيزا إلى لكسمبورغ. التقينا كما تذكر أمام باب الحديقة الصغير، وأعطيتك ذاك المغلف الذي يحتوي على كل المعلومات، وحتى أسماء الطلبة الذين يقومون بتجنيد زملائهم في الجامعة، والخطة التي كان من المفترض أن يغتال بها السيد الوشنى، والأستاذة سوزان التي كانت دائما تشتكي لي من رسائل التهديد التي كانت تجدها تحت باب منزلها. والكثير من مثقفى وهران. واسمك أنت أيضا كان في القائمة.

في اليوم الموالي لوصولي إلى ليكسمبورغ، سمعت أنني مطار د من العدالة، وقد قيل أنني قتلت الأستاذ الوشنى في مقر الباكس. لهذا لازلت حتى الآن أتساءل كيف نقلت جثته إلى هناك، ومن نقلها؟ .

لازلت حتى اليوم يا صديقي هوارى حائرا ! كلما غفوت أتصور وجهه مدرجا بالدم، ونظراته، ونظرات أمه، وأبنائه لازالت تطاردني. إن كنت سأفعل أي شيء بعد لقاء والدي هو أنني سأزور عائلة الوشنى في وهران، وسأطلب العفو، والسماح من أبناء هذا الرجل. سأخبرهم أنني لست قاتل والدهم .

كنت أعرف أنني لن أستطيع مغادرة هذا البلد إن لم أسافر في ذاك اليوم مع المرأة التي أحببتها، والتي حَكَمَ عليها أبو نصر بالقتل مثلها مثل كل جماعة اليسار الذين كنت ألتقي بهم في بيتها .

لحظتها ضحك هوارى ناظرا إلى مصطفى بنصف عين، معلقا على كلامه: تعجبني فيك صراحتك يا سي مصطفى، وذكاؤك أكثر مما يحزنني ما حكيتَه ليّ لأنني أعرف تفاصيله، لكن ما يدهشني أنك حسبتها في ذاك الوقت الحرج صح. كنت، وأنا أراقبك منذ عامك الأول الذي سجلت فيه في الجامعة، أتساءل بحيرة كيف يضع شاب حيوي مثلك لحية. كنت أعرف أنك حتى، وأنت تختفي وراء تلك الأفكار الإسلامية لست إسلاميا. ولا حتى رجلا يساريا، لكن الشيء الذي لم أفهمه كيف استطعت أن تؤثر بأفكارك على الأستاذة، وتجعلها تحبك، وتسافر معك ، و ترتبط بها في النهاية؟

يبتسم مصطفى. قلت لك لم تتغير يا شريكي !

ضحك هوارى وهو يهْمُ بفتح زجاجة (جون ولكر) التي أحضرها معه بعدما كان قد أخرج مصطفى من البراد الصغير بجوار شاشة البلازما التي كانت أمامهما بعض من قطع الثلج. رفعها بيده ليصب منها في كأس مصطفى الذي أضاف، وهو يشد الكأس براحتة: لو قلت لك حينما طلب مني أبو نصر أن أندس في وسط الشيوخ عيين، كان غرضه أن أنقل له أسماء رؤوس الباكس في وهران، هل تصدق أنني كنت متحمسا مثل ذلك الفتى الذي قتل الوشني، أو ربما أكثر منه. كنت أردد في نفسي أنه سيكون لي شرف قتل أولئك الذين تربينا على أنهم ملحدون لا يصومون، ولا يؤمنون بالدين الإسلامي، لكني حينما تعمقت معهم، وعاشرتهم، وجدت أمرا آخر، حتى السيد الوشني مدير المعهد الذي كان الكل يسميه ماركس وهران. أذكر يوم أخذني معه لبيته في شهر رمضان لأفطر معه، فرأيت بأم عيني كيف يعامل أبناءه، وأمه المقعدة، وكيف أنه مثل أي إنسان أصيل يعيش ببساطة الأنبياء، حينها فقط أدركت أننا نحن الملحدون الذين لا نفهم معنى لديننا الحنيف، ولتسامحه. وأن الذين يطلبون مني أن أنقل لهم أخبار هؤلاء ليسوا سوى مرتزقة. لا يريدون أي نصرة للدين، بل يريدون أشياء أخرى مستغلين هوية هذا الشعب. يومها أخذني معه في تلك الأسهرة الرمضانية إلى بيت الآدسة سوزان التي كانت تدرسني، وكان هناك جمع من الأساتذة، والمتقنين،

والكتاب، والمسرحيين. أذكر أنني تعرفت يومها لأول مرة على الفنان المسرحي المعروف عبد القادر علولة الذي اغتالته فيما بعد الجماعة، وهذه أكبر مصيبة رغم أنني أعطيتك اسمه مدونا بأنه الرقم الثاني بعد السيد الوشني الذي ستغتاله الجماعة.

هز هواري رأسه ناطقا: لي فات مات ياسي مصطفى. أخبرني عن السيدة سوزان !

نعم سأخبرك يا شريكي : تحدثنا ليلتها كثيرا عن الفن، وعن السياسة، وعن عظماء العالم، كيف غيروا حال الإنسانية، وعن عجزنا نحن العرب في اللحاق بالغرب. كنت أنصت مثل طفل يبصر حقيقة العالم لأول مرة في حياته من زاوية أخرى. أرقب بإندهاش كيف كانت تتحدث الأستاذة سوزان التي كانت تحسن الحديث باللغة العربية. أذكر أنني لفتُ انتباهها يومها حينما تحدثت عن مشكلة الخطاب الديني عندنا نحن المسلمين. وأن كل التأويلات التي حدثت بعض توقف العقل العربي الإسلامي لم تكن تأويلات اجتهادية تنتصر للعقل، بل كانت تدور دائما إلى التصديق الأعمى بما قاله الأولون، وأن محنة ابن رشد تخبرنا بأن العرب، والمسلمين كانوا يومها قد دقوا آخر مسمار في نعش حضارتهم. حينما قلت هذا الكلام الذي قرأته في أحد الكتب التي أعارها لي الأستاذ الوشني، الكل التفت نحوي، خاصة أنني كنت أصغرهم، وأول مرة أحضر مجلسهم. ربما كان ذاك التدخل الأول في حياتي على مستوى نقاش مع نخبة مثل نخبة اليسار التي كانت تصنع ثقافة وهران. كنت أقوم به لأول مرة بشيء من القناعة، لهذا من يومها بدأت الأستاذة سوزان تتقرب مني، وتحب أن تناقشني كثيرا في فكر ابن رشد وقضية العقل العربي، وأحيانا كانت تدعوني لبيتها لتتحدث عن الإسلام المنتور، ثم تضع أمامي الرسائل التي كانت ترسلها لها الجماعة لتهددها بالموت، و تتهمها في كل مرة بأنها تشوه الإسلام .

تصمت سوزان، ثم تسألني بحزن هل هذا هو الإسلام الذي يريده هؤلاء؟

كنت أصمت، لا أجد ما أقوله لها.

ثم تروح واضعة كتاب ابن رشد الذي كانت تسميه Averroes الذي كنت قد قرأت كل كتبه حتى قبل أن أتعرف على جماعة ولد الصافي.

تقول ليّ انظر مسيو مصطفى بهذا الفكر كان الإسلام، وكانت حضارته.

توقفت سيارة الهامر السوداء بجانب مستودع كبير في المنطقة الصناعية بالرعاية. نزل منها الأصلع متعجلاً حاملاً خريطة ملفوفة تحت إبطه، بجانبه حارسان شخصيان.

استقبله السمينه أمام عتبة الباب حيث وقف حارسان آخران بلباس مدني. دخلا بعدما تصافحا، وسأله عن تأخره.

في تلك اللحظة توقفت سيارة المقدم غير بعيد عن المستودع.

حضرات إنهم كثيرون ! نطق الملازم وهو يراقب بمظاره رجالا مسلحين كانوا قد أحاطوا بالمستودع.

يبدو أنك شخت ياسي المخفي!

لا يا حضرات، (القلب مازال حامي، لكن الركبتين ربي يجيب، ماقعدوش كي زمان).

ابتسم المقدم وهو يفكر كيف يستطيع مع ملازمه أن يفتحما المستودع الذي أحاط به كل أولئك الحراس بعدما دخله الأصلع مع السمينه.

بقي الأصلع ينظر نحو السمينه الذي أخذ منه الخارطة، وفرشها على طاولة حديدية، مشيراً فيها بإصبعه نحو المسلك المؤدي لمقام الشهيد مردداً. في القديم كنت تحضر أكياساً من هذه الخرائط في أسرع وقت، أما اليوم فلا أعرف ماذا أصابك !

تغيّر الزمن يا شريكي، أنت تعرف أنهم سرحوا كل رفاقنا، ومن الصعب إيجاد هذا النوع من الخرائط. رد الأصلع بعدما قرب وجهه نحو إصبع السمينه الذي حركه على وجه الخريطة طارقاً به: هل سيكون هذا المسلك دون حراسة اليوم فقط؟

اليوم فقط رد الأصلع، ثم أضاف لهذا لا يوجد لديك وقت! إن لم تقم بالعملية اليوم، فلن تستطيع تنفيذها غدا.

أدخل البدين يده في جيب سترته، واتجه نحو النافذة، مخرجا هاتفه وراح يمرر يده على رقم خاص قبل أن يأتيه صوت من الطرف الآخر. نعم أخي!

أخي حركة السير في المسلك مزدحمة جدا، علينا بخلق مقعد في الطريق السريع. أحضروا معكم كل اللوازم، سنقوم بعملية كبيرة اليوم.

أشار المقدم بيده لملازمه: أنت اذهب من جهة السور وراء المستودع، وأنا سأداهمه من جهة الباب.

في اللحظة التي دار فيها المخفي وراء المستودع صادف رجلا مسلحا كان يتبول على السور، دون أن يمهله ليخرج مسدسه من حزامه حينما تفاجأ الحارس بوجود الملازم. صوب نحوه رصاصة في الصدر. ثم تقدم متخطيا جثته بحذر، ملتصقا بحائط المستودع. في كل خطوة كان يرميها كانت تعيد لذاكرته وجع سنوات الجمر حيث كانت كل مدامات جماعتهم تنتهي بمجزرة. لهذا بدا ضاغطا على أسنانه كلما ضغط على الزناد مصوبا نحو أولئك الحراس الذين أطلوا من النافذة العلوية بعدما تناهى إليهم صوت الرصاصة التي أطلقها الملازم.

حينما سقط رجل كان يقف قرب النافذة بين قدميه، بدأ المخفي يصرخ يا أبناء الكلب!

وجد المقدم نفسه مضطرا لإطلاق الرصاص في وجه الحارسين اللذين تقدما متأهبين أمام الجلبة التي أحدثها صوت الرصاص الذي كان يطلقه المخفي بجنون نحو النافذة التي أطل منها الأصلع، والسمينة قبل أن يرميا بنفسيهما جهة الجدار المقابل للطاولة. أدار السمينة وجهه نحو الأصلع الذي ارتمى أمامه على الأرض وبدأ يزحف. بدلا أن تتشغل بالأشياء التافهة أطلق النار، ثم أضاف بعد أن رآه قد زحف نحو الحائط

في تجاه المخرج الخلفي. أنت تشبه أم الأربعة والأربعين لا أعرف من أين جئنا بهذا المقدم ؟

هيا هيا أنقذ نفسك أولا. رد الأصلع بعدما تمكن من الخروج.

في الجهة الأخرى كان المقدم قد أفرغ مشط مسدسه على الرجال الذين خرجوا تباعا قابضين على رشاشاتهم من باب المستودع. ثم اتجه نحو المدخل مركبا مشطاً آخر ليجد ملازمه قد قفز من النافذة مردداً: هل يوجد أفضل من هذه الرسالة لتصل إلى الدولة؟

في تلك اللحظة التفتا معا لصوت محرك سيارة طويوتا ذات لون أزرق ليلي كانت قد أقلعت وهما يبصرانها من النافذة تخرج من الجهة الأخرى للمستودع.

زفر المقدم متأسفاً، وهو يرى الأصلع يفلت من يده هارباً، قبل أن يتفطن للخريطة التي بقيت منشورة على الطاولة. اقترب ، ثم التقطها . بني كليون لابد أنهم يحضرون لعملية كبيرة!

قلّب الخريطة في اللحظة التي رن هاتفه.

نعم أرزقي ! لقد وصلت رسالة من السيد.

أو كي ok أنا قادم، اترك الفتى، و انتظرنا في المكتب. ثم أشار لملازمه كي يلم الخرائط، ويتصل بالمخابرات يعلمهم بمراقبة كل الأماكن ، وإقامات الدولة.

رمى المقدم خطواته خارج المستودع ليرن هاتفه مرة أخرى. جذبه على رقم خاص

جاء صوت أمه من الجهة الأخرى كما لو أنه طلقة صاشم عبرت مشاعره بعد غياب طويل.

نعم أمي.

قلت أنك ستأتي؟

سأتي يا أمي لا تشغلي بالك، مع نهاية الأسبوع سأكون هناك.

.....

أعرف.

....

أعرف يا أمي ردد ها، ثم أغلق هاتفه وبقي ينظر نحو ملازمه الذي هز رأسه

ربي يقدرنا على رضا الوالدين نطقها المقدم، ثم ركب السيارة التي انطلقت بهم نحو مكتبة السيد.

بدأ المستشار ينظر نحو النافذة في اللحظة التي خرج فيها عميد الشرطة تلمساني من مكتبه بعد أن أخبره أنه لا يستطيع أن يبقى مكتوف الأيدي أمام ماتقوم به بعض عناصر المؤسس القديمة التي صارت تعترض طريق رجاله. على الرئيس أن يتدخل .

صمت المستشار، لقد أعلمت الرئيس بادشغالك سيادة العميد، عليك أن تعرف أننا منحناكم صلاحيات واسعة لكن بشرط أن تشاركوا معلوماتكم الأمنية أركان الجيش، والمخابرات. ولاتنس أننا في حالة طوارئ.

لكن حالة الطوارئ قد جمدت من زمن طويل من طرف الرئيس سيادة المستشار.

ضحك المستشار.

سيادة العميد ! ألا تعرف أن التجميد كان لأجل الاستهلاك الإعلامي فقط قالها بسخرية، ثم انتبه لنفسه فأراد أن يخفف من نبرة صوته بعدما أحس بتوتر العميد تلمساني الذي كرز على أسنانه من الغضب. لكن هذا لا يمنع أن تقوموا بوظيفتكم بصورة عادية كما السابق.

هز العميد رأسه. بلغ الرئيس تحياتي. قالها ثم خرج متوترا.

بقي المستشار ينظر نحو ساحة القصر، وهو يفكر كيف يمكنه أن يتجنب مثل هذه الضغوطات اليومية التي أصبحت كل يوم في مكتبه.

بعد الأحداث الأخيرة التي أبعدته عن الرئيس، أصبح المستشار يفكر إن استمرت أوضاع القصر على حالها سوف يجد نفسه خارج القصر لا محالة لهذا بدأ يردد بينه وبين نفسه.

لقد آن الوقت لتوقيف هذا الانهيار الذي سيصيب القصر.

حمل هاتفه وراح يحرك في رقم خاص.

نعم سيدي.

حضر السيارات سنخرج.

اغلق هاتفه واتجه نحو باب المخرج. كان يفكر كيف يمكنه أن يثبت للرئيس أن عمليات التنظيف تجري حسب الخطة ، وأنه يستطيع الوصول لرجل الميت الذي ظهر بالعاصمة.

نظر السيد في وجه المقدم. ثم راح يقرب له الكأس الكريستالي، مخرجا الكرة العاجية الملونة: أترى هذه الكرة؟ إنها مفتاح سرّ الرعية الفرنسي. امسك !

مسكها المقدم بيده، وراح يُدورها، بعدما رأى فيها حروف لاتينية، ثم وضعها على المكتب.

أعتقد أنها كرة بيار!

اقرأ ما هو مكتوب على جانبها.

أعاد المقدم التقاط الكرة، ثم قربها من الجانب الذي أشار له السيد، وبدأ يقرأ الحروف اللاتينية التي كانت قد حفرت مثل نقش دقيق جدا، ثم نطق نعم، مكتوب zinzibar

أعاد نطق الكلمة المكتوبة بغرابية: زينزيبار، وكأنه يتساءل.

زينزيبار- هي مهمتك الجديدة سيادة المقدم.

لهذا طلبنا منك أن توقف مطاردتك لرجال المؤسسة القديمة.

بقي المقدم ينصت لكلام السيد الذي بدا غريبا بعد أن راح يربط الأحداث التي وقعت بموت الرعية الفرنسي الذي وجدت عنده هذه الكرة قبل أن يضيف له بصيغة أمر: أمّا الشيء الآخر الذي عليك أن تعرفه أن هذا الأسم المنقوش في هذه الكرة العاجية هو نفس اسم لافتة المقهى بمدينتك حيث كان يتردد الرعية الفرنسي .

أتقصد مقهى منصور ! سأل المقدم بدهشة، وهو ينظر نحو أصابع السيد التي كان يحركها في الهواء .

نعم العجوز منصور !

حسنا، ولكن!

كان سيقول له ماذا سنفعل مع العميل المقيم (résident) مراد دوركال الذي تطارده المؤسسة القديمة، ويطارده المستشار، لكنه تراجع بعد أن شعر بحدقات السيد تتحرك قبل أن ينطق له :أدرك أنك تفكر في مراد دوركال. كان عليه أن لا يترك إقامته بالمدينة ! قالها، ثم أضاف .

هناك تغييرات سوف تحدث على مستوى جماعات الضغط لكننا لا نعرف من وراءها لهذا سنغيّر من خطتنا بعض الشيء. المساعد صفر سيواصل اهتمامه بجماعة رجال الأعمال بالعاصمة، وأنت ستهتم بالبحث عن سرّ الرعية الفرنسي.

تململ المقدم في مكانه، في اللحظة التي أخرج فيها السيد ملفا من خزانته السريّة، و وضعه أمامه. ستجد كل المعلومات عن مهمتك في هذا الملف.

حظ موفق سيادة المقدم.

حيّا المقدم السيد بتحية عسكرية. وخرج. أمام بوابة الفيلا وجد ملازمه المخفي ينتظره بسيارة الطويوطا. نظر إليه، ثم قال وهو يضع قدمه داخلها. على سلامتك أين ذهبت؟

غمغم الملازم تحت أرذبة أنفه. أضاف المقدم دون أن ينتظر ردا من ملازمه. لن نطارد الأصلع بعد اليوم!

في الطريق بقي الملازم المخفي صامتا دون أن يفهم شيئا من كلام المقدم بعد أن أطلق في وجهه تلك العبارة، وركن للصمت. ثم نطق سائلا بعدما انطلقت السيارة في الطريق السريع. وماذا سنفعل بالفتى؟ !

تفطن المقدم لسؤال ملازمه، لكنه لم يجبه لأن هواجس ذاكرته تحوّلت إلى صنوج زنجية وراحت تقرع في رأسه .

صوت السيد من جهة، وصوت نحيب أمه التي حدثته في الهاتف عن عودة شیراز.

تسأله أمه عن غيابه، ثم أضافت له بأن شیراز قد زارتها.

بقي صامتا ثم نطق لها أعرف ذلك .

ثم تراجع مغيرا من نبرته، ولهفته كعادته مرددا أنه منشغل كثيرا لهذا لا يمكنه المجئ، حينها أعادت على مسمعه نفس العبارة قبل أن تبدأ نواحها من جديد. صمت ثم قال لها سأتي يا أمي، أمزح معك فقط !

سعل الملازم بجانبه بعد أن اختلط دخان سيجارته في حلقه قبل أن يتقطن المقدم من شروده و يجيبه على سؤاله: لاتفكر في الفتى، سيهتم به المساعد صفّر!

في تلك اللحظة أعاد المقدم اخراج هاتفه من جيب سترته ورح يمرر أصابعه على أيقونة الرسائل، ثم مدّ له الهاتف، وقال له : - اقرأ الرسالة .

الرسالة جاءت من المساعد صفّر.

العميد تلمساني يريد أن يلتقي بك. مسألة تتعلق بعناصر المؤسسة القديمة.

قرأها المخفي سرا، ثم نظر في وجه المقدم . هل ستلتقي به؟

سأل دون أن ينتظر إجابة.

طبعاً أجاب المقدم في اللحظة التي اقتربت سيارتهم من مديرية الأمن في باب الواد.

سنلتقي بالرائد سعيد لنرى ما عنده، هو الآخر.

مشّت شيراز في حديقة الفيلا بعدما زال عنها الضيق من رؤية والدها متوترا منذ عودتها من فرنسا، ناظرة نحو السماء الصافية التي تألأت فيها نجوم ذاك الليل الذي أحسّت فيه بسعادة غامرة. شاعرة أنها أخيرا بدأت تتنفس بغير الرئة التي كانت تتنفس بها قبل هجرتها. صوت عطوان الذي قال إنه عائد للمدينة، وصوت والدها الذي تغيّرت نبرته فجأة أصبحا يمنحانها معنى لوجودها في المدينة .

قال لها والدها قبل سفره للعاصمة إنه دونها لا يشعر بأنه حي في الفيلا التي صارت قفارا. كانت سترافقه للعاصمة بعدما أسرت إليه حينما وجدها في غرفتها فاتحة لجهاز الأيباض وهي تبسم. هز رأسه مبتسما لها. فأغلقت الجهاز و راحت تعانقه. أعرف أنك ستسافر لنورة!

نعم حبيبتي. رأيت ضوء غرفتك مشتعلا، فقلت أودعك.

صمتت وهي تتنفس بين ذراعيه. سلّم عليها. خلاص صرنا صديقتين منذ أن قابلتها في فرنسا، والتقت بخالتي، أحسست بطبيعتها، وبأنها أحبّتك حقاً.

أجلسها والدها على السرير، وجلس بجوارها، ثم انحنى برأسه وقبلها على جبينها. هكذا أريدك يا حبيبتي ! نورة أيضا أحبّتك وهي لا تكف تسألني دائما عنك، وقد أخبرتني أنها تتمنى أن تراك عروسا.

بعدما وصل للعاصمة هاتفها بنبرة أرق، ثم همس لها: قولي لعطوان مرحبا بك في أي وقت يريد، ثم صمت .

سأخبره حينما يعود جاء صوتها بعد أن تلاشت الكلمة.

كانت لحظتها تستعيد حديثها الأخير مع عطوان في موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك.

ابتسمت لوالدها حاسة بخجل، محاولة أن ثواري صرخة فرحها، ثم راحت تعانقه مثل طفلة.

حيزما ودعها وخرج، دارت تبحث عن جهازها. وكلمت عطوان، قالت له إنها سعيدة جدا أن والدها لم يعد يفكر بمشاريعه، وأعماله فقط !

جلست شيراز تنظر نحو عطوان، الذي بقي يحدق في وجهها عبر الكاميرا الصغيرة متأملا زرقة عينيها بحب، ثم كتب لها لأجل عينيك كنت دوما مسافراً. ولأجل زرقتهم سأعود من سفري البعيد لأحتضن فيهما البحر.

ردت عليه. لم أكن أعرف أنك شاعر يا حبيبي.

سأظل أنتظرك.

بقيت تستعيد كلماته، و صورته وهي لازالت تحتفظ بمذاق القبلية التي منحتها إياها يوم التقيا في حديقة أكثر بعيدا عن العيون بعد أن جلست خادمتها مبروكة تحرسهما من بعيد. فكّرت يومها أنها لا تستطيع أن تتركه يسافر عنها مرة أخرى، لهذا انحنى بشفتيها نحو شفثيه بعد أن لامس خصرها بأصابعه فأحسّت أنه سيقبلها قبلة موت بقدر الغياب الذي كان سيغييه عنها. قبلها لكنه تراجع في منتصف القبلة داخلا في حيرة سؤال طالما حدثته به نفسه التي تنفست دائما برئة هذا الملاك الأبيض كما تعودت أمه الشريفة أن تطلقه على شيراز كلما جاءت لزيارتها : كيف يمكن لرجل مثل خليل ولد الصافي أن ينجب ملاكا بهذه الرقة، والجمال؟

كانت يده تخترق هذا السؤال مشبكة يدها في حنو جعله تائها ينظر في صمت سرمدى بعد أن أدرك أنه سيفقدها للأبد مادامت وظيفته ستقرض عليه نوعا من السرية.

كان عطوان يومها يدرك أن قانون وظيفته يمنع عنه أي ارتباط بأي امرأة على الأقل في ذلك الوقت العصيب الذي كانت تمر به البلاد حتى حينما قال لها إنه يرغب فيها زوجة. قالها وهو يعرف أن ارتباطهما مستحيل. أحست شيراز بشروده، وكأنها أنصتت لنبضات قلبه الهاربة من هذا السفر الذي قد يكون سببا في أن يفقد امرأة أحبته بعمق. ضغطت على أصابعه ناظرة في عينيه البنيتين اللتين احمرتا بفعل حبات الدمع التي كادت تنفجر نحوها. أغمضت عينيها، وأجهشت مثل أمه بالبكاء واضعة رأسها على صدره متحسسة بأنه مآكان ليلتقي بها في هذا المكان لو لم يكن يدرك أنه آخر لقاء لوداعهما. قالت له بعد أن فتحتهما ناظرة إلى عينيّه، مكززة على دبال جأشها : كيف انهارت أحلامنا يا عطوان، قل لي !؟ كيف أستطيع أن أثنيك عن هذا السفر؟ .

رد محررا أصابعه من بين أصابعها بهدوء. لا أريدك أن تفكري بغير هذه اللحظة! ثم مدّ إصبعه نحو شفتيها هامسا. أغمضي عينيّك. تنهدت دافعة بشفتيها في الهواء. قرب فمه منها، ثم راح ينزع قلادة قبائلية كانت شريفة أمه قد أهدته إياها يوم نجاح في شهادة البكلوريا. ثم جذب ذراعها إليه في صمت بعد أن ضمها بحرارة، هامسا لها في قرط أذنها: أريدك أن تدوري في مكانك، وتمنحيني عذقك دون أن تفتحي عينيّك. دارت نحو شجرة الأكاسيا الكبيرة، مآدة يدها إلى حيث رسم لها قبل أكثر من سنة مضت حرفا من اسمها، وحرفا من اسمه داخل قلب كما كان يفعل دائما في كراريسه المدرسية حينما يبصرها في الصف الجانبي تنظر إليه بفرح طفولي. أحسّت بتيارات أصابعه تنزلق على عنقها متدسسة شفاهه يوم سرق منها قبلته الأولى دون أن تنتبه إليه. كما لو أنها تمسك بلحظة هاربة من لحظات نشوتها في منتجع مكثر القريب من القصر. قالت وهي لا تزال على سرير لحظتها : خذ عنقي كله يا عطوان .

حينما تلمست جيدها، وجدت أصابعه قد مرت بخفة ساحر بعد أن شبك القلادة الفضية ذات الحلقات المشكلة بطريقة أحزمة سفن الإغريق على رقبتها، ثم فرقع أصابعه في الهواء مرددا: الآن، يمكنك أن تفتحي

عينيك. تلمست القلادة بفرح، داكَّةً رأسها في صدره مرة أخرى، ماسحة حزننا طالما أحسَّت به في وجدانها كلما اقتربت منه.

في اللحظة التي أحسَّت بشفاهه الحارة تلامس شفاهها قطع صوت هاتفها برناته حلمها ليتداخل شريط ذاكرتها مع صوت عطوان الذي جاء من وراء الهاتف.

عطوان أين أنت ؟ قالتها بلهفة وهي تضع خصرها على الكرسي الهزاز في حديقة الفيلا.

أنا في شقتي، متعب، جاء صوته من بعيد

ألم تقل إنك ستأتي للمدينة؟ سألتها بلهفة وهي تمسك بأصابعها على القلادة الفضية التي كانت ترقد بين شقي النهدي.

نعم، حبيتي، أخرتني بعض الأشغال، وغدا سأكون هناك.

بقيت تحدثه، دون أن تنتبه للخادمة مبروكة التي وقفت على رأسها

أغلق المقدم هاتفه، وبقي يفكر في صوت شيراز التي أحس بشوق كبير نحوها . قال في سره. أخيرا سألتقي بك.

نظر الملازم مخفي نحو المقدم الذي بقي شاردًا يكلم في نفسه قبل أن يمد يده نحو الريمون كونترول ليفتح شاشة البلازما.

تحرك الملازم أمام عتبة صالة الشقة، ثم خرج نحو البلكون، وفي رأسه دار سؤال مثل العاصفة ما الذي قاله الرائد سعيد للمقدم حتى غير رأيه بمقابلة العميد تلمساني ؟

بقي المقدم في شقته يتابع في شاشة بلازما ما تردده نشرات أخبار القنوات الفضائية.

فككت ليلة البارحة وحدات من الشرطة القضائية، والجيش الشعبي ثلاثة قنابل ناسفة كان قد زرعها إرهابيون في ثلاثة أماكن مختلفة من العاصمة، والتي كانت ستتفجر لولا يقظة الجهات الأمنية التي فككت القنابل في حينها. وحسب التحقيقات الأولية قالت الشرطة أنها لا تستبعد أن يكون وراءها الإرهابي الكبير مراد دور كال الذي ظهر مجددا على الساحة.

حرك رأسه قافزا من مكانه، مناديا على ملازمه.

حضر السيارة سنذهب إلى المكتب .

حاضر سيدي أجب المخفي ، ثم نزل مسرعا نوح كراج العمارة.

هز مراد دور كال رأسه أولاد القحاب؟ مغلقا جهاز التلفزيون بتوتر، وقام متأسفا لتلك العمليات الإرهابية التي يريدون توريثه فيها. قام من مكانه بتثاقل نحو غرفة المطبخ، متحسسا صداد نصفي بدأ ينخز في محيط رأسه. أخذ كثانة كانت ملقاة على طاولة المطبخ، عصب بها رأسه، ثم تناول إبريقا كان على موقد النار، و صب منه فنجان قهوة كان قد حضرها، ووضع قطعتين من السكر، وحرك بملعقة صغيرة كانت في كأس زجاجي به بعض الماء. حمل فنجانه وعاد إلى الأريكة حيث ترك الجريدة التي كان قد كتب له فيها المقدم رسالة مشفرة ليحذره من الأصلع.

فتح صفحة الوفيات، وبدأ يقرأ ويرتشف من فنجان قهوته الساخن. في تلك اللحظة كان الفتى يخطو خطواته الأولى في الشارع المؤدي إلى مطعم (شيكين) الذي فتحه رجلٌ مُلْتَحٍ كان قد عاد من دبي. نظر في الاتجاهين بعدما رأى رجلين كانا قد خرجا مترنحين من باب حانة صغيرة جلست قرب المنزل الذي كان يقصده، كتب على لافتتها حانة الخيام. توقف على بعد خمسة أمتار من المطعم، متتبعا رهوجة الرجلين اللذين كان يتحدثان عن من يُوصل الآخر لبيته. انتظرهما حتى اختفيا في عتمة الشارع، ثم خطا خطوتين نحو العتبة. دفع بيده ضاغطا على زر الجرس متتبعا صوت رناته القديمة حتى انتهت. انتظر برهة لعل أحد يرد، ثم أعاد الضغط مرة ثانية مرددا بينه وبين نفسه: عليه أن يخرج من عزلته كما أشار له الأصلع. في تلك اللحظة كان مراد قد وقف متوفزا واضعا الجريدة على الطاولة الصغيرة أمامه، و خطا بحذر نحو الباب، متحسسا فتحته. حينما سمع صوت خطوات الطارق تباعد، دار في مكانه، واتجه نحو الخزانة الصغيرة التي تشبه البيبيلوز العتيق المركونة في جدار الصالة حيث وُضِعَ فوقها التلفاز القديم. تناول كيسا بلاستيكيًا من تحتها كان قد وضع فيه بعض السمك الذي جلبه معه من ميناء سيدي فرج. ثم عاد أدراجه حيث انحنى جادبا عليه الشطرنج

من تحت الأريكة. فتحتها مخرجاً مسدداً أسود من نوع بيرطة، ثم ردمه بسمك السردين داخل الكيس، وتحرك نحو الباب الخلفي جهة المطبخ.

كان الفتى يتجه نحو السلالم الخلفية بعدما تأكد أن لا أحد في البيت. كانت السلالم الحجرية التي نزل منها الفتى لا تبعد أكثر من خمسين متراً عن المنزل الذي قصده، دون أن يلتفت نزل بخطى بطيئة، دافعاً بأخر خطوة على درج السلم الحجري المنتهي بالرصيف، ليتفاجأ بيد التفتت حول رقبته مغلقة له فمه بقطعة منديل.

ألم أقل لك ألا تأتي إلى هنا؟ وألا تحمل سلاحاً! ماذا دهاك، لماذا لا تعمل لكلامي؟

بقي الفتى يصارع اليد التي أغلقت فمه قبل أن ينطق بصعوبة بعد أن أفرج مراد دوركال عن راحته، محرراً فم الفتى الذي أحس بدوار جراء غياب النفس.

أبي، لقد سألت عنك صحراوي! قالها الفتى بعدما تخلص من اليد التي كانت لا تزال تمسك برقبته.

أباك مات ألا تفهم! من سألك عني، قل له إن أبي ميت.... ميت!

هذا ما أقوله يا أبي.

لقد اتفقت مع الدولة، وليذهب الأصلع لينقذ نفسه، أولاً!

رفع إصبعه نحو ناظر الفتى. احذر أن تأتي إلي مرة أخرى، أو تتحدث إلى أي كان! حتى ولو مات أخوك، أو ماتت أمك، إذا احتجت لشيء فأنا من سيأتي إليك أضاف له مرة أخرى محرراً شاهده إصبعه في وجهه.

ولكن إلى متى ستعيش هكذا يا أبي؟

من قال لك إني أعيش، أنا ميت أجابه بتوتر، ثم فتح له كيس السمك الذي كان قد وضعه على حافة المدرج. ضع المسدس، وافعل ما أقوله لك حتى لا تموت !

أخرج الفتى المسدس من خصره، ووضعه في الكيس. ثم نزل درج السلم الأخير دون أن يلتفت.

بقي مراد يتابع خطوات ابنه حتى اختفى في عتمة شارع باب الواد. ثم صعد السلالم عائداً إلى منزله، وهو يفكر كيف للأصلع أن يتجراً، ويدخل ابنه بينهما. ألم يكفهم أنهم يحاولون تحميلي كل قذارتهم التي يقومون بها ردها في نفسه وهو يدخل شقته من الباب الخلفي.

في طريق ذهاب المقدم إلى مكتبه بقي يفكر فيما قاله الرائد سعيد الذي أخبره أنه يتعرض لضغوطات جراء التحقيقات الأخيرة التي أجرتها عناصره حول القنابل التي فككتها أجهزة الأمن .

وأن العميد تلمساني لم يسمح له المستشار بمقابلة الرئيس.

دخل العميد من الباب الخلفي لغرفة مكتب الرائد الذي خرج وأخذ معه الملازم بعيدا عن المكتب.

جلس العميد مع المقدم. وراح يحدثه عن المجلس السري وبأن القرارات التي كان من المفروض أن ترسل للتنفيذ قد حرفت فيها أشياء كثيرة.

و صار هناك نوع من عدم الثقة بين أعضاء المجلس لهذا اضطر حافظ الأختام إلى تجميد كل الاجتماعات. ثم أضاف له بعدما سأله المقدم. هل وصلت التقارير للرئيس حول ما يحدث.

لا اعتقد. الرئيس لا يعرف عنها شيئا.

بقي المقدم شارد الذهن يفكر فيما يحدث بالمجلس السري وفي المهمة التي كلفه بها السيد.

في تلك اللحظة جاء صوت الملازم مرة أخرى.

ألهذا طلب منا السيد أن نوقف متابعاتنا لعملاء المؤسسة القديمة ؟

لن نوقف شيئا، بل سنبحث في مكان آخر. أجاب المقدم.

الآن نعرفهم !؟

أولئك هم، الوجه الظاهر للهرم فقط..

إذن ما قاله الرائد سعيد صحيح !

لقد جاءت فرقة خاصة من المخابرات، وأخذت كل ملفات التحقيق وأبعدت وحدائنا من المكان. قال الرائد سعيد للملازم حينما جلس معه في مكتب آخر.

حينما سأله الملازم لم لم تخبر المقدم بكل هذا.

همس له الرائد. دع المقدم فهو الآن منشغل في أشياء أكثر أهمية.

استعاد الملازم كلام الرائد سعيد، ثم نطق.

لقد أخبرني الرائد أنهم يتعرضون لضغوطات من طرف جهات في المخابرات. وفي كل مرة تأخذ منهم التقارير التي ينجزونها.

هز المقدم رأسه . ألا يحتفظون بنسخ من تقارير التحقيق؟

نعم سيدي. إذن دعهم يفعلون ما يريدون.

عليهم أن يستمروا في تحقيقاتهم.

نعم سيدي، وهذا ما أحببت به الرائد سعيد.

سيكون المساعد صفر باتصال مع الرائد. قال المقدم.

في تلك اللحظة رن هاتفه.

نعم أرزقي.

لقد حضر السيد خليل .

أدخله للمكتب، أنا قادم. رد المقدم بعد أن أغلق هاتفه.

أسرع بنا.

أدار الملازم مقود السيارة نحو طريق بني مسوس.

توقفت سيارة حكومية في ردهة كراج إقامة موريتي بعيدا عن موقف السيارات القليلة ذات الدفع الرباعي لبعض مسؤولي القصر الذين تعودوا أن يركنوها في موقفهم الخاص. ترجل المستشار من سيارته بعد أن تناهت لسمعه حركة شخص في سيارة كانت تقابله بجانب عرسة كبيرة. رمى خطوته نحوها بحذر، مخرجا مسدسه، مناديا بصوت متكرر. هذا أنت !

صوب مسدسه نحو باب السيارة، ناطقا مرة أخرى في وجه رجل أصلع نزل منها.

هذا أنت؟

أغلق الرجل باب سيارته البونبي.

لماذا لم تجبني؟ سأل المستشار بعد أن أعاد مسدسه لخصره.

لقد أردت أن أنظر كيف يعمل السلاح بيدك؟

كل ما يهملك هو التعالي، و التفاخر! لقد انتهى زمنك، ونفد الهواء من رئتك.

أنت تعرف أنني لا أعيش بدون هواء، وهواء موريتي الذي تنعمون به هواء منعش.

كزز المستشار على أسنانه: لقد تغيرت الأنظمة الهوائية في الدولة، هذا إن لم يمسك بك المقدم، أو المساعد صفر؟ أضافها متمنيا لو لم يلتق بهذا الرجل المريض.

هل التقيت بالرئيس؟ سأل الأصلع بعد أن أبان عن أسنانه المتآكلة.

من يستطيع أن ينطق اسمك عند الرئيس بعد الذي فعلته. لقد قدم العميد تلمساني في عناصركم تقريراً.

قهقه الأصلحة مثبته نظراته في عيني المستشار رافعا يده في الهواء: إن لم تكن صاحب قلب قوي فاترك هذه المهنة، الدولة ليست لضعاف القلوب !

سأترك هذه المهنة حينما أتخلص من أمثالك.

مادمت ستقوم بالتنظيف مثلهم، سأقول لك عن مكان رأس الهرم الذي تبحثون عنه. أستم تبحثون عن من وضع القنابل في مراكزكم الحساسة. قالها دون أن ينزل ناظره من عيون المستشار الذي بقي يلوي في لسانه بغضب بعدما قلت منه سؤالا كما لو أنه أدرك أن الأصلحة المريض ما كان ليتجراً بظهوره أمامه في هذا المكان ما لم يكن يحمل شيئاً يفاوض به على حياته. من هو رأس الهرم هذا ياسي صحراوي؟

إنه مراد دوركال الميت، ألم تعلنوا عن اسمه في تلفزيوناتكم؟!

صمت المستشار متفاجئاً عندما سمع باسم مراد دوركال الذي كان يدرك أنه ميت، وأنه لم يصدق ما قدمته المخابرات حينما استلمت قضية التحقيق عن وحدة الشرطة، وقدمت تقريرها أن العمليات الإرهابية التي استهدفت رجال الدولة، واستهدفت المراكز الحساسة كانت من تدبير مجموعة مراد دوركال. إذا قمت بتسليمي، فلن يشكرك أحد. ولكن إذا قمت بالإمساك برجل يقال إنه ميت، ويطارده الجميع، ورميت به في السجن، وقتها سيشكرك الجميع. خاصة الرئيس! استطرد الأصلحة فاتحاً فمه، ثم أضاف: قُم أنت بإصلاح أموري، وسأعطيك أسماء كثيرة مثل مراد دوركال.

عض المستشار على شفته هازاً رأسه، ثم التفت تاركا الأصلحة يحرك في وجهه في الهواء مردداً بعد أن دفع خطواته نحو الباب المفضي لخارج الردهة: لن أعذك بشيء، سأفكر في الأمر!

جلس خليل الصافي ينظر نحو المقدم مدهوشا أن يكون ابن مدينته، وابن غريمه هو أحد رجال المخابرات المضادة. لهذا فكّر أن عليه أن يتحدث معه بحذر.

اعذرنى لم أكن أعرف أنك أنت المقدم !

الدنيا قصيرة ياسي خليل، مرحبا بك على كل. قال لي سي أرزقي أنك تريد مقابلتي في أمر هام.

نعم سيادة المقدم،. أعتقد أنك تعرف ارتباطاتي بأصحاب القرار في هذا البلد. وما قدمته طوال ثلاثين سنة، حتى قبل أن تتغير، وتصبح تعاني هذه الأزمات المتتالية. لهذا جئت اليوم بعدما عرفت أن وظيفتك هي القضاء على من يخون هذا الوطن. أستطيع أن أقول لك إنني جئت ليس لأجل حياتي بل لأجل حياة أسرتي خاصة ابنتي شيراز، وزوجتي .

توقف خليل عن الكلام في اللحظة التي أحس بالمقدم قد حرك عيذه لسماع اسم شيراز. ثم أضاف لأجلهم أنا مستعد لتقديم معلومات سرية عن الذين تبحث عنهم !

حرك المقدم رأسه، ثم رد ببرودة كما لو أنه أراد أن يستفز السيد خليل: ومن هؤلاء الذين أبحث عنهم ؟

الذين يضغطون عليّ لتمويل حركات الجنوب!

اسمع سي خليل، أنا لم أقبل بلقائك لتأتي لمكتبي، وتقول لي أحجية . لأن ماتقوله كلام خطير !

نعم حضرات . أعرف أنه خطير، وأعرف أنك تعرف عن ماذا أتكلم.

صمت المقدم حينما أدرك أن السيد خليل قد بدأ يخرج ما في جعبته لهذا أراد أن يقصر عليه الحديث.

تقصد الجنرال بوزازة، وجماعته.

نعم الجنرال الذي أرسل عميله للمدينة ليقتل أحد عمال مزرعتي قالها خليل ثم استطرد متحدثا عن الجنرالات أصحاب ٢٧ فيلا الذين يتحدث عنهم الناس على أنهم أصحاب القرار السياسي في هذا البلد.

إن أردت فسأعطيك أسماء .. أضاف خليل.

بقي المقدم صامتا، وهو يتابع كل كلمة كان خليل يخرجها. وفي الأخير فتح المقدم ابتسامة مرددا : جئت للمكان الصحيح ياسي خليل. لهذا سأمدُّ لك يدي.

قام المقدم من مكتبه وراح مصافحا السيد خليل.

بهذا القرار ستقدم خدمة جليل لوطنك.

هز خليل رأسه. شكرا سيادة المقدم منذ رأيتك وأنا أقول بن عطوان جاب عطوان قالها وهو يبتسم في وجهه مضيفا له قبل أن يغادر مكتبه.

إنهم يريدون تأسيس مجلس جديد لهذا أدخلوا صديقك مصطفى إلى الجزائر. ثم فتح حقيبة صغيرة كان يحملها معه، مخرجا ملفا ووضعها على الطاولة .

هذا ملف لأسماء شبكة المراسلين الذين سيحضر بعض منهم، والمؤهلين لدخول المجلس.

في الطريق كَلَّم المقدم المساعد صَفر ، وطلب منه أن يكتف مراقبته لجماعة الجنرال التي كانت تحضر لاجتماع سرِّي كما قال له السيد خليل. ثم أرسل له الأسماء المرسلين في رسالة عبر الهاتف. ثم أغلق هاتفه، و بقي يردد بينه، وبين نفسه من كان يقول يا خليل صافي أنك ستخطو تلك الخطوة الجريئة، وتطلب مني حمايتك من جنرالات العسكر؟

رنت عبارة العسكر في رأسه فراح مستعيدا صوت أمه شريفة التي ظلت طوال السنين الماضية تنتظر بحزن نحوه صارخة: لا أريد لابني أن يكون عسكريا بتلك البزة !

سأل نفسه لماذا شوه هؤلاء البزة العسكرية ؟

أحس بمرارة هذا السؤال مثلما أحسه يوم قرر أن ينزل عند رغبتها يوم تسلم بطاقة توجيهه إلى المدرسة العسكرية بشرشال. لن أحزن قلب أمي، كما أنني أنا أيضا لا أحب البزة العسكرية. نظر إليه والده بصمت بعدما شاهد زوجته تغادر بحزن إلى مطبخها، ثم أخذه إلى غرفته ممسكا بيده " إنك تأخذ طريق جدك بن عطوان". ثم أطلعه على قصته.

بقي عطوان كاتما عن أمه سرّ دخوله للمدرسة العسكرية

إلى أن قرأ عليها والده رسالة الرجل المهم الذي أعلمهم بالمنحة الدراسية التي مكنت ابنهما بالإشتغال في وزارة الخارجية

عانقته شريفه، وقالت لزوجها. هو قدرنا إذن !

من يومها لم يستطع أن ينظر إلى عيونها المتحجرة بالدمع.

كلما فكّر بالعودة لمدينته اشتعلت في ذاكرته هذه الهواجس، وأعادته للحظات الأولى التي قلبت حياته رأساً على عقب بعد أن عاش حياته البسيطة ببؤس في شوارع مدينته دون أن يخطر بباله يوماً أن يجد نفسه يلقي الاهتمام الكبير من رجل دولة بدا صامتا، ومهابا حتى حينما التقى به بعدها بعام من تخرجه في فيلا في أعالي العاصمة.

بدأت تتحسن أوضاع أسرته جراء الأظرفة المالية التي كانت تصلهم تباعا في كل شهر، وكان عمّه عمار الذبية الذي كان يشتغل يومها ساعي بريد بالمدينة يقوم بإيصالها لوالده الذي وصلته أول رسالة باسم السيد يهنئه فيها بتخرج ابنه لهذا عليه أن لا ينشغل بغايبه الطويل عنه. يومها فقط ابتسمت أمه شريفة، وتناسست حزنها، وصارت في كل مرة تسأل زوجها أن يعيد عليها قراءة رسائله التي سلمه لهم صديقه مصطفى، لكن بلخوش الذي ظل يحتفظ بها ملفوفة في منديلها لم يستطع أن يخبرها عن كل شيء.

كان أكثر اشتياقا لابنه خاصة في الأيام التي كانت فيها أخبار جماعات الموت تملأ نشرات التلفزيونات، وأحاديث الشوارع.

قال له السيد يومها صديقك منح معلومات مهمة لأحد تجار المخدرات، وسافر للخارج بعد أن بقي منهما كعضو من تلك الجماعات.

يوم سأله والده عنه حينما أخبره بأمر الرسائل التي سلمها لأمه بتلك الطريقة الفظيعة:

مصطفى لن يتجرأ على صعود الجبل رغم أي رأيته في وهران بتلك اللحية التي تشبه لحية العتروس كما شبهها بذلك أحد زملائي حينما ناداني في شارع خميستي، إلتفت إليه فاكثقي بأن يصافحني مرغما ليسمعني أول كلمة أكثر فظاعة مما قاله لأمي. لماذا لا تترك العمل مع الطاغوت؟ ثم غادرني مثل الغريب. فكرت يومها أنه مخدر، ولا يدري مايقول. لهذا انسحبت، وأنا أبصره يبتعد عني بعدما سمعت صوت رفاقي ينادون عليّ من سيارة من نوع ٤٠٦.

استفاق المقدم على صوت السيد الذي قال هناك تحرك من الجنرالات يريدون توريط مستثمرين.

ثم أضاف له مسألة النقاشات التي يريد القصر إجراءه لأجل تعديل الدستور لن تكون سوى حبر على ورق. لأن الأجهزة التنفيذية في الإدارات لازالت تحت أيدي هؤلاء. ثم أضاف له مهمتك من اليوم أن تبحث عن الرؤوس التي وراء هؤلاء. وستكون قضية الرعية الفرنسي هي رأس الخيط الذي ستتبعه.

فكر المقدم وهو يدخل الطريق السيار متجها نحو جهة بوفاريك أن الدنيا قد لعبت معه، ومع عائلته لعبة قمار بعدما انقلبت به من النقيض إلى النقيض حتى وهو يدرك أن عائلته كُتبت عليها أن تعيش قدرها في سرية كما قال له والده يوم سأله عن صمته عن ذكر اسم جدّه بن عطوان.

صمت والده، ثم أجابه ستعرف السبب يوما ما!

قالت شريف إنه قذرنا، وقال والده إنه قذرنا. وقال له العجوز منصور أعرف أن ابني لم يصعد الجبل، ولم يمت. كما أعرف أن جدك بن عطوان كان بطلا وزعيما.

بقي عطوان ينظر إليه كان سيقول له ابنك قطع البحر، وصار رجلا ناجحا لكنه تذكر أن ملف مصطفى أصبح من ملفات الدولة السرية، مثل حكاية جدّه بن عطوان.

بقي بلخوش صامتا ينظر إلى ابنه مستعيدا يوم سأل نفسه نفس سؤال ابنه عن قدرهم الذي جعلهم عائلة تعيش بسرية، وبحذر دائم. تذكر ذاك الرجل الخمسيني الذي ظهر في طريقه حينما كان في فرنسا، وسأله هل أنت بلخوش بن عطوان. بقي ينظر إليه بعدما ظنه سيقول له نفس عبارة الذين كانوا يلتقونه (يا ولد الحركي) لكن الرجل عاذقه، وسلّمه رسالة خاصة قبل أن يضيف له: عليك بقراءتها، وإحراقها

أمامي وبعدها حاول أن تتذكر أن والدك أعظم رجل أنجبه هذا الوطن،
وأنا نريدك أن تكون معنا في الحزب !

فتح بلخوش الرسالة مبصرا في خطها العربي الجميل، وقرأها وأصابعه ترتجف : " ابني العزيز قد يكون الوطن، وقد يكون الابن وقد تكون العائلة كلها، لكننا مجبرون لأجل الذين نحبه، ونحب أن يعيشوا أحرارا في أرضهم ، أن نسلك طرقا قد تبدو للآخرين خيانة عظمى. و والدك يقدم خدمة لوطنه حتى وإن استدعى الأمر أن يكون في صف العدو. كان مطلوباً منا في لحظة انفرط فيها خيط الإخوة أن نستغل ذاك الاستنزاف الذي بدأت تشهده الحركة الوطنية، لهذا عليك أن تظل مرفوع الرأس، وأن لا تحزن يوما لكل ماقد تسمعه من أفواه الناس، أو حتى من مسؤولين كبار يمثلون الدولة. سينطق التاريخ، وسيعرف أحفادك أن جدّهم لم يخن وطنه يوما، بل خدمة مثل أي مواطن شريف يحب وطنه.

أبوك بن عطوان الحاج .

حينما أنهى قراءتها أحس برهوجة، وبارتجاف مثل الصعق في أصابعه وهو يشعل فيها عود ثقاب أمام الرجل الخمسيني الذي بدا رجلا مُهمّا وهو يغادره بعد أن توقفت سيارة سوداء من نوع بلاص بجانبه بعد أن ركبها وأقلعت.

كان ذاك في حدود سنة ١٩٦٣ بباريس.

يومها فكّر بلخوش في ترك الغربية حتى دون أن يجيب على اقتراح الرجل بالانضمام لحزبهم المعارض.

أوقف الملازم سيارة الطويوتا أمام شقة المقدم بعدما ظل طوال الطريق صامتا وهو يبصر في شروود رئيسه.

نزل المقدم متحسسا تعباً لا يطاق، ثم أشار برأسه لملازمه بأن يأتيه غداً .

نعم حضرات . رد الملازم.

أخرج هاتفه وهو يصعد أدراج سلالمة العمارة التي لم تكن تحتوي أكثر من طابقين. ممرراً أصابعه على رقم شيراز.

توقفت سيارتان حكوميتان من نوع طويوطا بونبي للتدخل السريع بطريقة جنونية في شارع أحمد رضا حوحو بباب الواد بعد أن نزل منها رجال مسلحون بلباس القوات الخاصة، وحاصروا شقة الرجل الميت.

في تلك اللحظة نزل المستشار بعدما أخرج مسدسه من خصره، وأشار إلى قائد فرقة التدخل بأن يلتف مع بعض الرجال حول البيت. في تلك اللحظة توقف مراد في آخر الشارع حينما لمح السيارتين، ولمح رجال التدخل السريع يطوقون بيته.

دار في مكانه، وبدأ يراقبهم من بعيد. كانت الساعة العاشرة ليلاً.

دخل المستشار بعدما كسر أحد العساكر قفل الباب. نظر المستشار نحو الطاولة الصغيرة بجانب الأريكة حيث كانت لاتزال الجريدة التي تركها مراد دور كال مفتوحة على صفحة الحوادث. مع فنجان قهوة. قلبها، ثم راح يقلب في الأريكة، وحينما لم يجد شيئاً، اتجه للخزانة الصغيرة. فتحها أخرج بعض الأوراق.

في تلك اللحظة جاءه صوت أحد جنود التدخل.

سيدي، لم نجد شيئاً.

عاد المستشار مسدسه إلى خصره. بعد أن رأى فنجان قهوة فوق الطاولة الصغيرة، تلمسه، محركاً رأسه.

لقد عرف أننا سنداهمه.

ثم طلب من القائد الانسحاب بعدما قال له اجمع كل الأوراق التي في الخزانة الصغيرة.

في تلك اللحظة فكر مراد دوركال بأن المستشار قد وضعه في رأسه، وأنه لن يهدأ حتى يعتقله، لهذا راح موقفا سيارة تاكسي كانت تمر بالشارع القريب، وقال له خدني إلى مطعم الكوليس .

اقلعت سيارة التاكسي، ومراد دوركال يفكر كيف يمكنه أن يبقى صامتا مخفيا كما قال له المقدم أمام ما يفعله المستشار.

بقي المقدم جالسا على الأريكة ناظرا نحو هاتفه الملقى على الطاولة الصغيرة بعد أن نسي اللحظة تعبته الذي تمكن منه طيلة ذاك اليوم الذي أحسّه أطول يوم في حياته. أغمض عينيه على صوت شيراز الذي خلصه من أرق شديد بعدما تلملم في كل الجهات. في النهاية تذكر الملف الذي سلّمه له خليل الصافي فمدّ يده لالتقاطه من الطاولة التي جلست أمامه. فتحه متفرسا أوراقه، ثم أعاده لمكانه والنقط ملفا آخر، وبدأ يقلب في أوراقه دون تركيز بسبب الخط الصغير الذي كتب به المصدر. حاول أن يركز في أسماء زوار مقهى زينزيبار الذين وضعوا في قائمة مع تواريخ زياراتهم المتكررة. لاحظ أن المصدر قد أشار لشكوكه نحو بعض الأسماء التي وضع تحتها عبارة شخصية مهمة. ثم وجد اسما آخر، وضعت تحته عبارة له علاقة بتاجر العقارات. شطبَ على الاسم الأول، و بقي ينظر إلى اسم تاجر العقارات خليل الصافي.

قال له السيد أن عودة ابي نصر من لندن ليست عودة طبيعية . وأن الذين يستعملونه ليسوا أغبياء لدرجة أن يعودوا بهذا الرجل ليعارض سياساتهم، بل ليمنحوه دورا في مرحلة مابعد تعديل الدستور.

ثم أضاف له ما يحدث للرجل، ومايقوم به من اتفاقات مع القصر ليس لنا أي دخل به .

نظر إلى السيد بعد أن أخبره أنه لايزال يتذكر اليوم الذي وجد فيه الرجل أمام مكتب النائب العام بعدما استطاع ولد الصافي أن يحوّل ملف قضية ابن أخيه إلى قضية سياسية من ضمن القضايا التي عالجها قانون المصالحة الوطنية.

في النهاية قالت الجرائد إن أبا نصر قد اتفق مع الدولة، وتم السماح له بمغادرة البلد إلى لندن.

رنت في داخله عبارة رئيس ديوان المجلس الذي قال له يومها.

أبو نصر، وجماعته دخلوا في قانون المصالحة حتى قبل أن تلقي أنت القبض عليه في المغرب.

صمت المقدم. ثم قال له ماذا ستقولون للعائلات التي قتل أبناءهم ياسي جعفر !

ثم تركه جالسا في مكتب النائب العام، وخرج متسائلا كيف لأولاد الصافي أن لا يحاسبهم أحد.

نفس السؤال طرحه على السيد لكن السيد أجابه أن أولاد الصافي يلزمون الدولة لهذا عليه أن يتفق معه.

تساءل في تلك اللحظة كيف أن خليل الصافي لم يذكر أخاه سعيد، ولا ابن أخيه أبي نصر في اتفاقه معه.

لم يصدق حينما قالها له الملازم المخفي أن العميل العاصمي السكين قد نفذ عملية اغتيال عامل مزرعة ولد الصافي بأمر من الجنرال، حتى قالها له خليل بنفسه.

قال سكين وهو يُطلع في آخر أنفاسه بعد أن ضربه المخفي بمطرقة الحديد على قدمه. متى كنا نسأل عن هوية الذين نُؤمر بقتلهم؟

قالها وهو يضحك. هناك أشياء ستحدث لا يمكنك أن تستوعبها سيادة الملازم.

كنا نعرف أن رئيسك السابق حي، و يقيم كعميل (résedent) بالمدينة.

في تلك اللحظة أخرج المخفي مسدسه، وأطلق رصاصة في رأسه.

قال له المقدم حينما أخبره بأنه تخلص منه.

كنت تترك عظمة منه لصاحبه مراد؟

بقي المقدم يستعيد من ذاكرته كل ما مرّ عليه في تلك الأيام العصبية مقلبا أوراق الملف قبل أن يرن هاتفه.

وضع الملف على الطاولة ومدّ يده بتعب نحو هاتفه .

جاء صوت الرجل الميت

- أين أنت حضرات .

- ألم أقل لك لا تتصل؟.

صمت الملازم مراد، ثم أضاف بعدما ضغط المقدم على زر مكبر الصوت وراح واضعا هاتفه على الطاولة الصغيرة أمامه. ماذا أقول لك ! كنت وعدتك لكنهم وصلوا إلى ابني، وإلى ، و حتى زفيرة لم تنتج منهم. أخبرتني بعدما ألقيت القبض على كلهم سكين، انتقموا منها.

ألم أقل لك ابتعد عن زفيرة؟ قالها المقدم بتوتر، ثم أضاف له. وأين أنت الآن؟

معها في المستشفى. قالت إنهم يبحثون عني، وقد عرفوا كل شيء حتى أنهم سألوها عنك بعدما أخبروها أنهم من DRS، لكنها نفت معرفتها بنا، وقالت لهم إن زبائنهم كلهم ضباط، ورجال أثرياء.

وهل هي بخير.

نعم، قال الطبيب انها مجرد صدمة ، والآن هي بخير وسأوصلها لشقتها.

جيد. المهم كن حذرا يامراد. بالكاد نظفنا ملفك من اتهامات زرع القنابل.

صمت مراد. ثم جاء صوت

شكرا سيادة المقدم.

لا تشكرني على شيء . لا يجب أن تمنحهم فرصة لوضعك وراء
القضبان. قالها المقدم باستطرداد، ثم سأله.

قل لي، وهل عرفت أحدا من الذين اقتحموا مطعم زفيرة ؟

أظن أن رجلا منهم كان صحرروي الأصل حسب ما وصفته لي،
وقالت إنه سيلتقيني الأسبوع القادم في مطعمها.

اسمع يا مراد . مطعم زفيرة أنساه . عليك أن تختفي في هذا الظرف.

صمت مراد. ثم رد. أعدك أنني سأفعل ولكن سأخبرك برسالة من
زفيرة .

سألتني عنك لأن الوهرانية مريضة.

ضحك المقدم. رجل ميت، وتفكر بالنساء !

زفيرة لا تشبهها النساء . جاء صوت مراد

بقي المقدم صامتا. ثم قال له المهم عليك أن تحذر من العودة للمطعم .
جاء صوت مراد. هل صالحي معك سأل مراد .

بقي المقدم يحرك في حواجه وهو ينظر نحو هاتفه دون أن يجيبه على
سؤاله .

أتى صوت مراد سائلا مرة أخرى وهو يقف من كرسيه ليطل من
شرفة سطح غرفة زفيرة بالمستشفى. كان سيقول له إن ملازمك كان
عندها قبل أن يقتحم الأصلع وجماعته المطعم لكنه تراجع حينما تذكر

وجهه المنكسر و حالته المزرية يوم التقى به في القرية عزيز. كان سيقول له لا تهتم بالمجنون الذي جعلته ملازمك الخاص لكنه تراجع.

جاء صوت المقدم مرة أخرى: عليك أن تبعد عن زفيرة خاصة في هذا الظرف.

انتبه مراد. سأبتعد لكن عليك أن تترك لي الأصلع، وعديمي الشرف.

سأتركهم لك بشرط واحد أن لا تظهر مجددا حتى يتصل بك المساعد صفر. ثم سأله له هل تعتقد أنها حركة من الجنرال ؟

أكيد هو من أرسلهم. منذ أن أخبرهم كلبهم السكين بوجودي بالمدينة، ثم أضاف له اسأل ملازمك المجنون فهو يعرف ذلك.

أحس المقدم لحظتها أن مراد يريد أن ينبش في جرح غائر بينه وبين ملازمه. مراد دوركال عليك أن تحذر ! كررها المقدم مرتين..

تصبح على خير، إذن.

بعدها أحس بصوت مراد دوركال يتلاشى وهو يردد مع السلامة. أوكي ! (ok) جاء الصوت خافتا. نلتقي حينما تعود، ثم انقطع الخط.

أغلق هاتفه وأبعده جانبا، ثم أغلق الملف الذي بقي مفتوحا على الأريكة لكن مرض شهيناز الذي أخبره به مراد أعاد له حنينه إلى شيراز.

فكر بحركة الجنرال الذي بدأ يحرك في عناصره القدامى. وضغط من كل جهة.

ماذا يريد هؤلاء؟ قالها في سرّه ، ثم انتبه لصورة شهيناز تطارده وهي التي قالت له آخر مرة أنها ستظل تنتظره حتى ولو ماتت من انتظاره في ركن المطعم. تنفس مخرجا نشيجا بعدما أحس باختلاط مشاعره. بدا كما لو أنه لا يعرف لِمَ كلما رآها، أو سمع اسمها تذكر شيراز وراح

يتشبث بحبها هل كانت مشاعره تهرب منه نحو خادمة المطعم، أم كان الغياب الطويل يجعل من نزواته تتحرك؟

هز رأسه طاردا وسوس مشاعره، مغمضا عينيه، لكنه تفاجأ بصوت شيراز يأتيه كما الرصاص مخترقا أغشية تفكيره. قالت له إنها لم تعد تحتل غيابه.

لا يمكنك أن تظل غائبا. لأجلك عدت من فرنسا، ولأجلك سأفعل المستحيل لكني لم أعد أحتمل لقاءك عبر الصوت فقط، ولا عبر العالم الافتراضي. كنت سأتي إليك للعاصمة مع والدي، لكنه أخبرني أن أحوالها لا تظمن خاصة مع إضرابات العمال، وخروج المعارضين للشارع ضد القصر.

اكتفى بالصمت كعادته مرددا: تعرفيني أنا، والسياسة ختان لا يلتقيان. أنت السياسة الوحيدة التي تشغلني. لهذا سأظل أحبك .

تفطن أنه لا يزال منشغلا بصوتها حينما بدا له سقف الصالة وهو مستلق على الأريكة مثل سقف سماء مدينته بعد أن دارت في رأسه ضحكاتهما كما لو أنها تجلس بجانبه تُمَد أصابعها الشمعية لزم فمه، حتى لا يردد على مسمعا أن والدها هو من رفض ارتباطهما، و وصل به الأمر لطرده والديه أيضا. حينما يتذكر هذه الحادثة يفقد توازنه، ويشعر بعصب الدم يخرج من مثل القرن من جبهته. فُكّر متسائلا عن تغيير والدها، وطلبه الحماية ؟ !

انتبه أن الأرق قد تمكن منه، وجعل هواجسه تدور دون توقف مثل أسطوانة مشروخة. رفع جسده عن الأريكة، موقفا شريط تذكاراته بعد أن مدّ يده نحو علبة منوم، كانت على درج الخزانة الصغيرة، التي جلست قرب طاولة شاشة البلازما. بلع حبتين مع شربة ماء، ثم استلقى مرة أخرى، دائرا على جنبه الأيسر، متلمسا الكرة الصغيرة في جيب سترته، متحسدا بأصابعه نتوءات تلك الحروف اللاتينية. حرك راحته

ضاغطا، ثم استرخى بعد أن تمكنت منه حبات المنوم. لحظتها تملصت الكرة من راحة يده، وتدحرجت على البلاط، فلم ينتبه لها لأنه كان نائما.

في حلمه تذكر الرعية الفرنسي بلامحه، مع صوت العجوز منصور الذي كان يردد اسمه أمام والده: لا يمكن أن يكون هذا الرجل عميلا. قال له السيد مثلما قال والده يوما إنه صديق الثورة.

حينما أحس السيد بشرود المقدم، قال له: سيكون خيط الرعية الفرنسي هو خيط أخطر عملية ستقوم بتنفيذها في تاريخ وحدتنا .

في تمام الساعة العاشرة صباحا نزل المقدم ذو القامة الفارهة، والوجه الأحمر الناصع من سيارة من نوع طويوتا رمادية اللون، بونبي، ذات ترقيم حكومي أمام الحديقة الكبيرة بعد أن أشار إلى ملازمه المخفي بأن يتركه. ويذهب إلى بيت العميل المقيم مراد دوركال، وينتظر اتصالاً منه.

نكس المخفي رأسه بعد أن سمع اسم دوركال ضاغطا على أسنانه متحسسا وخزاً في أعصابه.

كان المخفي كلما سمع اسم مراد يحاول أن يخفي عن المقدم توتره وهلوسته لهذا راح للبحث عنه في مطعم زفيرة في ذاك اليوم الذي غاب فيه عن المقدم لكنه لم يجده اكتفى بشرب بيرات بعد أن سأل زفيرة التي لم تعطه أي جواب. لهذا أحس بتوتر في أن يذهب كما أمره المقدم للبيت الذي سكنه طيلة السنوات التي اختفى فيها عن الأنظار فهذا مالم يستطع استيعابه، لهذا تراءت له صور الدم على وجه الرجل الميت حينما نزلا معا في ذاك الليل نحو قرية الرمكة في مدينة تيارت. تحرك دوركال يسبق رتل الجماعة متحسسا رشاشه قبل أن يقفز في حوش بيت الرجل الذي وصلتهم أخبار أنه يمол الجماعات الإرهابية. حينما قفز وراءه وجده يمسح خنجره على سترة الرجل الذي حز رأسه بدم بارد على مرأى من عيون فتاة عشرينية كانت مقيدة في الركن تراقبها امرأة حاولت نبش أظافرها في وجهه فصوب رصاصة في رأسها. كانت عينا المخفي تجوبان الحوش، والدم يملأ عتبة الغرفة. حينما سألته المقدم عن توتره أمام السيدة زفيرة بعد عودتهم من المطعم. قال له إنه يعرف تلك المرأة القبائلية لأنها كانت زوجة الرجل الذي قطع مراد رأسه دون أن يرف له جفن.

بقي المخفي يومها صامتا أمام المقدم، ثم أضاف بحزن: لما سألته لم قتلت الرجل؟ نظر إليّ رافعا أذني الرجل، وصرخ لا يمكن التفاوض

مع هؤلاء. ثم بدأ يصرخ في وجوهنا بأن لانتركوا أحدا من رجال تلك القرية. تركني واقترب من الفتاة التي كان يعرف أنها الزوجة الثانية للرجل الخمسيني الذي حز رأسه. لا تخافي ستعودين للعاصمة، وكأنك لم تر شيئا، ولم تسمعي يوما بهذا الرجل!

نظرت إليه، ثم عانقته وخرجت.

حينما عدنا للمقر قال لي مراد إنه كان يعرفها قبل أن يتزوجها الرجل الذي كان تاجرا معروفا في تيارت. ثم انتبه محركا وجهه نحوي مرددا هل تريد أن تكون في مكان الجندي الذي قطع رأسه الجنرال ، ثم رفع الأذن التي قطعها بنفس الطريقة التي رفع بها الجنرال أذن جندي فرقة الاستطلاع الذي عصى أمره بالانضمام للجماعة بعد أن قال له إنه لا يريد الموت لأجل الجنرالات.

أقتل، اذبح، لا تترك أحدا من البقر الأحمر. عليكم أن تزرعوا في نفوسهم الرعب ، مهمتكم نقل الخوف للجهة الأخرى قالها الجنرال ويده لازالتا ملوثتين بدم الجندي قبل أن يصعد إلى المروحية الخاصة التي جاءت به إلى ثكنة بني مسوس.

حرك دوركال الأذنين اللتين علقهما على صدره في خيط.

ثم قال للجماعة لايوجد شيء أعلى من بقاء الدولة.

صمت المقدم، لهذا أنت (مردز) ياسي المخفي!

أحس الملازم المخفي بسخرية المقدم، لكنه كتم شعوره.

تنفس نفسا عميقا. ثم أدار مقود السيارة الرباعية تافلا على الأرض سائلا نفسه: هل حقا أنا المخفي، أم أبو مصعب، أم صالحي.... أم أنا العميل الميت !

قال مراد دوركال إن صالحي قد عاد.

يوم سألتني أم عزيز عمَّن قتل ابنها. لم أرد على سؤالها. بقيت صامتة كنت سأقول لها ابنك شهيد الواجب لكني تذكرت أن الموت عندنا يحدث بلا مقدمات، و لا يحتاج لأي سبب، وأن الشهادة لأجل الوطن ليست سوى شعار أجوف! كنت أستطيع أن أضحي لأجل أن أمنحه فرصة النجاة من ألام الديك الفرنسي الذين كانوا مع الأصلع الذي أخبرهم أنه عميل سرّي.

جروه أمام ناظري إلى حتفه. ردها أمام المقدم وهو يبصر في جرحه، ثم أضاف متسائلا عن وجود العميل مراد دوركال بالمدينة: لماذا تركتم صائد الودنيين يعود للمدينة؟! سأل المخفي هذا السؤال للمقدم يوم تسلم منه التقرير في حجرة المراقبة و أخبره عليه أن يلتقي به في مطعم الكوليس، ثم صمت برهة بعدما أحس أن مجرد ذكر اسم دوركال يؤرقه ويعيد له ذكريات الجبل .

ردد عليه مراد دوركال عندما التقى به في الجنازة بنوع من السخرية ألا زلت تخاف من الدم يا صالحي !؟

كان يفكر كيف أن مراد دوركال قد تغيّر كثيرا كما لو أن الجبل قد جننه وجعله ضاريا مثل وحش. لكنه رغم ذلك كان في داخله شيء غريب وغامض مثلما أحسه يوم همس له: اسم المخفي، أو أي اسم، الدائرة قد دارت علينا يا رفيقي صالح!

إن كان عزيز قد استشهد لأجل الواجب فهذه ليست غلطتك. فكلنا نعرف أن الموت يرافقتنا مثل النفس .

نظر إليه بعدما كرع معا من زجاج الروج. أحس أنني كنت جبانا، وساذجا حينما آمنت بأصحاب هذه الدولة.

مسكه مراد، وراح يخضه بعد أن أبعد عنه زجاج (الروج) التي أراد كرعها دفعة واحدة على الخواء كما لو أنه أراد حرق أحشائه .

" أتذكر يوم كُنت الوحيد بيننا الذي تردد في تنفيذ حكم الإعدام على ذاك الرجل؟ سأل مراد الملازم صالحي

أبصرتُ التردد في عينيك، وأنت تمسك بعنقه. أحسست يومها أن الجنرال لن يتركك حيًّا لهذا صرختُ في وجهك — " أن أمثالنا من المجندين وُجدوا كي ينفذوا أوامر أصحاب الدولة. وليس لهم الحق في السؤال. عليك أن تذبح الرجل أمام أمه بعدما ثُبِت تورطه في اغتيال أول محافظ شرطة بالعاصمة. نفذ الأمر، ولا تسأل ..

قلتها لك لأنك كنت ستشנק بأمر الواجب ياسي صالحي.

هل كنا آلات موت؟ نطق المخفي، ثم استطرد بحزن، أم حيوانات متوحشة لا تعرف سوى الدم، أم جنود يقومون بواجبهم؟ أجبني أيها المقدم أنت تحمّلني ما لا أطيق فأنا أيضا رجل ميت مثل رجلك مراد دوركال. محرم عليّ الصراخ، ولا حتى الحزن لأنني جُبلت على هذه البزة العسكرية، و على تنفيذ أوامر الثكنة التي علمتنا قاعدة — " العسكري ينفذ الأوامر، ولا يسأل عن النتائج". قاعدة بسيطة حفروها في رؤوسنا — هكذا كان ينطقها الجنرال مزجرا في وجوهنا كل صباح أمام ساحة العلم.

بدأ المخفي يصرخ في داخله، شاعرا بسكاكين حادة تقطع أحشاءه بعدما تراءى له وجه أم رفيقه عزيز وهي تردد في وجهه أمام مشياعي جنازة ابنها: لماذا أعدمته قتلته مرة أخرى؟ ... لماذا؟ ثم سقطت عليّ وهي تنوح حتى فقدت وعيها.

في تلك اللحظة قلت إنني سأنسحب من هذه الوظيفة قبل أن يقف رجلك مراد أمامي مرددا أن وحدة سمير تحتاجني، إمّا أن أعود، وإمّا أموت. ثم أضاف أنت محظوظ لأن السيد منحك فرصة لتنتقم من أولئك الذين دفعوا بك لجهة الخطأ. صمت صالحي، ثم نطق اقتلني يامراد ! لأجل مَنْ كنا نفعل كل ذلك في الجبل ؟

البارحة لأجل الرجل الكبير جاءه صوت مراد دور كال في داخله، ثم أضاف له بعدما كرع قليلا من (الروج) كان قد صبه في كأس صغير . حينما توقفت الحرب، وبدأ الذين أرسلونا ينظرون إلينا بازدراء، قلت لك لماذا نزلنا من الجبال؟ كان علينا أن نموت. حتى وإن كانوا زرعونا في جهة الخطأ. لكنك قلت لي إننا نعرف ماذا نفعل. قاطعه صالحى : الآن نحن موتى. أنا المخفي، وأنت الميت.

من يومها لم أسمع أي خبر عن مراد دور كال حتى قلت لي لقد ظهر للأسطح وعلينا الوصول إليه قبل أن تصل إليه جماعة المؤسسة. فكّرت ربما قطع البحر وطلب اللجوء هناك. أو ربما كُتب عن تلك الفظائع مثلما كتب أولئك الذين هربوا من يد الجنرال، أو تمت تصفيته مثلما فعلوا مع جندي الاستطلاع. أو هو ميت في مكان ما. فكّرت بكل هذا لكني لم أفكر أنكم أعدتموه للحياة، وجعلتموه يختفي بمدينتك.

كنت أفكر ألا أعود، وأنا أجلس في غرفة عزيز بجانب الصندوق الذي وضعت فيه أشلاء جثمانه قبل أن أشعر بيد رجل غريب تُرَبَّتْ على كتفي. أنت ميت ياسي صالحى.

حينما استدرت لم أجد أحدا. أتعرف معنى أن تطاردك الأشياء، وكوابيس الموت سيادة المقدم. لكني كنت أتساءل دائما لم أبقاني السيد حيا، وميتا في الوقت نفسه؟! كنت أنظر إلى صراخ أم عزيز وهي تتلمس الصندوق الحديدي بعد أن صارت عمياء منذ أخبروها أن ابنها قد مات مثلما فعلوا معنا. ثم أرسلتني لأخبرها أنه حي لكنها لن تسمع صوته. ثم أقول لها إنه شهيد الواجب، وأقرأ على مشيعي الجنازة تأبين الشرف .

أتعرف سيادة المقدم حتى ورقة الشرف التي قلت لي أن أوْبُن بها عزيز لم استطع قراءتها.

هز المقدم رأسه، ثم قال له لا عليك أنت الآن في المكان الآمن،
والصحيح ياسي المخفي. نحن أبناء هذه الدولة، كلنا تربينا لخدمها بدمنا
لهذا أسماء الرجال، وتغيرهم لايعني لنا شيئاً.

كانت هذه آخر عبارة سمعها من فم المقدم بعدها قال له المخفي أعرف
مكان اختفاء السكين.

أسبوع كامل وهو يبحث مع المقدم عن أثر للمكان الذي أخذوا إليه
عزيز.

وفي النهاية رميت جثته أشلاء كما لو أن كلاب برية مزقتها في القصر
المهجور. وقالوا لهم إنه مات سكيراً.

قال للمقدم لم نقبل بأن يكتبوا هذا التقرير عن وفاته بهذا الشكل
الفظيع؟ صمت المقدم ما كان ليموت، لولا أنا نيتك.

استفاق جرح الملازم الذي لم يندمل على تلك العبارة بعدما قال له
المقدم حينما دخلوا المدينة أن عليه أن لا يكرر خطأ مرتين.

أحس أن كل ما حاول كتبه بدأ يخرج للسطح لهذا انتابته نوبة (مونك)
كما لو أنه مدمن على مخدر، أو على الخمرة التي كان قد أدمن عليها.
الشيء الذي لم يكن يعرفه لا المقدم، ولا أي واحد من وحدة سمير.

كان كلما عاد لشقته برويسو إلا وبات ليلته يعاقر الخمر لعله ينسى.

حرك بيده وضعية المرأة العاكسة حتى ظهرت له صورة المقدم الذي
بقي مُسمرًا أمام لافتة المقهى.

كان المقدم غارقاً في التفكير كيف يمكنه أن يسأل العجوز عن الرعية
الفرنسي؟!

دون أن ينتبه أن ملازمه كان يفكر تفكيراً آخر بعدما بدأت تضغط
على أعصابه نوبة (المونك) monque.

استفاق لحظتها من شروده بعدما تنهى إلى سمعه صوت زمجرة
محرك السيارة طويوطا في نهاية شارع الحديقة الكبيرة. .

وقف العجوز من وراء المرفع مستعيدا كلام الرجل الغريب الذي استعجله للذهاب معه بعدما أخبره أن ابنه قد وصل للعاصمة. سأل نفسه هل سأخذ بذصيحة بلخوش، وأسافر أم سأبقى أجتز هذه الهواجس اللعينة التي لا تتوقف في رأسي. تنفس بأهة من أعماقه مرددا: وينك يا وليدي بلخوش، لماذا تأخرت؟

قبل أن ينتبه لرجل غريب بدا له أمام عتبة المقهى يحرق في لافتتها.

بقي المقدم ينظر نحو تلك اللافتة التي كتب عليها بخط أزرق باهت اسم bar zinzibar، ثم أدار وجهه نحو الساعة الشمسية التي انتبه لحروفها اللاتينية التي انمحت، ولم يبق مذهب سوى أثار الحفر، مثلها مثل حروف الآية القرآنية التي رسمها مساعد الكابتن (كرافت ادي ماير) الذي أمر ببنائها منذ أكثر من ثمانين سنة في اتجاه (بار زينزيبار) الذي كان لا يبعد عنها أكثر من مائة متر.

أحس وهو ينظر إلى جدارها كما لو أنه يراها لأول مرة في حياته، محدثا نفسه أنه لابد أن شيئا يجمع بينها، وبين معمار المقهى الكنسي. تذكر الرعية الفرنسي الذي رآه بوجهه الأحمر الناصع، وبلحية دقنه البيضاء عبر شاشة جرة المراقبة بعد أن خط ورقة اعتراف بيده بأن تلك الوثائق السرية ملك لمنظمة دينية. ترى ما الذي كان يجعل العجوز الفرنسي لا يكف عن زيارة هذه المقهى سأل نفسه، وهو يفكر في صرحها القروسطي بعدما تجلت له صورة العجوز منصور موسى داخل المقهى، فرآه يقف كعادته من وراء مرفعها مثل سيد. بكل تلك الأناقة الأوروبية التي لم تكن تختلف عن أناقة أصحاب بارات موسكو، أو باريس التي كان يدخلها أيام تربصه وخدمته العسكرية.

أنهى بلخوش تقليمه بسرعة لشجرة اللوز مع شجيرات الأزهار التي كان قد تتبع نموها بصبر يوما بعد يوم بعدما جلبها له ابنه من مزرعة صديق من مدينة الورود منذ عام مضى حتى صارت جذورها متعمقة في الأرض. كان يفكر أنه قد تأخر عن موعد صديقه العجوز الذي وعده أن سيزورها قبل أن يسافر للعاصمة. نظر إلى ساعته، ثم قال في سره لابد أن عطوان يكون قد وصل للمدينة. دفع بخطوته فجأة فأحس بألم في أسفل ظهره .

توقف رافعا رأسه بعدما عاوده الألم متحسسا نوبات النغز، وهو يقترب من شجرة التين الكبيرة. جلس بصعوبة على الحصيرة المفروشة تحتها، مُددا ساقه لعله يسترجع بعض أنفاسه، مسندا ظهره على الشجرة، باحثا عن غفوة تحت ظلها لعلها تنسيه الآلام التي أحسها تتزايد. كانت عيناه مفتوحتين، ومنخراه تتنفسان بصعوبة، وصوت الطبيب الفرنسي جبريل يقرع في طبلة أذنه مثل صنج زنجي محذرا إياه من إجهاد نفسه في المزرعة. رن اسم جبريل في رأسه فجاءه صوت العجوز: أنت أيضا تحتاج إلى أن تترك تلك المزرعة كما قال لك الطبيب جبريل. قالها له يوم حدثه أنه لن يستطيع بيع المقهى، أو غلقها حتى وإن كانت صحته لم تعد تسعفه للعمل فيها طوال النهار، ثم أضاف له بحزن بجب أن تبقى المقهى مفتوحة حتى وإن رحلت يوما لأن وصية السيد غالديانو كانت صريحة.

أضاف العجوز أن غالديانو كان محقا في وصيته لأنني شهدت بألم عيني ما كان فعله بورقة، و أب أولاد الصافي ببارات المدينة.

جاءني يوما وطلبا مني أن أحضر معهما اجتماع مناضلي القسمة الذين أرادوا أن يعلنوا عن قرارات تاريخية في قسمة الحزب. أضاف العجوز حينما ذهبت معهما رأيت كيف جعل الصافي لكبير ابنه رئيسا للقسمة حتى أنه قال للمناضلين دون أن يخجل إن ابنه الذي درس في

فرنسا هو وحده المؤهل لترجمة ماجاء في الميثاق الوطني بعد أن فتح أمامهم رزمة الأوراق.

نظر خليل للرزمة، ثم رفع رأسه نحو والده الذي أشار له برأسه أمام أعضاء المحافظة الذين حضروا خصيصا للوقوف على تنفيذ قرارات الميثاق الوطني التي كانت كلها تصب في قانون التعريب، و جزأة كل شيء بالمدينة الكولونيالية .

قال العجوز وهو ينتبع وجه صديقه بلخوش متعبا من أثار آخر وعكة أصابته أن الصافي يومها أراد أن يحدّ أولئك الذين بدوا له نصف مجاهدين بعد أن عاد أغلبهم بالقطارات من المهجر.

بقي يومها بلخوش ينصت للعجوز وهو يتحامل على وجعه، وفي الوقت نفسه يفكر كيف لأولئك الثبع أن ينظروا إليه بأنه ابن خائن.

يا سي بلخوش سأخبرك أن هؤلاء (زريعة مُرّه)، وأنهم خربوا كل شيء حتى المدينة.

أذكر يومها أن ولد الصافي بقي يردد نحو بورقعة الأمي: علينا أن ننظف مدينتنا من كل أثار الاستعمار، ونبدأ سياسة التعريب بتغيير كل الأسماء المفرنسة بأخرى بلغتنا العربية .

ثم أشار ناحية باري، و ناحية الكنيسة، و(ليكول لبيك) école laiique « ناظرا في وجه والده الذي جلس يومها بين محافظ الولاية، وقائد الناحية العسكرية مُصغيا بانتشاء لصوته الذي جعله يشعر كما لو أنه قائد عسكري، رافعا يده في كل مرة، ومنزلها ضاربا على المنصة: علينا بهدم رموزه، و مراكز مراقبته لمجاهديننا في الجبال، والوهاد المحيطة. علينا أن نبني أبنية جديدة، ونهدم بناياته الاستعمارية بالخواة !

في اليوم الثاني تجمع مناضلو القسمة، والكثير من الرعاع وراحوا يهدمون (ليكول لبيك) وسط المدينة، و الكنيسة بجواره بعد أن منعوا الأب جوزاف من دخولها، وهو الذي لم يتجاوز وجوده بالمدينة في ذلك الوقت أكثر من تسع سنوات. لم يكتفوا بذلك بل جاءوا في رتل آخر، و اقتحموا عليّ هذا البار، و هددوني بهدمه إن رأوا اليهودي غالد يانو يعود للمدينة ويدنسها مع أصدقائه الأجانب. لم أستطع أن أقول لهم شيئاً بقيت صامتاً وحينما خرجوا جاءني صوت رجل غريب كان يجلس في هذا الركن الذي تجلس فيه ياسي بلخوش. نظر إليّ، ثم قال لا تخف لن يفعلوا لبارك شيئاً. هؤلاء الرعاع لا يفهمون (كوعهم من بوعهم). ثم دفع حسابه، وخرج. بعدها علمت أنه قائد الناحية العسكرية الجديد المسمى قاسي.

هُدِمت في ذلك اليوم كل الأبراج التي تحيط بأطراف المدينة كما قاموا بهدم القصر العربي الوحيد، ثم خرجوا مع بورقعة، و جماعة من البلدية لساحة الحديقة، وبدأوا يرددون بمكبرات الصوت أنهم لن يتركوا أثراً من آثار فرانسة في هذه المدينة.

كنتُ يومها مع سي الغربي، وجماعة من سكان القصر أضاف العجوز نحل في قبضاتنا عناقيد الغضب، متجهين لساحة وسط المدينة. حمل بورقعة المكبر وراح يردد في وجوهنا: سنساعدكم على بناء منازل جديدة بالإسمنت، زمن الطوب، و(الديس) راح مع الاستعمار.

وقف سي الغربي في وجه بورقعة وراح يشير له بصوت حاد: اسكت أيها الدعي.

ثم حاول أن يخطف من يده المكبر الذي أسقطه بورقعة، مبتعداً بعدما دخل في وسط أتباعه، وبدأ في سب سي الغربي، واتهامه بأنه مجاهد مزيف كان قابلاً في المغرب جاء مع من جاءوا في القطار. في تلك اللحظة تحركت قبضاتنا، ورحنا هاجمين عليهم. ما فعلتموه بالقصر لن يمر عليكم بالسهل. ستدفعون ثمنه غالياً أضافها سي الغربي.

لحظتها طوق العسكر المكان، ودخل الرجل الغريب بيننا، وبينهم مرتديا لباسا عسكريا، وبدأ يحدث سي الغربي. بعدها عاد كل واحد منا إلى بيته. قال لي سي الغربي إن القائد الجديد لناحية العسكرية أخبره أنه سيوقف هدم القصر، ولن يقترب أحد من أولئك الرعاع منه.

حينما جاء دور الفيلات، والمنازل الفاخرة التي احتلوها في وسط المدينة بدا كل واحد منهم ينظر إلى الآخر. نطق خليل، وهو ينظر لوالده الصافي بعد أن تجمع منتفخو البطون من مسؤولي الحزب، وبدوا كما لو أن الطير بنى عشه على رؤوسهم. كان المحافظ ينظر نحو الصافي ملولبا في عينيه وهو الذي اقتحم أفخم فيلا كانت للجينرال ليوتي. البيوت، والفيلات هي غنائم حرب. هدمها لا يخدم قضيتنا يكفي أن نغير أسماءها، وأسماء الشوارع ونعلق فوق كل مبنى إداري علم ثورتنا، رمزا لسيادة البلد، ونكون قد أدينا بعضا من الواجب الذي أداه قبلنا الشهداء قالها خليل، ثم حرك رأسه نحو والده.

كنت أنظر من هذا المكان الذي أقف فيه معك ياسي بلخوش في اللحظة التي بدأ الجميع يصفق لكلام ابن الصافي، ثم راحوا يرددون تحيا خليل ولد الصافي، وتحيا الجبهة.

ابتسم المحافظ بعدما عادت له الروح. وبدأ الآخرون في الرقص، والغناء مع فرقة البارود التي كانت تطلق طلقاتها على الأرض. لحظتها سمعت صوت الرجل الغريب الذي كان قد أتى في ذاك اليوم بلباس مدني، وجلس وحيدا في البار. بالفعل ذاك الفتى سياسي محنك، سيكون له شأن عظيم.

ابتسمت في وجهه، وقلت له (عشنا، وشفنا) حضرات. لم يعلق الرجل الغريب على كلامي بل خرج دون أن يراه أحد. مرت الأيام وجاء الخراب ياسي بلخوش، وجاء معه ولد الصافي مرة أخرى.

استفاق بلخوش من غفوته ومن ذاكرته خرجت عبارة الخراب بعد أن شعر بشيء غريب ينز من داخله حتى أنه نهض مفزوعا، متحسدا أنه أخلف موعد توديعه للعجوز.

قال في داخله لابد أن العجوز قد سافر للعاصمة. ثم أضاف وهو يمسح العرق من جبينه: ألطف بنا يارب!

سأل نفسه بعد أن نهض بصعوبة، ما الذي ذكرني بالسيد غالديانو، والعجوز وولد الصافي في هذا الوقت ؟

أحس بتجمد الدم في ركبتيه جراء الوضعية التي منعه الطبيب جبريل الاستلقاء بها كما أوصاه أن لا يجهد نفسه، وإلا أصبح مشكل انحراف الغضروف مستعصيا عن العلاج بالأدوية.

لكنه لا يأخذ بكلام الطبيب كما كانت تقول زوجته لابنها عطوان كلما عاد من العاصمة ووجده يئن في غرفته من آلام الظهر. كان يفضل أن يقاوم أوجاعه بالعمل، وبعد أن تنفذ طاقته يستلقي على الحصير اليابس تحت شجرة التين حتى يستعيد عافيته. تعود أن يفعلها فيزول وجعه في غفوة لا تتجاوز ربع ساعة، أو ما ينيف، لكنه هذه المرة غفا ساعتين مفوتا موعد العجوز. حينما دفع خطواته شعر ببعض التصلب في جنبه الأيمن فحاول أن يمدد ذراعيه، وساقه التي تنملت حتى صارت كما لو أنها لا تنتمي لباقي جسده الهزيل.

قالت له زوجته إن المزرعة هي من سيقسم ظهرك ذات يوم.

كان لا يعلق على كلامها، بل يكتفي بأن يطلب منها أن تقوم بذلك ظهره بمخلوط الأعشاب البرية مع زيت الزيتون.

دفع بجسده بصعوبة بعد أن توقف الوجع، ثم راح مادّا يده لحمل موزيطة الصغير على كتفه، دافعا خطواته متجها نحو البيت بعدما أغلق خلفه باب سور المزرعة.

وقف المقدم أمام العتبة، رافعا رأسه نحو اللافتة فجاءه صوت السيد الذي أمره بالبحث عن سرّ الرعية الفرنسي. ربما هنا مكان السرّ ردها مستعيدا الوجوه الغربية التي كان يراها داخل البار في طفولته، فشعر بانعكاس ظلالها مثل أشباح على جدران الصالة التي كانت تخرج منها رائحة الفلين الرطب الممزوج برائحة (الروج) الأحمر الذي كان تُترك بقع منه على الطاولات الخشبية. خاصة في الأيام التي يعود فيها العجوز بوالده مخمورا، دون أن يقول لأمه شيئا. يبدأ والده في هذيانه مرددا لأمه أن ليس له من صديق في المدينة إلا منصور. ثم يفلت يده من كتفه ليسقط باكيا مثل طفل قبل أن يلفظ من جوفه خمرة (الروج) التي شربها بشراهة بؤسه على بلاط الحوش. نفس العبارة أسرّ له بها العجوز يوم التقى به صدفة مغادرا منزله بحزن بعدما خذله والده في خطبة شيراز. لا يمكن لإنسان عاقل يا وليدي عطوان أن يترك ذاكرته، ويهرب !

لا أريد أن أسمع سيرة الصافي في بيتي بعد اليوم !، ولا أريدك أن تأتي بابنته إلى بيتي! قال والده بتوتر.

نكس عطوان رأسه ناظرا إلى أمه التي تكومت في ركن الحوش وراحت تبصر حزن ابنها الذي التقت منكسرا حاملا حقييته مرددا : لن تروني بعد اليوم أنا أيضا ! ثم خرج متجها نحو محطة القطار بعد أن تبعته أمه، وهي تصرخ مثل الثكلى.

في الطريق الحديقة الكبيرة توقف عطوان بعدما تناهى إليه صوت العجوز الذي يهز رأسه من بعيد: تعال يابني ! حينما رأيتك تحمل حقيبتك مسرع الخطى، عرفت أن أمرا حدث بينك وبين والدك. قالها ثم دعاه ليجلس بجواره على المقعد الحجري، وراح يربت على كتفه. قبل أن يسرد عليه حكاية لقائه الأول بوالده في هذا البار بسبب تهور ولد الصافي الذي أسرف في الشرب، ووقف فوق كونطوار البار، بعد

أن كسر زجاجات الخمر ورماها على وجوه الزبائن صارخا كما المجنون قبل أن يقترب منه والدك ليهدئه. صرخ في وجهه، ونعته بابن الحركي^٨. اندهشت للصمت، وللبرودة التي أبدأها بلخوش وهو ينزل ولد الصافي المخمور من فوق الكونطوار مثل طفل قبل أن يتوقف لوحده، وبدأ يبيكي. حينها عرفت أنني أمام رجل ليس مثل زبائني الذين كنت أشفق على أغلبهم أكثر من أي شيء. اقتربت منه فكانت دهشتي أكبر مما تتصور. لقد وجدنتي كما لو أنني أفق مع صديق أعرفه من زمن بعيد لفرط الشبه الذي بينه، وبين أبيه. في نظرتة، وكلامه، و تعامله مع أعدائه. من يومها يا ولدي صار والدك أكثر من صديق، أو قل مثل ابن لي. بعدها جاءت دورية خاصة من أصحاب (البيري روج ٩) لم نعرف يومها من أين نزلت، و اقتادت ولد الصافي معها الذي لم نره يعود للبار مرة أخرى.

حينما سألت والدك عن اسمه وعلاقته بولد الصافي قال لي إن اسمه بلخوش بن عطوان. وأنه ترك الغربة وجاء ليقيم في مدينة والده، وأنه يعرف الرجل المخمور، وأخاه. عرفهما في فرنسا. ثم صمت. عانقته حينها، وأدخلته معي السقيفة بعد أن أخبرته كيف أن والده بن عطوان كان رفيقا في الجهاد ولم يخن يوما وطنه، و لم يكن يوما (حركي). بل كان بطلا ضيعه هذا البلد مثلما ضيع الكثير من رجاله.

كان العجوز يومها يخبره عن أبيه كما لو أنه يخبره عن نفسه، لهذا عانقه مثل أب بعدما طلب منه أن ينسى فكرة الرحيل لأجل امرأة حتى ولو كانت شيراز حتى لا يخسر والده.

أنا ووالدك يا عطوان (موس ١٠ واحد يذبحنا) همس له بها في شحمة أذنه ثم أضاف لهذا لا أريدك أن تحزن قلبه عليك.

الحركي: تعني المنتسب للحركة الوطنية زمن قيام الثورة ، ليصبح معناه بعد ذلك عميلا

8 لفرنسا

9 فرقة أمن عسكري خاصة تضع قبعات حمراء

10 يعني الخنجر

استفاق المقدم على وجه العجوز الذي وقف أمامه، وأشار له نحو لافتة
المقهى التي كان لا يزال يظهر فيها الرسم اللاتيني الباهت اللون
المكتوب فيه bar zinzibar .

كما لو أنه نكأ في عمقه جرحاً، وهو غير مصدق لما رآته عينيه، حلق العجوز في وجه المقدم، ضاغطا على عبرة تصاعدت من قصباته الهوائية، مستعيدا صورة أصابعه يوم جاءه مع ابنه مصطفى ووجداه يتلمس حواف اللوحات التي كانت تبدو براقة أكثر من أي وقت مضى، جراء عنايته المتكرر بتنظيف زجاج بُروازها الفضي.

قبل أن ينطق فُكر أن الذين يضغطون عليه لبيع المقهى لا يعرفون أن بيعها يعني خروج آخر نفس من رثته. كان هذا شعوره وهو ينظر إلى عطوان الذي لم يُخَفِ دهشته برسم حروف تلك اللافتة.

هذا أنت يا وليدي عطوان؟! (مرحبا.. مرحبا وليدي، حسبتك واحد من ذوك الصامطين اللي يصدعو لي راسي على القهوة). أهلا عمي منصور رد، ثم انحنى مسلما عليه، بعدما ابتسم له مضيئا (السؤال عليك)، ثم عانقه مثل أب قبل أن يشير له العجوز بأن يتفضل إلى الداخل مضيفا وهو يرمي خطواته أمامه: المدينة بدونك، وبدون مصطفى خرابة يا وليدي عطوان!

تأخر عطوان لحظة قبل أن يرمي خطواته خلف العجوز الذي اختفى في عذمة المقهى الذي بدا له مهجورا مثل القسمة التي تهرشمت جدرانها، وتتشرب لون طلائها الأبيض قبل أن يتناهى إلى سمعه صوت جاءه من قرب العتبة لرجل غريب راح يمدد ساقيه أمامه مغلقا عليه الطريق، مغطيا على الخطوط والمربعات الصغيرة التي كانت تملأ حائط المقهى كما لو أنها خطوط لعبة اللطو الرياضي التي لم يكن يفهمها أحد سواه. أبصر في وجهه الرمادي متسائلا في داخله عن غرابة الصدف التي صارت تضع هذا الدرويش بلميلود في طريقه كلما عاد من العاصمة.

فتح بلميلود لفرنات عينه اليمنى، ثم أغلقها طاردا الذباب الذي توزع على تكرشات وجهه الجليدي، مضيفا بصوت خافت. مرحبا بك سيادة المقدم. قالها ثم صمت مديرا وجهه نحو الشارع وكأنه غير مكترث بما حوله، وهو الذي لا يُعرف له اسم، ولا عائلة، ولا من أي مدينة جاء. كل ما عُرف عنه أنه وُجد بالمدينة ذات صباح من صباحاتها الباردة بعد أن توقفت أخبار الحرب الأهلية التي جعلت البلد كله يدخل في سنوات محنة.

في تلك اللحظة عاد صوت العجوز من داخل المقهى: (واش بيك يا وليدي عطوان، أدخل!)

ابتسم عطوان لبلميلود بعدما أشار للعجوز — (راني جاي، يا عمي منصور دقيقة برك!)، ثم انحنى هامسا: كنت أعرف دائما أنك لست درويشا يا رفيقي.

عليك أن تكون حذرا حضرات، فلست سوى رقم ٣١٠.

حرك عطوان كتفه وفي ذاكرته تحركت صور أول يوم التقى فيه بهذا الرجل الغريب قبل عام مضى. يومها سأل أباه عنه، وعن الصدف التي تجعله يلتقي به أيّما تحرك في المدينة. فيرد أبوه إنه رجل درويش، و مسكين، ليس له أحد. ثم أضافت له أمه الدراويش أحباب الله.

الدراويش أحباب الله يا رفيقي نطقها عطوان وهو يتجاوز العتبة بعدما ترك الدراويش بلميلود يرمي في خطواته متجها نحو المقعد الحجري .

كان بلميلود لفرنات يجوب شوارع المدينة طوال النهار متنقلا من مقهى لأخرى قبل أن يعود في آخر المغيب للمبيت في كراج عائلة عطوان بعدما صار أباه، وأمّه يعطفان عليه، ويُؤويانه مثل ابن في أيام البرد، حتى صار واحدا من العائلة، وصار الكراج الذي يشبه مفرزة عسكرية في طريقة بنائه وحجارته الحمراء المربعة الشكل بيته الذي يعود إليه كلما أظلم الليل .

يلتفت عطوان نحو بلميلود الذي جلس على المقعد الحجري وراح يحقق تجاه المقهى.

السيد لا يغيب عنه أي شيء ! ردها في سره وهو يبصر في عتاقة كراسي المقهى التي بقيت كما هي كما لو أن السنين لم تفعل بها أي شيء. بدت له المقهى بصحنها مثل بارات أفلام الوستارن. بعثقتها، ومرفعها الخشبي الأحمر البراق، أغلب مرتاديه من بعض كبار السن الذين عادوا من فرنسا بعد نهاية الثمنيات، والتسعينات بعد أن تقاعدوا في مصانعها، تراهم مع أول خيوط الشمس متلحفين معاطفهم الرمادية، و براريطهم ذات المربعات الصغيرة التي جاءوا بها معهم من فرنسا، مُشكلين دائرة صغيرة غير منتظمة، وهم يصرخون حول لعبة الديمينو ، أو لعبة أوراق الرامي أحياناً خاصة بعد أن كف العجوز عن بيع البيرة، وأغلق السقيفة الداخلية التي كان يفتحها لبعضهم، ولأولئك الرجال المختارين الذين كانوا يأتونه مثل السُيَّاح مع صديقه غالديانو ليلعبوا لعبة البيار قبل أن يغيب غالديانو نهائياً عن المدينة.

حرك العجوز رأسه وهو يبصر في عطوان يتجاوز عتبة المقهى، ماراً أمام طاولة بعض الشيوخ الذين تعالت أصواتهم، وبُقر بهم جلس بعض الشباب الذين راحوا يحتسون قهوتهم في تدمر، وهم محصورون بالقرب من النافذة الوحيدة المطلّة على الساحة الواسعة تجاه المزولة التي جلس أمامها الدرويش بلميلود.

يكررون نفس السؤال على مسمع العجوز الذي انتبه لأحدهم وهو يشير له متى تعود لبيع البيرة عمي منصور؟ أضاف آخر: اكرهنا من ربّ هذا البلد. ينظر إليهم مردداً في سرّه من جيل اللحي إلى جيل لكبابل ١١ يا دين الربّ ! يقولها بعيون ملأته دوائر التجاعيد. ثم يبتسم رادا عليهم من وراء المرفع: حتى يَنوُرَ الملح يا ولادي ؟

تعني الأبناء الذين لا يعرف أبائهم، وهنا تعني الجيل اللقيط ١١

يضحك بعضهم، وبعضهم يلوي رقبتَه تجاه الساحة مستمرا في مراقبة
النزr القليل من المارة الذين يمرون على حي الحديقة الكبير grand
jardin.

تذكر أن صديقه بلخوش كان قد وعده بالمجئ للمقهى التي فتحها على
غير العادة في الصباح الباكر.

بقي طيلة الوقت يتطلع لساعته متحسسا تأخره قبل أن يعلق بصره
نحو صورة إيزابيل ابرهاردت مستعيدا صوته وهو يخاطب السيد
غالديانو الذي رن سؤاله مثل رنة جرس كنيسة قديم حينما سأله عن
الصورة التي بدت مختلفة عن الصور التي تركها له في السقيفة. كانت
الصورة لامرأة ترتدي لباسا عربيا مثل الأهالي. ميسو غالديانو ، هذه
هي الرومية سي المحمود. هي حارسة هذا البار، وهذه المدينة قالها
منصور قبل أن يشير لابنه مصطفى الذي تخيله يقف أمامه مع صديقه
عطوان في تلك اللحظة التي تذكر فيها سؤال غالديانو عن صورة
المرأة " c'est mon fils qui a dessiné ça " ردها بلغة السيد
غالديانو دافعا داخله نفسا عميقا كما لو أنه يدفع دلوًا من حمأ ثقيل
لأعماقه التي أحسها تفسخت من اشتياقه لرؤية ولده الوحيد.

أحس بدمعة حارة تنزل على خطوط محجريه، ممررا أصابعه على
صورة أخرى كانت بجوارها لرسام مجهول تُعبر عن الحرب العالمية
الثانية التي شارك فيها يوما مع صديقه بن عطوان.

قال في سرّه يا حسراه على بن عطوان، حينما قطعنا الحدود من تلك
القرية الألمانية بعد أن أعلن انهزام الفوهر كنت أنت من أمهر القناصين
الذين عرفتهم الجبهة .

ثم حرك يده ملامسا لوحة أخرى لامرأة، ورجل عربي ومن حولهما
مجموعة نساء جميلات في لحظة قيلولة، وضع أسفلها توقيعاً (لجان
ليون جيروم)، وأخرى لامرأة شابة بلحاف جزائري تتكئ على أريكة،

وتظهر منها العينين، وقلادة مجوهرات فضية تحيط بجبهتها التي تبدو مثل شرفة بحر شمالي .

أحيانا كان منصور يبصر الصور فيغوص في حلم يشعره بدهشة ينسيه كل تعب، وتعاسته لهذا كان يشعر كما لو أنه يكتشف عالما آخر لأول مرة داخل مقهاه. لكنه هذه المرة أحس بشعور غريب لأنه كان على موعد سفر أحسه سفر عمره الأخير بعدما كثر أولئك الذين يهددونه أن يبيع لهم مقهاه. كان يفكر ربما سيلتقي بابنه في العاصمة، ويوصيه بأن لا يبيعها هو الآخر لأحد كما قال له الرجل الغريب، ويترجاه كي يعود للمدينة. شعور جعله يشفق لابنه كما لم يشفق إليه من قبل.

كانت ذاكرته قد سافرت به دون أن يدري حتى أنه نسي عطوان الذي بقي واقفا أمام المرفع يتتبع في صمت شروذ العجوز .

انتبه العجوز لوجه عطوان الذي بقي يحدق فيه بصمت وهو يمسك بإبريق القهوة ويحركه بحركة آلية.

ايه ياوليدي عطوان، هذي غيبة طويلة ! نطق دون أن يرفع رأسه عن غلاي القهوة الأخضر الكبير الذي وضعه بالقرب من المشيئة الصغيرة التي تضغط القهوة المركزة لتقطر ها مثل حبات الدمع في الكؤوس الصغيرة التي كان يُصَبُّ فيها الشاي عادة. نفس المشهد لم يتغير طيلة عشرين سنة من غيابه، لكن العجوز بدا له حزينا.

هز المقدم رأسه: كيفك عمي منصور.....

نطقها قبل أن تنتاهي إليه همسات شباب كانوا لحظتها قد كفوا عن النظر إلى الساحة، لتلنف أعناقهم نحوه بعدما وقف أمامهم محدقا جهة المرفع. نطق أحدهم لجلسائه: راكم تشوفوا ! من هذا الذي يقف أمام المرفع ؟ رد آخر لا بد أنه عطوان ولد بلخوش، أضاف الذي سمر وجهه تجاهه: راه في سنوات غايب عن المدينة ، يقولوا بلي راه (حكومة) !

أدار وجهه نحوهم، رامقا أحدهم بنظرة باردة، فأداروا أعناقهم مغيّرين الحديث. ليدخل صوت العجوز بعد أن أمر نادله الهيسوف بأن يقوم مقامه في غسل الفناجين: ا عذرهم يا واوليدي عطوان هذو جيل ضايع !.....

نعم عمي منصور، المهم كيف حالك، وحال المقهى ؟

هز العجوز رأسه بأسى قبل أن يرد عليه بأنه طالما كانت صورته في باله، لكنه لم يتخيل أن يفاجأ برويته أمامه اليوم، ثم أسرَّ له أنه حينما عرفه رأى خبيته في ابنه الوحيد مصطفى.

بقي العجوز يتحدث عن ابنه الغائب ناظرا إلى وجه عطوان، محدقا في عيونه البنية، مستعيدا جرحا لم تستطع السنون أن تجعله يندمل. ثم أضاف له الحمد لله أنك جئت اليوم، لو كنت تأخرت يوما واحدا فقط لما وجدتني يابني. ثم توقف برهة، أراد أن يخبره أن صديقه مصطفى في العاصمة لكنه أحجم حينما أطل صوت الرجل الغريب من ذاكرته، محذرا إياه أن يخبر أحدا بأنه سيلتقي بابنه في العاصمة. ثم استطرد الحمد لله ياوليدي كنت أنتظر والدك، فإذا بك تأتي أنت! برويتك لن أفقد ابني مرتين.

الحمد لله عمي منصور، ولم لم يحضر والدي؟

لا أعرف، أظنه نسي نفسه في المزرعة كعادته.

ابتسم عطوان مستعيدا صوت والده الذي كان كلما سأله عن العجوز في الأيام القليلة التي كان يأتي فيه خفية للمدينة يرد عليه بحسرة: عمك العجوز لم يعد يتحمل رؤية مدينته تنهار. ثم يضيف بعد أن يدفع نفسا داخل أعماقه: يا حسراه على le petit paradis! ١٢ هكذا كان ينطقها بلخوش كما ينطقها العجوز بالرنه الإسبانية التي يحب تقليدها كلما رأى جهة القسمة ما كان يفعله أتباع ولد الصافي، وبلفلوفة الذين كانوا يحضرون يومها لسحب البساط من تحت ولد الغربي الذي احتل القسمة مع بعض أتباعه من الشباب الذين بدوا مثل المجانين وهم يصرخون ويتوعدون جماعة سعيد ولد الصافي بأنهم سيدفنونهم قبل أن يعلق عتبتها قال بلخوش وهو يبصق على الأرض دون أن يعلق بشيء على سخرية صديقه العجوز مما يفعله هؤلاء، متتهدا تنهيدة مثل حشرة جرح غار في صدره ملتفتا جهة الساعة الشمسية التي كان ظل عمودها النحاسي يسقط على النقوش، والأرقام، مشيرا إلى منتصف النهار. دون أن ينتبه للعجوز الذي كان لا يزال يشير له جهة القسمة، بعد أن تعالى صراخ ولد الغربي وأتباعه وهم يرددون: "صامدون ،

صامدون ... وللجبهة ناصرون !" متحدثا بنبرة توجع عن حالة الجنون التي أصابت ولد الغربي، وأصابته المدينة.

جئت هذه المرة في عطلة طويلة لأمكث مع الوالد، والوالدة .

تفطن العجوز لشروده دون أن ينتبه لرد عطوان بعد أن فلتت من لسانه عبارة : " ما تقوليش أنك سترحل مرة أخرى!؟

تبسم في وجهه بعد أن أشار له كي يجلس على مقعد كان قريبا من المرفع، و أخذ يصب له القهوة في فنجان فخاري صغير كان قد أحضره نادله الهيسوف الذي هز رأسه محييا عطوان قبل أن يتجه حاملا صينيته نحو أولئك الشباب الذين راحوا يتهايمسون بصمت حول غياب عطوان عن المدينة كل هذه السنوات.

نظر عطوان نحو الفنجان الذي قربته العجوز منه. وراح يتأمل في جوانبه المزينة بزخرفة نباتية بلون مذهب قبل أن يصله صوته بعدما أخذ مقعدا قبائله، حاملا غلايه الأخضر، مضيفا له : أعرف أنك لازلت مدمنا على قهوة عمك منصور ! لهذا سأصّب لك في أحسن فنجان عندي. نعم عمي منصور. الطبيعة الوحيدة التي لم أتخلص منها هي قهوة هذا الغلاي. لكن قهوتك أنت بالذات تفتح شرايين المخ. هناك في العاصمة للأسف لم أجد سوى قهوة البراس ١٣ و حتى هي لا تشبه قهوة آلئك الصغيرة هذه. ثم أشار إلى آلة (البريسيار) من نوع الإينوكس التي كانت تتوسط المرفع الملتصق بالحائط الذي علقت فوقه مرآة عاكسة مستطيلة الشكل، ثم أضاف له : أول ما نزلت في المدينة، قلت في نفسي عليّ أن أشرب قهوة عمي منصور اللذيذة قبل أن أشرب قهوة الوالدة . ثم أردف بعد أن تفطن إلى أنه جاء ليسأل عن الرعية الفرنسي.

في الحقيقة عمي منصور أردت أن أسألك عن صديقك الفرنسي غالديانو أليس اسمه هكذا !

أراد أن لا يكون سؤاله بوليسيا، فأضاف بهمس: لا أعرف كيف حضرتتي صورته وأنا أقرأ لافتة البار التي بقيت كما هي تحمل اسم زينزيبار حتى بعد أن غيرت المحل ؟

إيه وليدي ! لا أعرف ماذا أقول لك عن غالديانو منذ بداية سنوات الدم التي مررنا بها انقطعت أخباره.

إذن ! لم يرسل لك أي رسالة بعدها ؟ سأل عطوان بصورة طبيعية بعدما أخذ رشفة من فنجان قهوته .

حتى وإن أرسل هل سيقروها عمك الأمي، أنت تعرفني يا وليدي، لم أدخل المدرسة في حياتي.

أجاب ثم قرب فمه إلى وجه عطوان هامسا، سأخبرك عن شيء آخر ، ثم التفت يمينا ويسارا جاءني رجل غريب مع ولد الصافي، وقال لي إنه من أصدقاء غالديانو الذين كانوا يأتون سباحا في السنوات الماضية لكنني لم أتذكره . طلب مني أن أبيعهم المقهى لأن فيها أشياء تهم عائلة صديقه لأنه أوصاهم بأن يأخذوها مني.

صمت عطوان هازا رأسه ، ثم رد بهدوء وأي أشياء هذه يا عمي منصور التي يريده هؤلاء ؟

والله، ماني عارف ! في البداية ظننت أنهم يقصدون الصور التي تركها غالديانو، لكن سعيد ولد الصافي قال لي أنهم يريدون المقهى كاملة قالها بنبرة تهديد.

قلت له البارحة ، قلت لي إنكم تريدونها لبناء المحافظة الجديدة، واليوم تقولون يريدوها ورثة غالديانو !

قالها العجوز بحسرة، ثم أضاف لهذا يابني عطوان أحسست لحظتها كما لو أنه ضربني جن. فرددت عليه بغضب، ثم طردتهم.

كنت سألتقي بوالدك لأجل هذا. أضاف العجوز

ابتسم عطوان "حسنا فعلت. المهم عمي منصور سأتركك الآن.

لم يكمل عطوان جملته حتى سمعا معا صوت رجل من باب المقهى
ينادي

على العجوز.

"اللعة عليك أيها العجوز ! جاء الصوت وهو يمسكه من تلايبه ضاغطا على رقبته حتى كاد أن يخنقه، ثم أردف له ستيبينا المقهى، وإلا سأحرقك داخلها .

بقي عطوان يفكر متسائلا عن هؤلاء الذين يريدون شراء المقهى؟ قال في داخله لا بد إنهم من رجال الرجل الأجنبي، لكن ما دخل ولد الصافي !

أحس بدوار يضغط على أفكاره بعدما راحت هواجسه تردد: ماذا لو كان تاجر العقارات يخدعه؟ قبل أن يحرك رأسه مبعدا هذه الفكرة نطق في داخله لا يمكن وإلا كانت الكارثة !

حضره صوت شيراز التي هاتفته بنبرة مجروحة في ليلة عودته من العاصمة، حدثته لأول مرة عن طيبة والدها وأنه يحبها، ولن يرفض تَقْدِمه لها هذه المرة لأنه تغَيَّر كثيرا في الشهور الأخيرة. فكَّر وهو يدير ناظره ماسحا معمار المقهى أن عليه أن لا يفكر في شيراز مادام والدها وأخوه من خيوط مهمته. انتبه لحظتها أن العجوز قد تأخر مع الرجل الذي نادى عليه خارج المقهى. أخذ رشفة من فنجان القهوة الصغير بعد أن أبعد صورة شيراز من ذهنه متنبعا بناظره عتاقة واجهة المرفع الذي كان يقابله كم يشبه هذا العجوز القديس مقهاه العتيق، و كم تشبهه ! كان يمكن أن تكون هذه المقهى كنيسة، أو أي مكان للعبادة مادام قد بناها صاحبها غالديانو بهذه الأعمدة البرونزية بعد أن توسط سقفا حفرة تشبه حفر القباب، مزينة برسوم قد لا تبدو للناظر أول مرة. رفع رأسه نحو الأسقف، ثم أردف كما لو أنه يحدث نفسه مستعيدا ما كان يفعله مع صديقه مصطفى حينما كانا يستلقيان على أريكة السقيفة الجلدية حينما مدَّتا ساقيهما قرب طاولة البيار، و أبحرا يتأملان في هذيان معمار سقفا الذي انفردت به عن مقاهي المدينة بمرفعها الخشبي البراق، وجدرانها ذات اللون القرمزي التي تفوح منها رائحة

الفلين، وتلك اللّمبات الثلاث اللائي ينزلن من اللوحة المستطيلة التي تشدها سلاسل ذات حلقات صغيرة إلى السقف نحو طاولة البيار ذات الخضرة البهية، وكأنّ أطياف مخلوقات أخرى كانت تساعد العجوز على العناية بهذا المكان الذي كان يشبه مكانا مقدسا .

كان العجوز لحظتها يصارع رجلين من رجال ولد الصافي كانا قد أمسكاه بقوة من ذراعيه ودفعا به إلى باب السيارة الرباعية الدفع.

رد العجوز وهو يلفظ أنفاسه بضيق لن أبيع حتى ولو قتلتني يا ولد الصافي. في تلك اللحظة أخرج ولد الصافي مسدسه ووضع في رأس العجوز. قلت لك ستبعينا إياها رغما عن أنفك. ثم ضربه بعقب المسدس على رأسه بعد أن قال لرجاله ضعوه في صندوق السيارة. تهلوى العجوز صارخا قبل أن يتلاشى بين أيديهم .

سمع رواد المقهى جلبة في الخارج فقال أحدهم كان قد أبصر ماحدث للعجوز من نافذة المقهى. لقد ضربوا العجوز.

قفز المقدم من مكانه، وخرج مسرعا. في تلك اللحظة ظهر في ناصية شارع الحديقة شباب تجمعوا مدهوشين أمام سيارة ولد الصافي، الجميع بدا ينظر بفضول وخوف إلى رجال ولد الصافي وهم يعيدون مسدساتهم إلى خصورهم بعد أن مسك رجلان منهم بذراعي العجوز وراحا يدفعانه نحو صندوق سيارتهم.

وقف الدرويش بلميلود أمام سيارة ولد الصافي التي كانت ستقلع بالعجوز قبل أن ينزلا له رجلان اندفعا لضربه. رجع بلميلود خطوة إلى الوراء ثم اندفع مسددا لكمة لأحدهم، وضاربا الآخر بعقب قدمه اليسرى حتى سقطا الرجلان على الرصيف.

أخرج ! جاء يومك أيها الخبيث نطقها بلميلود بعد أن اقترب من ولد الصافي، ومسكه من ربطة عنقه، محاولا إخراجه من نافذة السيارة، مرددا بحقن إما أن تطلق سراح العجوز أو أكمل عليك. لم يكملها حتى

سمع صوت المقدم الذي كان قد التحق رافسا الرجلين اللذين كانا يحاولان إخراج مسدسيهما في ظهر بلميلود. ثم اقترب من الدرويش الذي بدا كما لو أنه قد جُنَّ وهو يمسك بقوة بعنق الرجل حتى كاد أن يخنقه لولا أن صرخ المقدم مرة أخرى في وجهه: ابتعد ! قبل أن يمدَّ يده مخرجا ولد الصافي من السيارة، مسددا له لكمة على وجهه، دافعا به نحو الرصيف ليترنح أمامه قبل أن يمسك بتوازنه شادا بحائط المقهى. اسمع يا عديم الشرف، لم تجد سوى العجوز لتظهر عليه قوتك، فوالله لو رأيته عدت مرة أخرى لهذا المكان لسوف أزهق روحك، وروح لي جابوك. اتسمع! قالها وهو يضع ماصورة مسدسه في وجهه .

فتح ولد الصافي عينيه دون أن يقول شيئا بعد أن راح يمسك بأنفه الذي بدأ ينزف دما، ملتفتا جهة رجله اللذين كان لحظتها يحاولان الوقوف بعدما عفر وجهيهما الغبار مع الدم. كان بلميلود لحظتها يمسك بذراع العجوز بعدما أخرجه من صندوق السيارة، ضاربا بابها بقدمه أمام أعينهم مرددا. كلاب.... كلاب !

تحامل ولد الصافي على جسده، ثم صعد إلى سيارته، وأقلع إقلاعة جنوزية دون أن ينبس بكلمة واحدة. بدا أولئك الفضوليون من رواد المقهى مبهورين، وغير مصدقين، متسائلين عما وقع أمام أعينهم.

همس أحدهم بصوت خافت لمرافقه، لم أر في حياتي مسدسا إلا في هذا اليوم.

قال آخر يعطيها الصحة ولد بلخوش. أعطى لولد الصافي ما يستحق !

نظر المقدم نحو العجوز بعد أن عانقه، وأخذ بيده : لابس عمي منصور !

ثم التفت نحو أولئك الفضوليين: انتهى العرض.... أرجو أن تذهبوا إلى حال سبيلكم.

كان العجوز يئن صامتا كما لو أنه لم يصدق ما حدث له أمام الناس .
محاو لا استرجاع أنفاسه التي بدأت تتصاعد ببطء. اقترب نادله
الهيوسوف الذي أحضر كأس ماء بعد أن أجلسه المقدم مع بعض الشيوخ
الكبار من أصدقائه الذين بدوا متذمرين وهم يرددون عيبٌ عليهم أن
يفعلوا بالعجوز ما فعلوه !

رد آخر مُربتا على كتف المقدم يعطيك الصحة يا وليدي لولا وجودك
ووجود بلميلود لكانوا قتلوه، أو فعلوا به شيئا سيئا لا قدر الله. مَنْ كان
يصدق أن ولد الصافي يخرج مسدسه أمام الناس، ويهدد به عجوز؟

نطق رجل آخر بدا وكأنه التحق بالمقهى في آخر لحظة، ليست هذه
المرّة الأولى التي يهدد فيها ولد الصافي العجوز !

الحمد لله عمي منصور. ربي سلكك من ولاد الحرّام قال الهيوسوف قبل
أن يقاطعه رجل الآخر الذي التحق متأخرا بالواقعة بعدما قرب وجهه
من وجه المقدم على سلامتك ولد خويا ! سمعت من بعض الشباب أنك
أنقذت عمي منصور من سعيد ، لكنني لم أصدق ! متي عدت من
العاصمة؟

مرحبا عمي رد عطوان، ثم أردف وهو يمسك بيد العجوز الذي بدا
شاحبا، سنتحدث في ذلك فيما بعد ! الآن ساعدني لنأخذ عمي منصور
للبيت. أفلت العجوز يده من يد عطوان محركا كتفه: أنا
بخير ! أتركاني، ثم وقف واضعا يده على المرفع. لا تقلق وليدي
عطوان، يمكنني أن أسير وحدي.

قبل أن يحول وجهه نحو عمّار الذبّية الذي أراد مسكه من ذراعه. لا
أريد من أحد أن يمسكني أردف العجوز مبعدا يده، ثم التفت إلى نادله
الهيوسوف: أغلق المقهى يا وليدي، سأذهب مع عطوان، وعمّار !

لا تشغل بالك عمي منصور سأغلقها، (كُونْ مُهَنِّي)، المهم أن تكون
بخير رد النادل ملتقطاً كأس الماء من على الطاولة التي أُجِلِسَ عليها
العجوز.

راني بخير يا وليدي قالها العجوز لأحد الشباب الذي سأله في العتبة، ثم
خرج وبجانبه عطوان، وعَمَّار الذبيبة.

فتح العجوز مساحة في صمته، وهو يتحرك ببطء عابراً جادة الحديقة
معهما، متحسساً فراغاً كثيباً في داخله. بدا له مثل وجه الحديقة التي
فقدت كل أشجارها، وأصبحت كلها بلاط، وإسمنت مع بعض المساحات
الصغيرة التي زُرعت بعشب الملاعب الكروية. كان العجوز يحاول
تثبيت ذاكرته بعيداً عما حدث له، ملتفتاً في كل مرة نحو عطوان الذي
تخلف عنهما وراح يتكلم في هاتفه.

نعم المخفي.

أنتظرك في نفس المكان.

أغلق عطوان هاتفه في اللحظة التي اقترب منه بلميلود، وأبصر فيها
العجوز ينظر نحوه.

واش عمي منصور، لابس؟

بقي العجوز صامتاً بعدما حرك رأسه.

لم يتفطن عطوان أن العجوز كان يحدق بعينيّه الضيقتين نحو بلميلود
الدرويش الذي فاجأه بذاك التصرف كما فاجأ رواد المقهى.

إذن أنت هو ٣١٠ الذي أرسل لنا المعلومات؟

بلى سيدي.

رد قبل أن يحث خطاه ليلتحق بالعجوز الذي كان يتحرك ببطء مثل ظل متعب بجانب عمّه عمار الذي كان يحرك في يديه مرردا: ولد الصافي هو الدولة في هذه المدينة. لا أحد يستطيع أن يتكلم أمامه. ثم التفت نحو ابن أخيه عطوان، لن يسكت ولد الصافي عمّا فعلته به.

التفت إليه العجوز بغضب، كان سيقول له ولد الصافي ولد حرام مثله مثل أبيه الذي كان دوما متسلطا على المدينة، لكنه أحجم حينما دخل صوت عطوان بينهما: اسمع يا عمّي، هذا الرجل الذي يخيفكم لا يملك لنفسه أي شيء. هناك دولة، وهناك قانون. خوفكم هو من جعله مافيا.

في تلك اللحظة وقبل أن يصلا لتقاطع الشارع الكبير مع شارع الحديقة توقفت سيارة الملازم المخفي أمام أقدام المقدم. أرجو المعذرة حضرات سمعت بما حدث! قبل أن يكمل عبارته قال المقدم: لاعليك المخفي. ثم أشار لعمّه كي يركب من الجهة الأخرى بعد أن فتح الباب الخلفي للعجوز: اصعد عمّي منصور هذا رفيقي المخفي سيوصلنا للبيت.

ركب العجوز مع عمار الذئبة في المقعد الخلفي وهو لا يزال يحاول استيعاب ما حدث له في اللحظة التي أشار فيها عطوان لملازمه كي يأخذ الطريق الفرعي لأنه أقرب إلى بيته المتواجد بجانب سكة الحديد

نظر عطوان في وجه العجوز بعدما اقتربت بهم السيارة من بيت والده.

أظن أن ولد الصافي لن يعود للتحرش بك بعد اليوم عمي منصور ؟

آه يا وليدي ، ليته كان وحده من يفعل ذلك ردها في سرّه بعدما تذكر الرجل الأجنبي الذي جاء معه في آخر مرة وبدا من صمته، ونظراته أكثر شرورا من ولد الصافي .

نعم يا وليدي نطقها بعدما انتبه لسؤال عطوان الذي بقي ينظر إليه.

كان صوت السيد يرن في رأسه حينما حذره من أن يخط بين عواطفه ووظيفته.

في تلك اللحظة سأل العجوز عن بلميلود كيف فعل كل ذلك وهو درويش !؟

صمت عطوان وبقي يحدق في وجه العجوز ، متلمسا الكرة العاجية التي كتب عليها اسم زينزيبار في جيب سترته.حركها بأصابعه.

ثم همَّ بإبعاد العجوز عن سؤاله.

لماذا يريد ولد صافي أن تبيعه هذه المقهى بالقوة؟

حرك العجوز رأسه: ألم أقل لك إنه يريد لها للرجل الأجنبي ؟ !

فكّر عطوان أن يسأل العجوز سؤالا آخر عن الرجل الأجنبي، وعن الاسقيفة، لكنه أحجم حينما تذكر أنه رأى بابها موصدا بقفل كبير ، كما لو أن أحدهم شمعها .

أحس أن عقله المخابراتي يفكر بتسارع، وبارتياب خاصة بعد أن تلقى مكالمة مراد دوركال الذي أخبره بالانفجار الذي وقع في مطعم الكوليس في ذلك الوقت المبكر.

قال له مراد دوركال حينما تلفن له وهو في طريقه للمدينة: مدينتك لا تتحدث سوى عن الجنس، والسياسة. مدة إقامتي فيها رأيت هوس الجماع حتى في رأس إمام مسجدِها العتيق الذي خلف أبا نصر حتى أنهم وجدوه مثلبسا مع صبي في سقيفته. ثم أضاف له هل تعرف أن أبا نصر أرسل أحد رجاله البارحة لزفيرة في المطعم، وضايقها، وقال لها كلاما بدينا.

ضحك المقدم: وماذا تنتظر من إرهابي تائب !

نطق العجوز بعد أن أحس بشرود عطوان: مدينتنا تعاني ! حتى شبابها الذين رأيت بعضهم في المقهى فهم لا يفعلون شيئا سوى التثرثرة في السياسة مع الماركسي أو ولد الغربي، أو يتابعون بهوس ذلك الجلد المنفوخ في شاشات البلازما التي أصبحت تبث مباريات الليغا و البونس ليغ وغيرها، بعد أن يتعاطوا حبات الإيكستازية التي بدا ترويجها أمام مدارس المدينة و في جنبات المقاهي .

بقي العجوز يسرب تلك الحقائق، وكأنه يريد أن يقول لعطوان أن كل مصائب المدينة جاءت مما يفعله أولاد الصافي. ثم توقف حينما شعر بشرود عطوان وتيهه.

حدق في عينيه البنيتين فرأى صورة ابنه مصطفى وهو مستلق على الأريكة الجلدية في حالة سُكر، دافعا في جوفه كأس البيرة بعد أن يطمش شواربه بوجع: " لماذا لا ينتهي العالم ؟ ثم يفتح عينيه مناديا على عطوان كي يجلس بجانبه مرددا : " ااااااااااا ياخفيد الزعيم. محولا نظره نحو نافذة السقيفة المطلة على جهة الشارع الآخر كأنما يبحث عن شيء ما ، فيتصور له الامارة الذين كانوا يمرون على باب سقيفته كما لو أنهم

حراس معبد جاءوا لقتله فيصرخ مثل المجنون: إنهم قادمون.....إنهم قادمون !... .

يفزع عطوان مبتعدا مع مصطفى ، قبل أن يبدأ منصور في تهدئتهما متفطنا أنه الكابوس الذي طالما طارده كلما سكر في السقيفة.

في تلك اللحظة استفاق العجوز من شروده على صوت عطوان بعدما توقفت السيارة بهم أمام بيت بلخوش.

هل هذا هو البيت ؟ سأل الملازم المخفي المقدم .

بلى . قالها ثم قرب فمه لأذنه هامسا . انتظرك غذا صباحا

هز الملازم رأسه في اللحظة التي التفت عطوان نحو العجوز الذي أنزله عمّار ليжда بلخوش ويلميلود ينتظرانها أمام .

ماذا حدث ؟

سأل ولد الغربي وهو يلهث بعدما جاء مهرولا من محطة البرية بوسط المدينة حيث التقى شاب أخبره بماحدث للعجوز أمام المقهى.

سعيد ولد صافي ورجاله اعتدوا على العجوز ، لكن الحمدلله، ولد عمي بخوش كان موجودا، ولقنهم درسا لن ينسوه رد الهيسوف وهو ينزل في الستار الحديدي للمقهى.

إذن عاد عطوان من العاصمة ! قالها في سرّه، ثم أردف سائلا : وأين ذهب العجوز؟

أخذه عطوان وعمّه عمار لبيت بلخوش رد النادل .

أدار ولد الغربي وجهه متنفسا بعدما أحس أن الشيء الذي طالما تخوف منه قد حدث. قال له العجوز بغضب حينما سأله مرة عن كرهه لسعيد ولد الصافي: بأنه سبب فقده لابنه مصطفى. ثم تنفس بعمق مصدرا صوتا كما النحيب. لماذا دفعوا بأبنائنا للجحيم؟

منذ أن عاد ابنه من افغنستان، صرنا نشيع كل يوم ابناً، أو صديقا إلى قبره. لقد جلبوا لنا الموت !

لماذا أجد نفسي بعد عشرين سنة وحيدا في هذه المقهى ؟ .

كان العجوز يتحدث عن المدينة، وعن ابنه، و ما فعله به سعيد ولد الصافي وهو ينظر جهة القسمة التي هدأت بعد أن فكت الشرطة الشجار بين الموالين لبلفلوفة، والموالين لولد الصافي، وبورقة .

مشى ولد الغربي على رصيف الحديقة وفي ذاكرته جرح العجوز بعدما ترك الهيسوف وراءه يغلق المقهى. فكّر في رفيقه الماركسي الذي تركه في مقر الولاية يدفع ملف ترشحه. قال له حينما رآه يتحدث مع العجوز عن تهديدات أولاد الصافي له: مادامت ربّ البرجوازية تجد من يصفق لها في هذا البلد فلا تنتظر أن تلتقي بالملائكة. نظر العجوز نحو الماركسي: زمن الخطابات ولّى يا وليدي !

توقف قرب البنك الوطني، وراح متلمسا مرة أخرى رسائل قريبه، قبل أن ينتبه لصوت شاب كان قادما مع الماركسي، و بعض رفاقه الذين كانوا يشيرون نحو سيارة هامر مرت بجانبهم : الخصية الرخوة تتحرك تحت خصية الجنرال !

كانت السيارة لزوجـة سعيد ولد الصافي .

أضاف الشاب رأيت زوجها يقف مع المحافظ مظهرا ضغينة لولد بلخوش صارخا بأنه تعرض للإهانة، والتهديد بالسلاح.

اقترب منهم ولد الغربي مرددا في سرّه: القضية معقدة يا جماعة. مادمت صامتين، وتعيشون بهذه الكرامة الضئيلة، وتبدّدون كلامكم، وحياتكم بهذه الثثرة في الطرقات، والشوارع.

قاطعـه صوت الماركسي

مرحبا جمال ! هل سمعت ماحدث ؟

كنت أبحث عنك لأجل هذا! رد ولد الغربي قبل أن يضيف أولا أخبرني ماذا فعلت بالملف .

(بصعوبة، وبعد عراك مع إدارة نوّمي حشاك، باش قبلوا ملف ترشحك).

هز ولد الغربي رأسه. أعرف البروقراطيين ذتاع الولاية، لا بد أن بورقعة وجماعته وراء ذلك !

تدخل شاب وقف أمامه.

(هدوك يليق ليهم، غير واحد كي ولد بلخوش، يدير فيهم التير !)

صمت الماركسي، وصمت ولد الغربي الذي دار في مكانه بعد أن تصافح مع رفيقه، والشاب الذي بقي يثرثر.

فلنجلس هناك قال الماركسي مشيرا للمقعد الحجري .

تحركا دون أن يقولوا شيئا. تبعهما شابين آخرين .

في اللحظة التي جلس فيها ولد الغربي. عندما رأيت بالأمس مافعله ولد الصافي في القسمة بجماعة بلفلوفة، عرفت أننا مقبلين على جحيم.

واليوم كان دور العجوز ! الأسؤال على من سيأتي الدور بعد ذلك؟ نطق أحد الشابين.

ماذا نفعل مع هؤلاء ياسي جمال؟ سأل الشاب الآخر

تدخل الماركسي: كلكم تظهرون انتصابكم، وتظنون أنكم ستبهرونهم ، دون أن تعرفوا أن هذا ما يجعلكم تحت أحزمة رأسماليتهم المتوحشة. ثم أضاف قلت لكم على الشعب أن يثور. ألا ترون ما يحدث في العالم . كل المضطهدين ثاروا إلا أنتم !

أعاد ولد الغربي نفس عبارته في سرّه، ملتفة جهة الماركسي الذي بقي يستطرد بدماس بعد ما أخذ مكانه بقربه على المقعد الحجري، ناظرا جهة بيت اليهودي موشي، المهجور بالقرب من البنك الوطني .

القضية معقدة ، وما حدث للعجوز كان منتظرا.

تسلطت على ولد الغربي أفكار الانتقام من ولد الصافي، ومن كل الذين انتفخت بطونهم بعد أن سمع كلام الماركسي عن الثورة، رغم أنه تعود أن يسمع منه هذا النوع من الكلام مرارا، لكنه سمعه هذه المرة بصورة أخرى، لهذا لم يستطع أن يتحمل. نهض مستأذنا من الماركسي، والشباب راميا خطواته، عائدا لبيته، وهو يحس بغیظ يشبه لهب الحرائق.

تسمر المحافظ في مكانه دون أن يعرف كيف يجيبه.

حسنًا ! لتعلم أنه آخر عمل لي معك. قالها ثم خرج متحدثا أنه لم يعد يستطيع أن يفهم مزاج رجل مستهتر مثل سعيد ولد الصافي.

حيثما عبر بوابة الفيلا التفت محركا رأسه، زافرا ، ثم فتح باب سيارته، وقال لسائقه الشرطي انطلق بنا للمكتب لنرى ماذا نفعل مع ولد بلخوش !

توقفت سيارتان لرجال الشرطة أمام بيت بلخوش، نزلا منها شرطيان أحدهما هزيل. سارعا نحو الباب كما لو أنهما محرشان لاقتحامه، وراح الهزيل يدق بصورة جنونية في اللحظة التي التحق به رجال شرطة آخرون، محاولين اقتحام البيت. خرج عطوان متعجلا بعدما فتح الباب.

وقف الشرطي الهزيل الذي دق بتلك الصورة الجنونية مرردا بوجهه متهجم: هل أنت عطوان بلخوش؟

نعم ! أنا هو، هل من خدمة !

كان الهزيل لايفكر سوى في الوجه الذي أخبره عنه رئيسه بأن عليه أن يجره مثل مجرم. لهذا اندفع فجأة مخرجا كلابشاته من خصره، مشهرا سلاحه في وجه المقدم بعد أن أمر معاونيه بإلقاء القبض عليه، وتجريده من سلاحه. تراجع عطوان رافعا يده إلى أعلى ممسكا بمعصم الشرطي الذي مدّ يده محاولا أخذ مسدسه. ولواها حتى سُمعت صرخته.

صرخ الشرطي الهزيل متألما من قبضة عطوان الذي مسكه مثل (كُلاب) من معصمه. تراجع الشرطيان الآخران، وهما مشهران مسدسيهما.

أطلق يده، وإلا أطلقنا عليك النار قال أحدهما.

في تلك اللحظة المتسارعة جاء صوت رجل ببدة كوستيم نزل من السيارة بهدوء بدا أنه الضابط المسؤول عن الدورية. مخترقا صف رجاله الذين اصطفوا في خط واحد مشهرين أسلحتهم في وجه عطوان

صرخ الرجل صاحب الكوستيم في وجوههم بأن ينزلوا أسلحتهم، ثم اقترب من عطوان مرردا بدبلوماسية بعدما أفلت المقدم معصم الهزيل.

أرجو منك أن لا تقاوم، نريدك أن تقدم سلاحك، و تأتي معنا إلى المديرية.

حسنًا قالها المقدم ، ثم دار إلى بلميلود الذي وقف لحظتها مثل جدار أمام شريفة التي كانت تحاول أن تتبين الجلبة التي سمعتها.

أدخل يا بلميلود، طمنن أُمي، ووالدي، سأذهب معهم، وأعود .

هز بلميلود رأسه، ثم دار نحو عمّار الذبيبة الذي حرك رأسه هو الآخر كي يتبين الجلبة التي سمعها من وراء الباب مغلقا الباب خلفه دافعا بعمار كي يبتعد عن الباب مرددا: ليس هناك مايسـتدعي الخوف، مجرد دورية تريد عطوان في المديرية، وسيعود .

ركب عطوان السيارة مع الشرطين اللذين بدوا، وكأنهما قد انزعجا مما فعله بزميلهم الذي بقي يشدُّ في ألم معصمه، ناظرا بحقد نحو وجه عطوان الذي جلس على المقعد الخلفي لسيارة نيسان التي أفلعت به نحو المديرية، وتبعتهما سيارة أخرى كانت مرافقة لها .

صرخت شريفة حينما رأت زوجها بلخوش لم يحرك ساكنا.

كيف سمحت لهم بأن يأخذوا ابني؟

كنت أعرف أن ولد الصافي لن يسكت ! جاء صوت عمّار الذي التقت نظراته بنظرات بلميلود.

لماذا لا تصمت يا عمّار. نطق العجوز من الردهة.

حرك بلخوش يده في وجه أخيه كما لو أنه يعاتبه على هذا الكلام، ثم حوّل ناظره نحو زوجته التي اقتربت من عمّار وهي تصرخ .

ماذا فعل ابني لولد الصافي ؟

استدرك عمّار كلامه وراح يهدئها : دورية عادية، يازوجة أخي !

أولاد صافي لا يأتني منهم الخير أضافت شريفة قبل أن يشير لها زوجها.

اصمت يا امرأة، وناولني معطفي، سوف أذهب بنفسني للمديرية !

اسمع ياعمي بلخوش، ابنك إطار في الدولة، وحينما يعرفونه سينحنون له اعتذاراً، ويعيدونه بنفس السيارة التي أقلته تدخل بلميلود في اللحظة التي وقف فيها العجوز متسماً، ومدهوشاً كأنه لا يصدق الذي يسمعه من رجل طالما عدّه درويشاً، وعطف عليه طيلة سنوات. لكن بلخوش الذي كان يقاوم وجع ظهره، انتبه لنفسه: نعم يا وليدي بلميلود، يبدو أننا لم نتعود على هذه الوظيفة. ثم صمت متلماً أسفل ظهره بعدما عاوده الألم.

بقي العجوز يتابع بحيرة وجه بلميلود الذي التفت لشريفة التي كانت لحظتها قد وقفت أمام بلخوش وهي تمسك بمعطفه.

لا زلت لا أصدق أنك الدرويش الذي عرفته. ابتسم بلميلود في وجه العجوز في اللحظة التي سلمت شريفة المعطف لزوجها .

تسرب عمّار نحو الباب الخارجي دون أن يشعر به أحد.

عطوان ليس رجلاً عادياً، أو طفلاً لتخاف عليه ياعمي بلخوش، هيّا عد بنا لغرفتك قال بلميلود. مسك بلميلود المعطف من يد بلخوش، وأدخله للغرفة وتبعهما العجوز الذي بقي صامتاً.

نعم. أجاب زافراً، ثم دفع بيده نحو المخدة ليتكى عليها.

خرج بلميلود بعدما ترك العجوز وبلخوش يتحدثان في الغرفة.

أخذ عمّار الذيبة طريقاً آخر غير طريق المديرية دون أن يدري أن
بلميلود كان يتعقبه .

نظر المقدم مُمَغَزَا أسنانه في وجه المحافظ سليم الذي وقف أمام عتبة باب مكتبه وراح يلوح بيديه معذرا من الملازم مخفي عن سوء الفهم الذي جعل رجاله يأتون بالمقدم بتلك الطريقة غير اللائقة. ثم حوّل نظره نحو المفتش صاحب الكوستيم الذي وقف بجانبه مشيرا لأحد الشرطيين كي ينزع الحديد من يديه.

تفضل حضرات قال المحافظ مشيرا للمقدم كي يشرفه بالدخول لمكتبه. أقدمُ كامل اعتذاراتي، لم نكن نعرف هويتك .

رمى المقدم خطوته داخل غرفة المكتب الصغير الذي احتوى على طاولة معدنية مغلقة بمادة تشبه مادة السيلكون مع أريكة مربعة توقف أمامها وراح يجوب بناظره مارا على وجوه أولئك الأعوان الذين جاءوا به وراحوا ينظرون بحيرة، وخوف نحو بعضهم وهم يرون الدقاوة غير العادية التي استقبل به الرجل الذي اقتادوه معهم مثل مجرم.

أخذ صاحب الكوستيم مكانه بجوار الملازم المخفي، مثبتا ناظره في وجه رئيسه الذي تغير لون وجهه نحو الشحوب، وهو يبصر المقدم يردد في وجهه. دون مشكلة سيادة المحافظ، أنت قم بعملك.

عفوا حضرات . تفضل أرجوك بالجلوس.

ثم أردف وهو ينظر بعينين مرتبكتين. فهمت من سي المخفي كل شيء. وأنا طوع أمرك سيدي.

قهوة أم شاي حضرات؟

على كلٍ ! شكرا لك على هذا الاستقبال. فقط قم بعملك واخُم الأشخاص الذين يحتاجون للحماية وبعدها أكيد سنجلس مرة أخرى ونشرب قهوة

في مكتبك. قالها ثم التفت نحو باب المخرج مشيراً لملازمه للانصراف.

اقترب المحافظ من المقدم، وبدأ يتمسح بوجهه أمامه مثل الخادم، مشيراً لرجاله كي يفتحوا له الطريق.

أدار المقدم نظره رامقا الشرطي الهزيل الذي انزوى مُنزلاً ناظره وممسكا بمعصمه.

في عتبة مخرج المديرية ودع المحافظ المقدم، وملازمه.

اعذرني حضرات. كنت سأذهب للمكتب كما أمرت لكن الرجل المسمى سعيد لفت انتباهي حينما رأيت سيارته تتجه نحو المديرية، عرفت أنه سيُقدّم على شيء سيئ نحوكم. لهذا خمنت أن أعرف المحافظ بهويتك.

تنفس المقدم شادًا حزام الأمان على صدره، ثم رد على ملازمه " لا عليك ! عد بنا بسرعة إلى بيت الوالد، لابد أن أُمي منشغلة .

فكّر المقدم لحظتها أنَّ عليه أن لا يمهل سعيد ولد الصافي أي وقت، لهذا قال في نفسه لابد من مراقبته قبل أن يُقدّم على أي شيء تجاه العجوز.

التفت نحو ملازمه. ستتعاقب أنت، وبلميلود على حراسة المقهى، ومراقبة ولد الصافي. كما أريدك أن تبلغ عملاء الاتصالات أن يراقبوا كل اتصالات الرجل.

حرك المخفي رأسه وهو يدعس على دواسه بنزين السيارة .

في تلك اللحظة كان عمّار قد رأى سيارة طويوتا ذات الترقيم الحكومي قد خرجت من شارع مديرية الأمن، فسارع لإخراج هاتفه وراح يكلم أخاه بلخوش على رقم البيت .

حمل بلخوش السماعه كما لو أنه كان في انتظار تلك المكالمه ورد دون حتى أن يسأل عن المتكلم : نعم عمار أين ذهبت؟

" لحقتُ بعموان للمديرية، رأيته الآن فقط عائدا للبيت مع رفيقه صاحب السيارة طويوتا . إذن، لم تعتقله الشرطة ! سأل بلخوش بحيرة دون أن ينتظر جوابا من أخيه الذي أراد أن يقول له لا أعرف، لكنه سمع رنات الهاتف تعلن عن انقطاع الخط.

وضع بلخوس سماعه الهاتف ملتقنا للعجوز الذي جلس بجانبه في الغرفة يرتشف في فنجان الشاي الذي حضرته شريفة

لا أعرف لم أغلق عمار هاتفه!

الغائب حفته معه يا وليدي بلخوش.

في تلك اللحظة تخيل بلخوش أنه سمع طرقا على الباب، لكنه لم يعره انتباها، ناظرا جهة العجوز منصور الذي أضاف وهو يتحدث بإعجاب عن عمار الذي صار في الأيام الأخيرة لايفارقه إلا حينما يخلد للنوم .

" كنت دائما أتمنى من خويا عمار أن يبتعد عن أولاد الصافي، وأن يغير من طباعه.

عمار بئس لكن قلبه أبيض، وهو يزورني دائما، ويسأل عني . رد العجوز في اللحظة التي جاء صوت عطوان من وراء الباب

أليس هذا صوت ابني عطوان ؟ قالها بلخوش محاولا الوقوف بصعوبة، متجها نحو الباب بعدما أسنده العجوز ، ليجد زوجته شريفة قد سبقته لفتحه، وراحت مرتمية على ابنها، فاتحة ذراعيها لتحضنه كما لو أنه طفل.

أدست شريفة بعودة النبض لقلبها الذي لم تستطع توقيف تسارعه كلما تذكرت أنها لا يمكن أن تتحمل أي أذى قد يصيبه. يُقَبَّل عطوان يدها

مبتسما رادا خلفه الباب الخارجي ليجد أباه بلخوش، والعجوز منصور
ينظران إليه بدهشة ناطقين بصوت واحد

على سلامتك .

الحمد لله، لاشيء يا أبي مجرد خطأ .

الحمد لله أنك عدت يابني، وإلا كانت قتلتنا الحيرة عليك رد العجوز قبل
أن يشير لصديقه بلخوش بأنه مجبر على الذهاب الآن لبيته بعد أن حرك
له عينه اليسرى غامزا. فهم بلخوش أن صديقه العجوز كان سيسافر
تلك الليلة للعاصمة لهذا رد عليه كما عادته.

ربي يسهل عمي منصور .

لم ينتبه عطوان لخروج العجوز لأن أمه شريفة بقيت تمسك بيده
ناظرة في وجهه مرددة شوقها قبل أن تلتفت نحو زوجها الذي ركن
للصمت، دافعا بسؤال حيرته إلى ابنه — أي خطأ هذا يابني الذي جاء
برجال الشرطة إلى بيتي؟

لا شيء يا أبت، مجرد إجراء روتيني، سألوني عن المسدس الذي أحمله،
وحينما عرفوا أنني زميل لهم في الدولة، اعتذروا، و انتهى الأمر .

(علاش ياوليدي واش درت). نطق شريفة بأسى، وهي تمسك بيده كما
لو أنها أحست بأن شيئا كان سيحدث لابنها بعدما أخرج مسدسه لذلك
الرجل.

ابتسم لها عطوان. لاتخافي يا أمي العزيزة.

و أين عمك عمّار؟ جاء صوت والده فجأة.

ألم أتركه معكم؟ سأل عطوان بغرابة.

لقد كلمني في الهاتف، و طمأنني عليك. لكن هاتفه منذ أكثر من ساعة مغلق.

قالها بلخوش ببطء بعدما أحس بغيمة بين ناظريه جراء نوبة الوجد التي عاودته لحظتها. دفع بيده نحو الجدار محاولا التماسك.

اندفع عطوان نحوه بخوف. مابك والدي ؟

اغمض بلخوش عينيه، ثم فتحهما بصعوبة بعدما مسكه ابنه من ذراعه وأخذه لسريره.

قفزت شريفة صارخة نحو زوجها، وبدأت تبكي.

رفع بلخوش رأسه نحوها. اسمعي يابنت مقران. لا أريدك أن تبكي على رأسي، وأنا حي قالها متماسكا .

أجهشت بالبكاء أمامه، ثم خرجت من الغرفة .

تنهد بلخوش قائلاً:

حينما أرى أمك تبكي لا أستطيع أن أتحمل !

اقترب عطوان منه . لا عليك يا ولدي، استرح، ولا تجهد نفسك. سأتصل بالطبيب جبريل فقد جاء هو الآخر للمدينة.

التفت بلخوش بصعوبة بعدما استعاد وعيه ناظرا في وجه ابنه عطوان الذي بقي ينتظر استفاقة مع الطبيب جبريل. لا أريدك أن تأخذني للمستشفى ! ثم أغمض عينيه مرة أخرى زافرا، جبريل لماذا طلبته يابني ؟

صمت عطوان دون أن يجيبه .

أغلق الطبيب جبريل حقيبته، وخرج لرددة البيت مع المقدم.

ماذا عنده يادكتور؟

قلت لكم عليه أن لايجهد نفسه.

هذه وصفة دواء. سيبدأ في تناول دوائه من الآن، وحينما تتحسن حالته أحضره للمستشفى سأجري له بعض التحاليل بنفسي.

نعم مسيو جبريل. أنت تعرف والدي لا يحب المستشفيات .

هز جبريل رأسه . أعرف ذلك سيادة المقدم ، لا تقلق سيكون بخير .

سأزورك في المستشفى .

نلتقي اذن رد الطبيب بعدما استأذنه .

صافح المقدم الطبيب جبريل أمام عتبة الباب، وعاد إلى أمه التي جلست تبكي في المطبخ .

حينما رأت شريفة ابنها قادما، مسحت دموعها ووقفت أمام باب المطبخ .

ماذا قال لك الطبيب .

أبي بخير لا تقلقي، سأنزل لأشتري له الدواء، وأعود .

دخلت شريفة على زوجها في غرفته فوجدته نائما بعد أن أعطاه الطبيب حقنة مهدئة. جلست بقرب سريرته، وراحت تنتظر إليه بحزن مستعيدة كل الأيام التي مرت بهما.

كانت تردد عليه كلما رآته يتلمس بيده أسفل ظهره، أو يطلب منها أن تحضر له تلك الخلطة من الأعشاب متحركا أمامها بخطى بطيئة.

تنتظر إليه بحزن مرعدة نفس رجاؤها " لِمَ لا تكف من الذهاب إلى تلك المزرعة؟ لا أعرف لِمَ تُصِر على هذا البؤس .

أراد أن يصرخ من شدة الألم لكن يدها أمسكت بيده بعدما دارت به الأرض. استفاق بسخونة اليد السحرية التي لم تكن سوى يد شريفة زوجته التي رآته يدفع بظهره كي يستقيم .

لحظتها جذب يده من يدها رادا بنبرته الواثقة رغم نوبات السعال التي تحركت لحظتها في صدره حتى كادت تخنقه.

قلت لك لا أريدك أن تعيدي حديث المزرعة !

ردت يدها هذه المرة بعدما أجهشت بالبكاء لتلفَّ بها إبطه، جاذبة جدها إليها كما لو أنها تريد حمله مثلما يحمل المقعد من مكان ليوضع على سرير. أحس كما لو أنها تنبش مشاعر كبريائه لهذا فلتت منه كلمات دون أن يدري وهو يقفز من بين يديها : "لم أصبح كلبا عجوزا حتى تنوحي عليّ يا بنت مقران، وليس بلخوش من تحمله زوجته مثل مقعد. ابتعدي عني ، وكفي عن ترديد سخافاتك ! لن أترك مزرعتي.

انكششت شريفة في مكانها، مذهولة، لا تعرف ماذا دهى زوجها أن يتكلم بتلك العصبية التي أضحى يعيش بها منذ أن قالت له يوم عاد مع ابنه عطوان من المزرعة يشكو من وجع الظهر.

اترك عطوان يبيع المزرعة ويأخذنا لنعيش معه في العاصمة .

نظر في وجه ابنه بنفس النظرة التي نظر بها لزوجته وراح يردد بعصبية :

من قال إن الحاج بلخوش بن الزعيم بن عطوان سيكون عالة على أحد !

حتى و إن كان ابنه. سأقبل الأرض التي تمشي عليها يا سي بلخوش ، المهم أن ترضى عني ، و عن أمي التي ما قالت كلامها إلا لأنها تحبك، وتحبني ولا تريدك أن تصاب بمكروه. وأنت تعرف أن الطبيب قد منعك عن بدل أي جهد، خاصة في المزرعة، ولا حتى هنا في البيت، وحتى ذهابك للمزرعة وقطع تلك المسافة البعيدة كل يوم ، فأنت لم تعد لك القدرة كما الماضي على فعل هذا.

لحظتها أدست بصوته يمر أمامها وهو يضع يده على رأسه معدلا من المخدة التي كانت ملقاة على المطرح الذي كان يفضل أن يستلقي عليه من بين أربعة مطارح أخرى كانت تشكل صالونا مغربيا في غرفته، مسندا ظهره على الجدار قبل أن يعيد حمل عكازه، ويتبعها إلى ردهة البيت حيث كانت يومها قد فرقت عيدان السرقة التي جلبها من المزرعة عن بعضها، وقطعت ما يلزمها كي تشعل نار موقدها الذي لا يزال يحافظ على شكله الهرمي، المشكل بتلك الحجارة الآجورية كما الماضي، رغم وجود الموقد الغازي بكل اكسسواراته الحديثة إلا أن بلخوش لم يكن يحب أن تطبخ له زوجته فيه لأنه كان يردد أنه منذ أن أدخل الغاز للمدينة صار الرجال لا يفعلون شيء سوى النوم تحت مدافئهم مثل النساء، ومتابعة المسلسلات التركية.

نظرت إليه وهو لا يزال يقف رغم تعبته، ويتابع ما كانت تفعله. ثم راحت أمامه مثل فتاة في مقتبل العمر، وكأن الزمن لم يستطع فعل شيء في جسدها الكريستالي الرفيع رغم ظهور بعض تجاعيد الوشم في وجهها القبائلي الذي لم يزد لها إلا جمالا وبهاءً، رامية خطواتها على عتبة الباب، مشيرة له: "ارتح أنت في غرفتك، درك نجيب لك براد الشاي مع زبدة المعاز، وزيت الزيتون كما تحب".

مثل أي امرأة قبائلية كانت لا تزال تحب أن تخدم زوجها حتى الموت تتصرف شريفة بنت مقران، وهي تتذكر حينما فتحت عينيها على أول رجل كانت تسمع عنه من أخيها شريف المغترب بفرنسا، يوم كانت تسأله عن أحواله في ديار الغرب، أو عن تلك الحقيبة التي كانت تراه يحرص على إبقائها في صندوق سيارته كلما رآها تفتش الصندوق باحثة عن ما يمكن أن يكون قد نسيه.

ينظر إليها أخوها شريف مبتسما، مشيرا لها بأن لا تتلمس أمانة صديقه بلخوش الذي بعثها من فرنسا لأخيه عمّار الذي كان يضطر للمجيء إلى بجاية كي يلتقي به ويتسلم منه تلك (الكابة ١٤) المملوءة بالأشياء التي كان يرسلها بلخوش لأمه حبيبة، ولأخيه مع رسالة شفوية يوصي فيها عمّار كما لو أنه يقايضه بتلك الألبسة، والأشياء حتى يهتم بالحاجة أمه كما تعود أن يردد اسمها على مسمع صديقه شريف حينما يسلمه (الكابة) لأنه كان يدرك أن أخاه لم يكن يكلف نفسه ولو بإرسال رسالة واحدة يخبره فيها عن صحة والدته بعدما سمع أنه ضيع دراسته، وأصبح يعاقر الكيف مع بعض أبناء المهربين، ويتسبب بمشاكل لأمه كما أخبره رجل من مدينته كان والده صديقا لوالده بن عطوان حينما التقى به مرة في باريس خاصة بعد أن فقدت أمه حبيبة بنت المسعودي زوجها الثاني أبا عمّار الذي تزوجته بعد أن قيل لها إن بن عطوان قد ركب مع فرنسا، وأن عليها أن تخلعه بعدما صار عدوا لجبهة التحرير التي كلفت الصافي الكبير بذبحه إن عاد للمدينة. بعد أن جاءت التعليمات

من قيادات المنطقة الثامنة بأن يصفى كل أولئك الذي اشتهمت فيهم رائحة الانتماء للحركى.

كلما نظرت شريفة إليه استعادت تلك الصورة التي تشكلت في رأسها الصغير وهي لازالت لم تتجاوز أربع عشرة سنة، بعدها بسنتين كان قد غاب فيهما أخوها وحينما عاد كان معه صديقه المغترب بلخوش الذي عاداه والدها مع أول يوم رآه مع أخيها حتى قبل أن يطلبها منه للزواج. لهذا صمت والدها لحظة أخبره ابنه الشريف عن رغبة صديقه المغترب بالزواج من أخته شريفة.

نظر إليه، ثم سأله بنوع من الرّيبة " هل هو عربي ! "

هز شريف رأسه " بلى "

"أعرافن ١٥! " رد الأب قبل أن يطلب منه أن يؤجل الكلام في هذا الأمر حتى يسأل عنه معارفه بفرنسا. في اليوم الثاني صرخ في وجه ابنه الشريف بعد أن قال له وهو يتوعدّه : " لا أريدك أن تأتي بابن الحركي لبيتي ! وقل له أن ينسى أمر زواجه من ابنتي. لن يصير أعرافن و ابن حركي صهري ولو وأعاد طلبه مرة أخرى لأضطرت لرميك، ورميه بالرصاص".

سافر يومها أخاها الشريف مقهورا إلى باريس دون أن يخبر صديقه عن سرّ انقهاره حتى وهو يطلب منه لحظة كانا يجلسان في غرفة الضيوف مع زوج أختها الطاوس بأن عليهما أن يغادرا البيت في هذه الليلة بعدما قال له علينا أن نعود لباريس، بعدما ترك أباه وكل العائلة يتحدثون بسخرية عن أعرافن ابن حركي الذي تجرأ على خطبة ابنتهم. بدت مثل النكتة بين أفراد عائلتها دون حتى أن يروه أو يعرفوه، لهذا لم يعد أخوها الشريف بعدها لمدينته حتى مرت سنتان ، وكان يومها قد تدبر مع صديقه بلخوش بعد أن أخبرته أخته في رسالة أنها لم تعد

تطبيق العيش في بيت والدها الذي كان يفكر يومها بتزويجها من رجل عسكري من الشرق .

أرسل أخوه لزوج أخته رسالة قال له فيها أن يأتي بأخته للعاصمة حيث عقد قرانها هناك بعد أن حضر زواجهما زوج أختها الطاووس الذي كان هو وأختها يفكران عكس كل عائلتها، وبعض الأصدقاء ، قبل أن يأخذها بلخوش معه إلى مدينته الحدودية لتتقطع كل أخبارها عن والدها الذي سمعت خبر وافته الغامضة التي قال عنها أخوها أن الدولة رفضت السماح لهم حتى برؤية جثته .

بعد سنوات قال بعض أهلها هناك. إن مقرران آيت مقرران ذهب ضحية الذين حكموا البلد بعد الانقلاب العسكري الفاشل في أواخر ستينيات القرن الماضي، كان سيذهب معها بلخوش لحضور جنازته التي أقيمت في سرية كاملة، ولكن أخاها الشريف طلب منهما أن لا يحضرا حتى لا تثار مرة أخرى مشاكل في العائلة لأن كل عائلته اعتبروا هروبها فضيحة لهم خاصة مع رجل يعدونه ابن حرّكي .

رغم كل السنوات التي مرت على زواجها من بلخوش إلا أنها لم تتجراً أن تسأله يوما عن والده بن عطوان، ولا عن كنية ابن الحرّكي هذه، ولا حتى عن حياته مع أخيها الشريف الذي انقطعت أخباره في فرنسا .

ولأنها أحبته هكذا دون مقدمات فقد أثرت أن تعيش معه وصمة ما سموه بالعار أفضل من أن تعيش حياتها مع أب يقول الناس إنه من كبار الثوار لكنه كان والدا قدرا بكل ما تحمله معاني القذارة من صفة في رجل طالما رأت شره وجنونه الذي دفعت أمها ثمنه حياته.

يومها قال لها أخوها الشريف بعدما زم فمها عندما راحت تصرخ وتردد أمام المعزين أن الذي ذبح قرية بكاملها بأطفالها، ونسائها، وشيوخها لا يمكن أن يرحم امرأة حتى وإن كانت أم أطفاله"

يومها جلست شريفة في ركن غرفتها وراحت تنن بصمت مستعيدة صورة والدها وهو يجر أمها من شعرها، ويقسم أمام أبنائه أنها محرمة عليه. وبأنه سيقتلها أجلا أم عاجلا فقط لأنها ردت بكبرياء لم يعهده عليها يوم أدخل عليها فتاة أصغر منها، فصرخت في وجهه أمام بعض رفاقه من المجاهدين

"لا أريدك أن تأتي بفتاة صغيرة وتجعلها ضررتي" قالتها وهي تنظر لوجوه أولئك الذين جاءوا ليلباركوا خطبته لفتاة تصغره بعشرين سنة .

بكت أمها كثيرا يومها وهي تحضن ابنتها الكبيرة طاووس، وشريفة التي رأت أمها معلقة بعد ذاك اليوم في سقف غرفتها بعدما قهر أنوثتها مسببا لها كآبة مستديمة دفعتها للانتحار.

رغم أن والدها انتهى نهاية مأساوية بتصفية من أولئك الذين كان يدافع عنهم إلا أنها بقيت تتذكر أنه عاش نادما بعد موت أمها، وحتى بعد هربها مع بلخوش كما كان يقول لها أخوها شريف حينما جاء ليخبرها خبر موته.

راحت تستعيد أوجاعها وهي تنظر إلى زوجها نائما في سريرته . كانت ستقول له كما عادت أن نهض يا بلخوش لقد حضرت لك الشاي على جمر (الشميلي ١٦) الذي تفضله.

في تلك اللحظة سمعت طرقا على الباب . فنهضت بعدما ربطت عصابة رأسها جيدا، ثم رددت : "شكون ؟

كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحا حينما تحرك رجال ملاثمون جهة باب القصر بعدما سُمع إطلاق للرصاص في البوابة الأولى.

كان الرئيس لحظتها يصرخ في وجه مستشاره الذي تقاعس في تنفيذ عمليات التنظيف، بعد أن تجرأ أولئك الذين شطبتهم الدولة في تحديّه.

وصاروا يشكلون له حركات معارضة وأنزلوها لشوارع العاصمة.

توقف الرئيس حينما سمع صوت الرصاص.

لحظتها أخرج المستشار مسدسه .

ما الذي يحدث؟ ! أين الحراس قال الرئيس.

قوس المستشار حاجبيه مديرا مسدسه في ظهر الرئيس قبل أن يتفاجأ بدخول حارسين على ملامحهم الفزع، غير وجهة مسدسه نحو الأعلى. وصرخ في وجه أحدهم دخل يلهث .

ما الذي يحدث ؟

تعرضنا لهجوم .. سيّدي.

من هؤلاء؟ سأل المستشار مرة أخرى .

لا نعرف ! لقد تجاوزوا البوابة الأولى.

التفت المستشار طالبا من الرئيس أن يغادروا القصر حالا، لأن المهاجمين يكونون قد دخلوا إلى الردهة.

سأل الرئيس مستشاره صارخا. أين هي إجراءاتكم الأمنية، وأين هو اللواء زروقي؟

لقد ذهب في مهمة سيّدي.

من أمضى له على هذه المهمة؟

نكس المستشار رأسه دون أن يجيب.

في تلك اللحظة وقف أحد الحراس أمام باب سري كان قد فتحه، ونادى على الرئيس، التّف حارسان شخصيان لحماية الرئيس الذي اندفع مع مستشاره نحو الباب السريّ الصغير الذي انفتح على سُلّم أرضي يؤدي إلى سرداب طويل.

بقي المساعد صَفَر، والعميل أرزقي، ورجال قوات جيس ٢ يطلقون الرصاص نحو مجموعة من الملتهمين بقيت متحصنة ببوابة القصر الثاني التي بدت فارغة من أي حراسة بعدما انسحب الحرس الجمهوري المتواجد فيها لمدخل صالة القصر.

في تلك اللحظة رن هاتف أرزقي.

نعم.

الرئيس بخير. تمكنا من إخراجه من القصر جاء صوت مراد دوركال

حسنا. خذه إلى مكان آمن، سأعلم سيادة المساعد، و أتصل بك.

أغلق أرزقي هاتفه في اللحظة التي التفت إليه المساعد صَفَر الذي كان يتحدث هاتفيا مع قائد جيس ٢ الذي وصلت عناصره للبوابة الثانية .

اقترب منه وهمس له : الرئيس بخير، تمكن مراد من اخراجه من القصر.

وقف قائد قوات جيس ٢ على جثث المثلثين بعدما أشار لرجاله بأن يوقفوا إطلاق النار، ثم كلم المساعد. سيدي لقد انسحب الرجال المجهولين.

هز المساعد رأسه بعدما دخل مع العميل أرزقي متجهين للبوابة الثانية.

قابلهم قائد جيس ٢ ، ثم رافقهم إلى ردهة القصر التي بدت خرابًا جراء ثقب الرصاص التي غربلت الجدران.

رن هاتف المساعد صفر.

فتحه على عجل.

لقد ألقينا القبض على أحدهم، وجدناه في شاحنة سوداء في الجهة الأخرى من القصر، أصابه قناص وحدة الشرطة بجروح. جاء صوت الرائد سعيد.

هل تعرفتم على هويته.

لا يزال رجالنا يبحثون في السجلات.

في تلك اللحظة وقف رجل من رجال الشرطة أمام الرئد، ومدَّ له ورقة.

نظر إليها الرائد مرددا انتظر لحظة سيادة المساعد.

نعم سيدي لقد تعرفنا على المصاب. هو أحد رجال المؤسسة القديمة. ،

ثم صمت برهة وأضاف. لقد فقدنا المستشار سيدي.

حرك المساعد رأسه حسنا، ثم مشى خطوتين والتفت نحو أرزقي وأضاف

قدموا للمصاب الإسعافات الأولية وانقلوه بسرعة إلى المقر. وحقق معه أنت بنفسك سيادة الرائد وسألتحق بك بعد حين. ولا تنسَ، لا أريد أي تسريب لما حدث هذه الليلة.

حاضرُ سيدي ، جاء الصوت قبل أن تتلاشى المكالمة.

أعاد المساعد صَفَر هاتفه إلى جيبه، ثم اقترب من أرزقي. قم بإعلام المخابرات أن الرئيس بخير، لم يكن في القصر لحظة الهجوم الإرهابي.

ثم التفت نحو قائد جيس ٢.

اسحبُ عناصرك سيادة القائد. فقد انتهت مهمتك.

ضرب القائد بكعبة على الأرض مرددا حاضر سيدي.

في تلك اللحظة أشار المساعد لسائقه بالإقلاع نحو الجهة التي نقل نحوها الرئيس.

بعدها أنهى رجال الاستنتاج تعذيب المتهم الذي وصل إلى درجة أقرّ فيها بأنه سيقول ما يعرف، دخل الرائد سعيد لغرفة التحقيق، وجلس أمام المتهم الذي أجلسه حارسان على كرسي حديدي في غرفة الاستنتاج.

ما اسمك. عبدالحق شبيطة.

و إلى أي جهاز تنتمي.

إلى جهاز مكافحة التجسس DVCR^{١٧}

من هو قائدكم . دوركال.

مراد دوركال .

نعم.

لكن دوركال إرهابي، وأنت عسكري. كيف يكون هو قائدكم؟ سأل المحقق.

نظر إليه المتهم. دوركال عميل مخبراتي. و نحن تلقينا أوامر بأن نكون تحت قيادته في عملية قتل الرئيس.

من أعطى هذه الأوامر؟

تأتي عبر رسائل !

من أي قيادة جاءت الأوامر؟

17 مديرية البقطة، ومحاربة التجسس

لا أعرف

كيف لا تعرف؟ وأنت عميل مخابراتي تابع لوحدة الاستعلامات بالشرق. كيف جئت للعاصمة؟

تلقيت رسالة من الرائد زروقي تقول بتحويلى لفرقة الحرس الجمهوري.

هذا بعد عملية الأميرالية، أم قبلها ؟

قبلها طبعاً

من خطط للعملية ؟

مراد دور کال

و " ماذا عن القنابل التي زرعت في مركب رياض الفتح ؟

لا أعرف عنها شيئاً.

في تلك اللحظة اقترب الرائد أكثر من المتهم، وأخرج مسدسه ووضع رأسه على جرح المصاب، وضغط بشدة.

من أمركم بهذه العملية؟

لا أعرف .



من ساعدكم على الدخول للقصر؟ تكلم....

الذيرى.

من يكون هذا الشخص؟

شخص ينحدر من ضواحي براقي يشتغل في القصر.

ما اسم هذا الشخص ؟

لا أعرف كل ما أعرفه أنه من قيادات المؤسسة القديمة.

هز المحقق رأسه. ثم التفت نحو شرطي كان يقف بجانبه منتظرا الأوامر.

يمكنك أن تأخذه الآن إلى المستشفى.

خرج الرائد، إلى غرفة المكتب التي كان يتابع عبر زجاجها العميل أرزقي مجريات التحقيق.

نفس الكلام. يردده كل المتهمين الآخرين الذين حققنا معهم. يقولون كلهم أنهم قاموا باقتحام القصر تحت قيادة دوركال.

يعني العملية ستحوّل إلى عملية إرهابية ردها أرزقي قبل أن يمد يده مصافحا المحقق.

شكرا سيادة الرائد. سنتكفي بهذا التقرير. كما أرجو أن تشددوا الحراسة على المتهم الجريح عند نقله للمستشفى.

في اللحظة التي خرج فيها أرزقي رن هاتف الرائد.

نعم سيادة العميد.

.....

حاضر . حالا .

وضع الرائد سماعة الهاتف الأحمر ، وراح ملتقطا سترته من المشجب القريب من الباب.

حينما خرج أرزقي إلى الشارع وجد المساعد صفر ينتظره في السيارة التي أفلّتهما إلى مقر السيد الذي كان في اجتماع مغلق مع رئيس المجلس السري.

في الطريق قال المساعد. شكرا، كانت فكرة التحقيق مع عنصر المؤسسة القديمة في مقر شرطة باب الواد فكرة جيدة .

الآن أعرف أنهم لن يتركوه ليصل إلي مستشفى عين النعجة! أضاف المساعد صفر.

هز العميل أرزقي رأسه . أكيد حضرات. سيفعلون أي شيء لأجل اعتبار محاولة الانقلاب عمل إرهابي معزول.

في تلك اللحظة توقفت سيارة من نوع باصات حكومية أمام المقر شرطة باب الواد، و نزل منها رجلان بلباس مدني. رجل نحيف، و آخر طويل القامة.

دخلا إلى المقر . واتجها نحو مكتب الرائد الذي كان يهْمُ لحظتها بالخروج. وقف الرائد مستعدا، وقام بتحية السيف.

جننا لنستلم المتهم الجريح. و تقرير التحقيق الأولي الذي أجرينموه معه .

القضية ستحوّل إلى المحكمة العسكرية سيادة الرائد لهذا أرجو أن تتفهموا الأمر، وتنفذ ما أطلبه منك حالا .

بقي الرائد صامتا، دون أن يجد مايقوله . أغلق باب مكتبه ، وأشار لسيف. تفضل معي سيدي.

أخذه للغرفة الخاصة التي كان يُحضّر فيها المتهم الجريح لنقله للمستشفى.

أشار السياف للرجل الطويل بنقل المتهم للسيارة.

ثم التقت نحو الرائد سيادة الرائد علمنا أنكم اعتقلتم ضباط من الحرس الجمهوري . أرجو أن تأخذني إليهم.

نعم سيدي. الذين احتجزناهم أغلبهم من حرس البوابة الثانية للقصر الذين أخلوا مكانهم لحظة إطلاق النار. تبين أن هناك تواطؤاً أمنياً مع الإرهابيين الذين اقتحموا القصر أضاف الرائد.

جيد ، أنكم اعتقلتموهم في تلك اللحظة.

اتجه الرائد نحو الزنزانة الكبيرة حيث وقفا حارسان من الشرطة أمام بابها. فتح أحد الحراس باب الزنزانة . دخل السياف وتبعه الرائد.

نظر السياف في وجوه المتهمين مرددا : أيها الكلاب الخائنة، ثم أخرج مسدسه. وراح يصبوب في رأس كل المتهمين الذين أوقفهم الحراس أمامه في صف واحد في الزنزانة.

عفوا حضرات. ماذا تفعل؟! نطق الرائد سعيد.

أدار السياف فوهة مسدسه نحو وجه الرائد.

خيانة الرئيس تعني الموت. ربما تشأتاق للذهاب في رحلة مع هؤلاء الخونة سيادة الرائد.

حرك الرائد حواجه بصعوبة بعدما أحس بدمه قد تجمد في ركبتيه وهو يبصر إصبع السياف على الزناد.

طبعاً .. لا سيّدي.

أعاد بإصبعه المؤمن لحالة الأمان، ثم أرجع مسدسه لخصره مرددا وهو ينظر نحو الرائد.

أنتم قدموا تقريركم لمستشار الداخلية، وهو سيتصرف.

هناك أوامر بأن لا يطلع أحد من الصحافة على ما حدث هذه الليلة، ولا على ملفات التحقيق.

عُلمَ سيدي !

في تلك اللحظة توقفت شاحنة من نوع فورغن بيضاء أمام المقر ونزل منها جنودٌ ملثمون ، دخلوا المقر بسرعة، ثم بدأوا يخرجون جثث المتهمين من الزنزانة الكبيرة ويضعونهم مكدين فوق بعضهم البعض داخل الشاحنة.

دفع السياف فمه نحو أذن الجريح بعدما جلس بقربه في السيارة . كان يمكن لك أن تموت هناك. وَقَرْنَا لك كل الظروف لتتجز مهمتك. لكنك غبي.

همس الجريح. مراد.....مراد.

ماذا تقول. مراد ! ؟

هو من أخذ الرئيس، وأفسد خططنا.

في اللحظة التي أقلعت سيارة الباسات السوداء من جانب مقر المديرية تتبعها شاحنة الفورغن، سُمع صوتُ إطلاق رصاص.

جلس المساعد صَفر أمام السيد واضعا التقرير على طاولة مكتبه، ثم نطق وهو ينظر نحو حافظ الأختام الذي بدا وكأنه متلهف لمعرفة السبب الذي دفع بالسيد ليطلبه في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

الرئيس في مكان آمن. لقد خسرنا المستشار.

بقي حافظ الأختام ينظر بصمت

وهل عرفتم كيف تم اختراق الأجهزة الأمنية في القصر؟

للأسف سيدي تبين أن هناك تواطؤاً من داخل القصر، وكذلك من مركز عمليات المنطقة الأولى، الذي لم يكن يقدم معلومات استخبارية

إذن، هناك تواطؤ من الحرس الجمهوري، ومن وحدات مركز العمليات قال السيد:

نعم سيدي، من التحقيقات الأولية كشفنا أنهم تلقوا الأوامر بأن لا يتدخلوا.

ما اسم المتهم الذي ألقيت عليه القبض ؟

اسمه عبد الحق شبيطة المدعو الجبلي، ضابط من المؤسسة القديمة، شارك في الكثير من العمليات منها إحباط عملية قتل الرئيس في سنوات المحنة في الشرق .

أضيف اسم عبد الحق في آخر لحظة بعد ذلك من طرف الجنرال يوم كان يقود مركز العمليات بالمنطقة الأولى. وقد قام هذا العميل يومها بعملية ناجحة جعلته يُقَدَّرُ وسام التميز، ويحوَّل إلى الحرس الجمهوري.

وماذا عن اللواء زروقي مسؤول الأمن الرئاسي؟

لقد ألفت عليه المخابرات القبض في المطار إثر عودته من مهمة بالخارج.

بعد اغتيال الرئيس السابق في سنوات المحنة صار السيد زروقي في رتبة لواء في الحرس الجمهوري مع جماعة أخرى منهم المستشار الحالي للقصر خليفة شيبوب.

شكرا صفر ، يمكنك أن تتفضل.

احتراماتي سيدي. بهذه العبارة خرج المساعد.

هز حافظ الأختام رأسه.

لماذا أقحموا رجلك في العملية؟ سأل حافظ الأختام.

لقد طلبتك سيادة الرئيس لأجل هذا.

التقرير أمامك، عليك أن تقوم بمسؤوليتك، وتنفذ الأمر. زمن الحياذ ولى.

تنفس حافظ الأختام وهو يمسك بالتقرير الذي جمعت فيه كل الفاكسات و المكالمات السرية بين المستشار والسيدة نيكول، وبين منفذي الانقلاب والجنرال. مع اعترافات العميل عبدالحق الجيجلي.

بعد أن قامت المخابرات بالتوقيفات الكثيرة لكل العملاء المناوبين من الحرس الجمهوري. والضباط سامين في الجيش، لم يعد لمجلسي أي صلاحيات! خاصة وأن المسؤول الأول عن أمن الرئيس لا يزال محتجزا عند الجيش! .

عليك أن تتحمل مسؤوليتك لأن القصر سيصدر حزمة من الإجراءات في الجريدة الرسمية، ولا أعرف كيف ستكون نتائجها؟.

ماهو المطلوب مني سيدي ؟ سأل حافظ الأختام بأسى
عليك أن تمنع أي اجتماع يُطالب به أعضاء مجلسك .
حرك حافظ الأختام رأسه .
نعم سيّدي، ثم غادر المكتب.

توقفت سيارة حافظ الأختام في أرضية مرآب الفيلا ، ثم نزل مع مساعده جعفر الذي بدا متعبا، ومندهشا كيف أمكن لأولئك الجنرالات الذين حذر منهم المقدم أن يتجرأوا على القيام بفعل الانقلاب .

بعدهما دخلا معا إلى ردهة الفيلا . التفت حافظ الأختام نحو رئيس الديوان جعفر.

يمكنك أن تذهب الآن يا جعفر، لابد أنك متعب. اذهب لتستريح. أماننا عمل كبير سوف ننجزه غدا.

هز رئيس الديوان رأسه.

سأبقى هنا. لم يبق إلا القليل لبزوغ الشمس.

إذن، تصبح على خير.

صعد حافظ الأختام السلالم متجها نحو غرفته تاركا نائبه جالسا في صالون الردهة.

في اللحظة التي أشعل فيها ضوء غرفته. جاء صوت من جهة الصالون الصغير في غرفته.

يبدو أن ليلتك كانت مرهقة ياسي حسان !

انتبه للصوت وهو يدفع بخطواته . من هناك؟

في تلك اللحظة وقف السيف وراء حافظ الأختام . تقدم سي حسان وأشار له نحو الصالون الصغير للغرفة حيث كان يجلس الرجل الكبير.

تفضل سي حسان جاء الصوت مرة أخرى من الصالون.

تقدم حافظ الاختام بخطى متوترة في اللحظة التي رأى فيها وجه الرجل الكبير. امتععت ملامحه، وأحس برجة عبرت خلايا دماغه. أدرك أن نهايته ستكون على يد هذا الرجل.

ما الذي جاء بك؟ سأل حافظ الاختام.

كنت لا أرغب في زيارتك حينما كان مجلسك يلتزم الحياد. ولكن مادمت قد خنتني فأكيد ستجدي فوق رأسك.

ما فعلتموه الليلة كان أكبر خطأ تفعله مؤسستك؟

ما أدراك أنت بالخطأ، هل أمرك السيد بأن تحاكمنا؟ نحن من جاء بالرئيس، ونحن من وضعناك على رأس المجلس السري، ونحن من نعيدك كما كنت.

ونغيّر الرئيس متى شئنا. قالها الرجل الكبير بعدما وقف متقدما نحو حافظ الاختام، رافعا عصاه، مشيرا بها نحو وجهه. سأسألك أمنيته الأخيرة مسيو حسان.

في اللحظة التي أخذ فيها السيف التقرير من يد حافظ الاختام ووضعته على الطاولة الصغيرة أمام الرجل الكبير الذي استلّ من عصاه سيفاً حاداً. ثم دار فجأة، وحز رأس حافظ الاختام بخطف. مردداً: نحن من ينهي مسارك أيها الرئيس.

تهاوى جسد الرئيس بعدما سقط رأسه، وتدرج على بلاط الغرفة حتى أوقفه السيف بقدمه مثلما يوقف لاعب محترف كرة قدم.

رفعه، ثم وضعه على صدر جثة حافظ الاختام.

وخرجا دون أن ينتبه لهما أحد.

بقي هوارى ينظر في وجه السيد مصطفى الذي كان قد نام على الأريكة بعد أن أنهى حكاياته التي لم يستطع شريكه أن يستوعب كثيرا منها طيلة اليومين السابقين. لكنه بدا معجبا بأفكاره التي أحسها تغلغت بدواخله الصامتة. دوح بكأس خمرته الأخير ناطقا بنوع من الانبهار: والله ياسي مصطفى، أنت مثقف كبير، اليوم اكتشفت بالإضافة لمواهبك في القانون، والتجارة العالمية، أنني أمام مثقف.

انتبه مصطفى لصوت شريكه بعد أن فتح عينيه مرددا يبدو أنني نمت دون أن أشعر !

منذ أكثر من ساعتين، لهذا لم أرد ايقاظك.

تبسم مصطفى بعدما دفع بيده نحو كأسه التي كانت لا تزال تحمل كمية من شراب الويسكي: " اشرب يا شريكي " فما أطل النوم عمرا .. ولا قصر في الأعمار طول السهر "...

ضحك هوارى كما لم يضحك في حياته حتى بانث نواجذه، وضحك معه مصطفى، ثم فجأة أطبق بينهما صمت كبير كما لو أنهما أحسا في نفس الوقت بشيء ما.

وقف هوارى، واتجه نحو المطبخ مخرجا هاتفه، وأجرى مكالمة مع أحد رجاله الذين كلفهم باستقبال العجوز.

في تلك اللحظة نطق مصطفى من صالة الضيوف: نسيت أن أسألك، متى سألتقي بوالدي، مرت يومين دون أن تقول لي عن لقائه شيئا؟

جاء صوت هوارى من المطبخ: سلتني به مساء، أخبرني رجالي أنه يسأل عنك هو الآخر، غدا سأصحبك بنفسى عنده.

ولم لم يأت به رجالك إلى هنا ؟! سأل مصطفى، ثم أضاف : ألم أقل لك
إنني اشتريت هذه الفيلا لأجله.

صمت هواري لبرهة: لم أرد أن أتعبه ، يكفي أنك سمعت صوته وسمع
صوتك.

كان مصطفى متعبا لهذا بالكاد سمع رد شريكه هواري الذي كان
لحظتها يدير في أرقام هاتفه محاولا الاتصال برجله في المدينة

رن الهاتف مرة واحد قبل أن يضغط الرجل ممرا بإصبعه على شاشة
جهازه التي كانت لحظتها تومض برنات متتالية: نعم سيدي ، أوصلنا
الأمانة إلى المكان الذي قلت لنا عنه .

- لا أريد أن يشعر العجوز بأنه محتجز عندكم.

سأصل بكم لاحقا.

ثم أقفل خط هاتفه، وعاد للصلاة حيث كان مصطفى قد غرق في النوم.

نظر السيد نحو النافذة المطلة على الحديقة الصغيرة حاملا في يده كتابا أحمرًا عن قصة (كفاحي) لأدولف هيتلر، بعدما توقف واضعا إصبعه على صفحة الفصل الثاني منه، حيث نهض هيتلر متباطئا، ونادى على سكرتيرته الأمانة فرو جونجي ليملي عليها وصيته السياسية. كان السيد لاحظتها يحس نفسه مثل الفوهرر رغم فارق العمر، بعدما فقد مظهره الأنيق الذي كان عليه منذ ساعة.

قال له مساعده صَفر: إن القصر على وشك الانهيار بعد اغتيال المستشار.

وإن النائب العام قد أصدر قرارا بتوقيف وزير الطاقة، والعديد من رجال الأعمال.

لم يعلق على كلامه، بل راح يطلب منه أن يلغي لقاءاته المبرمجة في ذاك اليوم مع بعض المبعوثين الإيرانيين الذين طلب منهم السيد أن يكملوا جميع الاتفاقات التي بينهم وبينه، بعد أن أوقفوا أعمالهم في مركب عين الابل بعد الضغط الذي تعرضوا له من بعض الأطراف التي جرتهم لقضية وزير الطاقة المتابع في قضايا فساد.

بقي السيد صامتا في الوقت الذي تحدث فيه المقدم عن قرارات الرئيس الأخيرة التي جاءت كلها مناقضة لما كان منتظر.

حرك السيد رأسه . سياسة القصر لن تتغير.

أضاف المساعد صَفر متسائلا بحيرة هل كل ما قمنا به لا فائدة منه!؟

أنتما استمرا في مهامكما ، فنحن لم نخسر الحرب بعد

قالها السيد وهو ينظر نحو الطريق المسدود الذي وصلوا اليه بعد اغتيال رئيس المجلس السري، واختفاء مساعده.

فكر أن رسالته الأخيرة التي حملها الرجل السعودي حاتم عدنان لطرف الأمريكي سيكون لها أثر كبير لأن السيدة نيكول لن تصمت أمام من يهدد مصالح بلدها.

رسالة السيد التي قرأتها السيدة نيكول والتي أشار فيها السيد إلى أن الجانب الفرنسي يبحث عن إبطال كل العقود التي توصل إليها القصر مع الجانب الأمريكي من أجل استغلال الطاقوي مدة خمسين سنة قادمة. مقابل الابتعاد عن التدخل غير المعلن في القرارات السيادية للبلد.

رغم أن السيدة نيكول أبرقت له برقية مستعجلة أبدت له تفهمها للسياسة المحايدة التي تنتهجها الخارجية حول القضايا الإقليمية خاصة المتعلقة منها بالشرق الأوسط. إلا أن السيد بقي متوترا، وغير راض عن عقود الأسلحة التي قال له رجل الأعمال السعودي أن الأمريكيين يماطلون فيها بسبب الضغط الفرنسي.

وكأنه تحقق من أن صمت الأمريكيان بعد اغتيال عميلهم في القصر لن يمر دون أن يجنوا من ورائه مكاسب .

التفت في تلك اللحظة نحو المقدم : لهذا فعملية زينزيبار هي الأمل الوحيد لتوقيف السيدة نيكول، والسيد ساغو وإبعادهما عن القضايا الداخلية والخارجية التي تخصنا.

مادما قطعنا رأس الأفعى في القصر، فلن نستطيع فعل أي شيء في الوقت الحالي أجاب المساعد صفر.

لا نتدفع، ما نتعرض له من ضغوطات على مستوى الخارجية، ليس سوى رسالة بأنهم غير راضين عن التنظيم الذي مارسته الدولة .

حرك السيد أصابعه على كتاب أدولف هيتلر، وبقي ينظر بوجه محتقن نحو واجهة الحديقة قبل أن يلتفت نازعا نظاراته الطبية مستعيدا صورة الفوهرر قبل أن ينتبه لنفسه ويعود بشيء من التوتر للجلوس إلى مكتبه.

لم يشعر بمثل هذا الإحساس الغريب حتى يوم فشل سمير في حماية الرئيس المغتال في سنوات المحنة. إحساسه بالضيق أمام التوترات الأمنية التي تضغط بها المؤسسة القديمة على قرارات القصر زاد في إجهاده الجسدي، والعصبي.

قال له المقدم إنه توصل إلى كشف ارتباطات العديد من الجهات بالرعية الفرنسي. و تأكد من وجود سرٍّ في مقهى العجوز لهذا يلزمه بعض الوقت ليكتشفه.

لقد اختفى العجوز في العاصمة قال المساعد صفرًا للمقدم.

هناك لاعب واحد يحرك اللعبة.

مشكلتنا في العملاء الذين يسربون ملفات الدولة السريّة للأجانب. تدخل المساعد

إذن ماذا تنتظر أجااب السيد ، ثم أضاف لانتس ... أشركك معك مراد دوركال . أما العجوز فلن نستطيع أن نفعل له شيئاً مادام لم يلتق بابنه.

أما أنت سيادة المقدم فأكمل مهمتك، حينما تصل لكشف السرّ لحظتها أنت تعرف أين تتوجه. قالها السيد بنبرة من يسرب آخر كلمة في حياته لهذا وقف المقدم أمامه وراح ينظر إليه.

حظ موفق ابني عطوان ردها السيد بعدما اقترب من المقدم، وعانقه.

سامحني سيدي.

متسامحين بني.

كانت هذه آخر كلمة سرّ بها السيد لأكفأ رجاله الذين عول عليهم لتغيير نظام الدولة الذي استمر لأكثر من أربعين سنة دون أن يقدم شيئا لهذا الشعب.

أراده إخوان الثورة أن يدخل المرحلة الجديدة ليتماشى والتغيرات العالمية والإقليمية بعد سنوات طويلة من الحياد، وإبقاء الدولة في خط متوازن.

بقي شاعرا بالتعب، متحسنا نوبة الأرق التي أضى معها لا يستطيع حتى أن ينام، ولو تلك الساعة التي تعود أن يكسر بها تعبها. حتى القراءة أصبحت عسيرة ومغلقة أمامه، كلما حاول وجد نفسه مشتت التركيزه.

نظر في الوثائق الأخيرة التي تركها حافظ الأختام بعد موته مستعيدا الجملة الأخيرة التي كتبها بعدما أقر بعجزه عن فعل أي شيء أمام الجهة التي توصلت للنظام المعلوماتي الذي تُسيّر به الدول دواليبها.

زفر السيد بصعوبة وهو لا يزال وجهه معلقا نحو السقف .

مستعيدا صوت حافظ الاختام بعد أن قال له بغضب حذرناك من خيانة أعضاء مجلسك، لكنك لم تنصت !

رد حافظ الأختام: الدولة أستمسخت. وأنه لم يعد يعرف إلى أي جهة يميل مجلسه.

صمت دون أن يجيبه .

إن كانت الحرب بين الأجهزة قد بدأت ! فلماذا علينا أن نصمت سأل المساعد صفر السيد الذي بقي صامتا، ثم أضاف نحن نعرف من قام بمحاولات الانقلاب ومن يحرك الجنوب، ويحرك هذه الخلايا. ويحرك

مظاهرات حركة (بر كانه)، لكننا نحتاج لمعرفة من يحركهم ويحرك
خيوط اللعبة .

بقي السيد صامتا، ثم نطق لا يمكن أن نغامر بالدولة.

كانت المغامرة الأولى التي أراد السيد أن يخوضها في استراتيجية
إخوان الثورة في تغيير النظام هي تجديد هيكله مديرية المخابرات
بتقجير أنظمتها القديمة، وشطب مؤسسة مكافحة التخريب من هيكله
الأمن السري بعد أن تورطت في أعمال إجرامية، وأعمال خارج
القانون، وتواطؤ قياداتها مع الأجانب. لكنه كان يريد إثباتا لكل ذلك.

أعادت الصورة لذهنه صور التصفيات التي قامت بها أجهزة الأمن
السري أيام الاستقلال الشيء الذي جعلها تعطي نتائج عكسية فقد البلد
على إثرها رجالا لا يمكنه أن يعوضهم.

خطأ بسيط قد يكلفنا كل ما بنيناه في مائة عام قالها محدثا نفسه قبل أن
يُغلق كتاب الفوهر، و وضعه بتوتر في رف الخزانة الصغيرة التي
رُتبت فيها مجموعة من الكتب الخاصة بذكرات بعض السياسيين، و
العكسرين الذين بدأوا يدخلون هم أيضا خط الحرب الخفية لأجل
العودة للقصر بعد أن فشلت محاولة الانقلابيين.

كان يدرك أنهم لن يقولوا ويظهروا إلا الوجه المضيء من تاريخهم،
لهذا كان كلما قرأ كتابا من كتبهم ملاءه بخطوط ملونة بالبند العريض،
وأضاف إليه بعض ملاحظاته على الهامش، متدحسا أن الكثير منهم لم
يكن في نيته كتابة التاريخ بحقيقته، بل كان يريد إبعاد تهمة الانتقام عن
نفسه. قال في سرّه : ماذا لو لم يكن كل واحد منهم أنانيا؟ أكيد كانت
أشياء كثيرة تغيرت !

أحس بحسرة تملأ جوفه، وهو يقف أمام الخزانة الصغيرة، محدقا في
الكتب التي تراصت في تناسق جميل. طالما فكر أنّ لكل كتاب وضعية
معينة، ومكانا خاصا حتى يكون له معنى، لهذا وضع كتاب الماين

كامبث بعيدا عن كتب السياسيين الحمقى، الذين لم يفكروا سوى في أنفسهم، وأموالهم التي سرقوها من خزينة الشعب.

أعاد يده متلمسا دقته، ثم ارتمى على كرسيه ضاغطا بإصبعه على الزر. ثم راح يجذب إليه ملفا من الملفات الملقاة على مكتبه التي كان بعضها مفتوحا منذ أن وصلته صبيحة ذاك اليوم. حمل واحدا منها بعدما قرأ على ظهره سري جدا، خاص بالمؤسسة القديمة. فتحه قبل أن يسمع طرقا على الباب الذي انفتح على رجل خمسيني بلباس مدني كما لو أنه كان ينتظر أمر دخوله. قبل أن يلقي التحية العسكرية المعهودة، راح مرددا: تحت أمرك سيدي. تعال، سيادة الرائد سعيد، هل أوصلتم أمري للعميد تلمساني؟ سأل السيد الرائد دون أن يرفع رأسه من على الملف الذي راح يقلب في أوراقه. نعم سيدي، كل شيء تمّ حسب الخطة (أمقردة)

وقف الرائد جانبا وركن إلى الصمت ينتظر لعل السيد يضيف أمرا آخر.

أريدك أن تُسلم هذه الرسالة حينما يحين الوقت لأصحابها.

حرك الرائد يده بارتجاف وهو يمسك بالرسالة التي وضعها السيد في مغلف أسود مشمع بالختم الجمهوري. ثم استأذن بالخروج.

في تلك اللحظة دخل المساعد صفر.

سيدي لقد سافر عدنان للمدينة رغم تحذراتنا له .

رفع السيد رأسه:

أرسل للمقدم بأن يرسل له أحد عناصره لحمايته دون أن يشعره بذلك. وأن يراقب الديك في المدينة.

في الجهة الأخرى من المدينة جلس المقدم في مكتبه يفكر فيما حدث في العاصمة بعدما أطلعته السيد على المراسيم التي كان سيعلن عنها القصر في الجريدة الرسمية قبل أن يحدث الانقلاب الفاشل .

— مرسوم يقضي بحل الشرطة القضائية لجهاز الاستخبارات، مع إلغاء الوجود القانوني لهذه المصلحة التي تتمتع بصفة الضبطية.

إلغاء مصلحة التوثيق، و مراقبة الصحافة.

إعلان التقاعد وإنهاء المهام لعدد كبير من الضباط السامين في الحرس الجمهوري، وفي الجيش، وجهاز الاستخبارات.

كيف استطاعوا أن يعرفوا بهذه القرارات قبل أن تصل لحافظ الأختام الجديد؟

أغلق السيد مسودة القرارات المقترحة من القصر وراح يفكر دون أن يجيب المقدم، ناظرا نحوه.

هناك يد خفية تتحكم في النظام المعلوماتي الذي نتعامل به مع القصر. ثم أضاف له لهذا طلبتك عليك أن تتصل بالرائد سعيد سيزودك بمعلومات عن عجوز المقهى، وإبنة قد تساعدك المعلومات الأخيرة التي توصلت إليها وحدته في مهمتك بالمدينة.

عجوز المقهى اختفى. لقد وجدت وحدات الشرطة رجال السيد هواري مقتولين أمام شركته في سطاولي أضاف السيد

هل تكون المؤسسة القديمة وراء اختفائه .

لا أعتقد!

وماذا عن مصطفى سأل المقدم.

لقد أصدر النائب العام مذكرة باعتقاله مع شريكه السيد هوارى، والكثير من رجال الأعمال.

في تلك اللحظة سمع صوت طرق على الباب، ثم دخل الملازم.

الطبيب جبريل ينتظرك في المستشفى مع الوالد.

نعم، كدت أنسى موعد تحاليل الوالد الطبية.

خرج المقدم من مكتبه يتبعه ملازمه المخفي متجهين نحو المستشفى.

بقي السيد هوارى جالسا ينتظر في بهو الفيلا حتى يأذن له السياف ليدخل على الرجل الكبير بعدما جيء به مغمض العينين في ذاك الصباح الباكر.

جلس الرجل الكبير يفكر في العبارة التي قالها له في الهاتف السيد ساغو ليلة البارحة، والتي أعاد فيها تهديده له بأنه سوف يتصرف مادامت كل أعمال المؤسسة ناقصة.

صمت، ثم أجابه : حينما تصرفتم بدوننا. أنتم تعرفون ماحدث لكم !

بدأ يدور بين أصابعه قداحة صغيرة كانت على طاولة مكتبة، مستعيدا بتوتر كيف خذله خليل الصافي، وجعل أصدقاءه الفرنسيين يثيرون، ويحملونه فشل علاقاتهم مع القصر. وحتى في محاولة الانقلاب الفاشلة.

لهذا أعاد تفكيره نحو وثائق المقهى.

حرك كل الأجهزة الأمنية التي كان يتحكم فيها رجاله بداية من جهاز الأمن الذي كان يديره ذراع الأيمن السياف الذي تمكن من تنظيف ماحدث بالقصر. بعدما أعلم الرجل الكبير بأن شرطة العميد تلمساني دخلت في خط المواجهة.

أغلق الرسالة، ثم رفع الهاتف، ونادى على السياف.

دخل السياف .

هل التقى الجنرال بالنائب العام ؟

نعم سيدي.

جيد. سوف يقوم بالخطوة التي ستجعل من السيد ساغو يجنّ.

صمت السيف في اللحظة التي أضاف له الرجل الكبير.

عليك أن تتعقب كل مكالمات وحدة سمير. أريدكم أن تحددوا المكان الذي يستقر فيه هذا الرجل. وراح يسلمه صورة التقطها. ثم ردد حاضر سيدي. ولكن ماذا عن لواء شرطة؟

لا تشغل بالك به، ستصله رسالتنا قريباً.

فكر الآن في اجتماع أعضاء المجلس الجديد. سنتحرك وفق خططنا السابقة، وسنمنع اجتماعهم.

حرك السيف رأسه . وماذا نفعل بالسيد هواري؟

أدخله.

خرج السيف وبقي الرجل الكبير يمسك بين أصابعه سيجارة بعدما أخذها من علبة دنهل صغيرة، ثم أشعلها وراح ينظر نحو النافذة بانتشاء .

جلس العجوز على كذبة جلدية في غرفة قال له الرجل الغريب الذي استقبله إنها المكان الذي سيلتقي فيه بابنه مصطفى، ثم تركه لأكثر من ساعتين منتظرا دون أن يكلمه أحد. حينما أحس بملل يتسرب نحوه نادى على الرجل الذي وقف خارج الباب: ألم يصل ابني بعد؟ كررها دون أن يسمع أي رد.

نظر الحارس لزميله الذي كان يرد على مكالمة هاتفية بعد أن رد على المتصل بعبارة : حاضر سيدي. ثم أغلق هاتفه، ناظرا إلى زميله. علينا بأخذ العجوز إلى مكان آخر .

أحس العجوز بلقلق وهو يسأل عن ابنه الذي كان قد سمع صوته عبر المكالمة حيث توقفت السيارة التي كانت تنتظره أمام بيته في ذلك المساء بعد عودته من منزل بلخوش. سأل الرجل صاحب النظارة السوداء إن كان يرغب في سماع صوت ابنه، ثم فجأة أخرج له هاتفه ووضعه في أذنه. سمع لحظتها صوت مصطفى يردد: أرسلت لك سيارة كي تأتي فيها للعاصمة. إنني انتظرك. زالت حينها كل شكوكه وهو يصعد السيارة دون أن يدري بعدما أغلق الرجل هاتفه، وردد وهو يشغل محرك السيارة : هل تأكدت الآن بأن ابنك في العاصمة؟

نظر إليه العجوز : بلى ! لكن ألا تتركني أحضر حقيبة سفري. أوماً الرجل : ليس ضروريا، فالسيد مصطفى ينتظرك بشوق.

اقترب أحد الرجلين منه وراح يمسكه من ذراعه مثل مجرم.

أدرك لحظتها أن وجوده في العاصمة لم يكن سوى فخّ نصب له، وأنه صار في قبضة رجال من الأمن العسكري، تأكد من ذلك بعدما سمع الرجل يردد عبارة حضرات في كل مرة يرن هاتفه.

تردد الرجل الثاني الذي كان يقف في العتبة ناظرا في وجه زميلة الذي كان يجذب العجوز من ذراعه بالقوة. كيف يمكنك أن تقنعه بأن يذهب معنا إلى مكان آخر؟

إمش ياخي (كافي) !، علينا بتنفيذ أوامر السيف.

أحاط الرجلان بالعجوز الذي ثبت ناظريه فيهما : أدرك أن ابني لن يحضر إلى هنا، وأنكما تريداني قتلي، لهذا إفعلا ما أمرتما به، ولا تتركانني أنتظر.

ضحك الرجل الأول . لا تقلق أيها العجوز، لم نؤمر بعد بقتلك، ستذهب معنا لمكان آخر أعتقد أنك ستلاقي ابنك هناك.

في تلك اللحظة توقفت شاحنة صغيرة سوداء ونزل منها مجموعة رجال ملثمين.

استفاق مصطفى مخلوعا على صوت رنين هاتفه، قبل أن ينظر بجانبه باحثا عن شريكه هوارى، فلم يجده. التقط جهاز هاتفه الملقى على الطاولة الزجاجية بتناقل و رد مسترجعا أنفاسه بعد أن أحس بإحساس رهيب وبصداع يشق رأسه.

" نعم ، أسمعك !

" يريد والدك أن يلتقي بك جاء الصوت من بعيد .

نعم، أين هو؟ " رد مصطفى بلهث

ستأتي إليك سيارة من نوع فوغزفن رمادية، ستوصلك إليه. ثم انقطع الخط.

نظر الرجل الكبير نحو السيد هوارى بعدما أمر السياف بقطع المكالمة على السيد مصطفى، ثم قال وهو ينظر ناسفا في دخان سيجارة دنهل : أعتقد أنك أنجزت المطلوب مسيو هوارى. عليك الآن أن تعود مطمئنا لوهران. ثم التفت نحو السياف مشيرا له كي يهتم بمصطفى منصور.

نعم سيدي !

في تلك اللحظة خرج هوارى مع حارسين بقي يمسكانه من ذراعه مغمض العينين حتى أركباه سيارة الهامر، وفي رأسه بدأت تدور عاصفة من الأسئلة عن كلام الرجل الكبير الذي لم يقل له شيئا بخصوص وعده بالانضمام لمجلس العائلة. كان يدرك أنه إن عاد إلى وهران في هذا الظرف فلن يستطيع التحرك، ولا العمل بل سيبقى متخفيا مادام قد أنزل اسمه في لائحة رجال الأعمال الذين يبحث عنهم النائب العام.

في تلك اللحظة نظر السيف في وجه الرجل الكبير الذي التقط قلم الرصاص من على مكتبه، ثم راح يكسره أمام عيون السيف. هذه هي الإجابة عن حيرتك، ثم أردف نحن لا نمضغ اللقمة مرتين.

هز السيف كتفيه بعد أن أدرك أن هوارى أضحى خارج اللعبة، وحياته أصبحت مسألة وقت فقط، هذا إن لم تُلقِ عليه وحدات الشرطة القبض في أول حاجز أمني في طريقه إلى وهران خاصة بعدما أعلمه سعيد الأصافي أن العجوز قد وجد من يسانده في المدينة، وأنه من الممكن أن لا ياتي لمقابلة ابنه في العاصمة. كما أن رجال هوارى لم يجدوا أي وثائق سرّية في سقيفته.

ركب هوارى سيارته بعدما تركه رجال السيف على جادة الطريق الفرعي المؤدي لطريق الاسيار بعد أن أحضروا له سيارته، وطلبوا من سائقه أن يعود به إلى وهران. في اللحظة التي شغل فيها السائق شاشة التلفزيون الصغيرة في السيارة. كان مذيع القناة الفضائية يعلن عن خبر: إقدام الجنرال بوزازة قروي صبيحة ذاك اليوم على تقديم إفادته للنائب العام بالعاصمة ، بعد أن كشفت مصادر مطلعه أن القصر أمر بفتح تحقيق ضد عدد من رجال الأعمال، والجنرالات المتقاعدين بتهمة تشكيل منظمة لأعمال غير قانونية كتهريب السلاح، والمخدرات، والمشاركة في التخابر مع دول أجنبية. خلال التحقيق وقف النائب العام عند قائمة ضمت أسماء من بينهم الجنرال بوززة، وبعض زملائه في ميدان العمل .

رن هاتف هوارى في اللحظة التي كان يفكر فيها أنه قد انتهى، وأن كلمات الرجل الكبير بدت كما لو أنها دقت آخر مسمار على نعش حلمه بالدخول إلى مجلس المؤسسة، وأن كل الخدمات التي قدمها لهم لم تشفع له، لهذا لن يستطيع فعل أي شيء كما أنه لا يمكنه الوصول لمقرهم حتى وإن أراد، وكل الوعود التي كان يردد ها السيف على مسمعه لم تكن سوى وهم جعله يُقدم على خيانة شريكه مصطفى.

حرك أصابعه متلمسا مسدسه، ثم طلب من سائقه التوقف جانبا قبل أن يصل إلى الطريق الأسير. عليك بالبقاء هنا بالعاصمة ! قال مخاطبا سائقه العاصمي.

سيدي ! كيف يمكنني تركك تسافر لوحك ؟ سأل السائق وهو يتفرس بغرابة في وجه سيده في المرأة العاكسة .

عليك أن تعود، قلت لك !

فتح هوارى باب السيارة، و أنزل السائق مرددا: قلت لك عد إلى العاصمة سأذهب لوهراى وحدي .

أقلع هوارى بسيارة المرسيدس لوحده عبر الطريق السيار عائدا إلى وهران . فى تلك اللحظة أدخل يده فى جيبه الداخلى مخرجاً جهاز هاتفه، ممراً أصابعه على رقم شريكه. خط مراسلك مغلق أو خارج مجال التغطية. ردت صاحبة الصوت الأنثوى. اللعنة عليك. وعلى رب الاتصالات !

أعاد مرة أخرى تشغيل الرقم، كانت نفس الرسالة الصوتية تتكرر.

ربهم ! قالها بتوتر قبل أن يغلق هاتفه. فكّر أن عليه أن يكتب رسالة.

أوقف السيارة جانبا، ثم راح يحرر فى رسالة sms قصيرة إلى شريكه، يطلب فيها منه أن يسامحه، ويحذره من الرجال الذين سيصحبونه إلى الرجل الكبير. وأن والده إن حضر للعاصمة فيسأخذونه عندهم كرهينة .

« انتظري ! " قال عطوان لأمه التي كانت لحظتها تفكر في حيرة زوجها بعد أن قال له الطبيب جبريل أنك تحتاج لعملية جراحية.

عبر عطوان الردهة قبل أن يبصر وجه عمّه يلهث من وراء الباب.

ماذا فعلت أيضا ! قالها عطوان في سرّه بعدما سمع صوت عمّه يزداد حدّة من وراء الباب. أجري ياولدي عطوان لقد خطفوا العجوز، و أحرقوا الهيسوف المسكين في المقهى !

فتح عطوان الباب مدهوشا قبل أن يطلب من عمّه أن يهدأ، ويعيد عليه ما حدث بالضبط.

نظر بلميلود بنوع من الازدراء نحو عمّار الذبية مبتعدا عن الباب الذي بقي أمامه واقفا يشدُّ رأسه قبل أن يدخل بينهما بلخوش مادّا يده مُشرّعا دفة الباب وراح مقتربا من أخيه : ما الذي تقوله يا عمّار، واش اصرى !

لقد أحرقوا مقهى العجوز أجاب عمّار وهو يتجاوز العتبة، راميا بخطواته في ردهة البيت قبل أن يسمع صوت شريفة تطلب منه أن يجلس على الكرسي الذي وضعت له أمام عتبة الرواق، وهي منقبضة تسأله عن العجوز. حرك وجهه مستعيدا أنفاسه:

لا أعرف شيئا عن العجوز. قالها ثم راح يحكي لهم عن الذي وقع له.

كنت عائدا المستشفى إلى البيت حينما مرت بي سيارة يركبها رجال غرباء عن المدينة، قبل أن يلتقاني ابني عبد المالك وهو يصرخ: بابا بابا جاءنا رجال يسألون عنك.

ثم أضاف وهو يلهث مشيرا نحو تلك السيارة التي اختفت لحظتها من الشارع: أصحاب تلك السيارة طرّقوا بابنا وسألوا عنك. ثم أضاف.

كنت ألعب في زنقة الحي فناداني أحدهم وأعطاني هذه الشيكولا المكورة، وقال لي " لو أخبرتني أين أجد والدك، سأعطيك العلبة كاملة بعدها أطلت أمي من الباب، وبدأت تتناديني، فهربت من يد الرجل بعد أن قالت له أمي إنك في مقهى العجوز. وضع الرجل الغريب نظارته الشمسية على عينيه، وقال لأمي إن لم نجده فسنعود.

أضاف بعد أن جاءته شريفة بكأس ماء التقطه برجفة من يدها، وكرعه كاملا، ثم تنفس. تبعتهم إلى المقهى فوجدت سيارتهم متوقفة، يقف أمامها رجل يرتدي كوستيم، وربطة عنق، لاحظتها أدركت أن هؤلاء يريدون بالعجوز شرا.

ولماذا يريدون به شرا نطق بلميلود. العجوز سافر !

حرك رأسه غير مبال بسؤال بلميلود الذي أضاف وهو ينظر بنصف عين نحو عمار الذببة . لا بد أنهم يريدون شيئا آخر. نطق بخوش: (اسكت علينا يَرْحَمُ والديك يا بلميلود، خيلنا نسمعوا ما الذي حدث في المقهى).

عندما دخل صاحب ربطة العنق إلى المقهى، والتحق به مرافقه الذي كان يراقب المكان. فكرت أن ألتف خلف المقهى لأصل إلى باب السقيفة الخلفي. هناك سمعت جلبة داخل السقيفة ، قرّبتُ عيني من فُتحة بابها فرأيت النادل الهيسوف يصرخ، ويردد أمام أحدهم بأنه لا يعرف شيئا. كان الرجل يضربه على وجهه بعد أن قام رجل آخر بشدّه على الكرسي. سمعته يسألونه عن الوثائق، وعن أشياء لم أفهمها، وبعدها سمعت صوت رفش كما لو أنهم كانوا يقلّبون أرضية السقيفة من مكانها. في تلك اللحظة رن هاتف أحدهم، وفجأة انصرفوا. بعدها سمعت صرخة الهيسوف المسكين، وأريت لهيب النار يتصاعد داخل السقيفة. فتراجعت هاربا، وحينما رأيت بعض الشباب يصرخ جهة شارع الحقيقة بأن مقهى العجوز قد احترق، التحقت بهم فوجدت ولد الغربي قد أخرج الهيسوف ومدّه على الرصيف بعدما فقد أنفاسه من أدخنة النيران. كان يردد بوجهه المحترق: الحقوا العجوز حتى بعد أن نقلته

سيارة الإسعاف للمستشفى. طوق رجال الأمن مع المحافظ سليم المنطقة. وأنا تسربت من بينهم وجئت لأعلمكم.

قال عطوان بعدما هز رأسه أنت ابق هنا في البيت حتى أعود ، ثم خرج ومعه بلميلود.

في الطريق كان عطوان قد اتصل بالمخفي الذي التقى به في الشارع الرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة. قال المخفي لعطوان إنهم رجال الأجنبي.

لقد تعقبتهم وهم يتجهون نحو قاعدة (كنا غاز) التي يشتغل فيها الأمريكيان والفرنسيون. التفت عطوان جهة بلميلود: عليك أن تعود للبيت وتحضر عمي معك. أنا سأذهب إلى المستشفى مع المخفي، وسنلتقي في المكتب.

بقي السيد ساغو يدور في مكانه في اللحظة التي رن فيها هاتفه .

عليك أن تسلمنا العجوز .

حاضر .

أين تريدون استلامه ؟

سنرسل من يأخذه من عميلك.

أغلق السيد ساغو هاتفه بعدما تجمد الدم في ركبتيه. قال في سرّه يبدو أنهم يريدون تغيير خططهم.

فتح هاتفه وكلم عميله قسطنطين.

نظر مصطفى إلى ساعته بعدما بقي جالسا على الأريكة ينظر بحيرة متسائلا عن الصوت الذي كلمه في الهاتف وقال له أن سيارة ستأتي إليه لتتقله ليرى والده. بقي ينتظر أصحاب المكالمات لعلهم يعاودون مفاوضاته لكن بدون جدوى. حوّل نظريته نحو أرجاء الصالة كمن ضاع منه شيئا، باحثا عن جهاز الريمو كنترول، وحينما رآه مرميا تحت شاشة البلازما قام بصعوبة والتقطه، ثم ضغط على زر التشغيل. قال في نفسه لعل الوقت يمر بسرعة حتى يحضر هؤلاء الملاعين . فجأة أطل صوت مذيع يتحدث عن حادث خطير وقع في الطريق السيار.

" وقع صباح اليوم حادث خطير في الطريق السيار قرب مدينة بوفريك، سيارة من نوع مرسيدس ترقيم ٣١ يقودها رجل الأعمال المعروف السيد هوارى بن سعود الذي وافته المنية في عين المكان، تعود أسباب الحادثة للسرعة المفرطة حسب شهود عيان بعد اصطدامه بشاحنة لنقل البضائع.

صعق وهو يسمع خبر موت شريكه. شدّ رأسه، ثم ضغط على زر غلق الشاشة، مديراً وجهه كما لو أنه غير مصدق. حرك ناظريه بهلع محاولاً البحث عن جهازه الخلوي الذي كان لاحظته ملقئاً على الطاولة بعدما كان قد انطفأ جراء نفاذ الشحن. التقطه وراح يبحث عن حقيقته الصغيرة التي أبصرها بجانب البراد. اتجها نحوها. فتحها، وأخرج بطارية شحن جديدة، ركبها في جهازه، ثم أعاد تشغيله بتوتر. كانت صورة شريكه تضغط على تفكيره. بدأ وميض رسالة جديدة، ثم تلتها رسالة ثانية، ثم ثالثة. حرك أصابعه، فاركأ عينيه بذهول لوجود كل تلك الرسائل.

فتح الرسالة الأولى و بدأ بقراءتها: من رقم زوجته سوزان.

أتمنى أن تكون التقيت بوالدك. منذ وصولك للجزائر، وأنا أحاول أن أكلّمك. أتمنى أن تكون بخير. حبيبتيك وزوجتك سوزان ديمتري.

الرسالة الثانية نفس الرقم بعدما مرت عشر ساعات على الرسالة الأولى. أرجو أن تطلبني حينما تصلك هذه الرسالة لأمر هام. زوجتك سوزان ديمتري.

الرسالة الثالثة: رقم السيد هواري.

سامحني سي مصطفى، لقد خنتك. والدك في قبضة الرجل الكبير. أما أنت فعليك أن تعود للكسمبورغ يريدون تصفيتك، أو إدخالك السجن. سامحني. شريكك هواري بن سعود

شدّ رأسه، متنفساً بصعوبة، ثم أخرج زفيراً كما لو أنه أحس بسقف العالم ينهار فوق رأسه، لاحظته أحس بصوت أحد رجال الحراسة الذين كلّفهم شريكه بالبقاء في الفيلا وحراسته قادم نحو الصالة. عاد مسرعاً إلى أريكة الصالة. جلس، وكأن شيئاً لم يحدث. كان الرجل يدرك أن الوقت قد حان إن لم يحضر رجال السيفاء فعليه أن ينهي العمل الذي كلّف به.

في تلك اللحظة رن هاتف الرجل الذي كان قد أخرج مسدسه من خصره. أعاده لخصره، ثم أخرج هاتفه وراح يرد :

نعم سيدي.

لا يزال هنا .

انتهت مهمتك.

حاضر .

تنفس الرجل صاحب ربطة العنق كما لو أنه أزاح حملاً ثقيلاً عن كاهله ثم قال لمصطفى بعدما وقف فوق رأسه. تَهَيَّأْ، لقد جاءت السيارة التي ستقلُّك إلى والدك.

في تلك اللحظة توقفت ثلاث سيارات للشرطة أمام الفيلا، وقامت بمحاصرتها قبل أن يدق الضابط المكلف بالقبض على السيد مصطفى.

فتح الرجل صاحب ربطة العنق الباب وهو متفاجئ بوصول سيارات الشرطة التي لم يكن ينتظرها.

زاد ضابط الشرطة في حدة طرقة على الباب.

فتح صاحب ربطة العنق. دون أن يقول شيئاً راح مفرجاً عن بطاقة هويته المخابراتية مشيراً للضابط : إنه بالداخل.

دخل ثلاثة رجال من عناصر الشرطة، وألقوا القبض على مصطفى الذي وقف مذهولاً، وهو يبصر صاحب ربطة العنق ينسحب خارجاً من باب الفيلا. أراد أن يصرخ، ويقول للضابط الذي أمر رجاله بتكبيله إنهم مخطئون فهو رجل أعمال معروف لكن الضابط ردد عليه قل ما تريده للسيد النائب العام.

بعد قضايا الفساد و الاعتقالات الواسعة التي مست كثيرًا من رجال الأعمال الذين قالوا إنهم من رجالات الرئيس كما تحدثت عنها وسائل الإعلام، وتداولتها النخب العاصمية بعد التحقيقات القضائية التي أعلن عنها النائب العام في كل وسائل الإعلام. بدأ الجميع ينظرون بريية لسياسة الحكومة، وللتسيب الذي مس كل الوزارات.

خرج البعض للتظاهر ضد القصر، وبدأ البعض الآخر يلعن أداء الحكومة عبر الصحف، ويحذر من مصير البلد الذي بدأ يدخل في دوامة مجهولة.

كان هذا حال النخب في العاصمة، و القادم أغلبها من المدن الداخلية أو القرى المحيطة بجبال جرجرة، والونشريس التي جمع مُتدَلِّي البطن بعضها في حركة أطلق عليها اسم (بركانة)، وراح يحدثهم عن الدور الذي يمكن لهم أن يلعبوه في المرحلة القادمة.

قال رئيس الحركة. سنكون في الموعد مسيو بهاء. فقط أنتم عليكم بدعمنا إعلاميا. سنغيّر هذا الفساد الذي جاء به الرئيس.

افعلوا أنتم ما هو مطلوب منكم، ونحن سندعمكم إعلاميا .

شكرا.

شكرا لكم . ثم أخذه على جانب، وقال له أمسك هذه الحقيبة. أريدك أن توزعها على مناضلي الحركة.

شكرا سيدي قالها رئيس الحركة منكسا رأسه، ثم خرج من الباب الخلفي للمكتب.

بعد أن اتخذت كل الإجراءات الضرورية، وتمَّ الاتفاق على الخروج للشارع، خرج أولئك المعارضون الذين لا ينتمون لأي حزب، بعد أن اطمأنوا أن السيد بهاء يقف بترسانته الإعلامية في صفهم خاصة بعد المضايقات التي أصبحوا يتعرضون لها في كل مظاهرة سلمية كانوا ينظمونها في العاصمة.

جلس متدلي البطن في مكتبه يفكر بعدما أنهى اجتماعه مع إدارات حركة (بركانة).

كل الذين كانوا يشعرون بتدمير من الطبقة السياسية، ومن الفساد الذي تورط فيه الجميع أصبح معني بهذه الحركة، و صار يفكر مثله مثل كل السياسيين كيف يستعيد ما فقده جراء التحولات الاجتماعية، والسياسية التي أدخلت البلد في نظام متوحش، وهجين .

هؤلاء من سيضربون القصر في مقتل .

التحقيقات التي أعلن عنها القصر سيدفع ثمنها قال السكرتير.

هز متدلي البطن رأسه. دعنا نرَ أولاً ماذا سنفعل في اجتماعنا مع شركائنا.

نظر إليه سكرتيه:

إنهم ينتظرونك.

هل حضر الجميع ؟

نعم سيدي.

غمغم متدلي البطن تحت أرذبة أنفه، وهو يقف من على مكتبه متجهًا نحو قاعة الاجتماعات التي كان ينتظره فيها شركاؤه من الأعضاء المساهمين في مجمعه الإعلامي.

بدا على الجميع نوع من التدمير بعد أن أدخل متدلي البطن مجموعهم الإعلامي في صراع مباشر مع القصر، متحسّسين أن البلاد بدأت تأخذ منحرجاً مخيفاً بعد حوادث الاغتيالات التي صارت حديث الناس في الشوارع، والمقاهي وأصبح الكل يرجعها للصراع المحتدم الذي صعد إلى السطح بين أجنحة السلطة. وأصبح كشف الملفات هو وجه الظاهر لذلك الصراع. تحدث راديو الطرطورار عن وقوع تراشق بالنار بين وحدات الأمن العسكري في محيط القصر. لكن لا جريدة من الجرائد سواء الحكومية، أم المعارضة ذكر ذلك أو أشار إليه. تحدثت القنوات الأجنبية التي تكره هذا البلد عن هدوء يسبق العاصفة.

رائحة الفساد التي صرنا ننشر غسيلها بدأت تزكم سماء العاصمة قالها متدلي البطن وهو يمص شواربه.

ثم أضاف مثلما هي بيضاء هي قبيحة هذه (المزغنة).

ضحك الرجل الملتحي. (قلنا لكم طبقوا الشريعة تهنونا، وتهنو رواحكم).

ألم يحرم عليك الجنرال التحدث في السياسة ياشيخ؟

حرك الملتحي رأسه. فلينفذ الجنرال رأسه من حبل المشنق أولاً. ثم أضاف من ذا الذي يمنعني من الحديث. اتفقت مع الدولة كي أصمت لأجل الوطن إلى حين.

عض السكرتير على شفته وهو يوزع جدول الأعمال على أعضاء المجلس في الوقت الذي أطبق الصمت على قاعة الاجتماع.

أرجو من سيادتكم أن تصوتوا لسياستنا الجديدة التي سنسلكها في المرحلة القادمة لأننا على موعد مع استحقاقات برلمانية.

رفع الجميع أيديهم موافقين على المقترحات لكن صاحب اللحية الزرقاء لم يرفع يده. بقي صامتا، ثم نطق

لماذا قلصتم من البرامج الدينية في القناة؟

تدخل رجل كان بجاذبه: أعتقد أن القناة التي يديرها عناصر من جماعتك تكفي يا شيخ.

أنتم تريدون تجريد هذا الشعب من هويته، وأنا لست موافقا على هذه المقترحات.

أضاف آخر: علينا أن لا نختلف. أولا نحن مؤسسة تجارية في المقام الأول ولسنا مؤسسة عمومية. و المقترحات تتماشى مع المرحلة، ولا يمكن لعاقل أن يرفضها، ولكن كلام الشيخ في محله.

لماذا تريدون المواجهة المباشرة؟ منذ بدأ مجتمعنا، ونحن نقف مع القوة التي تحكم هذا البلد ! أضاف آخر كان بجانب صاحب اللحية الزرقاء متسائلا.

في تلك اللحظة بقي متدلي البطن ينظر نحو شركائه دون أن يتدخل بعد أن احتدم النقاش بينهم.

بعد أن صارت في أيدينا لاتخف ميسو بهاء جاءه الصوت من داخله متذكرا صاحب المكالمة الذي دعاه البارحة لاجتماع سرّي، بعد أن قال له هي فرصتك كي تنظم للعائلة، وتلتقي بنا بعد أن أثبتت ولاءك، وخدمتك للبلد.

يكفي أنك قمت بالمطلوب، وزرعت الخوف في قلوب مشاهدي قنواتك، وقرأ جرائدك التي صارت تملأ الأكشاك في العاصمة.

كان كل يوم يصدر خبرٌ جديدٌ عن قضية فساد في المؤسسات الكبرى يورط فيها أحدا من رجال القصر.

أرجو من سيادتكم قليلا من النظام. أتفهم كل انشغالاتكم، ولكن عليكم أن تعلموا أن سياستنا في الجريدة، وقنوات المجمع قد أتت أكلها. البارحة فقط أصدر النائب العام مذكرة لتوقيف وزير الطاقة قال متدلي البطن.

أضاف آخر: واليوم فتشت الشرطة القضائية مكاتب شركائنا، و ألقت القبض على بعضهم، لم تترك أي مكتب من مكاتب أصدقائنا لا تنسى هذا !

المهم أن شركائك، وأعمالك مسيو علي لم يمسهما أحد.

هز الرجل رأسه: بلى، ولكن...

التفت متدلي البطن نحو صاحب اللحية الزرقاء الذي أراد التدخل بعدما أشار لسيد علي بالتوقف.

عليكم أن تعلموا أن الطوفان قادم، وسيغرق كل رجال القصر، والذين يخدمونه، وسيسقط كل من وقف ضد حرية الصحافة قال متدلي البطن وهو ينفخ في سيجارة الهافانا في وجه المتلحي، ثم أضاف

أنت ربما كنت غائبا عن الأحداث التي وقعت يا شيخ. لكن عليك أن تعلم أنك شريكنا في كل القرارات التي اتخذناها، والتي سنتخذها من اليوم فصاعدا لصالح المجمع. بالأمس وسخنا كل من له صلة بالقصر من رجال الشركات الكبرى إلى أبسط مدير وكالة بريد بقرية مهملة، ونحن مستعدون اليوم لنفعل أكثر من ذلك. لهذا دع الدين الذي تتاجر به جانبا.

قالها بصوت صارم، ثم التفت نحو شركائه الذين بدوا يتهمسون فيما بينهم. عليكم أن تختاروا إما أن تستمروا في هذا الطريق معنا، إما أن تنسحبوا؟

أدار صاحب اللحية الزرقاء رأسه، وكأنه غير مهتم بمقاله متدلي البطن، وراح مخرجاً جهاز هاتفه الكبير، وبدأ يقلب في أيقوناته .

في المدينة كانت مجموعة من الشباب المتدمر يجوبون الشوارع، و المقاهي ويلعنون رؤوساء المؤسسات مرددين اسم ولد الغربي الذي تحوّل إلى كومة من نار منذ حادثة المقهى، وإحراق النادل الهيسوف الذي أثر فيه، وفي الشباب المساند له.

قال له الماركسي خلاص لقد قبلوا ترشحك كمرشح حرّ لهذا علينا أن نتخذ شعارنا من اليوم هو (التطهير والتغيير).

قال الرجل الكبير لسياف عليك باحضار السيد بهاء.

سنشل كل حركة للقصر، ولن نسمح لهم أن ينفذوا قرارات الرئيس.

حرك الجنرال يده.

كيف سمحت للنائب العام باستجوابي، و باعتقال اللواء زروقي، والسيد مصطفى منصور ؟

لم أسمح لهم، ولن أسمح، أنت عسكري، وتعرف أن النائب العام لا يمكنه أن يفعل لك شيئاً، أم اللواء ومصطفى منصور فلم يعودا من جماعتنا.

رفع متدلي البطن يده منهياً اجتماع الإدارة مع شركائه الذين بقوا صامتين، وهم يسمعون بالقرارات المرتقبة بعد أن خيرهم بين الاستمرار في خط المعارضة، أو الانسحاب. ثم دعاهم إلى قاعة العرض لمتابعة أول تسجيل لحصة سياسية في قناتهم الجديدة التي دخلت مع باقة القنوات الجديدة التي بدأت الاشتغال قبل عام مضى. بعد أن رسموا معه الخطوط العريضة التي يجب الالتزام بها خاصة بعد النجاح الباهر في تحقيق نسبة مشاهدة عالية في ظرف لا يتجاوز السنة.

بقي شركاؤه الذين سموا أنفسهم رجال الأيادي البيضاء يتساءلون وهم يتابعون حصة "مواجهة ساخنة". أنتجها أحد الصحفيين اللامعين جاء به صاحب البطن المتدلية معه من جريدة عمومية. كيف أمكن للسيد بودومة أحد برلمانيي الحزب العتيد أن يتحدث عن اغتيال رجل الأعمال، ويتهم المخابرات باغتياله. دون أن يخضع للرقابة من الجهات الوصية، ولا حتى تحرك ضده دوائر الدولة أي دعوة قضائية؟

حرك متدلي البطن يده مجيبا عن سؤال طرحه أحد شركائه بقي طيلة الاجتماع ينظر لصاحب اللحية الزرقاء بغرابة بعد أن رأى أول ظهور رسمي له في تلك الحصة. مهمتنا أن نقدم للشعب ما يريد سماعه، ثم أضاف مبتسما لصاحب اللحية الزرقاء: حتى أنا لم أكن أتصور أنه سيتفق معك يا شيخ.

نطق صاحب اللحية أنا قلقتها صراحة: السيد علاوي استئنصالي، لكنه رجل نزيه لم يبيع الدولة للأجانب.

ضحك الجميع قبل أن يضيف متدلي البطن: علينا أن نظهر للمشاهد الإثارة، ومعنى المعارضة. يكفيننا من سياسة النعامة، (ذك الرأس في الرمل).

هز صاحب اللحية رأسه متبرما، ثم وراح يتابع الحوار على جهاز هاتفه الكبير مثله مثل كل شركائه الذين كانوا قد فتحوا أجهزةاتهم.

كانت أصابع الاتهام موجه نحو العدم. قال البرلمان: المخابرات وحدها من تتحمل المسؤولية، وعلى رأسها الجنرال .

رد صاحب اللحية الزرقاء قلنا لكم أن الجنرالات هم سبب الكارثة بهذا البلد، لكنكم لم تتصتوا لنا . قلتم إننا إرهابيون تائبون.

همس الرجل السياسي للسكرتير. أعرف أن المرحوم علاوي كان من أصدقاء الجنرال لهذا لا أعتقد أن شريكنا قاتل الأطفال يعرف مايقول

بترديده هذه الساخافات. حرك بوشابو كتفيه كما لو أنه لم يسمع جيدا تعليق الرجل لأنه كان يدرك في قرارة نفسه أن شريكهم الذي أثار جدلا واسعا بتصريحاته الاستفزازية ما كان له أن يحظى بمقعد في إدارة المجمع لو لم يتلقى مديره متدلي البطن مكالمة خاصة من المعلم. لكن أمر المشاركة في حصة سياسية، وإطلاق الرصاص على المخابرات، والقصر معا لم يكن بإذن المعلم بل بمكالمة من مستشار القصر ذاته الذي طلب فيها من السيد بهاء أن يمنحه مساحة في القناة ليتحدث بكل حرية بعد عودته من لندن لمناظرة رجل الحزب العتيد لأجل التنفيس عن الاحتقان الذي كانت تدفع إليه دوائر المؤسسة القديمة.

سأل الجنرال الرجل الكبير

بعد أن فقدنا علاوي، لم أعد أثق في الجماعة التي تحيط بابنه !

لا تشغل بالك، سيقومون بدور محدد، ثم ينسحبون.

و سمنح السيد بهاء بعض جرائد السيد علاوي.

نطق السياف لقد اتفق السيد بهاء مع الطابور الخامس الذي سيحرك النخب التي بدأت تخرج للشارع.

أصبح الجميع يحل، ويتنبأ لما سيحدث أيضا أضاف السياف.

جيد ! قال الرجل الكبير. ثم أضاف وهذا مانريده بعد أن ينهوا أحاديث جلساتهم عن الاغتصاب، واختطاف الأطفال والتحقيقات التي بدأت المحكمة العليا في تحريكها ضد شخصيات نافذة في البنوك، والشركات الكبرى. سيرددون في الشوارع والمقاهي، والحمامات أن الانهيار قادم، وهذا ما علينا أن نركز عليه سيادة الجنرال.

ولكن ! عليك أن لا تصمت أمام ما يريده القصر، فأنا لست مرتاحا لتلك التحقيقات التي لم يحرك القصر فيه ساكنا.

فشلك الأخير سيادة الجنرال هو مايجعلني أصمت أمام يقوم به القصر. تدخل الرجل الكبير بعدما أحس بامتعاض الجنرال.

بقي مصطفى منصور ينظر نحو فراغ غرفة التحقيقات التي أبقوه فيها أكثر من ثلاث ساعات جالسا على كرسي حديدي دون أن يقول له أحدهم شيئا.

في تلك اللحظة دخل رجل سبعيني بربطة عنق. حاملا ملفا في يده.

وضعه على الطاولة وسط القاعة وجلس أمام مصطفى.

فتح أوراق الملف.

عليك أن تعترف بكل التهم المنسوبة إليك . هذا الملف يوصلك لحبل المشنقة ولكن إن تعاونت معنا فسيكون في ذلك صالحك . قالها النائب العام ثم أضاف سأتلو عليك بعض التهم فقط

أولا : العمولات التي كنت تأخذها عن الصينيين. و الرشاوي التي كنت تقدمها لمسؤولين في وزارة الأشغال العمومية.

هناك أيضا مسألة شركة فرماستيم. تحويلات أموال بالعملة الصعب، وتهرب ضريبي. واستراد أدوية من شركات اسرائلية.

بقي مصطفى يشد رأسه.

ماذا تقول سيادة النائب ؟ !

كل الدلائل والقرائن تثبت تورطك سي مصطفى. لا أريدك أن تكسر لي رأسي. اعترف ودعنا نُنهِ هذه المسألة.

لن أقول شيئا إلا بوجود المحامي.

تريد محاميا! إذن أنت حرّ.

قالها النائب العام، ثم أشار للشرطي الذي كان يقف بعيدا قرب باب
الحجرة ينتظر.

في تلك اللحظة دخل شرطيان وقاما بتقييد السيد مصطفى، وأخذه
للسجن.

بقي متدلي البطن يتابع من قاعة العرض مع شركائه الحوار الذي شارك فيه الرجل البرلماني مع شريكهم الشيخ أبي نصر الذي بقي رجاله موزعين في ردهة المجمع الإعلامي ينتظرونه.

كان على الشيخ أن يشاهد بنفسه الحصة التي أطلق عليها مدير القناة حصة حوار ساخن بعدما بدأت الساحة السياسية تغلي كما لو أنها على صفيح من نار.

دخل السكرتير بوشابو قاعة العرض بعدما أخذ مكانه بجانب مديره، ثم همس له: أنظر ! لم أكن أعرف أن شيخنا سيتفق في النهاية مع الرجل البرلماني.

ضحك متدلي البطن بعدما أوقف الشريط المسجل لحصة الحوار الساخن .

ومن قال إنهما مختلفان. الكل يبحث عن مكان جديد في المرحلة القادمة ياعزيزي بوشابو .

في الطريق إلى المستشفى تذكر المقدم حيرة والده الذي لم يتقبل فكرة العملية الجراحية التي نصح بها الطبيب جبريل.

هز بلخوش رأسه لابنه : أعرف أنني أتعبتك معي، و أنت منشغل بوظيفتك يابني !

لا تقل هذا ياوالدي . المهم صحتك.

في تلك اللحظة دخل جبريل حاملا معه ملفا مفصلا عن نتائج التحاليل التي أجراها لوالد المقدم الذي قام من مقعده.

خير إن شاء الله دكتور . قال بلخوش

هز الطبيب رأسه لا تقلق عمي بلخوش.

بقي المقدم ساهما في الطريق مستعيدا ما قاله الطبيب جبريل يومها بعدما أخرج صور الأشعة أمام والده، وأخبرهم عن مشكلة الفقرة التي خرجت عن مكانها، ونما في فراغها غضروف.

يجب أن نجري له عملية جراحية. ولكن ليس هنا، ولا في العاصمة ، بل في الخارج. بقي المقدم ينصت لكلام الطبيب، وفي النهاية قال له.

ليس هناك من مشكل.

بقي بلخوش ينظر بحيرة نحو الطبيب وابنه اللذين بدأ يتحدثان عن عملية جراحية . سأتصل بصديقي في المانيا وسأخبركم عن الإجراءات أضاف جبريل.

استفاق المقدم بعدما وصل إلى المستشفى، ورأى أعوان الشرطة ينزلون تباعا عبر أدراج السلالم متعجلين يقودهم الشرطي الهزيل.

استعداد صورة مديرية الأمن التي اقتيد إليها بذاك الشكل المشين، لحظتها انتبه لر سالة السيد التي أعلمه فيها أن يشدد على حماية الرجل الخليجي لأنه صار مستهدفا من الديك الفرنسي.

قال في سرّه أكيد أن أولئك الرجال الأ جانب هم رجال الديك الذين سيتصلون بولد صافي ليفتح الطريق أمامهم للوصول إلى عدنان أبوحاتم. أخرج هاتفه ممرا أصابعه على رقم بلميلود .

فتح بلميلود هاتفه.

نعم حضرات.

أين أنت؟

قريب من المكتب.

أريدك أن تترك عمي يعود إلى البيت، وتذهب حيث يخيم الرجل الخليجي وتعود به للمدينة.

حياته في خطر. قالها ثم أغلق هاتفه ومشى في رواق المستشفى باحثا عن الغرفة التي وضع فيها الهيسوف. جاءه صوت والده مرة أخرى بعد أن بقي مترددا في القيام بالعملية الجراحية خاصة حينما سمع من الطبيب أنها لا تُجرى إلا في الخارج.

ركنت شريفة للصمت . وبقي عمّه عمار الذيب يحرك في رأسه مثل المجنون .

يوم كامل من الحزن أحسه خيم على وجه كل أسرته. رغم أن والده بدا في أحسن حال بعد أن تناول تلك الأدوية التي وصفها له الطبيب جبريل منذ اليوم الأول الذي أصيب فيه بتلك الوعكة المفاجئة في البيت.

قال عطوان لصديقه الطبيب.

هل العملية ضرورية لهذا الحد. أرى والذي بخير، قال لي بنفسه أنه لم يعد يشكو من شيء.

نظر إليه جبريل. بلى، هو بخير، لكن مؤقتاً فقط، لأن الأدوية التي وصفها له لم تكن سوى أدوية مهدئة لهذا سيعاوده الوجع أكثر حينما يعود للمزرعة، أو يقوم بأي جهد حركي.

بقي بلخوش في ذاك اليوم يتحدث، وفي النهاية صمت بعد أن وقفت شريفة أمامه مرعدة:

عليك أن تستمع لعطوان والطبيب. لن يوقف ألمك سوى العملية الجراحية.

بقي عطوان يستمع لوالدته دون أن يعلق على كلامها، بعدها استأذن منها وخرج نحو المكتب.

لحظتها رن هاتفه .

فتح عن المكالمات فجاءه صوت الطبيب لقد اتفقت مع جراح صديقي في فرنكفورت، مختص في جراحة العمود الفقري سيجري بنفسه للوالد العملية.

جيد .

أين أنت ؟ سأل المقدم

أنا في الاستعجالات.

هناك حالة مستعجلة سأنتهي منها، وسأزور الوالد، وسأزف إليه بنفسني هذا الخبر.

شكرا جبريل، أنا أيضا الآن في المستشفى سأزور الهيسوف، سنلتقي هناك .

أغلق المقدم هاتفه ودسه في جيبه، ثم سأل ممرضة كانت تمر بجانبه عن جناح الانعاش الذي يرقف فيه الهيسوف.

قبل أن توجهه الممرضة نحو جناح العناية المركزة الموجود في الطابق الثاني.

فكر في العجوز الذي أخبره السيد أنه اختفى في العاصمة.

وقف الرجل الخليجي خارج الخيمة التي نصبها رجاله غير بعيد عن قارة الضبع، المكان في منطقة حدودية محرمة، قريب من منطقة الصيد المحرمة على الأهالي، لهذا يكثر فيها طائر الحبار، والكثير من الحيوانات البرية.

وقف مساعده في الجهة الأخرى بعدما طلب من الخدم أن يحضروا الغداء

ليس هناك أجمل من براري الهضاب يا نواف

ايه يا سيدي. كان صيدك وفيرا اليوم، لكن أصدقاءك الجزائريين يبالغون كثيرا في تخوفهم من غياب الأمن. نحن هنا منذ أكثر من ثلاثة أيام لم نر سوى الارانب وطيور الحبار، والغزلان.

ابتسم أبو حاتم، ثم انتدب مكانا في الخيمة قرب صديقه اللبناني حيث افرشت زرابي إيرانية من نوعية رفيعة كان قد جلبها معه يوم قال له السيد

هديتنا إليك هي طائر الحبار في جبال القصور.

العام الماضي لم نجد إلا القليل لهذا جلبت معي في شهر نيسان من محمية الطائف ألف زوج وأطلقتهم ، أعجبتني براريكم، مازالت بكر .

أنت في بلدك ياسي عدنان متى أردت المجيء للصيد أنت وكل الأمراء من أصدقائك، فنحن قيد أمرك.

كان أحد العساكر المكلف بحراسته ينظر بالمنظار الصغير من سيارته الرباعية الدفع التي بقيت على مسافة بعيدة عن المخيم بعدما طلب

الرجل الخليجي، أن يبقى رجال الأمن بعيدين عنه. في النهاية قَبِلَ رجلين فقط ليرافقاه مع رجاله.

جذب العسكري هاتفه، وأرسل رسالة

في مرتفع القارة كان لا يزال الأصلع ينتظر حاملا بندقية القنص . رن هاتفه نزل أرضا، حاول إخراجه من جيبه، ثم نزع نظاراته الشمسية، وعود الأراك الذي كان يمضغه بأسنانه، ثم قرأ الرسالة في هاتفه . الهدف في مرماك.

في تلك اللحظة توقفت سيارة بلميلود الذي نزل مسرعا نحو خيمة الرجل الخليجي.

توقف أمام عسكريين من عساكر الدرك.

كيف هي الأجواء؟ سأل بلميلود

لا يوجد شيء غير عادي . السيد عدنان في خيمته.

في تلك اللحظة قال مساعد الرجل.

وصل رجل السيد.

مرحبا سيادة الملازم. تفضل لتشاركني غدائي.

في تلك اللحظة أحضر الخادم صينية كبيرة فيها ستُ أزواج من طائر الدبار كانت قد شوية على نار حطب مع أربع أزواج من الأرانب البرية ، وثلاثة أنواع من السلطة، وأطباق صغيرة من المخليلات. وضعت أمام السيد عدنان الذي التفت لحظتها لصديقه اللبنانية التي كانت تحضر نفسها .

أقدم لك مريم .

كانت المرأة هي صديقة عدنان التي قابلها في لبنان، وكان قد وعدّها بأن يأخذها معه في رحلة صيد لبراري الجزائر حيث الطبيعة البكر، وأنواع الطيور التي لحمها يخلق البان، ويزيد من حمى الرجل بعد الليلة التي قضاها معها في فندق لتشيلا لمرودين في بيروت.

هز بلميلود رأسه محييا المرأة التي أشار لها عدنان بالانصراف.

خرجت المرأة من الخيمة فاسحة المكان للملازم بلميلود الذي جلس مرددا بهمس سي عدنان هناك أخبار عن خروج أحد رجال الأجني في أثرك من العاصمة. علينا أن نعود للمدينة حالا.

بقيت المرأة تنتظر جهة الربوة التي انبطح تحتها الأصلع وراح يثبت في نقطة الهدف في قلب ضحيته.

في اللحظة خرج فيها بلميلود من الخيمة مقتربا من الرجال الذين تجمعوا أمام باحة الخيمة، وراحوا يرقصون رقصة البارود. عادت المرأة بعد أن نادها عدنان لتجلس قربه .

فعلا لم أكن أتصور هذه المتعة في هذا المكان . قالت مريم

ستري غدا حينما نتوغل في الحدود . العشب كما لو إننا في السفانا .

هناك أنواع كثيرة من الطيور البرية التي للأسف عندنا انقرضت لهذا أجمل شيء في هذا المكان أنه محمي من طرف عساكر الحدود.

سترين انظري الآن، لهذه الفرقة المحلية. في تلك اللحظة بدأت فرقة فواراة التي كان قد جلبها قائد الناحية من المدينة كي تقدم سهرة تراثية في مخيم الرجل الخليجي

دار المهللون في الحلقة، وبدأ إيقاع الطبل يرتفع مع صوت مقدم الفرقة الذي بدأ يصيح بنشيجه مع إيقاع التصفيقات في اللحظة التي رفع فيها أصحاب البنادق أذرعهم عاليا، وراح مُقدم الحاضرة يدور وسط الحلقة

مديرا الهواء ببندقيته المدشوشة، ضرب الطبل ضربتين، وفي الثالث كان الأ صلح قد ضغط على الزناد. صوت ضربة البارود المتوحدة مع جنون عفاريت رقصة البولالاة حينما تتحدث مع أوجاع رجل العرق.

انتفضت المرأة صارخة وهي ترى عدنان يتهاوى في حجرها ملطخا بدمه.

سمع الملازم الصراخ فدخل متعجلا.

تلمس الرجل في عرق رقبته. أحس ببطئ النبض، ثم أشار للخدم ولمساعده الذين تجمعوا لحظتها صارخين. أن يحضروا السيارة لأن الرجل لا يزال حيا.

ثم خرج ناظرا نحو الربوة، حينها أبصر رجلا يقف ويعود أدراجه حاملا حقيبة مستطيلة.

التفت نحو العسكريين اللذين اقتربا من الخيمة متوفزين. خذوا السيد عدنان للمستشفى.

ثم ركب سيارته ولحق بالقناص. في داخله راح يردد. لا أدري ماذا دهاك يا عدنان أبوحاتم كما لو أنك كنت تعرف نهايتك.

حينما فقد بلميلود أثر القناص هتف للمقدم الذي كان لايزال في المستشفى ينظر نحو وجه الهيسوف المحترق الذي لفت حوله ضمادة غطت كامل وجهه و أبقت عينيه فقط، بعدما وضع معزولا في غرفة زجاجية .

كان الهيسوف فاقدا للوعي في اللحظة التي وقف على رأسه المقدم ناظرا بحزن .

فجأة فتح عينيه، وطلب من عطوان أن يقترب منه.

لقد اختطفوا عمي منصور. وطلبوا منه صندوقًا صغيرًا.

رأيته بين أيديهم حينما أحرقوا السقيفة .

من أولئك الرجال؟ سأل المقدم.

لا أعرفهم ليسوا من المدينة . وليسوا عرب ، أظنهم (رواما). لكن قائدهم الأصلع كان يتكلم العربية، هو الذي عذبني.

في تلك اللحظة دخل الطبيب جبريل على المقدم.

ونادى على الممرضة.

أسرعي، إننا نفقد المريض.

تراجعت نبضات قلب الهيسوف في تلك اللحظة ودخل في غيبوبة.

بقي الطبيب جبريل مع فرقة طبية تجمعت حول سرير الهيسوف قرابة الساعة بعدها خرج ليجد المقدم لايزال ينتظره.

لقد أجهد نفسه. قالها جبريل بعدما انتهى من حقن شكوة السيروم التي بقيت محقونة في ذراع المريض.

حرك رأسه . للاسف بالكاد أعدنا له نبضات قلبه لكننا لانستطيع أن نفعل له أكثر من ذلك، حروقه من الدرجة الرابعة. وصلت النار لأعضائه الحيوية.

ننتظر رحمة الله فقط.

ثم انسحب مع المقدم بعيدا عن الغرفة بعدما ترك الممرضة مع بعض الأعدوان يعيدون تلك الآلات التي جلبوها لأجل إعادة النبض للمريض الذي توقف قلبه لثوانٍ حينما أخبر المقدم بأن أولئك الرجال قد جاءوا بالعجوز من العاصمة ليخبرهم مكان الوثائق حينما عجزوا عن إيجاد ماكانوا يبحثون عنه أحرقوا المقهى بما فيها.

فكر بلميلود في فشله في مهمته، وهو يخبر المقدم عن اغتيال الرجل الخليجي الذي رفض مرافقته للمدينة.

مرددا في سرّه من يكون هؤلاء؟ وكيف استطاعوا أن يصلوا إليّ ؟

وضع بلميلود يده في دقنه وهو يكلم المقدم.

لقد خسرنا عدنان أبوحاتم قالها دفعة واحدة.

بقي المقدم صامتا . ثم أغلق هاتفه في اللحظة التي استأذن من الطبيب جبريل بعدما أخبره أن عليه أن يهتم مع ادارة المستشفى بجثة الرجل الخليجي دون أن يصل الخبر للصحافة أو يعرف عنه أحد من عمال المستشفى.

بقي الملازم بلميلود يفكر ما عساه يفعل بعد أن خسروا الرجل الخليجي وترك قاتله يفر دون أن يعرف عنه شيئا . ثم فجأة تذكر عمّار الذي

تركه أمام المقهى وطلب منه العودة لبيت بلخوش. مستعيدا يوم كشفه يخرج من الباب الخلفي لسقيفة، وتعبه حتى دخل عبر زنقة ضيقة .

فاجأه واضعا المسدس في ظهره. بعدما سألَه عن خروجه مثل سارق بتلك الطريقة من السقيفة. رد عمّار بخوف.

أنا لم أدخل السقيفة، صدقتي ! ثم أضاف بعد أن أحس بصوت حركة رقاص التأمين في مسدس بلميلود. لم أدخل يابلميلود صدّقتي!

رايتك تخرج من بابها، وتحمل معك أوراقا، إن لم تخبرني عنها فجرت رأسك في الحال قالها وهو يحرك إصبعه على الزناد. لقد هددني سعيد ولد الصافي بأنه سيقتل ابني عبد المالك إن لم أحضر له، وثائق المقهى. أين هي الآن؟ سألَه بلميلود. سأخبرك، لكن أبعد هذا المسدس.

حسنا ! أتعرف لو لم تكن من العائلة لكننت الآن ميتا أيها الخائن، لكني سوف أمنحك فرصة أخيرة قبل أن أخبر عنك العجوز.

نعم يابلميلود فقط لا تخبر عني أخي. هاهي الأوراق. البارحة هددوني بقتل ابني، وطلبوا مني أوراق ملكية المقهى بعدما أخبروني أنها في السقيفة لهذا اضطررت لأخذها لأحمي ابني.

متى، وأين كنت ستسلمه هذه الأوراق؟ سأل بلميلود بعدما أمسك بالأوراق التي أخرجها عمّار من جيبه الداخلي ملفوفة في صاك بلاستيكي.

مساء في المزرعة.

إذن عليك أن تسلمها له في هذا الموعد. صمت عمّار، ثم نطق: لم أفهم !

تحرك أمامي، و ستفهم ! دفعه أمامه حتى وصلا إلى بيت الرجل الميت الذي سافر يومها للمدينة، بعدما قال لبلميلود عليك بمراقبة أولاد الصافي. ثم طلب منه أن يخرج هاتفه.

كلّما الآن، وقل له إنك حصلت على الوثائق، وأطلب منه أن يكون اللقاء قرب الحجرة المكتوبة خارج المدينة.

أفهمت !

نعم سأفعل، أبعد عني مسدسك فقط.

أخرج عمّار هاتفه، ثم أضاف وهو يرتجف بعدما أذهله بلميلود الذي طالما ظنه مجنوناً، وبائساً، ليكتشف أنه رجل أمن. لكن ماذا سيحدث لابني عبد المالك إن اكتشف ولد الصافي أنني أخذه.

أنت لا تعرف ولد الصافي ورجاله، رأيتهم بأعينهم يطلق رصاصاً مسدسه في صدغ رجل من عماله فقط لأنه أخذ معه شاحنة من الشاحنات المزروعة إلى بيته.

جلس ولد الغربي في صالون بيته يُقلب في قنوات الأخبار باحثاً عن آخر تطورات الاعتقالات التي بدأت تمس رجال أعمال، ومدراء تنفيذيين في بنوك جهوية اعتبرها الإعلام حلقة أخرى من حلقات فضيحة بنك الشاب ابن عضو المالمغ الذي تخلى عنه قمامم العاصمة.

نفس الأخبار، ونفس قضايا الفساد. إلى أي جهة يريدون أن يأخذوا هذا البلد؟ قالها متسائلاً بتوتر مغلقاً جهاز التلفزيون، وراح يفكر في كلام الماركسي الذي قال له علينا بشعار التطهير والتغيير في حملتنا الانتخابية.

صمت أمامه كما لو أنه أحس بلا جدوى مما يفعله.

نظر جهة الخزانة الصغيرة التي خبأ فيها رسائل ابن عمه ثم اتجه نحوها. فتح الدرج الصغير، وأخرجها كما لو أنه يخرج شيئاً ثميناً يخاف من إتلافه. فردها على الطاولة الصغيرة أمامه، مردداً في سره. مادامت هذه الدولة قد أعلنت حربها على الفساد فلا بد لي أن أوقع بولد الصافي بضرره قاضية، وأذسف كل ما بناه في الحزب. كانت الرسائل التي تركها له ابن عمه تدين سعيد ولد الصافي. قرأها مرة واحدة فذهل للمعلومات التي كتبها ابن عمه عن تعاملات سعيد ولد الصافي مع الأجانب. قرأ اسم البروف السوري لكن لم يفهم ماذا يعني هذا الاسم. من يومها لم يعد لقراءة تلك الرسائل. كان في كل مرة يتذكر خبث سعيد ولد الصافي، ومافعله بالعجوز في المقهى

حينما قال له صديقه الماركسي أنت تفكر بالإطاحة بولد الصافي عن طريق العدالة، و ابنه الملتحي قاتل الأطفال يظهر في التلفزيون، و يتبجح أمام العالم بعودة الحزب المحظور. ويدافع عن البرجوازية المقيتة، ثم أضاف له عليك أن تنتبه حتى لا يحدث لك مثلما حدث في عام بورقعة كما سماه العجوز منصور. يومها انتظر ولد الغربي

إعلان قوائم المترشحين ففوجئ برفض الملف من محافظ الولاية بعدما استبدله بورقعة بملف ولد الصافي الذي كان يومها قد تزوج من المرأة العاصمة بعدما وضعت زوجته الأولى حدًا لحياتها. فاز خليل ولد الصافي في انتخابات تلك السنة بعدما عاد بوجه آخر غير الذي كان يعرفه به أهل المدينة. كان هناك ما يشبه الآلة التي تحرك كل شيء بإتقان، ويتخطيط مدير بمساعدة محركي الإشاعات في الأرصفة الذين حولوا ولد صافي إلى منقذ، وراحوا ينعنون ولد الغربي، وجماعته التي كوّن بها جبهة معارضة في سنوات الانفتاح الحزبي بالشيوعيين الفاشلين.

كانوا كلهم لا يريدون أن يتذكروا مآسي الزلزال الذي حدث بعد ذلك. كان الطريق يُقَطَّعُ أمام طموحاتهم كما قالها في ذاك اليوم ولد الغربي في البار بعد أن كرع زجاجتين من البيرة، ونظر جهة رفيقه الماركسي الذي كان يعاتب العجوز عن المقاوم الشيخ بوعمامة، و (محمد ولد علي)^{١٨}، لِمَ لم يعلق صورهم مثلما يعلق صورة الرومية. أنت مجاهد ياسي منصور ! ترى كل يوم المُنكر في هذه القسمة العاهرة لكنك لا تحرك ساكنًا. ستحاسبك الأجيال عن التاريخ، حتى الصور التي أعرف أنك مهتم بعالمها، إلا أنك تخاف من تعليقها في هذا البار الذي حولته إلى مقهى. كنت أتمنى أن تعلق مكان صورة هذه الرومية العاهرة صورة المقاوم البطل الشيخ بوعمامة، أو صورة (محمد ولد علي) البلوريتاري، أو حتى الإخوة مولاي اللذين فجرا رأس (ترموفسكي ١٩)، و صورتك أنت مع رفاقك المجاهدين الذين صنعوا الثورة في هذه الجبال. أو صورة واحد من الذين أسسوا معك الخلايا الأولى للحركة الوطنية بهذه المدينة .

١٨ . رجل مقاوم، حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي قبل الثورة في الجنوب الغربي الجزائري

19 - ضابط فرنسي كان من الذين ساهموا في مجرزة ٤٥ . في الشهور الأولى من تحويله إلى جهة الجنوب الغربي قتله أخوان اسمهما الإخوة مولاي

نظر إليه منصور، ثم تنهد بعمق بعدما أحس بدمعة حزن تنبجس من محجريه. كان سيقول له أنت لا تعرف شيئا! الذين ماتوا، ماتوا بلا جدوى! والاحتفاء بهم بالطريقة التي تريدها نوع من الخيانة!

لا يمكن أن يكون لا الشيخ بوعمامة، ولا الإخوة مولاي، ولا حتى محمد ولد علي راضين عما فعله هؤلاء بالتاريخ، وبالمدينة.

الإمبريالية لم تغادر هذا البلد. افهم! يا جمال الذية أضاف الرجل الماركسي، ثم دار نحو بلخوش الذي ينظر في صمت نحو الفوضى التي خلفها جنون ولد الغربي الذي ظل يسب طوال ذاك النهار بورقعة، وولد الصافي، قبل أن يعانق بلخوش الذي اقترب منه. بكى تعاسته على مرأى جماعته من الشباب الذين كفوا لحظتها عن الكلام، وبقوا مندهشين أمام الصورة المحزنة التي انتهى بها بعدما أخرجه بورقعة من الحزب، ورمى له ملف ترشحه.

أخذ بلخوش ولد الغربي من ذراعه، وأدخله السقيفة. تبعهم منصور بعدما نعت الماركسي بالفوضوي، وطلب منه أن يسحب كلماته القاسية.

رفع ولد الغربي رأسه نحو منصور بعدما أجلسه بلخوش على الأريكة الجلدية القديمة التي كانت لاتزال بجانب الباب: (اسمح لي يا عمي منصور، راك عارف بلّي أنت مثل أبي، وأنا أقدرك، وأقدر عمي بلخوش، وهو يعرف أن عطوان ابنه صديقي، لكنني لم أعد أحتمل.

خرج الماركسي وترك ولد الغربي، والعجوز وبلخوش يتحدثون. كان ولد الغربي شابا مثقفا درس في العاصمة، وتخرج من قسم التاريخ، قبل أن يصبح أستاذا لمادة التاريخ بالثانوية الوحيدة يومها، ويبدأ حياته المهنية منذ نهاية الثمنيات بعدما اشتغل كثيرا بالبحوث التاريخية، والأنثروبولوجية، وبالنشاط الشباني حتى وصل إلى أن يكون عضوا وطنيا في منظمة الشبيبة، ثم رئيسا لفرعها بالمدينة، كما كانت له علاقات قوية مع الأب جوزاف الرجل المرابو الذي جاء المدينة مع الاستقلال، والتحق بديره الصغير بوسط المدينة بعد أن هُدمت كنيسته

وحوّلت إلى مرأب للسيارات، قبل أن يغتاله الرجل الإفغاني كحيل العينين قرب المستشفى، في نفس اليوم الذي حدثت عملية المطار العسكري التي راح ضحيتها الكثير من الجنود بعد أن سرق أبو نصر وجماعته السلاح من ثكنة المطار وفروا هاربين للجبال.

قال الأب جوزيف قبل يوم من اغتياله لولد الغربي بعدما سأله عن صمته يوم هدم بورقعة، وولد الصافي كنيسته. الله محبة، والمحبة لايمكن أن تحتويها الجدران، ولا حتى تجعلها تختفي حينما تهدم .

نظر إليه بحزن، ثم استأذنه وراح منذ ذاك اليوم يفكر كيف يدخل هو الآخر دهاليز السياسة لعله يقف أمام حماقة هؤلاء.

حرك بورقعة رأسه للاسعيد ولد الصافي حينما قدم له ولد الغربي ملف ترشحه في الحزب العتيد بعد أن تسلمه منه، وقال له " دون مشكل ، أعدك بأنني سأقوم بدارسته مع خلية المحافظة بالولاية، وسيكون ترشحك أكيد ، لكنه خذله في النهاية.

حينما خرج ولد الغربي من عتبة القسمة بصق في ظهره سعيد ولد الصافي وهو ينظر إلى بورقعة الذي قال له يومها: عليك أن تفهم ياسي سعيد أنني لن أقف مع هذا الدعي المتمسح الذي يرافق الرومي الكافر الذي ينشر المسيحية، ولا يتوقف عن التنطع برئاسته لمنظمة الشبيبة التي صار يتحكم فيها الشيوعيون ، والملاحدة، ويأتي إليّ دون خجل، ويأمرني بأن أقدمه كمترشح في الحزب. (طرز فيه، وفي منظمة الشبيبة التي يرأسها. ياو يروخ يرنك بيه بكارطة النضال التي معه. أقسم لك ياسي سعيد أنه لن يكون في قائمة قسمتي حتى وإن اضطررت إلى إلغاء ترشحنا كقسمة في هذه الانتخابات).

في تلك اللحظة أخرج سعيد ملف أخيه خليل، وقدمه له وهو يردد بابتسامة رضا، هاهو الملف، سي خليل يقول لك (تهلاً، وأمانتك في الحفظ والصون).

استعاد ولد الغربي مافعل به ولد الصافي. قال في نفسه لن أترك لكم
الساحة هذه المرة يا ولاد القحاب !

ثم أشعل سيجارة. وبقي ينظر نحو الرسائل التي وضعها أمامه على
الطاولة.

كان ولد الغربي يخرج كل يوم، ويجوب الشوارع ومقاهي المدينة
باحثاً عن الشباب المتحمس للتغيير لهذا فكرّ وهو يجلس في صالون
بيته أن الوقت قد حان مادام عطوان ابن بخوش قد عاد للمدينة. تلمس
الرسائل، وقال في نفسه غدا سوف التقى به، وأسلمه رأس ولد الصافي.

بقي السكرتير بوشابو ينظر ساهما نحو شاشة العرض بعد أن غادر الشركاء، وغادر معهم صاحب اللحية الزرقاء. ثم التفت نحو مديره الذي بقي صامتا يفكر أنه لن يستطيع أن يقول شيئا لا يوافق مزاج (قمام) العاصمة، حتى وإن كان كلام الشيخ سيضر بمجمعه.

تذكر صاحب المكالمة الذي قال له عليك أن لاتسأل عن الذين نطلب منك مشاركتهم في أعمالك .

لهذا ظل دائما ينفذ الأوامر التي يتلقاها عبر الهاتف دون تردد.

قال في سرّه هذا يعني أن كل جهودي، ونضالاتي، وعلاقاتي قد أثمرت. كان عليه أن يأخذ كلمات صاحب المكالمة بالجدية المطلوبة، وأن لا يضع أي خطوط حمراء أمام الشيخ الذي بدا يهاجم في القصر، ويدافع على جماعته الإسلامية .

لم يفهم كيف أن أصحاب القصر طلبوا منه استضافة شريكه الذي عاد من لندن لأجل أن يهاجمهم.

دون أن يفكر في الأمر قال في نفسه مادمت أطبق تعاليم المعلم بحذافرها فلا يمكن أن يحدث شيء، ولقاء المجلس المرتقب هو خير دليل أنهم راضون عن أدائي. أدار وجهه محاولا التخلص من الهواجس التي بدأت تتناسل في رأسه مثبتا وجهه نحو سكرتيه بوشابو الذي كان لايزال فاغرا فاه. دعك من التفكير فيما قاله الشيخ، واسمعي ! علي أن أذهب الآن للقاء المعلم. تقطن السكرتير لصوت مديره بعدما غاس في حيرة الطريق المجهول الذي دخله مديره. كان يعرف أن الجنرلات أصحاب السبع وعشرين فيلا هم من يتحكمون في قرار البلد. وهم من صاروا اليوم في مجابهة ظاهرة مع القصر.

سأرافك سيدي !

يمكنك أن ترافقتني إلى غاية شاطئ شَنُوة فقط، بشرط أن لاتسألني لماذا ؟

حسنا، المهم أن أطمئن عليك سيدي .

وقف بوشابو باحثا عن حقيبة مديره التي ركنها بجانب الأريكة.

في الطريق كان الاسكرتير لا يكف عن النظر عبر المرأة العاكسة متتبعا وجه مديره الذي غرق في تفكير عميق، مستعيدا تعليمات صاحب المكالمة الذي كان قد أخبره عن الطريق الذي يسلكه.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء حينما وصلا إلى شاطئ شَنُوة بعدما رن هاتفه. نظر على عجل إلى رقم المتصل. إنه رقم الرجل النحيف الذي التقى به في مطعم الكوليس يوم جمعه بصاحب العقارات ليبيعه العقارات اللازمة لتوسيع مجمعه الجديد. يومها وجد نفسه أمام رجلين أحدهم اسمه السياف الذي شهد مع سكرتيه الخاص على صفقة البيع مع الرجل الثاني المعروف بتاجر العقارات الذي بدا له صامتا حتى أنه اكتفى في نهاية التوقيع أن قال له مبروك عليك العقار، لولا السياف ماكنت لتحلم به.

مرر إصبعه على الوجه الأخضر لأقيونة الرد. نعم سيدي! سأكون في أقل من ربع ساعة في المكان المطلوب. أغلق هاتفه، وأشار لسكرتيه بالتوقف في أقرب شرفة بحر تقابله. هز الاسكرتير رأسه وهو لا يزال مثبتا عينيه في وجه المرأة العاكسة.

بعد أقل من أربعمئة متر من المكان الذي وصلته فيه المكالمة، أوقف بوشابو السيارة وبدأ يحرك ناظريه ممشطا الاتجاهات لعله يرى أحدا من الذين طلبوا من سيده أن يركن سيارته في مكان مقفر كهذا.

بدا له المكان موحشا، ومُخيفا. كانت الشمس قد نزلت واستحمت في عمق البحر الذي بدا صامتا، و كئيبا. لا وجود لأي سيارة في الجوار،

ولا أي حركة في الطريق المعاكس، ولا حتى في طريقهما الذي سلكاه منذ أن انحرفا عن الطريق السيّار الذي بدا خاليا بعد أن أخذوا الطريق البحري.

هل سيلتقون بك هنا سيّدي؟ سأل السكرتير وهو يضع يده على المقود.
بلى! هنا انتهت مهمتك.

بقي السكرتير يتابع في سيده الذي ترحل لحظتها من السيارة بعد أن أشار له بأن يعود أدراجه للعاصمة ، وأن لا يفكر في تعقبه.

فجأة توقفت سيارة لم يستطع السكرتير استيعاب من أي جهة جاءت.
ناظرا باندھاش نحو رجلين استقبلا سيّده، قبل أن تتوقف سيارة أخرى من نوع هامر أمامهم.

أشار أحدهم لمعاونه ليقوم بالإجراءات الضرورية.

كانت سيارة السكرتير قد اختفت في المنعرج.

فتش أحد الرجلين متدلي البطن بصورة سريعة من كل جهات جسده بجهاز كاشف، ثم التفت نحو قائده. كل شيء نظيف سيّدي.

هز الرجل النحيف رأسه من داخل السيارة الهامر، مستأذنا من السيد بهاء أن يتفضل بالصعود، ليتمّ إجلاسه بين رجلين في المقعد الخلفي بعد أن منحه أحدهما قلمونة سوداء ليضعها على رأسه لتحجب عنه رؤية الطريق الذي ستسلكه سيارة الهامر التي كانت تراقبها من بعيد سيارتان من نوع بسبات من نفس اللون الحكومي. طمأنه النحيف صاحب ربطة العنق أن لا يقلق لأنها مجرد إجراءات أمنية ضرورية لأنه سيقابل الرجل الكبير. بعد أكثر من ساعة من السير، والدوران، والصعود والنزول في طرق معبدة، وغير معبدة خرجوا فيها من الطريق البحري ليتوقفوا في النهاية أمام فيلا مهجورة بين أشجار

الصنوبر البحري التي كانت تحيط بالمكان. نزل الرجلان وراحا
يمسكان بذراعي متدلي البطن، بعدما حمل رجل آخر حقييته، وانسحب
نحو الرجل النحيف الذي سبقهم.

أدخل الرجلان متدلي البطن الفيلا عبر رواق ضيق حتى وصلا مكانا
مغلقا بدا كما لو أنه جدار اسمنتي لا يؤدي إلى أي اتجاه. كان المكان
مهجورا لا يظهر أن تحته بُنيت قاعدة تشبه قاعدة الفوهر. كانت أسئلة
الرغبة تزداد دورانا في رأسه وهو يرمي في خطواته مثل أعمى،
متحركا في أرض لا يعرف عنها شيئا. لأول مرة ترتعد فرائسه للصمت
الرهيب الذي أحسه يتصاعد من أصابع قدماء، حتى الرجلان اللذان
أمسكا بذراعيه منذ أنزلاه من السيارة كان لا يحس بأن لهما نبض،
وهما يتحركان معه مثل آلات صماء كما لو أنهما تلقيا أوامر بأن لا ينبس
أحد منهما بكلمة واحدة مثل قائدهم النحيف الذي لم يتحدث معه هو
الأخر طيلة الطريق كما عاداته حينما التقى به في مطعم الكوليس إلا
بنظراته التي لا توحى بشيء. فارغة مثل هوة في منحدر لا ينتهي. منذ
أن غطوا رأسه بالقلمونة السوداء وهو يفكر كيف سيكون شكل المعلم
الذي طالما تحدث معه بالصوت فقط حتى وهو يقوم بإرسال الملفات
السوداء التي كان يورط بها رجالا نافذين في الحكومة سواء تلك
المتعلق بالصورة الفاضحة، أم ملفات الفساد، والرشاوي التي كان يهدد
بها السياسيين بنشر بعضها في جرائده لابتزازهم. تذكر يوم قال له
صاحب المكالمة أن عليه أن يدعو إلى مكتبه النائب رئيس الكتلة
المعارضة الذي كان يقف ضد الميزانية، و يقدم له الصور التي أخذت
له في فندق الماركيز مع نائبة معه في الحزب. حينما حضر النائب إلى
مكتبه نظر إليه متدلي البطن بنصف عين، وقال له إنه ليس سوى وسيط
يريد أن يبلغه رسالة من أصدقاء. كان النائب يفكر أن هذا الرجل ما كان
ليبدأ حديثه بهذا الشكل الغريب لو لم يكن مُسانداً من جهة قوية، لهذا لم
يعلق على كلامه، بل بقي صامتا، متتبعا يده وهي تمتد لتخرج مغلفا من
الدرج، وتضعه أمامه. انظر ! يمكنك أن ترى هذه الصور، وبعدها
نتحدث قالها، ثم أضاف له أعزني سيادة النائب. أنا لست سوى وسيط
مكلف باعطائك أمانتك. بقي النائب ينظر في الفراغ بعد أن مدّ يده

بارتجاف فاتحا المغلف، مخرجا أول صورة له عاريا كما ولدته أمه. حينها أغلق المغلف، ورماه على طاولة المكتب، وأحنى رأسه للحيرة، واضعا جبينه على ساعديه المتقاطعين فوق ركبتيه، واستسلم لآساه مرددا بحزن: هذا غير ممكن ! ... غير ممكن !

بقي متدلي البطن لبرهة ينتظر من النائب الأتكل أن يرفع رأسه. لكنه لم يفعل، بل أبقاه منكسًا، فوقف مقتربا منه، مُربِّناً على كتفه بانتشاء. يومها قال لسكرتيه الأمين سنصل القصر قريبا. ليس هناك من يوقفنا بعد اليوم ! ثم أردف وهو يمتص سيفارته مثل عجل: أما أولئك الذين رفضوا أن يدخلوا بيت الطاعة مثلما دخلها صاغرا هذا النائب، وعشيقتهم فقد أرسلت ملفاتهم إلى النائب العام، وسترى حينما ننشر خراءهم في صفحات جرائدنا كيف سيثيرون، ولن يجد الواحد منهم خرم إبرة ليختبئ فيه. استطرد متحدثا عن أولئك الذين يقيمون في إقامة موريتي. وفي الفيلات التي يتخذها بعضهم كعُلب ليلية بعيدا عن الأعين، أو تلك التي سُرقت من أصحابها بعد أن لفقت لهم تهمة الخيانة، ودُكوا في السجون البعيدة التي لايعرف عن وجودها أحد. أو تلك التي حوِّلت في سنوات الجمر لمكاتب خاصة أو حكومية. بقي سكرتيه ينظر إليه دون أن يعلق لأنه كان يدرك أن مديره ماكان ليستطيع أن يكتب عن تلك الأشياء التي ذكرها مادام تحت قبضة صاحب المكاملة، وقماقم العاصمة.

في مستودع مظلم قُيد عَمَّار الذئبة من يديه ورجليه بحبل، وأُغلق فمه بغراء بلاستيكي.

منذ أكثر من ثلاث ساعات، وهو يحاول تخليص نفسه دون جدوى. أحس برعب وهو مرمي مثل رزمة بين تلك الأقذارة التي تجمعت في أرضية المستودع.

فكّر أنه لو عاد لبیت أخيه كما أمره بلميلود لما كان قد وقع في أيدي هؤلاء الغرباء.

وقف أخوه أمام بلميلود الذي قال له أريد أن أصحب معي عَمَّار .

لم يكمل جملته تدخل عَمَّار: لن أذهب معك لأي مكان .

- عطوان يطلبك في مكتبه .

مادام قد طلبك عطوان فلا بد أنه يريدك في أمر مهم ، اذهب معه ياعَمَّار. تدخل بلخوش بعدما أحس بتردد أخيه عَمَّار الذي أحس أن عطوان ماكان ليطلبه في مكتبه لو لم يخبره بلميلود بالوثائق التي أخذها من سقيفة العجوز.

منذ كشفه بلميلود وهو ينتظر اللحظة التي سيواجهه فيها الجميع بأنه سارق العجوز.

قال في نفسه لو لم آخذ تلك الأوراق لكان قد أخذها الرجال الأجانب أو أحرقت مع السقيفة.

بقي بلخوش واقفا ينظر إلى زوجته شريفة بعدما أغلق الباب وراء أخيه، والملازم بلميلود اللذين ركبا سيارة التويتوتا، واتجها نحو المكتب .

جلس المقدم على كرسي مكتبه وراح متسائلا بعد أن أخبره والده في الهاتف أن عمه عمار لم يعد للبيت، ولم يتصل منذ أن خرج مع بلميلود إلى المكتب.

أفرش أوراق ملكية المقهى التي بدت بالية لكنها لاتزال تحافظ على تماسكها من شدة عناية العجوز بها.

فكر متسائلا: أي سرّ هذا الذي يجعل كل هؤلاء يتكالبون على هذه الوثائق.

تذكر كلمات الهيسوف حينما قال له إنهم سألوا عن الوثائق وعن صندوق صغير.

أين يمكن للعجوز أن يكون قد أخفى هذا الصندوق؟ تساءل المقدم في اللحظة التي قال له بلميلود بعدما سلّمه أوراق الملكية التي أخذها من عمّار يوم سرقتها من سقيفة العجوز. أن ولد الصافي ليس سوى وسيط وأن الذين كلفوه بجلب الوثائق يريدون شيئا آخر يخص العجوز الفرنسي.

إن كانوا قد اختطفوا عمّار هذا يعني أنهم لم يجدوا شيئا في السقيفة. أضاف له بلميلود.

اختفاء العجوز في العاصمة، وحرق المقهى، واختفاء عمه جعلت من تحقيقاته عن سرّ الرعية الفرنسي غالديانو تزداد صعوبة.

قال له الملازم المخفي، مادام الديك الفرنسي في المدينة فلا بد أنه وراء كل هذه الحوادث، ومادام لم يصل إلى الوثائق فهذا يعني أنه سيظهر

مرة أخرى، أو سيتصل. وحينها سنعرف مصير عمّار، والعجوز منصور الذي قال الهيسوف أن رآه .

تدخل بلميلود وهو ينظر نحو المقدم الذي قام من كرسيه وبدأ يذرع بحيرة في بلاط مكتبه.

ليس أمامنا إلا انتظار مكالمتهم.

في تلك اللحظة رن هاتفه.

نعم

معك جمال ولد الغربي.

أهلا و مرحبا سي جمال.

إن أمكنك الوقت أريد لقاءك في أمر هام. سأل ولد الغربي

ممکن جدا.

في الفندق مساء اليوم.

نلتقي هناك. رد المقدم ثم أغلق هاتفه. متسائلا بحيرة. ماذا يريد ولد الغربي. هل يمكن أن يكون باتصاله هذا يريدني في أمر يتعلق بالانتخابات؟؟؟.

شارك شفته الأسفلى بحيرة . ثم عاد ليجلس على كرسي مكتبه مستعيدا وجه شيراز التي نسيها في زحمة انشغاله بما يحدث بالمدينة.

يمكنك الآن أن تصمت، وتركب السيارة. جاء صوت رجل وقد وضع مسدسه في رأس عمّار الذي كان لا يزال يبحث عن صوت بلميلود الذي تلاشى بعدما تلقى مكالمة المقدم من المستشفى بعد أن أمره بالاتجاه إلى قارة رويسات الجير حيث كان الرجل الخليجي يخيم .

تنهد بخوف مرددا: ماذا تريدون مني؟ ثم مشى دون أن يلتفت.

توقفت سيارة بيضاء من نوع فورغن (كومرسيال) أمام أقدامه قبل أن يدفعه الرجل داخلها بقوة .

بقي عمّار الذبابة يحاول تخليص نفسه في المستودع القذر مستعيدا هذا المشهد المرعب باحثا عن صورة وجه الرجل الذي قيده ، وأغلق له عينيه. بعدما انطلقت بهما السيارة نحو طريق وهران، في اتجاه شركات الغاز.

قال في سرّه وهو يتدسس صمت المكان هل يمكن أن يكون هذا المكان في المنطقة الصناعية؟

وقف الديك الفرنسي في غرفة جانبية للمستودع القذر بعدما رن هاتفه في اللحظة التي توقف عن الكلام مع سعيد ولد الصافي.

فتح على رقم المتصل.

أنجزت العملية بنجاح جاء الصوت من بعيد.

شكرا ميسو صحراوي. انتظر منك أن تكمل عملك.

سننتظر عودتك للعاصمة.

أغلق الديك هاتفه. وهو ينظر نحو وجه سعيد ولد الصافي.

ألم يعد ميسو خليل من العاصمة؟ سأله بعدما أحس بأن الوقت قد حان لمعرفة مدى ولاء سعيد ولد صافي له.

قال إنه سيلتقي بالرجل الكبير.

هز الديك رأسه.

هذا إن عاد من العاصمة قالها الديك في سرّه وهو يلولب في عينيه الزرقاوين مثل قط بريّ متوحش، ثم التفت مطبطا على كتف سعيد.

نحن نعول عليك أنت ميسو سعيد، لهذا جلبت لك هدية.

ثم أخذه للمستودع حيث كان عمّار الذبّية مربوطا بحبل في ركن قذر.

اندهش سعيد .

أحسن هدية ميسو قسطنطين.

الوثائق التي سلمها لك هذا الرجل كانت مزورة أليس كذلك ميسو سعيد؟
نعم للأسف ! أخبرني أخي خليل في الهاتف.

اقترب سعيد من عمّار مردداً، ثم ركله على وجهه حتى سقط منقلبا نحو
الجدار وهو يصرخ: وقعت في يدي. من سيخلصك من يدي؟

لا تتعجل ميسو سعيد.

سيخبرنا أولا عن الوثائق، وعن الصندوق أين خبأها العجوز؟ وبعد ذلك
سنسلمه لك.

دخل رجل ضخّم الجثة أصلع توجه نحو عمّار، حمله من تلابيبه مثلما
يحمل كيسا ورماه على الحائط.

صرخ عمّار بعدما ارتطم رأسه بالجدار ووقع على وجهه.

تأوه وهو يردد بصعوبة. من أنتم، أنا لا أعرف شيئا، اتركوني.

حرك الديك رأسه نحو الرجل الضخم الذي اتجه نحو عمار وأزال عنه
عصابة العينين في اللحظة التي دخل فيها الطبيب صاحب المنزر
الأبيض. بعدما تبعه رجل كان يجزّ عربةً محمّلةً بجهاز يشبه أجهزة
كشف الكذب. لكنه جهاز استنطاق مربوط بحاسوب، مع خوذة حديدية
تشبه تلك التي توضع فوق رؤوس المحكومين عليهم بالاعدام بالكرسي
الكهربائي.

أجلسه الضخم على كرسي حديدي بعدما فك وثاقه.

بدا عمّار منهارا بعدما امتلأت سترته بالدم الذي كان لا يزال ينزف من
أنفه.

قام الطبيب بمسح الدم بكتانة مبللة. ثم وضع على رأسه الخوذة التي خرج منها خيط ارتبط بجهاز الحاسوب الذي كانت شاشته الزرقاء قد بدأت تُظهر رسماً إشعاعياً لخلايا الدماغ.

أخرج الطبيب حقنته ناظراً نحو الديك الذي أشار إليه كي يبدأ في حقنه. حقن الطبيب الحقنة التي كان قد أخرجها من جيب منزره في عرق الرقبة.

ثم رفع معصمه ناظراً إلى ساعته. سننتظر مدة خمس دقائق حتى تصل الإشعاعات إلى الدماغ.

في تلك اللحظة بقي سعيد الصافي ينظر بحيرة نحو عينيَّ عمّار اللتين بدأنا نتفتح وتزداد اتساعاً.

نطق الطبيب الآن يمكنك استجوابه سيدي .

اقترب الديك ناظراً في عينيَّ عمّار.

ما اسمك.

عمّار بن عطوان.

لمن سلمت وثائق العجوز التي أخذتها من السقيفة؟

سلمته لبلميلود.

تدخل سعيد الصافي. بلميلود الدرويش !

أشار الديك بيده لسعيد، كي يبتعد.

من يكون بلميلود هذا؟

رجل من الأمن.

أي أمن تقصد.

أمن الاستخبارات.

نعم،

وابن اخيك من يكون؟

ابن أخي هو المقدم المهدي رئيس وحدة العمليات.

اذن سلمته الوثائق الأصلية.

نعم.

ومن اين جئت بالوثائق التي سلمتها لسعيد ولد الصافي.

هي نفس الوثائق أعادها لي الملازم بلميلود وهو من طلب مني أن أسلمه له.

تحرك سعيد ولد الصافي بتوتر بجانب الديك. لهذا أخرج مسدسه،
وهددني أمام الناس.

سأل المقدم ملازمه المخفي هل تعرفتم على القناص ؟

رد الملازم المخفي وهو يطالع في حاسوبه في حجرة المراقبة ملفات كل السياح الذين أقاموا في الأسبوع الماضي في فندق مكثر. مع تسجيلات الكاميرات.

قال لي العون المكلف بالمراقبة في الفندق أن شخصا غريبا أقام مدة أسبوع وكان يخرج كل صباح باكرا، ولا يعود إلى الفندق إلا مساء. وقد ترك بعض الأشياء الخاصة في غرفته، ولم يعد.

وماذا وجدتم في تلك الأشياء؟

خرائط سياحية فقط.

استعاد المقدم كلام بلميلود لحظة أن أخبره أنه فقد أثر القناص بعدما أخذته مروحية صغيرة . وحينما سأل في المطار العسكري بقارة العوينات قيل له إن المروحية تابعة للمخابرات بالعاصمة.

في تلك اللحظة صرخ المخفي.

أنظر حضرات ، هذه صورة الرجل .

كَبَّرَهَا. وبحث عن صاحبها في ملفات المؤسسة القديمة أجاب المقدم.

بعد برهة .

كما كنتُ متوقعا، الأصلع سيّدي ! قال المخفي.

تنهد المقدم هذا يعني أنهم يريدون أن يوجهوا رسالة للسيدة نيكول، وللسيد في الوقت نفسه.

بقي المخفي صامتا. في اللحظة التي طبع صورة مكبرة للأصلع،
وقدمها للمقدم.

خرج المقدم، في الرواق أخرج هاتفه، واتصل بالمساعد صفر في
العاصمة.

نعم سيادة المقدم.

هل توصلتم لشبكة المراسلين.

نحن ننتبع أثر أحد عناصر الشبكة .

جيد.

سأبعث لك صورة للرجل الذي اغتال الرجل الخليجي.

لا بد أنه سيقوم باتصال.

أوكي ، أنتظر.

اغلق المقدم هاتفه و عاد إلى حجرة مكتب المراقبة حيث كان لايزال
المقدم يبحث في السجلات وفي كاميرات المراقبة عن أثر للديك
الفرنسي.

استفاق متدلي البطن على صوت المصعد الآلي الذي لم يستطع أن يحدد هل هو يصعدُ به إلى أعلى أم ينزل به إلى الدرك الأسفل. بدا صوت حركة احتكاك عجلاته الحديدية يزداد حدّة في طبلة أذنه، حينما توقف جاء صوت آخر لحركة باب حديدي قبل أن يستشعر بيد تشدّه من ذراعه، وتسير به في بلاط الرواق الطويل. جاءت نفس اليد لتتزع عنه تلك القلمونة السوداء ليجد نفسه بعدما سلّمه أحد الرجال حقيبته أمام باب مكتب فاخر مغلف بجلد من نوع السكاي القهوي. ضغط على عينيّه محاولاً أن يتبين وجه الرجلين اللذين وقفا أمامه بلباس عسكري، بعد لحظة من الرهبة التي استوطنت مشاعره، وصله صوت من داخل قاعة المكتب يدعوه للدخول. فتح أحد الرجلين العسكريين دَقَّتِي الباب فولجَ داخل قاعة كبيرة في آخرها ظهر رجل كبير السن، ذو شعر أبيض، بدا منكبا على أوراق، و أمامه وضعت طاولة اجتماعات مستطيلة من حولها اصطفّت كراسي فاخرة، دون أن يرفع الرجل ذو الشعر الأبيض رأسه راح مادّاً ظهر راحته تجاه متدلي البطن ليقبلها، ثم ردد بصوت خافت: أنت في بيت عائلتك سي بهاء. ماكان منه إلا أن دفع بفمه نحو يد الرجل الكبير بعد أن نظر يبحث عن الرجل النحيف الذي اختفى.

مُدّعنا لرهبة تملكته من المكان، مقرباً فمه أكثر ليقبل اليد التي حملت في أحد أصابعها خاتماً ذا فُصٍّ أحمر، وآخر أخضر. فكَرَّ لابد أنه المعلم صاحب المكالمة الذي طالما سمع صوته، وسمع عنه مردداً بقهر دون أن يرفع ناظره: سعدت بمقابلتك سيدي الكبير ! خادمك بهاء الدين قالها بتذلل متحسسا أن لاشيء من الكلمات بقي على طرف لسانه سوى عبارة الولاء للرجل الذي كان وراء القوة التي جعلته إمبرطور الإعلام الأول في البلد. المتخصص في الملفات الأمنية التي كانت تصل جرائده تباعاً، وأعطت لمجمعه الإعلامي سُمعة المجمع الاحترافي المتخصص في الشأن الأمني حتى صار منافساً لغريمه السيد علاوي بل تفوق عليه لأنه استطاع أن يبقى حياً في خضم الصراعات التي كانت تحدث

بين أجنحة السلطة، و التي دفع غريمه الثمن فيها ، و انتهى كما لو أنه لم يكن.

كيف لم ينتبه أنه كان محميا طوال حياته من هذا الرجل الكبير؟

قال له صاحب المكالمة حينما سأله مرة بعدما بدأت جريدته تتعرض لمضايقات أصحاب القصر. لماذا علينا أن نصمت؟

أصمت لأنك ستصبح خادما للعائلة ذات يوم قالها له، ثم تلاشت المكالمة.

منذ ذاك الحين فضل الصمت، و مجارات التيار، مدركا أنّ كل منافسيه لن يطول بهم الوقت حتى يُسلموا لقوته، كما أدرك مع الوقت أن جماعة DRS الذين كانوا يضغطون على جريدته حتى ظن أن وراءهم صاحب المكالمة، و عرف في النهاية أنهم ليسوا سوى بؤساء لاحول ولا قوة لهم. كان عليه أن يكون في كل لحظة في موقع القوة، أو في جهتها على الأقل. لهذا صارت عبارة المعلم تتردد على لسانه منذ اليوم الذي فلتت من لسانه هذه التسمية حينما سأله سكرتيره عن المعلومات الخطيرة التي كان يقول له إن عليه أن يبقيها في الدرج حتى تنتضج على مهل. ثم ينهي كلامه: هذه من وصايا المعلم .

كان صاحب المكالمة حقا معلمه الذي رافقه منذ بداية الانفتاح الإعلامي ودفعه لتأسيس أول جريدة مع بعض أصدقائه القادمين من مدن داخلية. ثم جعله مع الوقت بعد أن بدأت تظهر فيه لوبيات جديدة على الساحة ينقلب على رفاقه الذين ناضل معهم منذ شبابه في الجامعة، مستحوذا على الجريدة. كان يقف بجانبه، ويدفعه في كل حدث ليكون في الواجهة حتى وهو يؤسس تلك الجرائد بأسماء صحفيين، ورجال أعمال آخرين، بعضهم من عائلته، وبعضهم كانوا من أتباع هذا الرجل لهذا كانت بعض جرائده لا تكف عن إطلاق الرصاص على الحكومات المتوالية، من خلال تبنيها لأطروحات المعارضة حيناً، وأطروحات القصر حيناً آخر. هذا التناقض الظاهر كان أحد أساليب قوة الرجل، وقوة هؤلاء

الذين كان يتحدث ظاهريا باسمهم. سأل نفسه وهو غير مصدق أنه يقف أمام رجل يحكم هذا البلد. من كان يقول إن مجرد صحفي بسيط في جريدة عمومية مثل الشعب في ثمنينات القرن الماضي كان سيدفع استقالته لمجرد مجازفة بعد اتصال رجل اسمه بن سليمان بالكاد عُرف عنه أنه قريب رئيس الحكومة الذي فتح المجال الإعلامي، وحرره.

دارت في رأسه هذه الأسئلة، وهو يأخذ مكانه قبل أن ينتبه لصوت الرجل الكبير: عليك أن تبدأ من الآن... التحضير للمرحلة الجديدة. أنت تعرف أنك ستكون الرجل الذي سنعتمده في المرحلة القادمة. ثم استطرد بلدنا يمر بظروف صعبة، والعالم كله يترقب انهياره. وتوَجُّهنا سيكون عربيا عربيا لهذا منحناك سلطة الإعلام لتقطع الطريق أمام أعداء مصالحنا. نعم سيدي رد دون حتى أن يفكر. أدرك جيدا خطورة المرحلة. لكني لازلت لا أستطيع العمل بحرية ضمن القوانين التي بدأت تفرضها الحكومة. خاصة مع وزير الاتصال الفرنكو فيلي.

ضحك الرجل الكبير. أنت شخصا لك مطلق الصلاحيات لتعمل بحرية، ولن يقترب منك الوزير، ولكن تحت الخط الذي نرسمه لك. رد عليه ثم أضاف له أعطيت أوامري لابن المرحوم علاوي بأن يتنازل لمجمعك على أكبر جرائده المعربة، ويبقي على الجرائد المفرنسة في نفس الخط الذي رسمناه لوالده. أما أنت فعليك أن تكون في الجهة الأخرى.

أعرف أنكم لستم سعداء بأداء الحكومة، وبالقرارات الأخيرة التي بدأ يصدرها القصر.

نحن وضعنا الحكومة، ونحن من ينهي مهامها في الوقت الذي نريد. أما القصر فمازلنا نحن من يدير شؤونه رد الرجل الكبير في اللحظة التي دخل فيها الرجل النحيف الخمسيني صاحب ربطة العنق الذي راح متجها نحو الرجل الكبير حيث انحنى نحو أذنه، وهمس له في سرية تامة بعد أن وضع بين يديه ملفا أحمر. نظر الرجل الكبير في غلاف الملف، ثم أعاده إلى يد الرجل النحيف وأشار له كي يأخذ مكانه بجانب السيد بهاء.

تفضل السيد بهاء، ستوقع صفقة شراء الجريدة.

في تلك اللحظة دخل رجل أربعيني بعد أن قبل يد الرجل الكبير آخذا مكانه بجانب السيد بهاء، وأخرج قلما وراح يوقع بيعه لأكبر جريدة معربة كانت لسان حال الديمقراطيين. ثم صافح السيد بهاء، وصافح السياف، وقام دون أن ينطق بكلمة. حينها أخرج الرجل النحيف ملفا آخر، وجلس مكانه. سوف يشرح لك السياف الخطة التي عليك أن تتبعها مع الشخصيات النافذة في الحكومة.

نعم سيدي ! قالها الرجل النحيف ناظرا نحو الملف الذي فتحه متدلي البطن على أول صفحة رتبت فيها قائمة لأسماء شخصيات. ثم أضاف له هذه الشخصيات سوف تقوم بشن دعاية ضد أعمالها الوسخة مع رجال أعمال الجهة الغربية الذين ثبت تورطهم في تجارة المخدرات. نحن سنتكفل بإرسال ملفات موازية للنائب العام. لا أريدهم أن يعودوا للحياة السياسية قالها بصوت حاد، ثم أضاف قريبا سيقدّم بعضهم طلبات استثمار في مجال الإعلام المرئي نريدك أن تقطع عليهم الطريق. اعلم أننا فتحنا لك قناتين حتى يكتمل مجمعك الإعلامي الذي يديره صهرك بن علي تحدث السياف.

ثم طلب منه قلب الصفحة الأخرى من الملف. ظهرت صور لشخصيات معروفة في الساحة الوطنية. أما هؤلاء فهم أحجار رقة الشطرنج الذين نريدك أن تدعهم إعلاميا. سجل معهم حوارات حول شهاداتهم لأن بعضهم سيكون في القائمة المقترحة في القريب لتعتلي مناصب سياسية مهمة في دواليب القصر.

حق متدلي البطن في الصور، ثم أغلق الملف قبل أن يفلت من طرف لسانه سؤالا للرجل الكبير الذي كان لحظتها يشعل غليونه. أليس هؤلاء خطرٌ على الدولة، وعلى النظام الجمهوري ؟

— فتح الرجل الكبير عن ابتسامة عريضة بعدما زفر دخان غليونه في اتجاه السقف هازا رأسه تجاه مساعده السياف: " وهل أولئك الذين

جمعتهم في قناتك ليتحدثوا عن الفساد، وليُدينَ بعضهم الجنرالات ليسوا خطرا على الجمهورية ياسي بهاء. جاءت الأوامر من مستشار القصر بأن أستاذيهم سيدي رد وهو يحرك في عينيه. نعلم ذلك، لهذا أنهينا حياة مستشار القصر ! وقد تغاضينا عليك قالها، ثم أردف أنت قم بعملك، ولا تفكر في شيء آخر. نعم سيدي رد متدلي البطن قبل أن يبدأ السيف في الحديث عن الاستراتيجية التي اتخذتها الدولة منذ منتصف الثمانينات حينما ظهرت أول حركة إسلامية مع المسمى بويا علي. ثم أضاف له بإسهاب رغم أننا كنا دوما نراقب هذه الحركة، وكل تفرعاتها، و ساعدنا الكثير منها لتتحول إلى أحزاب سياسية معتدلة إلا أننا نحن من يستطيع أن يعطي الضوء لظهورها، أو يقاتلها تحت السطح. تذكر أنك أصبحت شريكا في صناعة هؤلاء. وكما مسحنا بعضها من الوجود سوف نشكل جماعات غيرها قريباً. يمكننا القول إننا جعلناها تتشكل ! بعضها ينشط مع دول أجنبية، وبعضها الآخر مثل الخلايا النائمة يتخذ من المدن النائية، و الحدودية، وحتى من بعض الدول التي دخلت في خط المجابهة معنا بطريقة غير مباشرة قواعد خلفية لهم ليسهل عليهم تهريب الأشياء، وإدخال الأسلحة، والمخدرات بتحالف مع تلك الدول الأجنبية. لهذا نحن نعرف أين نتجه بدفة هذا البلد ياسي بهاء قالها، ثم استطرد: المرحلة القادمة التي نريدك فيها ستدار فيها الحرب في الصحراء. نحن من يحرك اللعب. يظن البعض أنها تتحرك ضد مصالحنا، وهذه هي النقطة التي نريدك أن تركز عليها، وتجعل الرأي العام يؤمن بها. في تلك اللحظة قاطعه متدلي البطن بعدما أحس برهوجة في رأسه جراء الكم الهائل من المعلومات التي بدأ الرجل النحيل يسربها له موجهها سؤاله دون أن ينتبه. لكن لو سمحت لي سيدي ! لِمَ سمحت لهم منذ البداية بالتشكل في حوضن دول عدوة؟ الأمر لا يختلف عمّا فعلناه في المرات السابقة أجاب السيف، ثم أردف هم سينظمون أنفسهم مرة أخرى، وسيقدمون ولاءهم لجماعات أخرى نحن من يشكل لهم الخلايا النائمة. وسينضمون لجماعة داعش التي شكلتها المخابرات الانجليزية كما انضم الذين سبقوهم للقاعدة التي شكلها الأمريكان، وسيسمون أنفسهم داعش المغرب العربي، أو أي اسم آخر. المهم أنهم تحت سيطرتنا ونستطيع

مراقبتهم. أما المعتدلة منها فهي مثل كل الأحزاب نحركها مع كل انتخابات جديدة لنبقي على نفس العجلة تدور، وسيكون العدو دائما هو نفسه. ما يريد العالم الغربي إقناعنا به هو أنه عدوهم سنقتنعهم نحن أيضا بأنه عدونا قال السيف قبل أن يقاطعه صوت الرجل الكبير. ليس المفروض أن تعرف كل شيء ياسي بهاء. طلبت من السيف أن يخفف من قلقك حول مسائل مهمة، لكن يبدو أنه أحرق أعصابك. أنت من هذه اللحظة صرت واحدا من خدم عائلة مجلسنا، وصارت السلطة الرابعة في يدك. عليك أن تحرص على عنقك، لأن رأسك إن وقعت في خطأ بسيط، سيفصل على هذه الطاولة.

تلمس لحظتها متدلي البطن عنقه وراح ينظر بصمت نحو عيني السيف التي فقدت تعابيرها فجأة كما لو أنه استعارها من الجحيم. هناك أموال ستصلك قريبا من بعض السفارات العربية، اعلم أننا نعلم بها كيف تأتي، وأين ستذهب، وسنعتبرها هديتنا إليك. لهذا قم بوظيفتك كما ينبغي، كما لاتنس أن تحرك حركة (بركانة) من بعيد فقط. لأنها قريبا لن يبقى لها وجود بعدما قامت بدورها قالها، ثم نفخ في غليونه مشيرا له بأن اللقاء قد انتهى.

أحس متدلي البطن وهو ينزل يده بقشعريرة، ورهبة كما لو أنه بدا عاريا بين ناظري هذا الرجل. فكّر أن هؤلاء يعرفون كل شيء، لهذا نكس رأسه مثل را هب بودي وراح منحذيا مقبلا يد الرجل الكبير، واضعا شفثيه قرب الخاتم ذي الفصين الأحمر، والأخضر مرددا. سأفعل كل ماتريدونه سيدي.

أدخل الملفات في حقيبته ووقف متجها نحو الباب الخارجي.

حينما خرج متدلي البطن أوقفه نفس الرجلين أمام عتبة الردهة قبل أن يضعاه له القلمونة السوداء على رأسه التفت خاطفا نظرة نحو رجل أثار فضوله في صالون الردهة. من حركاته عرف أنه تاجر العقارات الذي التقى به في مطعم المرأة القبائلية الكوليس يوم باعه عقار المجمع الموجود بشارع ديدوش مراد وسط العاصمة. سأل نفسه ماذا يفعل تاجر العقارات عند الرجل الكبير؟

في تلك اللحظة خرج السياف من المكتب المجاور للردهة التي احتوت على صالون كبير، وضعت في زواياه الأربعة أرائك مربعة من نوعية السكاي الرفيع، مع طاولات عريضة من الخشب الأحمر. كان تاجر العقارات يجلس على إحداها معصوب العينين متحسسا المكان بتوتر مثل أعمى بعدما جاء به رجال الرجل الكبير بنفس الطريقة التي جاءوا بها بمتدلي البطن بفارق بسيط أن خليل، تم جلبه من مطعم الكوليس حينما أوصل زوجته الصغيرة لحضور حفله عيد ميلاد صاحبة المطعم السيدة زفيرة التي كان قد وعدّها بأن يقدم لها عقارا هدية في عيد ميلادها بعدما طالبتّه ببيعها عقارا في عديد من المناسبات، حتى أن زوجته نورة قد أصرّت عليه بأن يفاجئها في عيد ميلادها بعقد الملكية.

بقي خليل متوترا خاصة بعد لقائه الأخير مع المقدم. فكّر في زوجته التي تركها تنتظره في المطعم.

لا أفهم لم تركني الرجل الكبير أنتظر كل هذا الوقت تساءل مدورا أصابعه العمياء باحثا على هاتفه الخليوي قبل أن يلتقطه من الطاولة الخشبية. أراد أن يكلمها لكنه أحجم. ماذا سأقول لها ! أعرف أنها لن تقبل عذري إن فوت عيد ميلاد صديقتها أضاف في سرّه كنت على الأقل أترك لها الهدية !

مسألة وقت يا عزيزتي، وسأحتفل معك.

تفضل سي خليل جاء صوت السيف قاطعا عنه خيط ذاكرته، ماذا يده
ليمسك بذراعه بعد أن ودع متدلي البطن أمام باب الردهة المفضي
للجهة الخلفية للفلا التي كانت تبدو مهجورة .

وقف منكشأ داخل جسده، متحسسا من أي جهة جاءه الصوت. في
اللحظة التي أمسك فيها بيده السيف تحرر جسده وراح يقف باستقامة
طبيعية قبل أن يرمي خطوته، ويده في يد السيف الذي قاده بنفسه بعدما
أشار لرجلين كانا بجواره بالابتعاد. مشيا باتجاه الرواق الضيق الموصل
لمكتب الرجل الكبير الذي كان لحظتها لا يزال ينفخ في دخان غليونه،
وأمامه طرحت بعض الأوراق القديمة الخاصة بعقد ملكية المقهى التي
كان قد أرسلها السيد خليل قبل مجيئه للعاصمة بأسبوع.

قبل أن يرفع الرجل الكبير رأسه عن الأوراق، تذكر أن مساعده قال له:
لقد فعل سي خليل المطلوب... لكني لا أعرف كيف سنتصرف مع
غريمه هوارى الذي فعل هو الآخر ما طلبناه منه، و أدخل ابن
العجوز للبلد؟

نظر إليه، ثم حرك رأسه: مشكلة خليل أنه يفكر بصوت عال، وأنا لا
أحب هذا النوع من البشر.

في تلك اللحظة دخل السيف مقدما التحية، معلنا لسيده أن ضيفه يقف
أمام عتبة الباب طالبا الإذن بالدخول. حينما رآه قد وضع غليونه على
المطفاة المربعة بجانب يده بعد أن رفع ورقة من الأوراق، وقربها إلى
وجهه، ثم أعادها لمكانها. ودفع بيده مخرجا من درج مكتبه مغلفا آخر،
وأخرج منه أوراقا مشابهة للأولى، وبدأ بمقارنتها بالأوراق المفروشة
على مكتبه. دار السيف في مكانه، و عاد أدراجه مغلقا باب المكتب،
ووقف ينظر في وجه خليل الذي كان لحظتها ممتعا كما لو أنه يسبح
في فراغ هلامي.

حقوق بتركيز كبير نحو الخط الذي كُتبت به وثيقة الاعتراف بعدما قال له رجله في المخابرات أن اعتراف الرعية الفرنسي بوجود وثائق سرية في مقهى المدينة الصحراوية حقيقة لا شك فيها.

قال في سرّه تلك المدينة معلونة منذ دخلتها أول مرة في سبعينيات القرن الماضي، وأنا أشك بأنها مدينة ليست عادية مثل المدن، حينما عينت على رأس ثكنتها الوحيدة، كنت لا أجد نفسي إلا حينما أهرع لذلك البار الصغير الذي يديره العجوز. كنت أرى تلك المدينة جميلة، وغريبة من خلال بار زينزيبار لكنني لم أصدق يوما أن تكون هناك علاقة بين الرعية الفرنسية الذي ألفت عليه المخابرات القبض، والرجل الذي التقى به خليل حينما أرسلناه إلى معبد «سانت إيجيديو» بروما ليسأل صديقه عن نية أولئك المعارضين الذين طالبوا بنشر غسيل بلدهم في الخارج بحجة إيجاد حل لأزمته. قال له يومها خليل أن الرجل سألته عن العجوز صاحب المقهى .

لم ينتبه يومها لسؤال عضو تلك الجمعية الدينية عن العجوز .

ضرب بيده طاولة المكتب.

كان على السيد ساغو أن يخبرنا بأن صديقه غالديانو من رجال المعبد.

حرك رأسه، ثم مدّ يده تحت الطاولة فضغط على الزر. لاحظتها دخل السيف مسرعا، وهو يمسك بذراع السيد خليل .

بقي الرجل الكبير يحرق في الأوراق بتوتر بعد أن تأكد أن الأوراق التي جاء بها خليل ليست لها أي معنى.

كان خليل يفكر وهو يقف في وسط قاعة المكتب معصب العينين كيف يمكنه إقناع الرجل الكبير بأنه بذل جهدا كبيرا للوصول للوثائق التي كانت مخبأة في سقيفة المقهى، و التي حصل عليها بصعوبة بعد أن اشترى أغلب العقارات المجاورة لها في المدينة، وحتى عقار قسمة

الحزب الواحد استطاع أن يحوز على جزء كبير منه بعد أن ساعده رئيس القسمة بورقعة في تزوير بعض الوثائق لأجل أن تتنازل عليه إدارة أملاك الدولة .

أقنعنا السلطات المحلية بأن المقهى ستكون أحسن موقع للمحافظة الجديدة لكن العجز رفض بيعها.

بقي منشغلا بسؤال حيّره كثيرا عن الاهتمام الكبير الذي يوليه الرجل الكبير بمقهى بائسة تركها السيد غالديانو، واهتمام الرجل الأجنبي الذي تركه هناك في مدينته ينتظر !

في تلك اللحظة وقف رجلان أمامه فجأة وراح أحدهما ينزع عنه العصابة. وقف أمامه السيف الذي أمرهما بالانصراف. ثم ابتسم في وجهه الذي بدا رماديا وهو يفتح عيذه ليرى الرجل الكبير لثاني مرة في حياته. أنت تعرف الإجراءات سي خليل. تفضل أنت في عائلتك ! وأشار له إلى جهة طولة الاجتماعات التي كان يقابلها مكتب صاحب الشعر الأبيض الذي كان مركونا في الزاوية البعيدة. رمى خليل خطوته وتبعه السيف، حينها هز صاحب الشعر الأبيض رأسه طالبا من السيف الانصراف . قبل أن يصل خليل ليأخذ مكانه في أول كرسي مقابل لطولة المكتب. ماذا تعني هذه الأوراق التي بعثتها ياسي خليل ؟ نطق الرجل الكبير بتهجم بعدما وقف ممسكا بالأوراق ورمها على وجه خليل. أليست هذه هي الأوراق التي طلبتها سيدي؟ ملكية المقهى، ومذكرة السيد غالديانو، رد السيد خليل محاولا التماسك قبل تمتد له أذرع لم يعرف كيف مسكته ورفعته، ثم أجلسه على الأريكة المقابلة لمكتب الرجل الكبير الذي كان لحظتها قد جلس على صولجانه. للأسف الأوراق الحقيقية ليست هذه، و المقهى بدون أوراق الملكية الأصلية لا تعني شيئا. أخبرني كيف حصلت على هذه الأوراق المزورة؟

صمت برهة، ثم نطق بصعوبة: في الحقيقة حصلنا عليها من أحد معارف العجز الذين يثق فيهم، وأرغمناه على إحضارها بعدما أخبرتنا أنها في السقيفة. للأسف خدعك رجلك هذا ! استبدل الأوراق الحقيقية

بهذه الأوراق المزيفة التي لا معنى لها ياسي خليل. ثم التقط قلم رصاص كان فوق الأوراق التي بعثرت على سطح الطاولة. رفعه أمام ناظرِي خليل في اللحظة التي وقف فيها السيف فجأة ممسكا برقبة خليل الذي انكمش رعبا، وراح يدفع في كلمات الرجاء التي هربت من طرف لسانه من شدة الخوف. أرجوك سيدي الكبير ، أمهلني أياما سأتيك بالأوراق الأصلية... أرجوك.

هناك أيضا صندوق آخر من إرث السيد غالديانو سوف أحضره لك ردها خليل بخوف بعدما أحس ببذل يسري في سرواله، محاولا الالتفات نحو وجه السيف الذي فقد ملامحه مثل وجه الموت.

في تلك اللحظة دخل أحد الرجال بلباس مدني وراح هامسا في أذن الرجل الكبير. لقد رصد رجالنا تحرك عناصر من قوات جيس ٢ تقترب من الفيلا.

حوّل الرجل الكبير رأسه نحو خليل قلت إرث الرجل !

نعم، سيدي.

إن سأمحك ساعات أخرى لتتنفس. ثم أشار لرجله بأنه سيكون جاهزا بعد أقل من دقيقة. أربع وعشرين ساعة لا أكثر، ولا أقل. وبعدها ودع ابنتك الوحيدة. قالها ثم خرج من الباب الخلفي لمكتبه يتبعه السيف الذي أعاد خيط القوس إلى جيبه سترته.

دخل رجلان، وقاما بتعصيب السيد خليل، وتبعوا طريق الرجل الكبير وهما يمسكانه من ذراعيه. بعدما أخذوا نفس الطريق الأسري الذي خرج منه الرجل الكبير، ومساعدته السيف ليجدا بابا سرّيا يفضي للخارج.

خرج الرجلان ممسكان بذراعي خليل، وأركباه في سيارة من نوع طويوتا بومبي كانت تنتظر.

نزع خليل العصابة من عينيه بعدما قال له الرجل الذي كان بجانبه أنت
الآن في أمان سيدي قالها العميل بعدما دخلت سيارتهم الطريق
السيار .

وصلت عناصر من قوات جيس ٢ يقودها المساعد صفر بعد أن تلقى إخبارية من أحد عملائه عن وجود اجتماع سرّي في فيلا مهجورة في جهة الشرقية من العاصمة. في اللحظة التي تعقب هذا العنصر أحد المراسلين منذ خرج من مكتبه حتى اختفى. كان المساعد قد وصل إلى المكان الذي اختفت فيه السيارات الحكومية التي أقلت المراسل متدلي البطن. ثم راح يفكر وهو يذرع عرض الطريق جيئة وذهابا متسائلا عن الجهة التي يمكن أن تكون السيارات قد سلكتها قبل أن يتفطن إلى طريق فرعي صغير يوصل للفيلات المنتشرة على شريط البحر قرب شاطئ شَنُوة. مدة ساعتين، وهو يدور في نفس المكان. في اللحظة التي فقد فيها الأمل في وجود مكان الاجتماع السري لعناصر المؤسسة القديمة، وجد أحد عناصره آثار عجلات سيارة أوصلتهم إلى طريق ترابي صغير باتجاه فيلا في غابة صنوبر مهجورة بعد أن جلب انتباهه خروج سيارة من هناك. تعقبها عميل الاستطلاع وتأكد أنها نفس سيارة الهامر التي أخذت رجل الإعلام. هتف للمساعد صفر وأخبره.

حضر صفر مع عناصره وراح مطوقا الفيلا في ذاك الظلام الدامس.

فتش عناصره كل غرف الفيلا، وما حولها فلم تعثر على شيء يثير الشكوك. كانت الفيلا مهجورة، ولا أثر لأي حياة دخلها. وقف المساعد صفر مضيقا المكان بضوء مصباح كاشف كان قد تسلمه من العميل أرزقي الذي وقف بجانبه وراح ينظر بحيرة نحو الطريق المسدود الذي وصلوا إليه. مشى المساعد بعدما عبر عتبة باب الفيلا وحده حاملا المصباح الكاشف طالبا من أرزقي انتظاره بالخارج. فكر أن شيئا مريباً يكمن وراء ذلك الصمت الرهيب الذي بدت الفيلا غارقة فيه. لم يستطع أن يصدق أنه يمكن لأصحاب المؤسسة أن يجتمعوا في مكان مهجور مثل هذا، لكنه لم يستطع أيضا أن ينفي ذلك خاصة بعد أن كشف عميله سيارة تخرج من نفس الطريق الموصل لهذه الفيلا، لهذا بقي يذرع رواق الفيلا ذهابا وإيابا. قال له المقدم حينما سلّمه ملف

المعلومات عن شبكة المراسلين التي قدمها خليل الصافي مقابل حمايته من المحتمل أن تكون لهم مقرات سرية خارج ٢٧ فيلا، وأن الجنرال حسين قاسي هو نفسه الرجل الكبير الذي يترأس المؤسسة القديمة. ثم أضاف له في أن رجل الاعلام السيد بهاء هو أحد المراسلين الذين تعتمد عليهم المؤسسة القديمة.

توقف في النهاية بعدما رمى خطواته الأخيرة. ثم عاد نحو العتبة. التفت جهة الجدار الذي انتهى به أول رواق قريبها، وراح يتلمس جوانبه. فجأة وجد نتوءا يشبه الزر. ضغط عليه فانفتح الجدار على باب مصعد. حينها تقدم إليه أرزقي مع رجلين بلباس النيجة. ودخلوا تباعا بحذر. نطق أرزقي لابد أن هؤلاء يعرفون كيف يخفون مقرات اجتماعاتهم.

سنرى أين يوصلنا هذا المصعد أجاب المساعد في اللحظة التي توقف فيها المصعد، وانفتح بابه على ردهة مثل صالون. رمى المساعد خطواته موجهها ضوء مصباحه نحو زواي الصالة حتى وصل للقاطعة. ضغط عليها فأضاءت مصابيح جانبية على صحن الصالة التي رتبت أرائك جلدية في وسطها، ثم أبصر رواقا مؤديا إلى مكتب. دخل المكتب فوجد بعض الأوراق المرمية على الطاولة. في تلك اللحظة التفت لأحد رجاله. تمكنوا من الهرب !

كان لحظتها يقف أمام الباب السري الذي انفتح حينما وضع يده محرك لوحة زيتية وضعت وراء المكتب. دلف بجسده نحو الباب السري ليجد رواقا مثل السرداب، تتبعه حتى خرج من الجهة الأخرى البعيدة من الفيلا، والتي توصل للطريق العام. قبل أن يعود أدراجه طلب من العميل أرزقي أن يعلم المخابرات كي يأتوا لأخذ البصمات من المكان. ثم حمل معه الأوراق التي كانت على طاولة المكتب، وعاد إلى مكتب السيد.

وقفت السيدة زفيرة وهي تبتسم لضيوفها الذين كان قد اكتمل عددهم تقريبا في تلك اللحظة. قالت في سرّها لم يبق إلا أنت يامراد الروح.

قلت لي إنك لن تقوت عيد ميلادي. رددتها، ثم فجأة تذكرت نظرات خادمتها شهيناز التي أبدت حنقها من الضابط البدين الذي كان لا يزال يبصر نحوها بشهوة رجل لم تبصر عيناه أنثى في حياته. حينما مرت بجانبه تلمس عجزها بإصبعه، وقال لها "سأبيع عمري لأجل وهرانية مثلك ! التفتت نحوه كانت ستقول له يمكنك أن تتبعها لأجل أمك لكنها أحجمت حينما نظرت نحوها زفيرة.

قال البدين للأصلع الذي كان يجلس مقابلا له على الطاولة بعدما رفع معصمه، ونظر نحو ساعته، ألم تقل لي إننا سنلتقي بمراد دوركال. سيأتي ! اصبر، لا أظنه سيفوت عيد ميلاد حبيبته. قالها الصحراوي وهو يرفع كأس نبيذه نحو فمه الكبير. هز البدين رأسه، ثم انغمس في صحن البيتزا التي طلبها مع بعض قطع الجبن الأحمر. نظرت شهيناز نحوهما بغرابة، ثم همست لسيدتها لماذا تركت ذاك الجلف البدين الذي لا يخل من نفسه يفسد علينا عيد ميلادك؟

اصمتي .. أرجوك هؤلاء رجال Drs. حركت شهيناز رأسها بسخرية مقهقة أكيد أنهم حولوهم من حماقير إلى العاصمة !

ولكن من قال لهم إنك تحتفلين اليوم بعيد ميلادك؟ سألتها، ثم فتحت عن ابتسامة لرجل صاحب ربطة عنق كان قد أشار لسيدتها من الزاوية المغممة. ضحك زفيرة محاولة اخفاء وجهها بظهر راحتها قبل أن تلتفت إليها شهيناز : أليست صديقتك نورة زوجة تاجر العقارات تنتظرك في البلكون؟ دعيها تنتظر، فهي لا تنتظرني بل تنتظر زوجها الذي قالت إنه سيأتي بمفاجأة. تعبت من وعودهما الكاذبة. ردت زفيرة

وهي تدفع بنفس عميق من صدرها بعدما رأت الرجل صاحب ربطة العنق يرفع يده للمرة الثانية، ويشير نحوها.

في تلك اللحظة أوقفت شهيناز سيدتها، وقالت لها ابقى أنت، أنا سأخدمه، وراحت تدفع بخطاها مثل ظئبة برية. كانت شهيناز الوهرانية بقوامها الذي يشبه نساء الكريبي تمنح المكان جوا يشبه أجواء بارات الساحل الراقي، رغم أن مطعم المرأة القبائلية كان راقيا في كل شيء حتى أضحى ملتقى العملاء، والكثير من رجال الأعمال الذين يفضلونه ليعقدوا صفقاتهم مثلما فعل الضابط البدين الذي دخل محملا بحقيبة صغيرة على كتفه مع زميله الأصلع الذي عرفته السيدة زفيرة من الهولة الأولى فأحست برعب زيارته السابقة التي أدخلتها المستشفى بعد أن زارها مع بعض رجال الأمن، لهذا أشارت لحارس الباب بأن يغض الطرف، ولا يقف في طريقهما بعد أن همس الأصلع لها أنه جاء للقاء صديقها مراد. ولم يأت ليفسد عليها عيد ميلادها. بل أضاف لها وهو يتسم أي صدفة جميلة هذه التي جعلتني أحضر هذا الاحتفال. ثم منحها باقة ورد، وقال لها عيد ميلاد سعيد مدام زفيرة.

في اللحظة التي رفع الصحراوي معصمه، ناظرا في ساعته كان مرافقه البدين قد اتجه نحو باب الخارجي هازا رأسه نحو شهيناز التي بقيت تنظر إليه بعدما جلست مع الرجل صاحب ربطة العنق، وبدأت تصب له النبيذ في كأسه. وقفت زفيرة وراء المرفع تنظر نحو الأصلع بحيرة بعدما قرب فمه نحوها مرددا : كنت أتمنى أن أحضر معك إطفاء الشموع لكن الوقت متأخر، ويبدو أن حبيبك مراد لن يأتي ليشاركك فرحك. قل لي له إن الصحراوي يتمنى لك ليلة ممتعة.

هزت رأسها دون أن تجيبه في الوقت الذي أشار له السمينه بالخروج. خرج السمينه متعجلا مع الأصلع بعدما ترك تحت طاولتهما حقيبته صغيرة. تجاوزا العتبة ليركبا سيارة من نوع فورقن توقفت قرب الباب. أقلعت بهما إقلاعةً جنوذية، بعد أن ابتعدا عن الشارع أخرج البدين جهاز صغيرة يشبه الجوال، وضغط على زر أحمر فيه، مرددا

عيد ميلاد سعيد مدام زفيرة. بعدها دوى انفجار كبير. التفت السمينه كما لو أنه تذكر شيئاً وراح ضارباً أخماساً في أسداس في وجه الأصلع: لا أدري لم لم أر صديقك اللعين يدخل المطعم.

صمت صحراوي، ثم نطق وهو يفتح على ابتسامة: المهم أن الرسالة تستصل إليه، ولن نراه بعد اليوم في طريقنا.

بدأت صفارات الحماية المدنية تصرخ قادمة من الطريق المعاكس الذي أخذته سيارة فورقن ، بعد أن تجمع فجأة الكثير من المارة الفضوليين على الرصيف المقابل لمطعم الكوليس المحترق عن كامله جراء القنبلة التي دوت في وسط قاعته الرئيسية حتى سقط الطابق الأولى على رؤوس الذين تبقوا أحياء. بدأ رجال الإسعاف يخرجون الجثث المتفحمة في تلك الفوضى والأدخنة التي حجبت الرؤية.

وصل مراد دوركال مسرعاً بعدما هاله دوي الانفجار الذي سمعه حينما اقترب من الشارع الرئيسي لمطعم الكوليس. بدت صورة زفيرة التي أحبها بين ناظريه لهذا أسرع متجاوزاً كثافة الأدخنة قبل أن يستوقفه شرطي كان يقف في الممر لكن مراد فتح له عن بطاقة عميل التي أبصرها الشرطي بصعوبة في وسط ذاك الظلام، فراح منكساً رأسه معتذراً. تفضل سيدي قالها الشرطي في اللحظة التي ابتعد عنه مراد متجاوزاً ركام الطااولات، والأخشاب المحترقة، وراح يبحث بين ركام الحجر عن صديقه زفيرة.

بدأت سيارات الإسعاف تغادر مسرعة حاملة الجرحى، وأشلاء الزبائن، وقوات الشرطة تطوق المكان مع قوات الدرك. بدأ عناصر من الشرطة العلمية يجوبون صحن المطعم المحترق، باحثين عن أي خيط يوصلهم لسبب هذا الانفجار. تنحى مراد عن طريقهم، ووقف جامداً بعدما أعياه البحث في اللحظة التي همس له أحد الضباط الذين كانوا يقفون في الممر المؤدي لصالة: للأسف سيد مراد ! يبدو أن شرارة كهربائية قد أحدثت هذه الكارثة. ثم أضاف له بعدما أحس بتحديقه: إن كنت تبحث عن أحد للأسف لم ينج، ولا واحد من الذين

كانوا في الصالة ساعة الانفجار سوى صاحبة المطعم التي وجدناها تحت مرفع البار، وقد نقلت لمستشفى مصطفى باشا في حالة خطيرة، ولا اعتقد أنها ستنجو. كما أننا لحد الساعة لا نعرف كم هو عدد الضحايا الذين كانوا يحتفلون. هز مراد رأسه دون أن يجيبه، ثم خرج مسرعا نحو مستشفى مصطفى باشا. في الوقت الذي أبصر سيارة من نوع هامر تنزل خليل الصافي الذي نزل مسرعا هو الآخر بعدما توقفت سيارته أمام المطعم المحترق.

بعد أيام من حادثة المطعم التي قيدت في سجلات الأمن ضد مجهول، وأرجعت الصحافة الانفجار حسب شهود عيان أنه يعود لشرارة كهربائية. وقف المساعد صَفَر حائرا بعد أن تلقى مكالمة هاتفية من مراد دوركال الذي قال له أن العملية مدبرة من عناصر المؤسسة القديمة ، وأنه قد حصل على تسجيلات كاميرات شارع المطعم التي كانت قد اختفت مباشرة بعد الحادث واستبدلت بتسجيلات أخرى.

ارسل المساعد العميل أرزقي الذي أحضر التسجيلات .

بدا على وجه المساعد صَفَر نوع من الحيرة وهو يتتبع في شاشة البلازما الكبيرة في حجرة المراقبة صور كاميرات الشارع المؤدي للمطعم حيث جلس عون المراقبة، وبجانبه العميل أرزقي وهما يتابعان بتركيز.

حينما رأوا رجلين يصعدان سيارة الفورغن قال المساعد. ارجع الصورة. أريد تكبيرا لصورة الرجلين اللذين صعدا فيها و لوحة ترقيم السيارة.

كبر أرزقي صورة الرجلين، ثم طبعها وأخرجها، ومدّها للمساعد.

حرك المساعد رأسه. ماقاله مراد صحيح هذه ثالث عملية يقوم بها الأصلع مع السمينة.

التفت المساعد جهة عميل مراقبة آخر كان يجلس في الجهة الأخرى للحجرة الذي قال للمساعد. سيدي تعال بسرعة .

قفز المساعد مع أرزقي نحو حاسوب العميل الذي أشار بالفأرة بعدما وقف الصورة.

لقد توقفت هذه الشاحنة منذ أكثر من ساعة أمام باب مركز البث الاعلامي.

أليس هذا هو نفس الشارع الذي وجدتم خارطته في المستودع قال المساعد لأرزقي.

نعم لقد وجد المقدم مهدي بعض الخرائط التي يعتقد أنها تشير إلى أهداف معينة كان يراد تفجيرها.

هز المساعد رأسه بعدما طلب من أرزقي إحضار الخريطة.

أحضرها أرزقي بسرعة ثم فرشها أمام المساعد.

وبدأ يقارن. مركز البث الإذاعي ببوزريعة.

نقل عميل المراقبة صور كل كاميرات الشوارع المشتبه في أن توضع فيها متفجرات في مربع كبير على شاشة البلازما الكبيرة. في اللحظة التي قال له المساعد توقف عند كاميرا شارع مركز البث.

توقف عون المراقبة عند شاحنة نقل صغيرة بدا وجودها أمام مركز البث الإذاعي والتفزيوني مريباً.

أعد الصورة من بداية الشارع. أضاف المساعد

أعاد عون المراقبة إرجاع حركة الصورة.

أضاف له: أريد صورة مكبرة للسائق.

كبر عون المراقبة من حجم صورة السائق، ثم قام بمسحها ضوئياً، وتحليلها ومقارنتها مع صور المشتبه فيهم.

حرك أرزقي رأسه ناطقاً. هذا رجل متابع قضائياً.

أضاف عون المراقبة: إراهابي تائب من العناصر التي استفادت من المصالحة الوطنية.

أطلق سراحه مع أحداث سجن سرکاجي.

التفت نحو أرزقي . عليك أن تتصل بالمخابرات قال المساعد صفر.

اليوم هو الذكرى المزدوجة لاسترجاع التلفزيون، والاذاعة وسيقوم وزير الاتصال بزيارة رسمية إلى المركز.

هؤلاء يريدون تفجير مركز البث الاذاعي. نطق أرزقي وهو يتحدث مع رجل المخابرات.

في تلك اللحظة خرج المساعد صفر مسرعا من حجرة المراقبة، وتبعه العميل أرزقي، وعميلان مختصّان في تفكيك المتفجرات من عملاء وحدة سمير.

بقي مراد دور كال واقفا على قبر زفيرة التي شيعها مع بعض عملاء وحدة سمير في مقبرة سيدي امحمد .

فكّر أنه لن يفوت للأصلع مافعله.

حينما قال للمساعد صفر الذي عزاه في المستشفى أن ماحدث ليس شرارة كهربائية بل تفجير إرهابي قام به الأصلع وأنه سيتحرك، ولن يبقى مكتوف الأيدي.

نظر إليه المساعد.

أعدك أننا سنصل إليه، ولكن علينا أولا أن نجد تسجيلات كاميرات الشارع التي اختفت.

حرك مراد رأسه . سأجدهم

فكّر يومها المساعد بأن هؤلاء الذين فجروا المطعم لن يتوقفوا لهذا أمر عملاء المراقبة بمتابعة كاميرات التسجيل في كل الشوارع المؤدية لمراكز الدولة الحساسة. ثم نطق سنوقفهم عند حدهم .

في تلك اللحظة رن هاتف مراد.

لقد وصلنا لأثر أحدهم. أنت عش حزنك، وبعد ها سأمنحك رأس الاصلع. جاء صوت المساعد من بعيد.

نعم.

أجاب مراد دور كال ببرودة ثم أغلق هاتفه وراح يصبّ الماء على جنبات قبر زفيرة.

توقف سيارة المساعد أمام بوابة مركز البث بعدما طوقت عناصر التدخل السريع المكان قبل ساعة من الزيارة المرتقبة لوزير الاتصال.

في تلك اللحظة كان السمينه مع رجلين يقومون بتنشيط آخر متفجر من المتفجرات الأربعة التي زرعوها في أساسات قبو عمارة مركز البث الإذاعي والتلفزيوني حيث دخلوا بلباس عمال الصيانة بعدما فتح لهم أحد العمال المتواطئين باب القبو، ودخلوا دون أن ينتبه لهم أحد .

بقي المساعد ينظر داخل ردهة المركز بعدما أعلم رجال الأمن بأن يقوموا بعملهم بصورة طبيعية.

أرزقي هل تسمعي ؟

نعم حضرات.

عليك بالبحث عن عمال الصيانة، من أي جهة دخلوا.

بقي أرزقي يتابع في حجرة كاميرات المراقبة كل الفيديوهاات التي سجلت منذ صباح ذاك اليوم حتى توصل للشاحنة الصغيرة التي نزل منها ثلاثة أفراد بلباس عمال الصيانة.

سيدي دخل ثلاثة رجال إلى قبو الصيانة وراء العمارة.

حسنا، بلغ الشرطة بأن تخلي العمارة بهدوء.

التف المساعد صَفَر خلف العمارة، وراح متجها نحو باب صغير حديدي يؤدي إلى القبو . وجده مفتوحا . دخل بهدوء بعدما أخرج مسدسه وراح ينزل عبر المدرج الحديدي . تناهى إلى سمعه صوت السمينه، وهو يحث رجليه بأن يسرع في تركيب المتفجر الأخير .

اقترب المساعد ناظرا بحذر نحو رجلين كانا منشغلين بصمت في ضبط محدد التوقيت للقنبلة.

في تلك اللحظة خرج لهم المساعد مصوبا مسدسه نحوهم: ارفعوا أيديكم، ولا حركة، وإلا أطلقت النار.

دار السمينية ملتفتا ماسكا بجهاز التفجير، في الوقت الذي بقي الإرهابي الثاني رافعا ليديه، بقي الآخر يمسك بخيط القنبلة وراح يربطه بآخر. تحرك السمينية جهة سارية الإسمنت في اللحظة التي أطلق فيها المساعد صفر النار فأصاب ذراعه فسقط المفجر. تراجع الإرهابي الأول وبدأ تراشق بالرصاص، أصيب الرجل الذي كان يمسك بخيط القنبلة فتهاولى تحت السارية. و بقي السمينية يتراجع بعدما التقط المفجر وراح يهدد بنفس المكان، محاولا الضغط على زر المفجر .

أنزل سلاحك، وإلا فجرت المكان.

تقدم المساعد بالقرب من الصندوق الحديدي الكبير الذي كان في طريقه، ثم راح متقدما رافعا يديه بهدوء مرددا

حاضر. سأفعل ماتريد لكن لا تضغط على المفجر.

في تلك اللحظة أطلق الإرهابي الثاني الذي كان ساقطا على الأرض النار نحو المساعد الذي قفز وراء الصندوق الحديدي الكبير مُطلقاً النار نحو يد السمينية فأصابه في ذراعه لينفلت منه جهاز التفجير.

سقط السمينية متأوها ، ثم حاول الزحف نحو السارية التي كانت بجواره، وراح يتوجع وهو يشد على جرحه النازف. أمسك بيده الأخرى مسدسه وبدأ يتبادل إطلاق النار مع المساعد.

التحق العميل أرزقي، ورجال التدخل السريع .

عليكم أن تسلموا أنفسكم المكان محاصر. ردد العميل أرزقي

نظر السمينة نحو جثتي رجلية اللذين سقط بالقرب منه ، في الوقت الذي لم يبق في ذخيرته أكثر من رصاصتين. فكّر أن عليه أن يزحف مرة أخرى نحو المفجر لكن أرزقي تنبه له فصوب رصاصه نحو السارية حيث بقي السمينة يمدد رجلية و ينتظر بلهث.

وقف المساعد مصوباً رصاصات متابعة نحو السارية، ثم تلتته رصاصات رجال التدخل السريع.

لم يستطع السمينة أن يرى شيئاً فبقي متخذقاً وراء السارية الإسمنتية ماسكاً بذراعه التي كانت تنزف بغزارة، أرخى يده الأخرى فسقط منها مسدسه بقرب القنبلة التي لم يُنهِ رجله تركيبها في اللحظة التي وقف على رأسه العميل أرزقي بعدما دفع بقدمه المسدس بعيداً.

تجمع عناصر من التدخل السريع على رأس السمينة الذي حاول الوقوف رافعاً يديه بصعوبة وهو يئن من الوجع.

قيده المساعد صفر، ودفع به نحوهم، ثم أشار لفرقة نزع المتفجرات بالتدخل السريع بعدما دخل رجالها بخطى سريعة متجهين نحو المتفجر الذي كان لحظتها في دقائقه الأخيرة قبل الانفجار.

على الجميع مغادرة المكان بسرعة صرخ المساعد صفر

في تلك اللحظة اقترب أحد عناصر فرقة نزع المتفجرات بعدما مسك بيده خيطين خيطاً أصفر، وآخر أحمر، كان قد أخرجهما بصعوبة من أسفل المتفجر . أخرج كلاً قاطعاً من جرابه . ثم راح يبصر في نوع المتفجر .

اقترب منه المساعد كان التوقيت لحظتها في الثواني الأخيرة.

الخيط الأحمر الصغير الذي يربط الدارة نطق المساعد.

ضغط الملازم على الكلاب القاطع فقطع الخيط الأحمر، فتوقف العداد في الثانية الأخيرة.

زفر المساعد بعدما خارت قواها. الحمد لله

دار الملازم نحوه وهو يتصبب عرقاً. كل شيء على مايرام سيدي.

دفع المساعد بيده. الحمد لله أنهم لم يشغلوا عداد القنابل الأخرى وإلا كانت الكارثة. ثم التفت نحو أرزقي أنت أيضاً قمت بعمل رائع سيادة الملازم.

خرج أرزقي بعد أن نادى عليه أحد العملاء الذي كان لا يزال يمسك بذراع السمينة وهو يدخله إلى السيارة.

في اللحظة التي نقل فيها العميل أرزقي السمينة إلى مقر وحدة سمير بعدما تحدث مع رائد الشرطة بأن يعلم المخابرات بأن الإرهابي البدين سيسلم لهم حين إنهاء التحقيق معه.

قال المساعد صفر لرائد الشرطة .

لا أريد أن يصل الخبر للصحافة. عليكم أن تؤمنوا زيارة الوزير .

نعم سيدي أجاب الرائد بعدما أمر رجال الإسعاف بنقل جثتي الإرهابيين إلى براد مستشفى عين النعجة.

طرق سليم باب الغرفة التي جلس فيها سيده خليل بحزن مستعيدا وجه زوجته نورة التي أقام لها عزاء خفيفا في العاصمة، وعاد مع مساعده سليم للمدينة.

وبقي يعيش حزنه في غرفته، أسبوع كامل وهو يقارع الخمر ويرفض أن يتحدث إلى أحد. كان كلما شعر بعودة وعيه تحرك في رأسه صوت الرجل الكبير الذي أرسل إليه السيف ليحضر مكانه في الجنازة وراح يذكره بالمهلة .

البركة فيك المهلة ستتقضي بعد ٢٤ ساعة من الآن، ثم أضاف له : نحن متأسفون . هز رأسه دون أن يجيبه ثم قال لرجاله علينا أن نعود للمدينة.

أغمض عينيه حاسا باختناق. فكر بالخروج إلى صالة الفيلا.

في تلك اللحظة انتبه للطرق الخفيف قبل أن يدخل مساعده سليم .

المقدم جاء لتعزيتك سيدي .

هز رأسه . سأنزل إليه، ثم أضاف له. أريدك أن تأتي بأخي سعيد أينما كان.

لقد بحث عنه رجالنا ولم يجده .

لا أريدك أن تتوقف عن البحث ، لابد أنه في مكان ما مع الرجل الأجنبي أضاف خليل وهو يحاول التماسك .

هز سليم رأسه حاضر سيدي، ثم خرج.

بقي المقدم المهدي جالسا ينظر نحو الصور المعلقة في جدارن الصالة التي أحس أنها تشبه صالات القصور.

أهلا بالمقدم عطوان. جاء صوت خليل مخدوشا وهو ينزل من درج السلم.

وقف المقدم. سلامة رأسك. ربي يبذل المحبة بالصبر.

شكرا. ماطراً عليك شرّ

حينما أنهى مصافحته، أشار له بالجلوس.

أعذرني. تأخرت عن واجب العزاء .

لا عليك سيادة المقدم. أعرف أن مشاكل البلد ليست هينة .

لهذا عليك أن تحذر.

حرك خليل رأسه متنهدا قبل أن يضيف له المقدم

في الحقيقة جئت أزف لك خبرا عن منفي عملية المطعم.

لقد ألقى القبض على أحدهم.

هز خليل رأسه. إذن عرفتكم من فعلها !

عناصر من المؤسسة القديمة. رجل يطلق عليها اسم السمينة.

بقي خليل ينصت للمعلومات التي أخبره بها المقدم قبل أن يحذره مرة أخرى.

لم يعد هناك شيء يهمني، لقد خرجت معك إلى الطريق، ولن أراجع.

هز المقدم رأسه.

هذا ماكنت أريد أسمعه منك سي خليل.

ودع خليل المقدم أمام باب الفيلا، وعاد أدراجه متحسسا ثقلا و وجعا في صدره. متسائلا ماذا يعني المقدم بكلامه.

هل يكون قد حكم على أخي بالموت؟ !

جاءت فكرة العملية ضد القصر من السيد صحراوي الذي كان متواجدا في فيلا السيد زروقي الذي كان مكلفا بإدارة الحرس الجمهوري .

التقى الصحراوي بأحد عناصر المؤسسة الذي اشتغل معنا في سنوات المحنة في مكافحة الإرهاب، وقد كان مكلفا بقيادة عناصر من الشرطة التي تحرس القصر .

وضع صحراوي الخطة، وجمعنا نحن الثلاثة وقال إنه يريد أن يضع حدا لكل التسبب الذي بدأ ينخر سياسة هذا البلد.

حينما قال له الرائد زروقي. إن اغتيال الرئيس خط أحمر.

ابتسم الصحراوي وقال له.

نحن لايهمنا الرئيس. هدفنا هو المستشار.

لحظتها قال زروقي أن أحسن وقت يمكن أن تنفذ فيه العملية بنجاح هو أثناء الاجتماع المرتقب بين المستشار، والرئيس الذي يجري عادة في آخر الليل.

ثم أضاف أنه مضطر لعدم المشاركة معنا لأنه سيكون في مهمة في الصين.

والباقي أنتم تعرفونه.

من أعطى الأمر بتصفية المستشار.

السيد قسطنطين.

إن الأصلع هو من قتل المستشار؟

ضحك السمينه . لو كنا نعرف أنكم تفكرون مثلنا بتصفيته ما كنا أتعبنا أنفسنا.

حرك المساعد رأسه مرددا في سرّه الخبيث. ثم نطق: دعنا من المستشار، وماذا عن عملية الرجل الخليجي. أليست من تخطيط المخابرات الفرنسية أيضا.

نعم لقد كُلف السيد قسطنطين بالتخلص من العميل الأمريكي. لهذا كلف الأصلع بالعملية وكلفني أنا بعملية وزير الاتصال.

ألا ترون ماوصل إليه بلدنا. قال المساعد

فرنسا لا يمكنها أن تترك هذا البلد خاصة بعد أن صرتم تضعون يديكم في أيدي الأمريكان.

كان على الفرنسيين أن ينتقموا لما وقع لهم في حادثة طابيا خاصة بعد أن غَضَّ الجانب الأمريكي الطرف أمام التدخل العنيف لوحداث الجيش. لهذا كان السيد حاتم عدنان داخل هذه اللعبة لأنه قام بالتنسيق بين القصر والسيدة نيكول.

أين يمكن أن نعثر على أثر صحراوي؟

صمت السمينه.

لا يمكنكم الوصول إليه.

أنت قل، ولا تفكر كيف سنصل إليه. هيّا لا أريدك تضيع لي وقتي

ثم تلمس المطرقة الحديدية بيده.

حسنا.

ستجدونه عند الرجل الكبير.

أين يمكننا أن نجد مقره؟ سأل المساعد

لا أعرف.

هز المساعد رأسه، لاتعرف ! ثم التفت نحو أرزقي. يمكنكم علاجه، و تسليمه للشرطة.

ستنتهي حياتك أيها المساعد نطقها الرجل الاسمينه وهو يضحك ساخرا. قبل أن يضربه أرزقي بكلمة أوقعته على الارض.

هز المساعد رأسه وخرج من حجرة التحقيق متجها نحو مكتبه. في تلك اللحظة رن هاتفه.

فتحه.

نعم سعيد.

لقد وجدنا جثة العجوز منصور بجانب قبر الرومية بتيازة.

كيف حدث ذلك سأل المساعد صَفَر بهلع، متذكرا ما قال له المقدم أن عليه أن يحرص على البحث عن عجوز المقهى الذي اختفى في العاصمة حينما كان يريد أن يلتقي بابنه مصطفى.

سأكون هناك .

أغلق جهاز هاتفه وخرج بعدما ركب سيارته، وأقلع صوب مدينة تيازة.

بعد أن عاد المقدم من لقائه بالسيد خليل. جلس في مكتبه بعدما أخرج الرسائل التي سلمها له ولد الغربي .

فكر أن عليه أن ينهي أمر سعيد ولد الصافي. فتح جهاز هاتفه . و طلب ملازمه.

أين أنت؟

في حجرة المراقبة .

تعال إلى المكتب . ثم أغلق جهاز هاتفه.

بقي ينظر نحو الرسائل التي فرشها على طاولة مكتبة ، ثم توقف عند الرسالة الأخيرة مستعيدا وجه ولد الغربي حينما دعاه إلى مقهى فندق مكثر. جلس ينظر إليه بعدما بدأ يثرثر عن المدينة، وعن السياسة وعن كل شيء كما لو أنه كان محتاجا إلى من يفرغ فيه دلو مشاغله. صمت عطوان وهو يُحدّق، ثم ابتسم في وجه ولد الغربي. أعرف أنك تستطيع مساعدتنا ، لهذا أريد أن أسلمك أمانة ابن عمي المرحوم نصر الدين. قالها، ثم أخرج ظرفا متوسط الحجم، و وضعه أمامه. تفضل! أريدك أن تضع سعيد ولد الصافي وراء قضبان السجن.

بقي عطوان صامتا لبرهة وهو ينظر نحو الظرف ثم نطق: ولماذا لم تسلمه للنائب العام، أو لمحافظ الشرطة قبل أن تغلق قضية ابن عمك. ضحك ولد الغربي. أتريدهم أن يجروني لمستشفى سيد الأشحمي مثلما فعلوا مع المرحوم!

ضحك دافعا يده ملتقطا المغلف. وهل فعلوا معه ذلك حقا؟

بلى، وقتلوه بطريقة بشعة أيضا !

أراد عطوان لحظتها أن يقول له أعرف من قتله، ولماذا قتله ! لكنه أحجم عن ذلك حينما أحس أن ولد الغربي سيجدها فرصة ليبدأ في ثرثرته السياسية. ثم فتح المغلف وبدأ يقرأ أول رسالة كتب فيها عامل المزرعة عن الشاحنات التي كانت تدخل وتخرج من المزرعة محملة بالمخدرات خاصة شحنات الهروين التي كان يصنعها prouf البروف السوري.

كان يعرف أن ولد الصافي من البرونات الكبار الذين يتاجرون في كل شيء لهذا أحس أن الأمر ليس غريبا خاصة أن ارتباطات أولاد الصافي كانت دائما مع أوساط في السلطة، لهذا كانوا دائما يلعبون دور المخبر في تتبع حركات المهربين العالمين، وارتباطاتهم بشبكات الإرهاب . نظر نحو ولد الغربي، ثم أدخل الرسالة الأولى في المغلف وهو يحرك في رأسه. لا أستطيع أن أعدك بشيء سأتحقق أولا من هذه المعلومات، ثم أعلمك لأن الاتهامات التي يردد ها الشارع منذ موت ابن عمك لا يمكن أن تبني عليها قضية ضد ولد الصافي.

أنت تعرف ياسي عطوان، أنني من زمن طويل أخوض حربا ضد هؤلاء. ولكن بعد أن وصل الأمر لقتل قريبي، وحرقت الهيسوف المسكين. فلن أصمت. سوف أفصح ولد الصافي، ولن أتوقف حتى أراه مكبلا بالحديد أو ميتا. أفهمك ! لكن اعلم أن البلد فيها قانون يا سي جمال رد عطوان بعدما وضع المغلف تحت إبطه ناظرا لساعته، ثم مدّ له يده وهو لا يزال يردد: أي قانون يا ولد عمي بلخوش، ربي يهديك، مادام ذاك المحافظ الفاسد على رأس شرطة المدينة لن تصل تحقيقاتهم إلى شيء. فكّرت أنك تركت السياسة! رد عطوان مبتسما بعد أن قام من مكانه.

مدّ ولد الغربي يده: على كل حال، شكرا لأنك قبلت مقابلاتي. كنت سعيدا بلقائك سي جمال، إن جدّ أي جديد سأصل بك. رد عطوان وهو يغادر مقهى فندق أكثر.

في تلك اللحظة استفاق المقدم على صوت ملازمه المخفي الذي وقف فوق رأسه " لقد حددنا مكان عمك عمّار "

انتبه المقدم وهو يردد جيد. كنت طلبتك لهذا الأمر. ثم قام من كرسيه بعدما ارتدى معطفه، وخرج مع ملازمه متجهين نحو المزرعة .

دخل رجل من رجال سعيد ولد الصافي.

ثم راح هامسا في أذن سيده :

لقد جاء سليم .

هز رأسه.

أريدكم أن تحرصوا على بقاء عمّار حيا حتى أعود.

نعم سيدي.

ثم خرج إلى ساحة المزرعة حيث وجد سليم العاصمي ينتظره.

هل عاد الحاج من العاصمة.

نعم، منذ أسبوع ونحن نبحث عنك، لهذا جئت إليك عرفت أنك عدت للمزرعة، هو يريدك حالا.

نعم . اذهب أنت، سألق بك.

أحس سعيد أن أخاه مادام قد بحث عنه وطلبه للحضور بهذه السرعة فلا بد أنه قد عرف كل شيء، وأنه سيقوم بتهديده مرة أخرى بعد أن هددته في آخر لقاء قبل أن يذهب للعاصمة. بقي يسترجع صوته الحاد الذي ما كان له أن يدفع الثمن بقتل زوجته لو لم يقف في وجه الكبار. قال له قبل ذهابه إليهم وهو ينظر إلى وجهه بعدما أخبره أن غريمه الوهراني هو شريك ابن العجوز. لِمَ لم تخبرني؟ ألا تعرف أنه يريد أخذ مكاني في مجلس الرجل الكبير. صمت سعيد ثم أضاف: كان علي أن أضغط على عمّار الذبيبة، كي يخبرني بهذا السرّ .

- ألم تقل لي إنه من رجالك !، كيف استطاع أن يخدعنا؟

تردد صدى هذه العبارة في رأس سعيد وهو يقترب من الوصول إلى الفيلا. قال في سرّه وهو يفتح عن ابتسامة عريضة .

لقد تدبرت أمري مع عمّار، وهو الآن مرمي تحت حراسة رجالنا في مستودع المزرعة. لقد عرفت أنه يتلاعب بنا منذ أن ظهر ابن أخيه بلخوش. لهذا هو الآن يأخذ أزفلت ٢٠ من رجالي.

كان عمّار لحظتها، يتلقى الضربات المتتالية وهو مربوط على سارية في غرفة باردة تشبه السيلون ٢١ داخل المستودع الأسود. كان الرجل صاحب الوشم يضربه على وجهه دون توقف، وعمّار يصرخ حتى يفقد الوعي، ثم يقوم رجل آخر برمي دلو ماء بارد على وجهه الذي تغطي بالدم، قبل أن يتدخل رجل ثالث كان يرتدي كوستيم أسود، ونظارات سوداء مشيراً لهما بأن يكفا عن تعذيبه حتى لا يموت .

توقفا عن ضربه، لا نريده أن يموت.

أراد صاحب الوشم أن يرد عليه بأن أوامر السيد سعيد بأن لا يتركاه حتى يعترف بمكان الصندوق.

كان عمّار لا يزال يئن بعدما أحس ببرودة تعتمر جسده النحيل، وهو يردد بصوت خافت " لا أعرف شيئاً، أتركوني..." لحظتها دار صاحب النظارات السوداء في مكانه وراح نحو الزاوية حيث جلب معه حاوية بنزين وراح يصبها على رأسه، وقرب القداحة من وجهه. نطق عمّار صارخاً وهو ييكي سأخبركم سأخبركم. أسمعك قال صاحب النظارات السوداء؟ لقد أخذها مني ابن أخي عطوان .

20أزفلت تعني العصا بالامزيغية

21زنزانة صغيرة

قال الرجل الثاني بعدما أشار لصاحب النظارات بأن يتوقف: أعتقد أنه صادق يا سيدي، لقد أخبرنا بكل هذا منذ أن جننا به إلى هنا ونحن نضربه، وهو يردد نفس الكلمات، لو كان يعرف شيئاً آخر لكان أخبرنا.

بدأت الصورة مظلمة وبدأ رجال السيد سعيد مثل خيالات الظل أمام ناظريه، كان يفكر أنه يستحق أن يموت في تلك اللحظة لأنه خان أخاه بلخوش وصديقه منذور حينما وافق على التجسس عليهما لصالح ولد الصافي ، ولولاه لما كانوا أحرقوا المقهى .

أحس عمّار بأوجاع تنخر روحه لهذا راح مستسلماً لجلاديه وهو يردد بأنين لازمة: لا أعرف شيئاً أكثر مما قلته لكم.... لا أعرف شيئاً . وصاحب النظارات يردد وأين العلبة..... أين العلبة؟ سأل مرتين ثم ضربه بظاهر كفه على وجهه حتى سقط مغمياً عليه. ثم راح يخرج هاتفه ممرراً أصابعه .

نعم .

اسمعني جيداً مسيو عطوان عمك في قبضتي إن لم تسلمني العلبة و الوثائق سوف أحرقه مثلما أحرقت المقهى. ثم أغلق الهاتف.

وصل المساعد صَفَر إلى مكان الذي وجدت في جثة العجوز.

ألقى نظرة على وجه العجوز الذي كان لا يزال مغطى بإزار أبيض.

ثم أغمض عينيه متحسسا وجه المقدم الذي كان قد حدثه عن علاقته به .
مشى خطوتين وبجانبه رائد الشرطة.

يبدو أن العجوز مات مطعوناً بخنجر. وجدنا طعنتين في القلب قال
الرائد سعيد، ثم أضاف هناك شاهد . حارس قبر الرومية. يقول إنه سمع
صوتا. فعندما التف حول القبر وجد العجوز ملقى على الأرض ورأى
سكيرا يهرب في اتجاه البحر.

عليكم أن تبحثوا عن كل السكارى الذين كانوا يرتدون هذا المكان في
الليل.

قالها المساعد، ثم راح متجها نحو سيارته. في الطريق فكر أن عليه أن
يخبر المقدم. أخرج هاتفه حرك أصابعه التي أحسها متجمدة على
أرقام الهاتف.

جاء الصوت من بعيد.

اسمع .

وجدنا العجوز. قالها بصوت مجروح، ثم صمت.

كان المقدم لحظتها يقترب من المزرعة في اللحظة التي تبدل لون
وجهه. وأشار لملازمه المخفي بالتوقف.

أغمض عينيه في اللحظة التي جاءه صوت الملازم بجانبه.

خير إن شاء الله سيادة المقدم.

لقد اغتيل العجوز.

انجست دمة حارة من محجر عطوان . فكر في والده وفي أمه وعمّه
عمار وكل الذين كانوا يحبون العجوز .

نطق بحزن سأذهب للعاصمة قال المقدم. بعدما أشار لملازمه بأن يعود
بهم للبيت.

وماذا عن الرجل الاجنبي الذي هدد بحرق عمّار.

لن يفعل شيئاً.

عد بنا سنؤجل أمره.

جلس خليل في بهو الفيلا ينتظر أخاه بتوتر مستعيد وحدته.

مرددا في نفسه أنه سبب موتها. ثم تذكر ما قاله لأخيه الذي عزاه في الهاتف وبقي يحدثه ويصرخ كما لو أنه أصيب بنوبة جنون مرددا أنه لن يهنأ حتى ينتقم من كل الذين تسببوا لهم بالألم. ثم أضاف له بصوت لاهت من وراء الهاتف: لن أستطيع انتظارك يا أخي حتى تعود؟

فكر خليل أنَّ أخاه لا بد أنه ارتكب حماقة مثل تلك التي ارتكبها في مقهى العجوز لهذا ردد في سره لن أتحمل صراعا جديدا مع أي جهة أخرى قد تدمر كل شيء بئنيته. وقف صامتا بعدما أحس أن شيئا مثل العُمة بدأ يخنق أنفاسه فراح يذرع بلاط صالة الضيوف ، مُلتفتا جهة الباب هازا كتفه، مكلما نفسه من حين لآخر بغضب قبل أن تمر بجانبه الخادمة مبروكة بخطاها المترددة متجهة في طريقها إلى المطبخ ، دون أن ينتبه راح يردد بهلوسة فجأة. الأصلع، وأرباب العاصمة من جهة. وشقيقي من جهة أخرى. الكل يريد تحطيمي. قالها قبل أن ينتبه لوجهه الذي احتقن بالخوف عندما رفع معصمه لا إراديا كما لو أنه في سباق جنوني مع الوقت. جاءه صوت الخادمة مرتجفا بعد أن تسمرت أمامه مذعورة: ماذا حدث يا سيدي؟ إن شاء الله خير ! . (شكون هدر معاك أنت يا وجه النحس.....(درفي) عليا وجهك ! لم يبق لي إلا أنت !) بحق صرخ في وجهها دافعا بيده في الهواء بعدما أحسها تراجعت بذعر محاولة الهروب نحو رواق المطبخ . حبسي مكانك....جيبني لي فنجان قهوة (مزيرة) أردف وهو يضع راحته على الأريكة. نعم سيدي ردت بارتجاف.

كانت تعرف أن سيدها منذ أن ماتت زوجته العاصمة لم يعد يتحكم في أعصابه بعدما رأت الخوف في عينيه اللتين دخلتا في محجريهما حتى بدتا كما لو أنهما تدوران في غير اتجاه. في تلك اللحظة الجنازية التي

أطبقت منذ أكثر من أسبوع على الفيلا . بقي خليل يدور في مكانه محاولا ابتلاع حبات الريق التي علقت تحت لسانه بعد أن تناول دواء الأعصاب الذي جلبه معه من العاصمة. دارت في رأسه كلمات أخيه يوم سلّمه أوراق الملكية: لقد حصلنا عليها دون أي تعب. يكفي أن تمسك الواحد منهم من اليد التي توجعه وسوف ترى ما الذي يستطيع فعله ! كان يردد ها وهو يقهقه، ثم أضاف، و إن تعذر الأمر الأصلح موجود.

نظر إليه يومها وراح منذشيا وهو يفكر أنه سيضرب عصفورين بحجر واحد، سيمنح العجوز قربانا للرجل الأجنبي، ويمنح ملكية المقهى للرجل الكبير. لكنه تفاجأ بصوت المقدم الذي ردد عليه في مكتبه، وسأله الخيار بين أن يتركه لكاتب المافيا تفترسه أو يمنحه رأس الرجل الذي دبر عملية اغتيال عامله في المزرعة.

صمت خليل، ثم رفع يده وصافح المقدم لهذا جئت إليك ثم أضاف. أنا لا أبحث عن الحياة، يمكنك إطلاق رصاصتك على رأسي إن أحسست أنني جئت لأخدعك. سأخبرك عن الرجل الذي أصدر أمر الاغتيال.

شدّ رأسه قبل أن يأتيه صوت السيف مرة أخرى: سيزورك عزيزين في الأيام القادمة.

ارتجف في مكانه مثل أمى.

قال له أخوه عبر الهاتف أن النائب العام سيفتح تحقيقا لأن المحافظ الذي كان يطمئنهم في كل مرة أن لا تحقيق سيفتح في قضية عامل المزرعة أصبح يردد كلاما آخر وأخبره أن أصحاب الفوق بدأوا يضغطون عليه. رد عليه لحظتها أنه يعرف ذلك، لهذا هو باق في العاصمة لأجل أن يضع حدا لهؤلاء . ثم مشى نحو سيارته.

أضاف له سعيد: ولد الغربي لا يكف عن ترديد اتهاماته لنا.

في تلك اللحظة رفع خليل صوته في الهاتف (أسكت عليّ يرحم والديك لا أريد أن أسمع ترهات أفكارك) قالها وأغلق هاتفه.

كان يستعيد هذه الأفكار التي تتابعت في ذهنه وهو لا يزال يقف في الصالة متوترا متحسسا كما لو أن المدينة كلها تحاول أن تقف ضده. لهذا راح يفتح أزرار قميصه بعد أن أحس باختناق في صدره الذي تكتلت فيه الحسرة مثل بقعة دم خثرتها شمس أيلول في مجرى سداة ماء. لحظتها دخل أخوه سعيد وعلى ملامحه غضب، وجنون بعدما دفع الباب ودفع سليم من أمامه. ماذا تنتظر يا أخي قلت لك دعني أتصرف، فمنعتني ! ماذا تريد مني ؟ ثم أضاف له خلاص لم أعد أحتمل .

أدار خليل وجهه : أي أحمق أنت !. تغيب في اللحظة التي أحتاجك بقربي، وتأتينا الان لنقول أنك لم تعد تحتمل، ماذا لو أخبرتك أن قلبي قد كسره أصحاب العاصمة، هل كنت ستفعل شيئا؟ !

قالها، ثم رفع رأسه ساهما نحو وجهه كما لو أن جدارا إسمنتيا حال بينهما.

لحظتها تدخل سعيد بعد أن أحس بتكدر وجه أخيه : إن كنت تفكر في الانسحاب، فانسحب وحدك ؟!

صمت خليل بعدما تحجر وجهه وفقد ملامحه، ثم أردف بصوت خفيض حينما انتبه لصوت خطى الخادمة مبروكة تقترب، وهي تحمل فنجان قهوتها في صينية فضية صغيرة. نظر إليها بعدما التقط فنجانه، مشيرا لها كي تضيف فنجانا آخر. حينما ابتعدت اقترب سعيد من الأريكة، وفتح فمه لبرهة قبل أن ينطق متراجعا عن كلامه

اعذرني يا أخي! أعرف أنني خذلتك .

وضع خليل فنجان قهوته بعدما عادت الخادمة مبروكة واضعة فنجانا آخر فوق الطاولة الزجاجية، ثم انسحبت دون أن يشعر بها. بقي الصمت الجائز لفترة يحلق فوق رأسيهما .

كان سعيد يفكر كيف سيقص من عطوان من خلال عمه الذي تركه محتجزا في المزرعة. قال في داخله لن أكون ابن الصافي الكبير لو لم أَدفعهم الثمن !. ولن أسمح لأخي بأن ينسحب. ثم التقط فنجان قهوته ورشف منه محققا في وجه أخيه الذي كان لا يزال يدفع مرارة إحساسه بالعجز.

كانت صورة الرجل الذي خنقه السياف تتحرك أمام خليل بعدما أحس بأنه قد انتهى.

ردد الرجل بتحدي أنه لا يمكنه أن ينضم إلى مؤسسة رجالها لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم. ثم أضاف: في الوقت الذي بدأت تصلنا أخبار عمليات التصفية، ومداهمات قوات الأمن لمستودعاتنا أين كنتم أنتم؟ ! ثم استطرد: تقولون لنا إنكم أصحاب الدولة لم يكمل الرجل جملته حتى وقف السياف لافا على عنقه خيطا يشبه وتر القوس ، ثم شدّه إليه فبدأ الرجل يجاهد لأجل أن يحظى بنفس من هواء مادّا يده جهة الرجل الكبير الذي بقي يمسك بقلمه المكسور، ويحركه مع كل رجفة كان يحدثها جسد الرجل الذي فقد آخر أنفاسه. هكذا سنجيب على كل واحد يتجرأ على التشكيك في مؤسستنا !

حينما التوّت رقبة الرجل، وانهار على الكرسي دار الرجل الكبير جهة خليل: عذّك سيظل بعيدا عن هذا الخيط مادمت تقوم بعملك بالطريقة الصحيحة.

سأله سعيد فجأة بعدما رآه يتلمس رقبتة: هل حدث لك شيء مع أصحاب العاصمة؟

أغمض عينيه كما لو أنه لم يسمع صوته .

جعلتني ألف الحبل على عنقي حينما سلمتني وثائق مزورة نطقها فجأة وهو يبصر رجال الرجل الكبير يقتربون من جثة الرجل المخنوق.

يومها لم يعلق الرجل الكبير بعدما أشار لرجاله بحمل جثة الرجل المخنوق خارج مكتبه ، مشيرا بيده أمرا بدخول السيد محداد أحد المدراء السابقين للجمارك بالميناء، و أحد رجال المخابرات العسكرية المتقاعدين الذي أصبح شريكا ثالثا في مناقصة الأجهزة الجديدة التي كان سيقوم بتركيبها الجيش في الحدود بعد أن تكفلت شركة مقولات أولاد الصافي بحفر الخنادق . وقد اقتصر دوره على تسليم الوثائق التي تسهل على شركة "ين أوراكوم" إدخال أجهزتها بعيدا عن الجمركة.

حينما دخل السيد محداد، ورأى العملاء يخرجون الجثة المتيبسة، أسرع لتقبيل يد الرجل الكبير، و وقف جانبا ينتظر إشارة كي يأذن له بمرافقة السيد خليل إلى الميناء بعدما هز رأسه مرددا : أنا جاهز سيدي.

قدم خليل امتنانه قبل أن ينحني شاكرا الرجل الكبير، الذي أضاف له حينها سنتحري عن الوثائق التي أرسلتها وسنطلبك.

هز خليل رأسه وخرج بعد أن عصب رجلاه عينيّه، وعينيّ السيد محداد وراح يتحركان مثل عيمان يقودهما السياف، متجهين نحو الرواق، قبل أن يجدا نفسيهما في سيارة هامر أوصلتهما للميناء .

كان خليل لا يزال يفكر في الرجل المخنوق متحسسا أنه فعل الصواب حينما التجأ إلى المقدم وقدم له كل المعلومات عما يفعله أصحاب تلك المؤسسة.

قال لمساعدته سليم العاصمي حينما أخبره أنه قد حدد له موعدا مع رجل مخابراتي اسمه المقدم مهدي. أصحاب المؤسسة لا يمكن الوثوق بهم ماداموا يستطيعون في أي لحظة أن ينهوا بدم بارد حياة من يخدمهم. تلمس عنقه متحسسا رجفة خوف قبل أن يلوي وجهه نحو واجهات

المحلات حاسا كما لو أنه يدخل للعاصمة لأول مرة بعدما تحولت في ناظره إلى مدينة مرعبة.

فكّر وهو ينظر نحو أخيه الذي بقي جاثما أنه نسي حتى زوجته الصغيرة التي تسبب في قتلها يوم تركها تنتظره في مطعم السيدة زفيرة بعدما قال لها حين سألته عن الوعد الذي قطعه لصديقتها: لم أعد أطيق أن تسألني في كل مرة ألتقي بها عن العقار. نظر إليها مبتسما: وأنا عند وعدي حبيبتى ، سنقيم لها مفاجأة في عيد ميلادها.

اقتربت منه بعدما قبلته: لهذا أحبك قالتها وهي تضحك. في تلك اللحظة رن هاتفه: نعم

أريدك أن تقابلني عند الميناء جاء صوت الأصلع من بعيد.

اسمع ما بيننا انتهى. لا يوجد شيء لنتحدث فيه. أغلق هاتفه ثم راح متوترا قبل أن ينتبه لزوجته التي بقيت تنظر إليه بدهشة: أليس نفس الرجل الذي التقى بنا في سيدي فرج. تنفس ثم رد. نعم هو نفسه، لا أعرف كيف ورطني سعيد معه.

حرك نفسا عميقا في صدره لأنه خيبها في ذاك اليوم بعدما فاجأه الأصلع بتلك المكالمات التي التصقت بذهنه، وجعلته يعيش كابوسا مرعبا لهذا كان يسابق الزمن ليُكمل وثائق عبور شحنات الأجهزة ليعود. كان يدرك أن شحنات الأجهزة ستأتي محملة في داخلها بحبوب الاكستازية التي كان يرفض أن يدخل سوقها لكن أخاه سعيد وقّع الصفقة دون أن يُعلمه وحينما أخبره السيف بالامر لم يجد سوى أن يدعن لهم، وإلا فقد رأسه. لهذا كان هاجسه الوحيد أن ينهي أعماله، ثم يحتفل مع زوجته وصديقتها ويعود للمدينة. حينما أوصل زوجته لمطعم السيدة زفيرة وجد سيارة هامر تنتظره أمام باب المطعم .

عرف أنهم رجال الرجل الكبير . ودع زوجته بعدما قال لها لاتخبري عن الهدية حتى أعود.

وركب مع الرجلين السيارة التي أقلَّته معصب العينين للفيلالمهجورة.

في تلك اللحظة سأله السيد محداد كما لو أنه أراد أن يكسر حاجز الصمت الجنائزي بينهما. هل تغيرت العاصمة ياسي خليل؟

قل طمست ! أجابه خليل

هز محداد رأسه مبتسما بعد أن أدرك أنه يتحدث مع رجل ليس سهلا كما كان يعتقد لهذا أدعن لصمته قبل أن يغير مجرى الحديث بعد أن فتح حقيبة جلدية كانت بقر به، وأخرج منها مغلفا يحتوي على فواتير الأجهزة وسلمها له: هذا جرد بالأجهزة التي وضعناها مكان أجهزة المراقبة ، سوف أقوم بنفسي بالإجراءات الجمركية، وما عليك إلا أن تنتظرنني في مكتب العقيد .

في تلك اللحظة كان سعيد يرتشف آخر رشفة من فجان قهوته ناظرا في شرود أخيه الذي بدا تائها قبل أن ينبهه بحركة من أصابعه مغيرا مجرى الحديث الذي دار بينهما عن تلك الصفقة المنتظرة:

" أتعرف يا أخي رغم هذه المصائب التي تسقط على رؤوسنا إلا أننا محظوظون مع الرجل الأجنبي لأنه سيتدبر أمره مع تلك الوثائق.

وصل المقدم لمستشفى مصطفى باش حيث وجد المساعد صفر في انتظاره بعد أن أخبره عمّا حدث للعجوز وعن تقرير الطبيب الشرعي الذي قال إن العجوز مات بطعنتين في القلب .

هل يمكن أن تصدق أن العجوز يقتل هكذا دون سبب ومن سكير سأل المقدم.

قال المتهم إنه لا يتذكر شيئاً مما حدث وأنه لا يعرف العجوز . رغم أنه وُجد متلبساً بعدما، وجدوا بصماته على السكين الذي طعن به العجوز.

حرك المقدم رأسه بحسرة .

هناك أمر غامض في مقتل العجوز، لهذا علينا أن نجد الصندوق الذي يبحث عنه الديك الفرنسي.

في تلك اللحظة فتح حارس براد الموتى باب الغرفة التي وضعت فيها حثة العجوز.

دخل المقدم بعدما أشار للمساعد وللحارس بتركه وحده.

كشف المقدم على وجه العجوز الذي بدا أبيضَ ناصِعاً مثل الثلج.

إيه ياعمي مذصور ماهي حكايتك مع الذين فعلوا بك هكذا ردد في سره بعدما انبجست دمة من محجريه.

رفع يديه ثم بدأ يتلو بعض السور القرآنية على روجه.

حينما انتهى.

خرج وقال للمساعد. حضروا سيارة الاسعاف سأذهب في مشوار صغير وساعد لنقله إلى المدينة.

رد المساعد سأتي معك.

حرك المقدم رأسه، ثم مشى في الرواق وقد تمكن منه الحزن.

جلست شيراز ممسكة بيد شريفة التي بقيت طوال النهار صامته بعدما وصلهم خبر موت العجوز.

التفت شريفة: بنتي شيراز أتعبناك معنا.

لا تقولي هذا يأمي . عمي منصور كل المدينة كانت تحبه .

ثم سألتها : تأخر عطوان في العاصمة.

لقد أخبرني بلميلود أنه قادم مع جثة العجوز.

ركنت شيراز للصمت وهي تنظر في وجوه المعزيات اللواتي ارتدينا الأسود وجلسنا مثل الحجارة الصماء.

كان الكل صامتا ماعدا صوت مقرأ القرآن الذي كان يصلهم من غرفة بلخوش الذي بقي هو الآخر صامتا مع بعض الشيوخ الذين توافدوا منذ صبيحة ذاك اليوم وراحوا كلهم يسألون عمّا حدث للعجوز.

فكّر بلخوش وهو ينظر من حين لآخر نحو خزانته الصغيرة التي وضع فيها تلك الأمانة التي تركها له العجوز منصور قبل أن يسافر وقال له سلمها لصاحبها.

ردد في سرّه من يكون صاحبها؟! !

أغمض عينيه على حزن ثم تذكر ابنه عطوان الذي أخبره أن مافعلوه بالنادل في المقهى لم يكن سوى لأجل وثائق يبحثون عنها أولئك الغرباء.

بقيت شيراز تنتظر نحو الفراغ مستعيدة وجه عطوان الذي أخبرها
بوظيفته حينما سألته عن زيارته لوالده وعمّا فعله بعمها أمام مقهى
العجوز.

فكرت يومها بعدما قالت له علينا بالرحيل من هذه المدينة لأن عمها لن
يصمت على إهانته أمام المقهى.

في تلك اللحظة رن هاتفها.

تعالى . الحاج متعب جدا.

ما به مبروكة. رددت بصوت عال حتى التفت جميع النسوة نحوها.

اقتربت شريفة. خير يابنتي واش اصرى؟

لا شيء يا أمي شريفة.

أبي مريض. ساذهب الآن.

نعم يابنتي . طمئيني حينما تصلين.

خرجت شيراز مسرعة بعدما وجدت السائق ينتظرها. ركبت دون أن
تقول شيئا وأقلعت بها السيارة مسرعة نحو الفيلا.

كان عطوان لا يزال يفكر في صديقه مصطفى الذي زاره في السجن وأخبره عن موت والده.

بقي مصطفى صامتا ثم نكس رأسه وبدأ في البكاء مثل طفل ثم عانق عطوان.

قتله مرتين. ردد هذه العبارة ثم قال للحارس أعدني لحجرة السجن.

خرج عطوان وهو يفكر.

محاو لا ربط كل الخيوط بين مقتل العجوز الغريب وسجن مصطفى وكلام السيد الذي أخبره أن هناك مخطط كبير سيبدأ بحملات تشويه ستطال الكثيرين من رجال الأعمال ، وبعمليات إرهابية ، وبمحاولة إعادة هاجس الإرهاب . ولأن المؤسسة ترفض الموت، فإنها لن تصمت حتى تعيد نشر غسيلها في السطح.

بعد أكثر من ثلاث ساعات بعد اقترابهم من المدينة تقطن المقدم لرنات الرسائل التي وصلت هاتفه متتابعة، ثم راح يقرأها وهو لا يزال يجلس بجانب المساعد صفر الذي كان يقود سيارة الطويوتا متقدما بأكثر من مائة متر عن سيارة الإسعاف التي تنقل جثة العجوز.

الرسالة الأولى: من مؤسسة الاتصالات. ست مكالمات على الساعة السابعة مساء من رقم شيراز.

رسالة الرابعة: أريد أن ألتقي بك حبيبي في أمر مهم . شيراز.

الرسالة الخامسة ولد الغربي: أين أنتم. ننتظركم في مقبرة سيدي بوجمة.

جلست شيراز تنتظر إلى وجه والدها الذي بقي فاقدا للوعي طيلة أكثر من ساعة بعدما أوصلته خادمتها مبروكة إلى سريره في غرفته حينما سقط أمامه في درج السلم .

حينما وصلت شيراز بعد الهاتف الذي تلقته في بيت بخوش .

فكرت في كل شيء إلا في أن تجد والدها بتلك الحالة التي أشعرتها بالانهيار كيف يمكن لخايل الصافي ذي الوجه الأحمر والبذية القوية رغم العمر أن ينهار ويسقط مقهورا بالحزن على زوجته.

لم تعرف أن سبب حالته هو عمّه سعيد إلا حينما أخبرتها مبروكة أن والدها قد سقط بتلك الطريقة حينما خرج عمّه من الفيلا بعد حديث بدا لها كما لو أنه تصفية حساب بين أخوين طالما كانا على رأي واحد.

قالت مبروكة وهي ترتجف من الخوف . حينما رأيت عمك يصرخ في الصلاة، ثم جثا على ركبتيه أمام غضب سيدي خليل . الذي راح يردد أريدك أن ترحل عني وتتركني ، لم تعد أخي ولم أعد أخاك .

أعدك أخي. نطقها مضطربا رافعا كُمه، محاولا مسح دموعه التي لم تنبجس من محجريه .

ثم رأيت سيدي يصعد لغرفته. في نهاية السلم تعثر محاولا بصعوبة أن يرمي خطواته . ذهبت للمطبخ لأضع صينية القهوة وحينما عدت وجدته مُغمى عليه .

صرخت وأنا لا أعرف ماذا أفعل . حينها فتح عينيه وقال لي ساعديني لأذهب لغرفتي .

أخذته لغرفته مددته على سريريه ثم طلب مني أن أكلّمك بعدما قلت له
إنك ذهبت لعزاء العجوز.

في تلك اللحظة فتح خليل عينيه. ناظرا نحو وجه ابنته التي راحت تردد:

أبي ما بك؟

لا شيء يابنتي . لا شيء قالها بصعوبة، وهي تتلمس جبهته الباردة.

التفت شيراز نحو خادمتها . أطلبني الطبيب يا مبروكة رددتها وهي
تبكي بجواره وهو يحاول بصعوبة بعدما عكل لسانه . عزيزتي، لا
داعي للطبيب. أنا بخير، مجرد دوخة، و ستزول.

حينما ركب سعيد سيارته بعدما رأى ابنة أخيه تدخل مسرعة إلى الفيلا.
استعاد صوت أخيه الذي بدا له منهارا.

نظر خليل نحو أخيه ثم انتفض فجأة من مكانه مديرا رأسه لطيف
السياف الذي أحسه يمسك برقبتة شادًا على خيط القوس صارخا .
الخنق، الخنق... هؤلاء لا يلعبون.

وقف سعيد مبهورا لتبدل وجه أخيه الذي بدا فاقدا لتوازنه. منذ أن عاد
من العاصمة أصبح كلامه متناقضا قالها سعيد في سرّه محاولا إخراج
كلماته الجوفاء التي تعودَ ترديد ها مادّا يده نحو يديه: لا عليك يا أخي
سأتصرف، لن أؤذلك هذه المرة . المهم صحتك يا الحاج. قالها بعدما
جلس بجانبه على الأريكة.

فجأة انتبه خليل لوساويسه التي زرعها موت زوجته في داخله .

لا بد أن لقاءك بولد الحركي هو ما يوترك يا أخي ! نطق سعيد.

رفع رأسه. لا أريدك أن تنطق مرة أخرى اسم ابن الحركي. عطوان
ضابط مخابراتي، ومن اليوم عليك أن تفهم ذلك. علاقاتنا بالعاصمة
انتهت. لهذا توقف عن ترهاتك.

غير خليل من نبرة كلامه، ثم أضاف له: أخبر الرجل الأجنبي أننا لا
نستطيع مساعدته . صمت لبرهة مخرجاً نفسا عميقا، ثم أردف : عليك
أن تنسى كل شيء بينك، وبين ولد بلخوش. اهتم فقط برأسك حتى لا
يفصل عن كتفك قالها مرتين.

في تلك اللحظة تناهى إليه صوت الرجل الأجنبي الذي كان يجلس على
المقعد الخلفي. مسيو سعيد لا يمكننا الانتظار أكثر.

فز مخلو عا ثم انتبه لشروده. التفت نحو الرجل الأجنبي. اطمئن كل شيء سينجز في هذه الليلة رد سعيد. حرك الرجل الأجنبي شفتيه بصورة لا تشي سوى برضا فاتر. سمنحك كل القوة التي تريدها بعد أن يخبرنا رجلك لمن أعطى العجوز العلبة، ثم أضاف له:

رغم أنني اتصلت بالمقدم وأخبرته أننا نحتجز عمه في المزرعة إلا أنه لم يحضر. بعد أن أفلعت بهما السيارة نحو المزرعة. رد سعيد

أعتقد أن جهازك بكل خيوطه تلك وطبيبك صاحب المنزر الأبيض لم يقدم أي نتيجة.

ضحك قسطنطين . لايمكن أن يكون عمّار يعرف شيئا عن العلبة !

سترى.

ضحك قسطنطين ثم أردف: يبدو أن زمن خليل قد انتهى وجاء زمانك.

كان في تلك اللحظة البستاني الجديد يمر بجوار النافذة حاملا مقصه قبل يخرج هاتفه ويمرر أصابعه على رقم مرددا يمكنك أن تأتي الآن.

رد الصوت من جهة الآخر أنا في طريقي إلى الفيلا.

بعدها أعاد البستاني هاتفه وراح يقلم شجرة الورد. كانت لحظتها شيراز تمسك بيد والدها الذي بدا يحدق وفي عينيه الدمع.

سامحيني يابنتي.

قالها، ثم سألها عن عطوان.

لاتقلق . اتصلت به ولكن جهازه مغلق، لابد أنه الآن في جنازة العجوز.

لا عليك يابنتي أنا الآن بخير . فتح عينيه. ثم طلب منها ان تتركه لينام.

خرجت شیراز وفي قلبها تکتل حزن لم تستطع معه سوى أن تفكر في حاجتها إلى حبيبها عطوان .

بقي عطوان ووالده الذي وقف على قبر العجوز متكئا على عصا يقرآن بعض السور القرآنية بعدما تفرق جموع الذين حضروا جنازته.

قال عطوان لملازمه المخفي وبلميلود أن يأخذا معهما المساعد وينتظراه في البيت .

قال بلخوش بعدما سلم ماسحا براحتيه وجهه.

هيا بنا نعود. الذنبا هكذا البارحة كان معنا العجوز واليوم هو في دار أخرى.

هز عطوان رأسه ربي يرحمه ويوسع عليه .

شد بلخوش رأسه ثم التفت إلى ابنه.

هناك شيء أريدك أن تطلع عليه يخص العجوز.

انتبه عطوان لصوت والده.

وهل ترك العجوز شيئا مهما؟ سأل دون أن يفكر.

نعم يا بني . لقد ترك معي أمانة سأعطيها لك ربما هي موجهة لابنه مصطفى .

حرك عطوان رأسه . مصطفى مسكين لا أدري ماذا أقول لك عنه.

ربي يفك أسره قالها بلخوش ثم مشى متقدما عن ابنه الذي اقترب في تلك اللحظة منه . ماسكا بذراعه .

ربي يخليك لنا يا وليدي.

أحسك أفضل أضاف عطوان.

الحمد لله . سأفعل بنصيحة صديقك جبريل فلم أعد قادرا على البقاء في هذه المدينة بعد رحيل العجوز. لولا غياب عمك لكنت سافرت مع طبيبك.

لا تفكر في عمي . سنجده .

إن شاء الله ليس لأجلي بل لأجل ابنه عبد الباقي منذ أن اختفى وأنا اراه ساهما وزوجته مسكينة لم تغادر بيتنا.

نعم ربي يكون معهم .

بعدها ركب عطوان مع والده السيارة وعادا إلى بيتهما حيث كان لا يزال المعزون يتوافدون.

أحس سعيد أنه عليه أن يفعل شيئاً حتى يوقف الانهيار، الذي كان سيتسبب فيه أخوه، بعدما طرده من الفيلا، وقال له عليك أن توقف كل الأعمال التي بين شركاتنا، والعملاء الأجانب.

ثم أضاف له . أنه لم يعد معني بما يأمر به أصحاب العاصمة لأنه اتفق مع أصحاب الدول الحقيقيين.

لحظتها التفت نحو الرجل الأجنبي، وقال له اذهب أنت إلى المزرعة، وأنا سأعود إلى الفيلا.

نزل سعيد من السيارة وركب السيارة الأخرى التي كانت تتبعهم.

بقيت شيراز تتمشى بخطى تائهة في حديقة الفيلا بعدما تركت والدها نائماً في سريره . كانت تعرف أن ما حدث لوالدها سببه عمّها الدموي. لا بد أنه قال لوالدها شيئاً وثّره، لهذا فكّرت أن تعاود طلب عطوان في هاتفه.

كانت كل المكالمات تتلاشى . خط مراسلكم مغلق أو خارج التغطية.

وترتها هذه العبارة فأحسّت كما لو أن كل مآسيها التي تكتلت في صدرها منذ أن ماتت والدتها بتقطيع شريان معصمها بشفرة في غرفة الحمام قد عادت، و صعدت للسطح.

بقيت تنظر نحو الأفق بحزن وراحت تحاول أن تكتب رسالة msn لعطوان الذي بقي جهازه هاتفه مغلقاً. مرددة ماذا بعد أن ماتت نورة وتركتك وحيداً .

أغمت عينيها، جاءها صوت عطوان. لم تصدق أنه رجل مخابراتي حتى رأت مكتبه يوم فكرت أن تحذره من عمّها الذي أقسم أنه سينتقم

منه. من يومها صارت كل مكالماتها الهاتفية معه تصبح شبه مستحيلة
لفقدها في كل مرة الأمل بلقائه، وبالحياة. صارت أيامها أيام سأم، زادت
حدته مع حالة والدها.

كانت ستقول له في ذاك اليوم الذي أراد فيه السفر للعاصمة : إنها تريد
العودة لفرنسا مادمت لا ترغب في لقائي. لكنه زم فمها كما لو أنه
أحس بما كانت تفكر فيه، وقال لها حينما أعود من العاصمة سنتحدث يا
أميرتي الصغيرة.

نفس الكلام قاله لها والدها في الهاتف حينما سألته عن عطوان. حينما
أعود سنتحدث عن مستقبلك مع عطوان ياأميرتي الصغيرة.

عاد عطوان للمدينة لكنها لم تلتقيه و عاد والدها منهارا أكثر من كل
انهياراته وبقي في غرفته معزولا.

تساءلت هل يمكن أن يفعل فقد بوالدها كل ذاك الحزن؟

اتجهت الخادمة مفزوعة نحو حديقة الفيلا وهي تجري منادية على
سيدتها: للا... للا شيراز. التفت نحو صوت الخادمة الذي قطع عنها
شرودها . التفت مفزوعة وهي تمسك بهاتفها الذي كانت قد كتبت فيه
رسالة قصيرة لعطوان وأرسلتها.

وقفت مبروكة أمامها مثل عسكري

- "واش كاين يامبروكة ! نطقت شيراز.

حضر الطبيب ..

قفزت شيراز لغرفة أبيها رامية خطواتها بتعجل دون أن تشعر بعدما
أصابها نوبة خوف.

تبعثها الخادمة بكأس ماء بعد أن دخلت شيراز، و الطبيب إلى غرفة والدها. بعد أن ناولته رشفة الماء، وبدأ يسترجع أنفاسه، ثم قال لابنته: ساعديني لأستلقي جيدا على سريري، لا أريدك أن تبكي يا عزيزتي. لن أموت.

أرجوك لا تقل شيئا، جاء صوت الطبيب.

أشار خليل للطبيب بأن يمنحه برهة ليحدث ابنته.

ابتعد الطبيب عن سرير خليل، ووقف يتابع بعيون فارغة وجه السيد خليل الذي كان لحظتها يتلمس يدي ابنته مرددا بصعوبة. اسمعي ياشراز، لقد تحدثت مع عطوان. رفعت رأسها: عطوان ! نعم عطوان أرفد بصعوبة في اللحظة التي تدخل فيها الطبيب مرددا بعدما لامس بيده كتف شيراز. اسمحي لي سيدتي ، أرجو أن تتركوني مع المريض.

لم يستطع خليل أن يكمل عبارته بعد أن فقد صوته، وثقل لسانه ولم يستطع اكمال عبارته متحسسا دوارا فظيعا .

أعاد الطبيب رأس خليل للوسادة. وراح متتبعا شيراز التي خرجت مع الخادمة مبروكة، وهي تلتفت جهة والدها الذي بقي يتتبعها بعينيه المتعبتين. حينما أغلقت الباب وراءها وقفت تمسك ناظريها بأصابعها بحزن ، وبجانبها الخادمة تردد. سيكون سيدي بخير .. لاتقلقي .

نظر الطبيب لوجه السيد خليل، ثم قال له ستكون بخير، اطمئن الرجل الكبير يبلغك سلامه.

لحظتها انفتحت عينا خليل، وكأنه تلقى رصاصة في صدغه في الوقت الذي أراد أن يصرخ كان الرجل قد انقض عليه واضعا الوسادة على فمه، ثم قام بخنقه. بدأ خليل يدفع بقدميه محاولا التخلص، ونفس الهواء يهرب منه حتى فقد آخر نفس من رئتيه، ولم يعد أي نبض يتحرك فيه.

في تلك اللحظة نزع الرجل الوسادة، ووضعها تحت رأسه، وراح يخرج حقنة، وحقنه بها. وردد بصوت عال. ستنام الآن سي خليل.

خرج الطبيب فوجد شيراز ومبروكة يقفان أمام العتبة بتوتر. نظر إلى شيراز. لا تقلقي سيكون غدا بخير، لقد أعطيتُه حقنة منوم.

قالت مبروكة بعدما اقتربت من الطبيب: إن شاء الله سيصبح بخير. أمين رددت شيراز مرتين مسترجعة أنفاسها، ثم أضافت وعيناها الخضروان ملتصقتان بعيني الطبيب الباردتين. المهم أنه بخير الآن يا دكتور. مدَّ لها وصفة الدواء، و أردف. هذه بعض الأدوية عليه أن يبدأ في تناولها غدا. ثم أضاف بعدما أحس أن شيراز تريد أن تدخل على والدها. من الأفضل أن تتركوه يرتاح قليلا، وأن يبتعد عن أي ضغط. لا أريد لأي أحد أن يحدثه عن الأعمال. هو نائم الآن، وحينما يصحو يمكنك أن تحدثيه.

ثم تركها و غادر. حينما التقت شيراز أبصرت عمَّها سعيد يوقفه في الرواق بعدما قال له كما لو أنه مندهش. خير يا دكتور؟ في وقت قصير تركته بخير، ماذا حدث؟! ليس هناك ما يقلق سيدي، يبدو أنه تعرض لصدمة نجم عنها ارتفاع مفاجئ للضغط. رد الطبيب وهو يتعجل خروجه. نعم من مدة ليست بالقصيرة فقد زوجته في العاصمة. أردف سعيد دون حتى أن يلتفت لوجه شيراز التي بقيت تنظر إليه. كانت ستقول له أنت سبب ما حدث له، لكنها أحجمت. قبل أن يهز رأسه في وجهها مرددا كيفك يابنتي سيكون بخير اطمئني. أعرف أخي مثل الجبل لن يؤثر عليه مجرد إجهاد بسيط، سمعت الطبيب ماذا قال: الأمر غير مقلق.

في تلك اللحظة انسحب الطبيب، وبقيت شيراز جامدة أمام العتبة، وحينما لم تستطع تحمل رؤية عمَّها، يقف ببرودة دفعت الباب، ودخلت على والدها لتجد عينيه مغمضتين. دفعت يدها نحوه وهي تبكي : من لي أحد بعدك يآبي.

نظر عطوان نحو صورة شيراز التي بالكاد استطاع مصافحة يدها حينما وقفت بعيدا وهي مسنودة بذراع خادمتها مبروكة تنظر إلى جنازة والدها.

حينما غادر كل أولئك الذين جاءوا من كل حذب و صوب لحضور دفن خليل في مقبرة سيدي بوجمعة وقفت شيراز على الربوة تنظر بقهر مودعة والدها، وبجانبها وقف سليم العاصمي الذي بدا حزينا .

قال له المقدم عليك أن تنتبه لشيراز.

بقيت شيراز صامئة متكومة في سوادها دون أن ترفع عينها في عين عطوان.

ثم غادرت الربوة تشد ذراع خادمتها، متجهة نحو قبر والدها دون أن تقول له شيئا.

من يومها بقي عطوان يستعيد ذاك الصمت الجنائزي متحسدا أنه بين وجعين، كلما تنفس من داخله تمثلت له طيفا يقترب منه بشوق، فاتحا ذراعيه. فجأة يتحول هذا الطيف إلى زومبي يريد اقتراسه، فيقوم مفزوعا مبللا بالعرق. شعر بلزوجته بين أصابعه التي كانت تتلمس صورتها التي لم تستطع أمه شريفة تغيير مكانها منذ أن وضعتها أول مرة قبل سبع سنوات مضت، وبجانبها صورة أخرى زينت بإطار نحاسي تحمل صورة أبيه وأمّه باللونين الأبيض والأسود، وبجانب الصورة وضعت بعض الكتب المتراسة في فوضى على طاولة صغيرة بجانبه .

فكّر أنه كابوس مسائي جراء ما ترسب في ذهنه من أفكار سيئة أحسها تذبّت مثل الصبار بعد أن بدا له رغم حصوله على وثائق ملكية، والعلبة التي تركها العجوز المقهى إلا أنه فقد بالمقابل أشياء كثيرة منها

موت العجوز واختفاء عمّه الذي قال له الرجل الأجنبي أنه يحتجزه .
وابتعاد شيراز عنه.

تلمس بأصابعه كتاب مذكرة (علي كافي) الذي اقتناه في آخر مرة نزل فيها إلى وسط العاصمة، بعد أن وضعت أمه مسدسه فوقه على تلك الطاولة الصغيرة الملتصقة بالسريّر، بعد أن عاد ليبيت معها ومع والده بعد غياب أسبوع كامل منذ جنازة العجوز. قال لها إن عليه أن يبتعد عن بيت والده لأن رجال ولد الصافي يمكنهم أن يفعلوا أي شيء لهذا سيكون بلميلود معهم وهو سيبيت في بيته الجديد الذي لم يكن سوى مكتب الوحدة الذي صار يتواجد فيه الملازم المخفي مع عناصر وحدة المراقبة الذين بقوا طيلة الأسبوع الماضي مُشْرِبِّي الأعناق وهم يتتبعون كاميرات المراقبة التي زرعت في بيت خليل الصافي وكذا نحو التقارير التي كانت تصل من الأعوان الذين ثبتهم المقدم في جهات المزرعة.

نظر إلى صورتها التي نقلها إلى مكتبه، ثم أزاحها كما لو أنّ وجه السيد قد وقف على رأسه مرددا لا عواطف في وظيفتنا.

حرك أصابعه ممسدا على غلاف الكتاب بحنين إلى سيرة جدّه ابن عطوان الذي لم يعرف عنه سوى أنه كان رجلا سياسيا بتاريخ يمنع تداوله بين الناس.

قال له العجوز منصور يوم حادثة المقهى أنه لم يعد في هذا البلد رجل نظيف إلا وسخوه، أولاد الصافي ليسوا سوى أدوات لهذه الآلة التي تحطم رجال هذا البلد. يومها نظر إليه، كان يمكن أن يقول له إنه يعرفهم، ويتعامل معهم في وظيفته، وأن هؤلاء نهايتهم محتومة.

أغمض عينيه مستعيدا صوت عمه عمار يوم أفزع وأفزع والدته شريفة التي بدأت تصرخ من مطبخها متسائلة عن هذا المجنون الذي حطم الباب بطرقاته قبل أن يفتح بلميلود له الباب.

استفاق في تلك اللحظة على صوت بلميلود الذي راح يطلبه.

اقترب بلميلود من المقدم، الذي خرج في تلك اللحظة من غرفته مرددا

ماهذا الجنون يا بلميلود؟

اقترب بلميلود من المقدم وهمس له.

لقد ظهر ولد صافي مع الديك الفرنسي.

هز المقدم رأسه بعدما تناول مسدسه. وأشار لأمه بأن لا تنتظره لأنه قد يتأخر اليوم.

خرج بلميلود والمقدم وركبا سيارة الطويوطا التي أفلعت بهما نحو المكتب.

في الطريق استعاد المقدم لقاءه الأخير مع خليل صافي الذي أحسه على موعد مع نهايته. أخذ رشفة من فنجان قهوته محدقا في وجهه الذي بدا كئيبا وهو يردد مستطردا: منذ أكثر من أسبوع لم أستطع النوم، أعمل كل شيء من أجل أن أنام، أتناول أدوية النوم والأعصاب، وأشرب الخمر لكنني لا أستطيع النوم، كلما أغلقت عيني ظهر أمامي السيف والأصلع. أنهض من فراشي، وأذهب لغرفة شيراز أنظر إلى وجهها الملائكي فلا أتمالك نفسي، ثم أخرج للشرفة، وأبدأ في النحيب مثل طفل. أنت تعرف أن لديّ أعمالا في كل مكان في العاصمة، وفي هذه المنطقة. لم أفكر يوما أن شقيقي يفعل كل ذلك بأسماء شركاتي. لا أنفي أنني عرفت ذلك متأخرا، وبقيت صامتا. أقول إنني خليل الصافي رجل الأعمال والنائب البرلماني. لديّ أصدقاء ولديّ قوة. وأتساءل لماذا لا أوقفه، وأمسك بالأصلع وأعطيه الجزاء المناسب. ولماذا لم أحرك ساكنا يوم بتروا لعامل مزرعتي ذراعاه، وقتلوه. توقف خليل لبرهة بعد أن نهض من مكان وراح يزرع بلاط المكتب حاملا فنجان قهوته قبل أن

يلتفت نحو المقدم مضيفا: في البداية أعطيت عذرا لنفسي بعدما أصبحت عدوا لأصدقائي، وأصبحت أفكر أنني أقتلهم واحدا بعد الآخر.

أنا أعرف هذه المشاعر يا خليل قاطعه المقدم.

أنت تعرف أن عمك عمار متورط، وأنه وقع شهادة موته. و أعرف أن رجلك مراد الذي كان في هذا المكتب قد ظهر في العاصمة، وهو يبحث عن الأصلع الذي قتل صديقه. وأنا متأكد أنه لن يفلت منك. لكنني لست متأكدا أنني سأرى ذلك اليوم. توقف خليل، ثم أردف بعدما أشار بيده. أريد فقط التحدث، أرجوك.

هز المقدم رأسه: تفضل. تسلم، لدي شيء واحد لا أستطيع أن أغفره لنفسي هو ما فعلته مع والدك بلخوش، وأنت وابنتي شيراز.

استفاق المقدم في تلك اللحظة على الرنات المتكررة لصوت هاتفه. نعم شيراز .

أريد لقاءك . جاء الصوت مجروحا.

متى يناسبك الوقت ؟ سأل المقدم

غدا .

انتظرك في المكتب . رد المقدم بعدما سمع صوت شيراز يأتيه حزينا.

فكر منذ أن حضر جنازة والدها ورآها بذاك الصمت أن شيراز قد تغيرت و بدت كما لو أنها تحمله مسؤولية موت والدها، لهذا فكر أن عليه أن يمنحها بعض الوقت لتعيش حزنها. خاصة بعدما قال لوالده أنه أن الوقت ليتزوج من شيراز. بقي والده صامتا بعدما بدأ يسترجع عافيته. لكن أمه ابتسمت ثم رددت أعرف أن شيراز ملاك، وأنا أحبها لكن دعها تحزن على والدها، ثم سأذهب لها بنفسي، وأخطبها لك.

فتح عنيه في اللحظة التي جاءه صوت بلميلود الذي استأذنه بالعودة على بيت والده تفقد عملاء المناوبة الذين وضعهم لأجل حراسة والده ووالدته من ولد صافي والرجل الاجنبي.

كانت لحظتها رسائل الرجل المقتول لاتزال مبعثرة على طاولة مكتبة. نهض بثقل، ثم فتح الدرج وأخرج مسدسه . ففكر لحظتها أن آن الوقت ليقتحم تلك المزرعة ويحرر عمه عمار من قبضة الديك.

ترك سعيد الرجل الأجنبي وراءه في المزرعة في ساعة متأخرة من الليل بعدما أخبرهم عمّار الذبيبة عن مكان العلبة التي تركها العجوز.

بقي الآن أن نسترجع العلبة قال قسطنطين.

رجالي يراقبون بيت المقدم ليل نهار، لكن مناوبة الحراسة لاتكاد تنتهي أجاب سعيد.

دع الأمر لي .

هز سعيد رأسه، ثم استأذنه، لأنه مضطر للوقوف مع ابنة أخيه في مصابها .

في الطريق راح يسترجع صوت أخيه الذي ما كان له أن يموت لو لم يقف في وجه الكبار.

— ألم تقل لي إنه من رجالك !، كيف استطاع أن يخدعنا؟ رنت هذه العبارة في رأسه.

لقد تدبرت أمره. وهو الآن يأخذ أزفلت ٢٢ من رجالي . ردها بينه وبين نفسه.

كان عمّار لحظتها، يئن من أوجاع الضربات التي تلقاها طيلة الأيام الماضية وهو مربوط على سارية في غرفة باردة داخل المستودع الأسود. كان الرجل صاحب الوشم يضربه على وجهه دون توقف حتى بعد أن أخبرهم بمكان العلبة. في النهاية تدخل سعيد ولد الصافي وأمرهم بأن يكفوا عن تعذيبه حتى لا يموت . .

بدت الصورة مظلمة أمام ناظر عمّار وبدأ له رجال السيد سعيد مثل خيالات الظل ، كان يفكر أنه يستحق أن يموت بعدما سمع من بعض الحراس خبر موت العجوز.

أحس عمّار بأوجاع تنخر روحه لهذا راح مستسلما للموت.

في اللحظة التي أراد قسطنطين أن يأمر رجاله بقتله رن هاتفه.

نعم.

إن كنت تريد علبة العجوز غالديانو فلا أريد أن يحدث شيئا لعمي عمّار.

أخيرا ميسو عطوان.

أحضر والعلبة وتعال لتستلم أمانتك، أنتظر في المزرعة.

أغلق الديك هاتفه، ثم أمر رجاله بتحضير عمّار للمبادلة.

بقي المساعد صفر ينظر إلى وجه السيد الذي بدأ يتبدل وجهه وهو يطلع على رسالة الرعية الفرنسي، ومذكراته التي أرسلها المقدم .

يجب أن تتغير أشياء كثيرة في استراتيجية الدولة قالها السيد.

حرك المساعد صفر رأسه.

لقد اتصلت بحافظ الأختام الجديد. ينتظر أن تُرسل الرسائل للأعضاء الجدد، ليبدأ التحضير لاجتماع المجلس السري.

تفطن السيد كما لو أنه كان شاردا.

قبل ذلك يجب أن تنهي ما بدأتها مع مراد دوركال .

أعاد المقدم هاتفه إلى جيبه. بعدما اتصل بملازمه المخفي، وأكد له أن عمه عمار في أحد مستودعات المزرعة.

منذ لحظات غادرت سيارة سعيد الصافي المستودع الأسود. اعتقد أنه هناك رد الملازم.

أنا في طريقي إليك. قالها المقدم، وأغلق هاتفه.

نزل من سيارته التي ركنها بعيدا عن المزرعة، ثم راح متجها نحو النقطة التي أخبره بلميلود أنها أضعف حلقة في الحزام الأمني لمزرعة ولد الصافي.

أخرج مسدسه وراح يردد بينه وبين نفسه ستدفع الثمن أيها الديك اللعين أنت وأزلامك .

بقي الملازم المخفي يراقب المستودع الذي خرجت منه سيارة سعيد الصافي. متذكرا ما قال له المقدم عن الرسائل التي تركها ناصر ولد الغربي. فكر في الجهة التي يمكن أن يكون فيه عمار محتجزا.

في تلك اللحظة تسلل المقدم للمستودع الأسود C الذي يمثل أحد المخازن الثلاثة التي أشار إليها العامل المقتول، والتي قال فيها إن سعيد ولد الصافي يقوم بمقايضة الهيروين الذي يصنعه له البروف السوري بالسلاح مع عملاء الشركة الأجنبية.

يبدو أن ما جاءت به تلك الرسائل صحيحا. ردد المخفي لحظة وصله صوت المقدم عبر اللاسلكي الذي ثبت ميكروفونه في أذنه: إنني قريب من المستودع الثاني قرب السور.

أراك جيدا.

أحس المقدم وهو يلبد وراء باب المستودع صوت خطوات حارس كان يقترب من باب المستودع في اللحظة التي توقف صوت ملازمه في جهازه اللاسلكي .

نرجو من رجال الأمن الالتحاق بالمستودع b. جاء الصوت من بعيد في جهاز الحارس اللاسلكي الذي توقف عند باب المستودع، ثم عاد أدراجه. في تلك اللحظة كان الرجل الأجنبي قسطنطين مع البروف السوري قد أنهيا متابعتهم لتحركات المقدم عبر كاميرات زرعت في كل جهات المستودع.

حرك الديك رأسه لرجليه اللذين أخذ البروف السوري معهم وغادرا المكان.

حينما التفت المقدم الذي كان قد دخل حجرة المستودع بعد أن ضرب الحارس على رأسه أطل قسطنطين ممسكا بعمّار الذي كان منهارا من أوجاع التعذيب الذي تلقاه قبل أن يدفع به على جدار المستودع. أخيرا التقينا أيها المقدم.

كما قلت الجبال وحدها من لالتقتي أيها الديك.

هل أحضرت الأمانة؟

جاء صوت قسطنطين مختلطا مع صوت الملازم المخفي في أذن المقدم عبر جهاز المايك الصغير بعدما راح يحذره من دخول شاحنة من نوع فورقون سوداء داخل المزرعة، وتوقفها غير بعيد عن المستودع. أظهر المقدم مغلف الملكية أمام وجه الديك.

ثم رماها بين قدميه مرددا في الوقت الذي دفع الديك بعمّار نحو الجدار : يمكنك الآن أن تتركه، لا يوجد لدينا أي شيء غير هذه الملكية. ثم

قفز نحو الجهة التي سقط فيها عمّه مكبلا، في اللحظة التي صوب حارس قسطنطين مسدسه نحو عمّار وبدأ تبادل إطلاق النار.

التقط أحد الرجال مغلف الملكية و سلمه لـديك، وخرج معه قبل أن يتوالى إطلاق الرصاص باتجاه نافذة المستودع. انقطع صوت المخفي الذي دخل في اشتباك مع الرجال الملتئمين الذين نزلوا من الشاحنة بعدما وجه لهم وابل من الرصاص من وراء التلة التي تقع في مرتفع الغابة المحاذية لمستودعات المزرعة في الوقت الذي كان يراقب فيه بمنظاره الليلي مدخل المستودع الذي هرع نحوه رجال الحراسة الذين كانوا ينتظرون زميلهم الذي كان لا يزال فاقدا وعيه في مدخل المستودع .

حاول المقدم الابتعاد عن النافذة التي بدأ وابل الرصاص يوجه إليها بعدما زحف نحو الجدار مبتعدا عن الصناديق التي كانت تملأ المكان ثم أعاد الاتصال بملازمه المخفي مرددا : لا تترك الديك يخرج بالمغلف. حينما سمع الصوت نزل من التلة وراح متجها نحو السور الخلفي بعدما حذر المقدم من بعض الملتئمين الذين بدأوا يطوقون المستودع.

فكّر المقدم أن عليه أن يغادر المكان هو الآخر، اتجه نحو النافذة الصغيرة بعد أن أشار لعمّه الذي بقي مستندا على الجدار وهو يئن من وجع التعذيب كي لا يرفع رأسه حتى لا يتصله رصاصة من رصاصات الرجال الملتئمين الذين بدأوا يدخلون إلى رواق المستودع، ويرمون قنابل غازية أثارت أدخنة كثيفة. في تلك اللحظة تسرب المقدم بعدما أطلق رصاصة بكاتم الصوت في صدر الملتئم الأول، ثم الثاني الذي دخل الحجرة. تقدم نحو عمّه، رفعه بعدما فكّ قيده في اللحظة التي أحس فيها بحركة رجل اقترب مصوبا مسدسه نحو رأسه مرددا.

ارم سلاح أيها المقدم وإلا فجرت رأسك.

وضع المقدم بهدوء مسدسه على الأرض وراح محاولا الوقوف بهدوء رافعا يديه. في تلك اللحظة كان المخفي يضغط على زناد بندقية القنص الكاتمة للصوت في رأس الرجل المثلثم من جهة الغابة.

تهاوى الرجل أمام المقدم.

التفت المقدم بعد أن حمل سلاحه محركا رأسه اتجاه النفادة التي اخترقت رصاصة ملازمه الذي كان لحظتها قد وصل إلى مكان مكنه من الاختباء، وتصويب رصاصة أخرى أسقطت الرجل الذي كان يحمل المغلف. سأخرج عمي من نافذة المستودع غطني . جاء صوت المقدم

حركة الهدف وراءك جاء رد الملازم .

حرك المقدم يده راميا مسدسه من على الأرض، ثم دار بسرعة خاطفة، غارزا خنجرا كان قد نزل من كم سترته في رقبة المثلثم الذي ارتجف في مكانه وسقط بعدما شلت حركته.

تنفس المقدم بصعوبة بعدما انبجس العرق من جبهته ، كاد أن يتلقى رصاصة في رأسه لولا تحذير ملازمه المخفي الذي كان سريعا في تحركاته وهو ينتقل من مكان لآخر متتبعا اصطياد الرجال المثلثمين، الذين كانوا يتساقطون مثل الذباب في مرمى نيرانه بعد أن أمن انسحاب المقدم. وشل حركة الديك الذي بقي ينتظر في رجله الذي أسقط المغلف على الأرض. نزل المخفي بعدما انتهت ذخيرة بندقيته وراح يطلق وابلا من الرصاص من مسدسه نحو سيارة الديك المصفحة التي بقيت متوقفة في الطريقة الآخر من الغابة. قطع الملازم الطريق ثم اتجه نحو السور.

تسلل المقدم لحظتها إلى حجرة أخرى مجاورة وهو يحمل عمه الذي لم يقوى على المشي ومن الدخان الكثيف يسب الرضوض التي ملأت عظام جسده. أخذ يرفعه بصعوبة، ثم راح منسحبا معه في اتجاه الباب الخلفي المفضي إلى السور الخارجي حيث وقف الملازم مخفي يمد له يده كي يساعده في رفع جسد عمه المثخن بالجراح .

بعدها قال عطوان للمخفي خذ عمي ودعني أعطي انسحابك. وأعود
لديك الذي بقي ينتظر من مساعده أن يحضر المغلف بعدما سقط بعيدا
عن السيارة.

عاد المقدم أدراجه، في اللحظة التي نزل فيها الديك وراح مصوبا
مسدسه نحو الجهة التي كان يأتي منها الرصاص، وحينما اقترب ونزل
مطأطئا رأسه لحمل المغلف وصلته رصاصة المقدم في ذراعه فسقط
مع مسدسه. ثم التفت للرجال الملتمين الذين بدأوا يطلقون الرصاص
نحوه بعدما طوقوه. في اللحظة التي وجد المقدم نفسه محاصرا ، بعدما
انتهت دخيرته ، رفع يديه وراح مستسلما.

فجأة ظهرت سيارة طويوطا وبدأ سائقها يطلق الرصاص نحو الملتمين
الذين تفرقوا بعدما حمل رجلان الديك وأخذاه بسرعة نحو سيارته.
اتجهت سيارة الطويوطا نحو باب المخزن حيث كان المقدم قد ربض
على الأرض بعدما أصابته رصاصة في الكتف. أطل بلميلود من
السيارة وراح ينادي طالبا من المقدم أن يسرع للركوب. قبل ان يرمي
للمقدم ذخيرة رصاص ثم وجه رشاشه تجاه سيارة الديك الفرنسي الذي
تراجع رجاله في وقت اقتربهم من المغلف.

ركب المقدم مشط الذخيرة في مسدسه في اللحظة التي نطق أحد
الملتمين علينا بالانسحاب سيدي.

بصعوبة رد الديك . المغلف أولا .

زحف المقدم نحو المغلف بعدما أطلق رصاصتين في صدر الرجل
الملثم الذي حاول التقاطه.

اسرعوا. جاء صوت قائد الملتمين.

بدأ الملتمين في اطلاق النار بكثافة نحو المقدم الذي التقط المغلف
لحظتها وراح قافزا في اتجاه السيارة التي دارت في مكانها بعدما فتح

بلميلود بابها الخلفي. ألقت السيارة مخترقة جدار الحراس الذين وقفوا برشاشاتهم وبدأوا يطلقون النار فأصابوا بلميلود في كتفه.

كان صراخ قائد المثلثين يصلهم بعدما رأى سائق رئيسه قسطنطين قد أصيب في رأسه: اللعنة عليك أيها المقدم..... اللعنة.

أراد المقدم أن يساعد بلميلود في الوقت التي اختفت سيارتهم في اتجاه طريق الغابة المؤدية للمدينة، لكن بلميلود تحامل على نفسه وقال له لا تقلق مازلت حيا. أنت أيضا مصاب حضرات. ابتسم له، ثم سأله: من أين جئت، و من أين جاء هؤلاء. كنت أعتقد أنهم من رجال الشرطة أو الدرك الوطني قال المقدم. بل هم مجموعة مسلحة من المجموعات التابعة لحراسة الشركات الأجنبية متعددة الجنسيات رد بلميلود بعدما كتم وجعا أحس به يتصاعد نحو صدره.

بقي المخفي يحرك شفتيه وهو ينظر من حين لآخر عبر المرآة العاكسة قبل أن يسمع رنين هاتفه : أين أنتم سأل المقدم. نحن نقترّب من منزل عمّي بلخوش. أوكي (ok) سنلتقي هناك، أطلب غالديانو ليأتي.

نعم. بعدها أردف الصوت شكرا سي المخفي.

هل اتصلت بفرقة الدرك.

نعم سيدي هم في طريقهم إلى المزرعة مع وحدات الشرطة.

شكرا المخفي. قالها ثم الغقف هاتفه.

جلست شيراز مع زوجة عمّها في غرفة والدها مستعيدة كلام الأم شريفة التي كانت قد ودعتها بنوع من البرودة، بعدما جلست معها في الصالة طوال النهار. كانت شريفة في كل مرة تحضنها مرردة : أعرف أن لاشيء يعوض رحيله. لكننا لا نستطيع أن نهرب من مشيئة القدر. كُنتِ دائماً ابنتي التي لم تلدها بطني ، لهذا لا أريدك أن تسلم نفسك لهذا الحزن، ثم تصمت لبرهة. كانت ستضيف لها: أنها تريدها لابنها عطوان. طالما تمت ذلك، لكن صوت زوجة عم شيراز دخل بينهما كما لو أنه صوت طبول الحرب .

دعيها تحزن، فلا أحد يعوض أباه خليل.

التفتت شريفة محرّكة رأسها لتجد شيراز، تنظر ببرودة الحجر وكأنها فقدت كل أحاسيسها وصارت مثل قشرة مجمدة. ثم فجأة شهقت، وهي تحرق في الفراغ بعدما أثقلها الحزن. لم تعد تقوى حتى على النشيج.

كان سعيد ينظر لوجهها البارد، وهو يمسك بفنجان قهوته وبجانبه زوجته التي غيرت من نبرتها ومن كلامها بعدما صمت نحيب شيراز.

سأذهب لحضور محاكمة قاتل والدي. نطقت شيراز فجأة.

ابنتي لن ياتيك سوى وجع الراس صدقيني. ثم وضع فنجان قهوته على الطاولة .

تدخلت زوجة عمها ستذهبين هناك وستحزنين أكثر وتتوجع أعصابك من ذلك

هؤلاء ليسوا ناساً عاديين ، هؤلاء مجرمون.

وماذا أفعل إن لم أغضب أو أحزن .

أبي لم يخطيء في حق أحد. أريد أن أعرف ماذا فعل حتى قتلوه بتلك الطريقة.

كنت آمنت بأنه مات بسكة قلبية لكن مادام ظهر شاهد وقال إن جهات في الدولة قتلته فلا بد أن أعرف لماذا؟

رن هاتفه في تلك اللحظة. أخرجه ، نظر إلى الرقم، ثم حوّل وجهه نحو شيراز وزوجته.

اسمحا لي.

خرج سعيد إلى بلكون الصالة . نعم ، أسمعك.

لقد داهمنا المقدم. وجرح قسطنطين. جاء الصوت من بعيد.

حرك رأسه بغضب. وأين هو؟

لقد أخذته المروحية من الشركة.

أنا قادم نظفوا المكان. قالها ، ثم خرج متعجلاً.

بقيت زوجته تترقب عودته وبعد ما أحست بتأخره، نظرت إلى وجه شيراز.

عليك أن تنامي حبيبتي. لقد تأخر الوقت.

ثم نادى على الخادمة مبروكة. خذي شيراز لغرفتها.

بقيت شيراز واجمة مستعيدة صوت الأم شريفة التي ودعتها وهي تردد.

بنتي شريفة بهذا الحزن، ستقضي على صحتك. ثم أضافت لها.

ادعي للحاج بالرحمة يابنيتي، الحزن لن يفيد بشيء.

تنظر شيراز نحوها، ثم تغمض عينيها على آسى يُثْمِهَا . قالت في داخلها
أن عليها أن تلتقي بعطوان قبل أن تعود لفرنسا مادام لم يعد لها أي أحد
بهذه المدينة.

فتح عمّار عينيه بعد أن مدده المخفي وبلخوش على سرير غرفته، وبدأ يبصر في وجه الملازم مخفي .

شكرا . نطقها بصعوبة . هز المخفي رأسه مستعيدا صورة عمّار يوم سلمّ المقدم وثائق الملكية. قال له يومها فعلت الصواب يا عمّار.

قال بلميلود بعدما تلقى العلاج من يد الطبيب جبريل.

لم نكن ننتظر أن تعود بهذه السرعة يا ماسيو جبريل.

هز الطبيب جبريل رأسه.

من الصدف الحسنة أنني التقيت بصديقي الالمانى في العاصمة وحدثته عن عملية الحاج بلخوش.

وهو سينتظرنا في فرنكفورت.

نظر المقدم نحو بلميلود. كيف هو جرحك أيها البطل؟

الحمد لله. مجرد خدش.

نظر بلخوش نحو بلميلود مبتسما في اللحظة التي أضاف المقدم، وكأنه أدرك أن بلميلود سيعيد عليه نفس السؤال حول جرحه. مجرد خدش بسيط.

في تلك اللحظة ضحك الجميع . بعد أن أضاف المقدم " أمقردة " .

خرج المقدم وتبعه المخفي، وبلميلود.

هل ذهبت للشركة الأجنبية. سأل المقدم ملازمه.

نعم ، وقيل لي أن مروحية خاصة نقلت أحد ضباط الأمن.

هز المقدم رأسه. لقد قلت من بين أيدينا !، ثم عاد أدراجه نحو غرفة والده حيث كان لايزال الطبيب جبريل يتحدث مع والده عن السفر.

قال المخفي لبلميلود الذي سألته عن الديك الفرنسي .

جلبت انتباهي سيارة (باترول كات كات) من نوع نيسان كانت تتعقبنا في الوقت الذي أنزلت المقدم بعد عودتنا من جنازة خليل في منزله، حينها نزلت معه، ثم درت حول البيت. ذهبت متخفيا و أخذت رقم السيارة وأرسلته لعمل حجرة المراقبة في المقر. طلبت منه أن يتحرى عنها. بعدها بساعة أخبرني أنها سيارة من السيارات تؤجرها شركة متعددة الجنسيات.

رد بلميلود كل هذا أعرفه أخبرني به عميل الحجرة سألتك عن الديك كيف عرفت أنه بالمدينة. صمت المخفي برهة ثم أجاب: رأيته يركب السيارة نفسها مع ولد الصافي حينما كلفنا المقدم بمهمة حراسة مقهى العجوز. كنت أعتقد أن السيارة التي تعقبنا هي من سيارات (كنا غاز) التي تعودت رؤيتها تتوقف كل يوم أحد، وتحديدا في منتصف النهار أمام ناصية الشارع المقابل للمقهى. تبقى مدة من الوقت ثم تغادر. وصادف أن وجدتتها تتوقف أمام مقر البنك الوطني. مع شيء من الشك تحررت عنها بعدما سجلت رقمها ، ثم ذهبت إلى المقر وقمت بعملية البحث عن السيارات المسجلة باسم الشركة الأمريكية فوجدتها تعود للسفارة الفرنسية، وهي مسجلة ضمن ثلاث سيارات دخلت المدينة منذ مدة طويلة حتى قبل أن نأتي من العاصمة. كما قمت ببعض التحريات بعد اتصالي ببعض العمال الذين سألتهم بطريقة غير مباشرة عن الشركات المكلفة بأمن قاعدة الغاز فقول لي أن هناك رجال أمن أجانب التحقوا في الشهر الأخيرة بالأمن في الشركة المتعددة الجنسيات بعدما انسحب جيشنا من الحراسة. فوجدت اسم عالم جيولوجيا كان يدخل في كل شهر مرة، ثم يخرج مدة عام كامل، تحررت عنه فوجدت أن صورة الرجل مزيفة ليست نفس الصورة التي التقطتها كاميرات المراقبة في

الشركة. في النهاية توصلت إلى أنه عميل مخابراتي فرنسي مقيم
يشتغل بالسفارة الفرنسية كان يزور الشركة ويلتقي مع سعيد ولد
الصافي .

ابتسم بلميلود في وجه المخفي مرددا في سره :لهذا اختارك المقدم
لتكون ملازمه . حذق المخفي في وجه بلميلود في اللحظة التي فلتت
من لسانه عبارة الشكر لأنه أنقذ حياة المقدم بعد أن نزلت على قلب
بلميلود مثل حبة برد لم يجد ما يرده به عليه سوى ما فلتت من لسانه هو
الآخر :لم أفعل سوى واجبي . فعلت واجبك وأكثر سي بلميلود رد
المخفي بعدما انتبه لصوت المقدم الذي وقف في تلك اللحظة أمامهم
مودعا الطبيب جبريل.

تنهد عمّار بعدما جلس بقربه ابنه عبدالمالك في اللحظة التي خرج فيها الطبيب مع المقدم.

قطعتها بنا ياخويا عمّار قال بلخوش.

أغمض عمّار عينيه بعدما ترقرت بالدمع، ثم أشار لابنه كي يذهب لأمه التي جلست مع شريفة في المطبخ.

اسمح لي ياخويا. لم يكمل عمّار جملة حتى قاطعه بلخوش.

أنت أخي، وعطوان ابنك أخيك، ليس هناك أي جميل بيننا. المهم قم أنت بالسلامة.

دخلت شريفة مع زوجة عمّار. بعد أن رددت الحمد لله على سلامتك ياعمّار.

ربي يسلمك زوجة أخي.

تدخل المقدم الذي رأى عمّه يمسح في دموعه.

الآن أنت بخير يا عمي ، ستقف على قدميك ، وستعود أحسن مما كنت

زغردت شريفة مع زوجة عمّار التي كانت تمسك بابنها عبدالمالك قبل أن ينفلت الطفل من يدها ويتجه ليعانق والده.

جلس المقدم مبتسما أمام والده بلخوش الذي ردد : لا عليك، أنت أخي فأمي لن تعود للحياة، وتتجب أخا آخر بعدك .

لحظتها وجه عطوان ذراعبيه للطفل عبد الباقي مرددا : هاهو الرجل الشجاع تعال . عانقه، ثم قال له. ابن عمي الصغير سيكون بطلا، ثم

أخرج من جيبه علبة شيكولا التريستات التي أوصى جبريل أن يجلبها معه من العاصمة. خذ فكرت فيك حتى قبل أن تطلبها.

ضحك عمّار، وضحك بلخوش الذي ردد قائلاً. أترك الأمير الأموي يعبر ليرى والده.

قفز الطفل في حضن والده عمّار مرة أخرى، وبدأ عمّار يُقبله دأرفاً الدمع في اللحظة التي خرج فيها ثلاثتهم إلى الردهة.

قال بلخوش . الحمد لله على سلامتكم وسلامة عمّار . الآن يمكنني أن أسافر مطمئناً.

غدا سنسافر مع جبريل ويلميلود.

نعم ياوالي . كل شيء جاهز بقي فقط أن تشير لنا.

في تلك اللحظة أغمض عمّار عينيه متحسباً خشب السرير، ونتوءاته فدار في سرّه ماذا لو كان منذ البداية قد أخبر ابن أخيه عن ولد الصافي، وما كان يدبره للعجوز. ربما ما كان ليصل للذي وصل إليه، ولا حتى يسبب لأخيه بلخوش كل ذلك الألم، ولا حتى للنادل المسكين الذي أحرقوه بسببه في تلك السقيفة .

تنهدت سوزان بحزن، قبل أن تسقط في مكتب زوجها مَغشياً عليها حينما أوصلت لها السكرتيرة انجي خبر اعتقال زوجها مصطفى من طرف السلطات الجزائرية بعد اتهامه في أكبر قضية فساد.

نظر إليها والدها بحزن بعدما حملها مع الخادم إلى غرفتها.

لا تقلقي عزيزتي سوزان. لم نكن نريد إخبارك ..حدث هذا منذ أكثر من أسبوعين. وقد أرسلت بعض الأصدقاء في العاصمة كي يتكفلوا بأمر المحامين.

حدقت سوزان بصعوبة في وجه والدها.

عليّ أن أسافر للجزائر. لن أتركه وحده.

قومي أنت مع السلامة وسأسافر معك.

في تلك اللحظة دخل الطبيب بحقيبة مسرعا. أشار لهم بتركه معها.

في اللحظة التي أخرج سماعته وراح يجس نبضها.

ثم قاس لها الضغط الدموي.

بعدها أخرج حقنة.

أنت قوية مدام سوزان. ليس هناك مايقلق.

حتى إنني لن أصف لك أي دواء تكفيك هذه الحقنة.

نظرتُ إليه بحزن في اللحظة التي كان قد أخرج حقنته من ذراعها. ثم تلاشت نظراتها نحو العدم.

قال والدها لسكرتيرة انجي التي بقيت متسمة أمام الباب.

مصطفى يتحمل ما حدث له. أخبرتني ابنتي سوزان إنها عارضت سفره للجزائر.

حركت انجي رأسها وهي لازالت شاردة الذهن.

نعم سيدي.

حرك رأسه. هذا مكان ينقصنا من العرب. ثم خرج من الفيلا.

بعد مرور أربعين يوم على موت العجوز .

نزع عطوان معطفه، وتمدد على سرير غرفته الخاصة في المكتب بعدما دارت في رأسه كلمات والده الذي قال له وهو يسلمه العلبة : مافعلوه بعمّك جعلني أرتاب في كل شيء ، و أدرك أن العجوز كان يفكر فيك أنت.

لو علموا بأنها في هذا البيت لا أعرف ما الذي كان سيحدث ؟!

نظر إلى العلبة التي وضعها أمامه على طاولة صغيرة وضعت تحت الحائط الذي علقت عليه شاشة البلازما بعدما كان قد فتحها ووجد داخلها علبة التريبتاكس ذات الحساسية المفرطة، والتي شُفرت بشفرة صُعب عليه إيجادها.

قام من مكانه، ثم فتح المغلف، وأخرج وثيقة الملكية التي كتبت بلغة لاتينية ثم وقعت بحروف، تحتها كتبت عبارة زينزيبار.

قال في نفسه ما الذي جعل هذه الوثيقة مهمة مثلها مثل العلبة لو لم تكن هناك علاقة وأن سرّ الشفرة لابد وأنه في هذه الحروف.

قال في سرّه لابد أن تكون هي ! ثم راح يفتح درجا صغيرا في الخزانة الصغيرة التي كانت بجانب السرير وأخرج دفترًا وقلمًا وبدأ يضع كل الكلمات التي تبدأ بالحرف اللاتيني z. فعل الأمر نفسه مع كل حروف كلمة زينزيبار.

في النهاية توصل إلى الكلمة نفسها زينزيبار معكوسة .

حمل علبة التريبتاكس، كان سيبدأ في تحريك الأحرف التي شكلت مفتاح العلبة لكنه تردد مستعيدا وجه سي مبروك الذي علمه أن يتبع

حدسه حينما يقف عاجزا أو مترددا في مسائل الشيفرة التي تعلم فكها مثله مثل تلك الدفعة التي تخرج معها يوم عاد من فرنسا.

مرر الحروف تذكر حيزها الكرة العاجية الملونة أخرجها من جيب معطفه وبدا يدور ها كانت كرة رغم ألوانها المتعددة إلا أنه لم يجد فيها أي شيء سوى عبارة زينزيبار.

حينما أنهى قراءة الرسالة التي تركها العجوز غالديانو ذهل . ففكر أن حدس السيد كان في محله.

راح يستعيد صوت العميل المقيم مراد الذي فقد صديقته زفيرة في انفجار المطعم . وهو يردد عليه في الهاتف أنه يريد لقاؤه في أقرب وقت.

نظر نحو شاشة التلفزيون المعلقة على الحائط وراح يشغلها متتبعا قنوات الأخبار. أطلت مذيعة قناة تلفزيونية: لقد مرَّ اثنان وأربعون يوما على حادثة احتراق مطعم الكوليس بالشاطئ الأزرق بزرالدة الذي لقي فيه سبعة (٧) أشخاص مصرعهم حرقا واختناقا بينهم خمسة (٥) رجال وامرأتين كانوا متواجدين داخل المطعم ، كما سيمثل المشتبه في ضلوعهما في هذا الحادث غدا أمام محكمة سيدي أمحمد بالعاصمة ، تشير مصادرها أن سليم عيوني المكنى بالسمنية وهو المشتبه الأول، والذي جاء في تصريح له أنه يرفض الخروج للمحكمة .

كم تشير المعلومات أن من ضمن ضحايا المطعم زوجة رجل الأعمال المشهور خليل الصافي الذي رحل إثر نوبة قلبية أصابته في بيته وقد أُحْيَتْ ذكرى أربعينته ابنته شيراز الصافي مساء في فيلا خليل بمسقط رأسه. كما لقي في نفس السياق في الشهر الماضي رجل الأعمال المشهور السيد هواري بن سعود حتفه في حادث خطير في الطريق السيار قرب مدينة بوفريك وهو في سيارة من نوع مرسيدس ترقم

٣١ ، بعد اصطدامه بشاحنة نقل البضائع ، تعود أسباب الحادثة للسرعة المفرطة حسب مصالح الدرك الوطني . لكن مصادر مطلع ترجع الحادثة لصراع مصالح بين رجال الأعمال.

ضغط عطوان على زر الروميت كمنترول مغلقا التلفزيون، ثم راح ينظر بتعب نحو هاتفه الذي ظل مغلقا طول اليوم بعد ليلة متعبة مرت عليه حاول فيها حل شيفرة تلك العلبة. فكّر أن هناك من يراقب جهاز هاتفه لهذا أقفله بعدما تذكر مكالمة المساعد الذي طلب منه هو الآخر العودة للعاصمة في أقرب وقت. لم يعد يستطيع أن يفهم سرعة الأحداث التي بدت تتوالى مرة واحدة. حمل هاتفه، ثم ضغط بإصبعه على زر الفتح، انتشر الوميض لحظة بدأت رنات الرسائل تصل، فتح الرسالة الأولى من مراد

سأحضر المحاكمة. وسأنتظرك بعدها.

الرسالة الثانية شيراز. أين أنت حبيبي؟ لم أعد أطيق بالأمس انتظرتك في أربعينية والدي لكنك لم تحضر. بقائي في هذه المدينة صار مستحيلا بعد رحيل والدي.

نظر قسطنطين نحو ولد الصافي، وهو على سريرته بعد أن بدأ يتعافى من الرصاصة التي أصابه بها المقدم قرب قلبه بميليمترات فقط.

يمكنك الآن أن تترك البلد. نطق قسطنطين.

صمت ولد الصافي. وماذا سنفعل مع النائب العام الذي نشر صورتي في كل المطارات؟

ضحك قسطنطين بصعوبة.

خذ جواز السفر الذي سلمناه لك، واتجه لأي مطار، فلن يوقفك أحد.

لقد نجا رجلك بأعجوبة قال الرجل الكبير وهو ينظر نحو السيد ساغو الذي استعاد لحظتها صوت طبيبه الخاص الذي بقي يردد عليه.

لو لم تعجلوا به، لكان رجلك الآن في عداد الموتى. أنقذناه بمعجزة.

سترى غدا في الجرائد، لن يبقى لا المقدم، ولا السيد الذي يدعمه. نطق ساغو وهو يبلع في ريقه الجاف.

في تلك اللحظة كان الأصلح ينتظر دخوله على الرجل الكبير في فيلا سمرة في موريتي حيث جلس الرجل الكبير مع السيد ساغو الذي أضاف. لولا فشلكم في المهمة لما كنا وصلنا إلى هذا الطريق المسدود.

قلنا لكم لاتصرفوا بدوننا !

حسنا، نحن نتفهم قلقكم يا صديقي. قالها ساغو وهو يفكر. ثم أضاف

سنمنحك الحرية في التصرف، لكن لاتراجع عن خططنا.

المعاهدات والمشاريع ستبقى، والتعاون أيضا، لكن أرجو أن تسحبوا عملاءكم من الشركات، وتتركونا نحن نتصرف في أمورنا الداخلية.

ثم أخرج له صورة الرجل الخليجي. يمكن اعتبار أن هذا الشخص لم يعد موجودا.

لقد أرسلنا إلى جرائدنا ملفا عن من قتله. أضاف الرجل الكبير.

حرك السيد ساغو رأسه أريد للسيد أن يدفع ثمن ما فعله.

في تلك اللحظة دخل متدلي البطن .

اجلس سيد بهاء. أعرفك بالسيد ساغو غدا ستنشر الخبر عن قضية اغتيال رجل الأعمال الخليجي. أريدك أن تحرك أحجار العلاقات الخليجية الجزائرية.

وستكتب أن وحدة سمير هي من قامت بالعملية.

سنجعل النائب العام يطاردهم، ويطارد المقدم.

نعم سيدي وصلني الملف، ووزعته على كل رؤوساء تحرير جرائدنا، وحتى قنواتنا. كما سنعيد نبش قضية الرهبان السبعة.

في تلك اللحظة مدّ السيد ساغو يده مصافحا الرجل الكبير، ثم استأذن للمغادرة.

التفت الرجل الكبير نحو السيد بهاء عليك أن تحرك الإعلام تجاه علاقات القصر بدول الخليج.

ولا تنس أن تقوم بدعم رجلنا الجديد في المدينة. السيد بلفوفة الذي سيأخذ مكان أولاد الصافي.

نعم سيدي سنفعل ذلك.

ثم استأذن للخروج في اللحظة التي دخل المساعد السياف.

الرجال جاهزون للتحرك . لقد حددنا مكان السيد.

سأل سعيد ولد الصافي.

وماذا عن البروف السوري ؟

حرك قسطنطين حواجبه.

سيعود للمدينة، لقد منحنا أعمالكم للسيد بلفوفة.

ماذا يعني هذا الكلام سيد قسطنطين.

يعني أن عليك أن تستريح. أموالك نقلناها إلى باريس. كل الشركات التي كانت باسم أخوك حولناها باسمك. يكفي أن ابنك لا يزال يعمل معنا.

نكس سعيد صافي رأسه بعدما هرب الكلام من طرف لسانه.

حسنًا. أتركك الآن. قالها ثم خرج بغير الوجه الذي دخله بعدما أحس ببرودة كلام صديقه الفرنسي.

في الرواق بعدما صحبه أحد رجال القنصلية الفرنسية. أخرج هاتفه. مُمررا أصابعه على رقم ابنه. سأكون في باريس هذا المساء.

سأنهي أعمالني في الساحل، وسنلتقي هناك.

في أمان الله.

في أمان الله. رد الشيخ أبو نصر.

ماذا فعل المحافظ سنوسي؟ سأل المقدم ملازمه.

للأسف، قال إنهم لم يجدوا شيئاً في المستودعات. لكنهم لايزالون يبحثون عن سعيد ولد الصافي بتهمة الاختطاف.

هز المقدم رأسه .

سنرى أين سيذهب ولد الصافي بفعلته ! رد المقدم بعدما رفع معصمه متطلعا لساعته، وكأنه كان يرغب في أن تأتي شيراز بسرعة كي يتبين منها ذاك القلق الذي أحسه في صوتها.

في تلك اللحظة قام الملازم من مكانه، مرددا لقد اتصل بلميلود، وقال إنهم وصلوا إلى جربة التونسية.

وجبريل!

ليس معهم. قال إنه اضطر للسفر إلى فرنكفورت . وسينتظرهم هناك.

فكر عطوان بعد أن ودع والده وأمه، ويلميلود أنه قد فعل الصواب بإبعادهم عن جو المدينة المشحون. قبل سفر والده لإجراء تلك العملية الجراحية في ألمانيا.

حينما ركبت أمه السيارة همست له بأن يهتم بشيراز لأنها في حاجة إليه.

طمأنها أنه سيزورها. ولن يتركها في يد عمها الجشع.

في تلك اللحظة نزلت شيراز من سيارة (كات كات). نظر إليها المخفي قبل أن يعود أدراجه ليخبر المقدم بحضورها .

فتح السائق لها باب السيارة. نظرت إليه شيراز: يمكنك أن تعود مع مبروكة. سأعود لوحدي إلى البيت. هز السائق رأسه بعدما نظر إلى مبروكة التي كانت تبتسم نحو شيراز التي أدارت رأسها نحو عطوان الذي وقف لحظتها مُحَدِّقاً في وجه السائق الذي تغير وجهه فجأة، وبدا وكأنه يبتسم له وهو يغادر باتجاه طريق منزله مَكْتَر.

اقتربت شيراز بعدما فتح لها عطوان ذراعيه، وعانقها بخطف قبل أن يدعوها للدخول إلى المكتبة حيث كان مرافقه المخفي يهز رأسه محيياً شيراز التي ردت بدورها التحية وهي تنظر مستغربة، متسائلة في داخلها عن المكان الذي قال لها عطوان إنه ينتظرها فيه.

حينما رأت رفوف الكتب الكثيرة، المعلقة على جدران المكتبة رددت في سرّها. أين يمكنهما الجلوس في مكتبة ضيقة مثل هذه؟ !

نظر إليها المخفي، ثم أشار لها بيده بأنها يمكن أن تدخل إلى الغرفة الداخلية. ابتسم المقدم في اللحظة التي مد يده ملامسا بعض الكتب التي كانت مثل باب خفي لغرفة داخلية تأتي كحجرة لمكتب صغير يفتح بدوره على حجرة كبيرة حيث صفت العديد من الأجهزة الالكترونية على زاوية الغرفة. كانت تلك المكتبة تعتبر مركزاً مصغراً للاتصالات الذي تستعمله وحدة اليقظة ومحاربة التجسس DVCR .

دخل عطوان وتبعته شيراز وهي لازالت تحت وقع ذهولها، قبل أن يدير وجهه مردداً: " لا تستغربي يا شيراز، أردت أن ألتقي بك هنا لتعرفي أن هذه المكتبة هي مكان عملي أيضاً بالمدينة .

كانت ستقول له، والمكتب الآخر الذي التقينا فيه لكنها أحجمت وراحت تردد في سرّها: الآن اطمأن قلبي. نظرت إليه، ثم رمت بنفسها في حضنه وأجهشت بالبكاء.

لم أستطع توديع أمي شريفة، وبابا بلخوش !

زَمَّ شَفَتَيْهَا بِأَصَابِعِهَا. كَانَ سَيَقُولُ لَهَا أَعْرِفُ كُلَّ مَا تَرِيدِينَ إِخْبَارِي بِهِ
لَكِنَّهُ بَقِيَ جَامِداً لَمْ يَسْتَطِعْ حَتَّى لَفَّ ذِرَاعِيهِ حَوْلَ ذِرَاعِيهَا اللَّذِينَ بَقِيَ
لَا صَفْقِينَ بِجَسَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا نَحْوَ عَيْنَيْهِ.

بَقِيتُ طَوَالَ اللَّيْلِ أَنْتَظِرُكَ، لَكِنَّكَ تَرَكْتَنِي وَحْدِي. أَتَعْرِفُ مَاذَا فَعَلَ
عَمِي؟ لَقَدْ أَخَذَ كُلَّ شَيْءٍ. وَهَدَدَنِي إِنْ أَنَا اتَّصَلْتُ بِكَ.

وَحِينَمَا قُلْتُ لَهُ لَا أُرِيدُهُ مَعِي.

ضَرَبَنِي، وَقَالَ لِي إِنْ أَبِي أَفْلَسَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَتِلْكَ السَّكْتَةُ الْقَلْبِيَّةُ
جَاءَتْهُ جَرَاءُ إِفْلَاسِهِ. أَمَّا الشَّرَكَاتُ فَلَيْسَ لِي فِيهَا أَيُّ حَقٍّ. أَرَادَ إِخْرَاجِي
مِنَ الْفِيلَا لَوْلَا تَدَخُّلُ سَلِيمٍ.

حَرَكَ عَطْوَانَ يَدَهُ عَلَى ظَهْرِهَا، ثُمَّ هَمَسَ لَهَا بِحُبٍّ: لَا تَشْغَلِي بِأَلْكَ
حَبِيبَتِي. فَكَّرِي فِي نَفْسِكَ، وَدَعِيهِ، كُلُّ مَا فَعَلَهُ بِكَ وَبِعَمِي، وَبِكُلِّ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ سَيَدْفَعُهُ غَالِيَا.

حَرَكَتْ رَأْسَهَا عَلَى كَتِفِهِ، ثُمَّ رَفَعَتْهُ: أَعْرِفُ ذَلِكَ، لِهَذَا جِئْتُكَ الْيَوْمَ
لَأُودِعَكَ. قَالَتْهَا، ثُمَّ جَذَبَتْ جَسَدَهَا مِنْ بَيْنِ ذِرَاعِيهِ مُضَيِّفَةً: قَرَّرْتُ أَنْ
أَعُودَ إِلَى فَرَنْسَا!

حِينَذَا سَمِعَهَا عَطْوَانَ أَحْسَ بِتَوَقُّفِ الدَّمِ فِي عُرُوقِهِ. تَنَفَّسَ بِصُعُوبَةٍ
مَرْدُودَا بَانْدَ هَاشٍ: مَاذَا تَقُولِينَ؟! لِمَاذَا تَرِيدِينَ الرَّحِيلَ، أَلَمْ تَقُولِ أَنَّكَ
عَدَلْتَ عَنْ فِكْرَةِ الرَّحِيلِ؟ سَأَلَهَا، ثُمَّ أَرْدَفَ. لَنْ أَسْمَحَ لَكَ، أَنْتَ أَمَانَةٌ
وَالذِّكْرُ عِنْدِي. قَالَهَا بَعْدَمَا دَفَعَ بِيَدِهِ مِثْلَمَسَا وَجْهَهَا النَّاعِمَ: أَتَعْرِفِينَ أَنَّ
الْمَرْحُومَ قَدْ زَارَنِي فِي مَكْتَبَتِي، وَأَخْبَرَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ وَوَأَفَقَ عَلَى زَوَاجِي
مَعَكَ، وَجَعَلَكَ أَمَانَةً فِي رَقَبَتِي.

صَمَتَتْ شِيرَازُ مَنكِسَةَ رَأْسِهَا، ثُمَّ رَفَعَتْهُ: فَاتِ الْوَقْتُ يَا عَطْوَانُ لَيْسَ بَعْدَ
أَنْ قَتَلَ وَالِدِي رَجُلًا مِنْ رِجَالِ مَخَابِرَاتِكُمْ.

انتبه لنبرة صوتها التي تغيرت فجأة، فراح يبصر نحوها بصمت. كان سيقول لها كيف عرفت أنه رجل مخابراتي؟ لكنه هز رأسه، ثم أردف: ربي يرحم والدك. أنت لا تعرفين ماذا تفعلين ! رغم ذلك لن أقف أمام رغبتك، مادمت أخذت قرارك، فلن أقف في وجهك، فقط أريدك أن تعرفي أن أمي سألت عنك كثيرا، وتمنت أن ترانا معا .

نظرت إليه بوجه رمادي، ثم حركت رأسها. أمي شريفة !

ثم أضافت بحزن. ما قلته لك، ليس رفضا ليس رفضا. رددتها، ثم انسحبت مسرعة نحو باب المخرج.

أراد أن يتبعها لكنه أحجم، وراح يدور في مكانه ماسكا برأسه قبل أن يجلس وراء مكتبه متحسسا رجفة أصابت أنفاسه. مضى عليه زمن طويل لم يشعر بهذا الوحز العشقي الذي انتابه مثل حمى بدأت تتصاعد من صدره مستعيدا يوم أخبرها أنه رجل مخابراتي. بقيت يومها أمامه ذاهلة رغم أنها كانت تعرف أنه يشغل بأمن وزارة الخارجية، وأنه اشتغل طيلة غيابه عنها في مكافحة الإرهاب إلا أنها بدت مصعوقة لهذا الخبر. مسك بيدها وجذبها نحوه: أخبرتك بوظيفتي لأنني أردتك أن تعرفي عن المسدس الذي رآه عمك، وألف منه قصة. لكن لا تخافي انتهت على خير، ولم يستطيع عمك فعل أي شيء هذا من جهة. ومن جهة أخرى أريدك أن تنتبهي لنفسك و لا تفكري أنني يمكن أن أقدم على أذيته، أو أذيت والدك !

في تلك اللحظة زن هاتفه برنات متتابعة معلنا عن وصول رسالة خاصة. نظر نحو مكان شيراز فلم يجدها . ثم أدخل يده في جيب سترته الداخلي، وأخرج هاتفه. فتح تلك الرسالة التي جاءت من مراد: " أرجو أن تعود للعاصمة بأسرع وقت !

تنفس مرردا في سره. لماذا ياترى يريدني مراد، هذه ثاني رسالة يطلب فيها عودتي ؟ البارحة طلبني المساعد صفر أيضا!

مرر إصبعه على شاشة هاتفه مغلقا نافذة الرسالة، ثم وقف، و صوت
شيراز لا يزال يرن في مشاعره مستعيدا صوته وهو يردد بانتشاء
أمامها. حينما أنهى مهمتي سوف أخطفك من والدك !

ابتسمت حتى تورد وجهها الصغير الذي بدا محمرا مثل وجه وردة
البنفسج، ثم أمسك بأصابعها ومررها على ماصورة مسدسه. رفعت
رأسها عن صدره: لا تقل لي إنك ستأخذني منه غصبا ؟"

ضحك، ثم نظر إليها كما لو أنه يبصر وجهها النوراني البريء لأول
مرة في حياته. ألسنت أميرتي، و عليك (ينوض البارود) ؟ رد وهو يمسك
بيدها، وباليد الأخرى التي بدت شاردة، وكأنها تستشعر خطرا يترصد
به لهذا قالت له بعد أن وضعت رأسها مرة أخرى على صدره. وعدني
أنك ستعتني بنفسك ؟! وأن تباعد عن عمي، ووالدي لأنني أعرف أنك لا
تحبهما، و لا يحبائك .

لامس براحتة خذاها الأسيل الذي انجست فوقه حبات دمع حارة، ثم
همس لها: لا يوجد شيء يقلق حبيبتي ، أنت تهولين الأمر فقط. ثم
خطا معها خطوات نحو عتبة باب الحجرة حيث مدّ أصابعه نحو زر
الباب الحجري الذي انفتح لحظتها مصدرا صوتا يشبه أصوات أبواب
المركبات الفضائية ، قبل أن يجد الملازم مخفي ينتظرهما وفي يده
كتاب كان قد أحضره معه من المكتبة. مسكه عطوان من يده، ثم سلمه
لها: هديتي لك. كتاب " اعترفات غايشا لآرثر غولدن " يقول مؤلفه في
ظهره غلافه لو كانت الحياة نهرا لشكلت اعترافات غايشا .

هل كانت شيراز غايشا بوجه آخر تساءل وهو ينهض خارجا من مكتبه.

عند فيلا الرجل الكبير

توقفت سيارة المساعد صَفر مع العميل أرزقي، وهما يرقبان من بعيد باب فيلا سمرة حيث يقيم الرجل الكبير .

قال أرزقي. تأخر مراد ، ألا يفترض أن يظهر؟

لاتخف مراد يعرف كيف يظهر.

في تلك اللحظة ظهر رجل مُلْتَحٍ يرتدي عباءة بيضاء بلحية كثة مع برنوس أبيض وعمامة توتية صَفراء. بدا مثل رجالات الزاويا . حينما اقترب لم ينظر نحو الحارسين اللذين كانا يرتديان لباس الأمن، و يعتملان رشاشات. رمى خطوة في اتجاه العتبة وهو يحرك رأسه.

قال أرزقي ماذا يفعل هذا الشيخ في هذا المكان.

ابتسم المساعد .

أنظرُ فقط وسترى.

في اللحظة التي وقف فيها الحارس الأول في طريق الشيخ. بدا أرزقي يردد بينه وبين نفسه. لايمكن أن يكون ذاك الشيخ هو مراد دوركال.

ماذا تريد أيها الشيخ؟ سأل الشرطي بتبرم.

(واش سافك أنت. روح قل لسيدك الإمام مولاي أحمد جا من الشحرا.)

التفت الشرطي لزميله مبتسما، ثم رد ساخرا. اذهب لحال سبيلك، لا يوجد هنا أي سيد.

اتركني، أدخل قلت لك. قالها وهو يجذب ذراعه من يد الشرطي الذي أراد إبعاده بالقوة عن باب الفيلا.

في تلك اللحظة فتح السيف مصرع الباب. مشيرا لشرطي بيده كي يترك الشيخ ، ويخلي له الطريق .

سيدي إن هذا الشيخ

السيد هو أبوك، ابتعد عن طريقي. قاطعه ثم أضاف وهو يحرك ذراعيه ورأسه في الهواء. ابتعد أيها الفاسق.

ابتعد الشرطي صامتا وهو ينظر نحو المساعد السيف الذي قال للشيخ.
تعال يا الحاج، تعال .

سيدي لم نقم بتفتيش الحقيبة. أضاف الشرطي مرة أخرى.

التفت الشيخ، ناظرا نحو الشرطي، أنت زنديق. لن تربح شيئا. استغفر الله، لا تحترم إمام.

ثم دار، متتبعا خطوات السيف.

عند مدخل صالة الاستقبال، التفت السيف نحو الشيخ.

لماذا كل هذه المسرحية، كنا نعرف أنك ستأتي.

هز رأسه. سيدي المساعد، منذ سنوات، وأنا أعيش بهذه الطريقة، لهذا لا تسألني، ثم نزع عباة، وعلقها على المشجب مع العمامة.

أيضا اللحية لا تدخل بها نطق السيف.

نظر إليه مراد بنصف عين ، أي نعم. ثم نزعها وعلقها فوق عباة.

صديقك مع السيد الكبير ، لانريدك أن تقلل أدبك في الداخل.

الرخيس جاء اليكم يبكي ويشتكى أليس كذلك؟ قال مراد .

في تلك اللحظة أضاف الرجل الكبير وهو ينظر جهة الأصلع

مراد يسمع كلمتي مرة، وأحيانا بعد تكرارها مرتين.

سـيدي الكبير، لن أكرر ها مرة أخرى أوكد لك. أنتم قولوا له ليترك أعمال القتل في الخفاء، ويضع يده تحت الحجر.

في تلك اللحظة دخل السيف، ودخل وراءه مراد.

التفت الأصلع في الوقت الذي رفع الرجل الكبير رأسه.

آه، ذكرت حجرا، فظهرت صخرة. ويقولون أنك مريض يابني.

عندما أراك سيدي أصير بصحة جيدة قالها مراد متجها نحو يد الرجل الكبير ليقبلها.

كن سعيدا. اجلس بني. قالها مشيرا له جهة الكرسي المقابل للأصلع.

سياف. هل أنت أيضا صرت مريضا، أنا أقول عن الأبناء، إما أن تكونوا مثل مراد، وإما لا تكونون. الابن يسمع كلمة أبيه.

نعم سيدي. أجاب السيف وهو لا يزال واقفا.

مراد منذ عشر سنوات يسمع كلامنا. ولم يظهر بين الناس من أجل هذا نقدره. قال الرجل الكبير.

نعم سيدي قلتم اختبىء فاختبأت. لكنكم نسيتموني.

نحن لاننسى أحد من أبنائنا يامراد، ولم ننسك يوماً. لم ننس إدريس في القرية، ولم ننس زواوي في جنات. ولم ننس السكين في حماقير، فكيف ننساك. ليس من طبعنا النسيان. الدولة لاتنسى أبناءها.

حسناً. هز مراد رأسه.

لم تنسوا الأعمال الخاطئة ضدكم قالها وهو يرفع ناظره نحو الأصلع الذي لولب عينيه، ثم أضاف عديم الشرف هذا كم مرة باعكم.

ربما يقوم بأعمال خاطئة، لكنه لم، ولن يبيعنا. اطمئن قيمتنا لا تقدر، ولا يستطيع أحد تقديرها. ربما يقع الإخوة والأبناء في سوء الفهم، لكن هذا من أجل الوطن، والشعب والدولة. أضاف الرجل الكبير. أنا أريد أن تتصافحا اللحظة، وتنسيا الماضي، وتخدما معا الدولة. حقي كأب عليكم لن ينتهي، وأنا الآن أطلب منكما أن تتصافحا.

سيدي، قلتم أبناء، لكنه حاول استغلال ابني. وقتل المرأة التي أحببتها.

عندي علم بكل شيء، والأصلع نادم، وسيتوب عن ذلك.

أكرر أنني لن أتصرف تصرف يُسيء لمراد نطق الأصلع. ثم أضاف وهو يرفع رأسه نحو الرجل الكبير. وليعدكم مراد في مجلسكم هذا بأن لا يعود للاختباء ومطاردتي.

أعدكم، وأقسم ألا أتعرض للأصلع، لكن سيدي أنا أعرف متى سأظهر للناس، عشر سنوات وأنا ميت لهذا لازلت لم أعود بعد.

فتح المقدم الرسالة الاولى من المذكرات .

مكتب السيدة كولين . كولين في سلاح الجو كانت تخدم قبل مجيئها للجزائر كضابط في أيار ٢٠٠١ في الخطط الخاصة (NESA) أركان حرب في وزارة الدفاع، ثم

O .P.S

وقد اعتبرت هذا المكتب كشبكة " إنذار تعمل مثل حكومة الظلّ ومعظم أعضائها الرسميون ليسوا في لائحة الموظفين، وأنهم بعيدون عن مراقبة الكونغرس.

وكتبت كولين عن تجربتها واصفة إياها بأنها مجهدة

وكانوا ينقلون الأخبار الكاذبة للكونغرس مع المؤسسة اليهودية لأمر الأمن ص ٤١٤ كتاب تفتيت الشرق.

انتهت الصفحة الأولى من الرسالة المرقمة ب ١٢٠١٧

وضع المقدم فنان قهوته على الصينية التي كانت قد حضرها ملازمه المخفي فاتحا الصفحة الثانية من الرسالة السرية التي تركها العجوز غالديانو.

عن ارتباطاته بمجموعة مع رجال الدول النافذين.

و الموقعة باسم منظمة دم التابوت والجمجمة.

لست نادما لأنني انتميت إلى مملكة الله.

منذ تعرفت أول مرة على السيد بيار بوريسكوت الذي كان يدير يومها جهاز التوثيق الخارجي، والاستخبارات المضادة كلفني مع بعض الرفاق بتكوين منظمة إرهابية سمينها (اليد الحمراء la Main)

Rouge في سنوات الخمسينيات بعد أن قمنا باغتيالات في أوروبا، والمغرب العربي، وقدنا أول محاولة انقلاب على الجمهورية الثانية في فرنسا.

بعدها غيرنا من سياستنا وفكرنا مثلما فكّر عدو مملكة الله الجمهوري ديغول بأن نزرع عملاءنا في كل المراكز الحساسة التي تدير هذا البلد بداية من التفكير في صناعة إطارات يسيرون الإدارات الاستراتيجية، انتهاء بزرع سجناء صيرناهم عملاء بعد أن أصبح الرفاق يتحكمون في إدارة عمليات التعذيب وغسل الأدمغة.

تمكنا من غسل أدمغة ضباط صف، وأرسلناهم للجبال لعلهم يصيرون جنرالات يحكمون يوما ما هذا البلد بعد أن اخترقنا الطابور المسمى بضابط فرنسا، وتسلل بعضهم في صفوف جيش التحرير.

كنت أحد الذين قدموا مساعدات كبيرة لجيش التحرير. كان تصميمنا أن نخترق صفوف الجيش. أرادنا فعل ذلك كلما سنحت لنا الفرصة حتى أصبح يقال لكل من قاد جيش هذا البلد بعد الاستقلال أنه يأتّمر بأمر جماعات خفية. كان هذا أحد أهدافنا البعيدة.

أما الشيء الذي جعلني أغادر هذا البلد بعد الاستقلال هو فشلي في تعقب الرجل الأول في مخابرات جيش التحرير.

اعترف أننا فشلنا رغم تحكم رجالنا في الإعلام، وفي الإدارة، وحتى في الجيش منذ أفشلنا انقلاب ٦٧، وأطلقنا على بعض من الذين لم نستطع إغراءهم بالمناصب وبالانتماء لجمعيتنا اسم جماعة الجنرالات، أو العسكر. زرّعنا كل ما يمكنه أن يشوه أولئك الذين كانوا تابعين للرجل الذي أسس ما عرف بالمالغ و الذي اختفى عن أنظارنا وقيل لنا إنه مات في بداية الثمانينيات.

سؤالي هل تمكنا من الاستحواذ على قرار هذا البلد؟

اليوم صار الكثير لا يرى سوى النتائج الإيجابية من مهماتنا المقدسة بعد أن صممنا خطط التحالفات بين أصحاب المال، وبين ما أصبح يطلق عليه مافيا السياسة. ولكن سؤال هل وصلنا لأصحاب الدولة الحقيقيين في هذا البلد.

باعتباري خادما مخلصا لمملكة الله ولأخوة الوحدة في العالم أقر أنني أشك في ذلك.

توقف المقدم مرددا . شيء لا يصدق.

ثم بدأ يقرأ في أسماء حراس القبر المقدس.

في تلك اللحظة رن هاتفه.

فتحه.

نعم سيادة المساعد.

لقد رصدنا مكان الرجل الكبير. ونحن الآن نتعقب في صحراوي الأصل.

هل أوصلتم الرسالة للرئيس؟

ليس بعد. نحن ننتظر أن تصل الرسائل إلى أعضاء المجلس السري الجديد.

سأكون غدا في العاصمة.

هكذا أنهى المقدم مكالمته. ثم راح ملتقطا فنجان قهوته.

بعد أن حمل الجريدة وراح ينظر إلى خبر بدا في زاوية صغيرة في الصفحة الأخيرة يتحدث صاحبه عن موت الجنرال بوزازة بسكتة قلبية.

حرك رأسه.

المؤسسة تبحث عن دم جديد !

في تلك اللحظة دخل المخفي .

لقد وصلت رسالة من مراد.

التقطها المقدم . بعدما أبعد رسائل الرعية الفرنسي غالديانو التي كان قد أرسل تقريراً مفصلاً عنها إلى السيد.

فتح الرسالة وبدأ يقرأ .

ذكر مراد مقابلته للرجل الكبير، ثم أضاف أن سبب إخراجه للسطح جاء بأمر من الرجل الكبير لتنفيذ خطط ورطوا فيها جهاز المخابرات. وأن الأصلع هو أداة التنفيذ التي استعملتها المؤسسة لخلط الأوراق، ومراقبة عمليات الأجانب الذين تعامل معهم السيد، لهذا كُلف الأصلع في النهاية من طرف الرجل الكبير باغتيال الرجل الخليجي.

وبعد أن أدركوا ارتباطي بوحدة سمير، تم تحميلي عملياتهم الوسخة لأجل إضعاف السيد.

لهذا أطلب منك الإذن.

نظر المقدم نحو ملازمه المخفي علينا أن نعود للعاصمة.

ثم سأله هل وصلت أي رسالة من بلميلود ؟

نعم سيدي لقد أنهموا الأسبوع الأول في جربة، ومن هناك سيتجهون الليلة إلى فرنكفورت حيث ينتظرهم جبريل.

الوالد سيكون بخير لا تقلق أضاف الملازم

إن شاء الله .

خرج المخفي من المكتب وراح يحضر السيارة التي ركنها بعيدا عن المكتبة في اللحظة التي بقي المقدم يفكر في شيراز التي سافرت إلى فرنسا.

ماذا كان سيفعل لها بعد أن فكّرت أن والدها ذهب ضحية صراع أجنحة في الدولة.

في تلك اللحظة أمسك بجهاز الريمون كونترول بعدما تذكر أنه اليوم الذي سيحاكم فيه ابن العجوز مصطفى منصور.

ضغط على زر الإشعال.

أطلت المذيعة في خبر عاجل من محكمة سيدي امحمد بالعاصمة.

لقد انسحب المحامون الأربعة، الموكلون بقضية رجل الأعمال الجزائري المقيم في لكسمبورغ السيد مصطفى منصور، و المتهم في أكبر قضية فساد شهدتها البلاد.

وقال قاضي المحكمة إن تأجيل المحاكمة جاء لضرورة إنسانية حتى يتسنى للمتهم أن يقوم بتوكيل محامين آخرين.

أغلق شاشة البلازمة ووضع جهاز الريمون كونترول جانبا وراح يفكر في العجوز و النهاية البائسة التي وصل إليها مع ابنه الوحيد. النهاية البائسة التي حصلت مع العجوز الذي تخلص منه أصحاب جمعية الجمجمة. ومصطفى الذي تخلص منه أصدقائه الجنرالات.

كانت آخر رسالة وصلت من المساعد تقول إن هناك خطرا على السيد.
في تلك اللحظة قرر المقدم أن يعطي الضوء الاخضر لمراد .

فتح هاتفه وأرسل شفرة: QIE

التي كانت تعني تحرك.

بقي الأصلع يمسك بمقود السيارة وينظر نحو المرأة العاكسة حينما
تفطن بأن سيارة من نوع طويوتا تتعقبة منذ أن خرج من فيلا الرجل
الكبير لهذا زاد في السرعة. واتجه نحو جهة بودواو حيث يمكنه أن
يتديه متعقبه خاصة في وجود اشارات توقف كثيرة، ووجود نقاط
مراقبة.

في تلك اللحظة هتف العميل أرزقي لمراد، ناظرا نحو وجه المساعد
صفر الذي بقي ينظر في الفراغ .

هتف أرزقي.

عليك أن تتابع خط سيرك الهدف يتجه نحو حي بودواو.

أمامنا نقطة مراقبة.

نزل الأصلع من سيارته ودخل إلى شقته. نزع معطفه وعلقه على
مشجب الباب، ثم اتجه متثاقلا. وضع مسدسه على الطاولة وجلس على
الأريكة. فكر أن يتجه نحو البراد ليخرج شرابا يخلصه من تعب. في
اللحظة التي حاول الوقوف أحس بماصورة مسدس في رأسه.

قلت لك لن أتركك تعيش.

لَوْلَب الْأَصْلَعُ عَيْنِيهِ.

كنت أعرف أن قسمك أمام الرجل الكبير ليس سوى كلام.

اجلس قال مراد صارخا، ثم أبعد المسدس عن الطاولة.

جلس الاصلع.

إن تركتني فساخبرك ما يدبرونه نحو السيد.

أُتعرّف أنك رخيص، وأن معلوماتك وكل أسرارك عن أولئك الخونة الذين يجلسون على كراسي مهمة في هذا البلد لن تفيدك بشيء.

لكن رأس رئيس وحدتكم. أعتقد أنه مهم.
اسكت

أريدك أن تجيبي عن سؤال واحد.

لماذا فجرتم المطعم؟

کرکر الاصلع قهقهه

كنا نريدك أنت. ونريد أن نقدم رسالة لمقدمك المهدي. لكنك تأخرت في ذلك اليوم.

حرك مراد رأسه ثم مسك الاصلع من رقبتة وجره نحو النافذة.

وأنا أيضا أريد إرسالك إلى الجحيم.

ثم دفعه بقوة من نافذة الطابق الخامس. تهاوى الاصلع في الهواء ليسقط على بلاط الشارع بعدما انفجر دمه على الاسفلت.

مسح مراد یدیه، وخرج مثلما دخل.

توقفت سيارتان من نوع باسات حكومية سوداء أمام فيلا خداج .

نزل أربعة رجال من السيارة الاولى .

أطلقوا الرصاص حارس البوابة .

ثم تقدموا نحو باب الفيلا .

نزل الرجل الكبير ونزل معه السياف .

حرك رأسه في الاتجاه وهو يتكئ على عصاه ثم تقدم .

وصل صوت أحد الرجال.

الطريق مفتوح سيدي .

في تلك اللحظة سأل السيد خادمه بعدما تفتن لصوت الرصاص.

ماذا هناك يا علي.

في اللحظة التي أراد الخادم أن يُحذر سيده.

أطلق السياف رصاصتين في راس الرجل.

التف السيد ليجد الرجل الكبير يقف بعكازه أمامه.

سيدي . أنت حي !

هل تجرؤ ؟

اقترب الرجل الكبير من سرير السيد بعد أن نزع القفازين من يديه
وراح مرددا : لماذا تركتنا، وحدنا واختفيت؟

أردتم السلطة فتركناها لكم. لكن الدولة ليس لكم فيها أي شيء يا قاسي.
لهذا شطبناك منها أيها الجنرال .

من يشطب من !؟

نحن الآن أصحاب الدولة. وأنا جئتكم اليوم لتأتي معي.

فقط أريد منك أن تبايعني .

ههههههههه. ضحك السيد.

هنا نجمة، وهلال، أشار السيد بإصبعه إلى العلم الصغير الذي كان على
الطاولة المقابلة لرف الكتب. وأنتم اخترتم غيرهما لتحكموا هذا الشعب.

عليكم أن تدركوا أن حكمكم الخفي قد انتهى.

لن يطول بأصحاب الرؤوس البيضاء الوقت حتى يتساقطوا واحدا بعد
الأخر.

التفت السيد بغضب.

حكم ضباط الرية انتهى بلا رجعة.حتى وإن كانت معكم كل قوى العالم.

اقترب الجنرال، ثم استل سيفه من العصا، وحز بضربة خاطفة رأس
السيد مرددا:

كان عليك أن تبقى ميتا سيدي .

بقي المساعد صامتا منذ أن أدخل مع العميل أرزقي الزنزانة بعد أن قال له ضابط الشرطة أنتما مطلوبان لدى النائب العام.

نطق أرزقي . ألا تقول شيئا سيدي. هل علينا أن نبقي صامتين؟
التفت المساعد صفر.

عليك أن تتعلم الصبر، والصمت أيها الملازم.
جلس النائب العام في مكتبة وراح يقلب في أوراق الملف الذي أرسلته المخابرات.
في تلك اللحظة رن هاتفه.

نعم سيدي .

هم في حجرة الاحتجاز. مازلنا لم نحقق معهم بعد.
سيأتي إليك السياف . ليستلمهم . سترفع قضيتهم للقضاء العسكري.
حرك النائب العام رأسه.

نعم .
ثم وضع السماعة على الهاتف.

ضغط على الزر في مكتبه. فدخل شرطي .
سأأتي جماعة المخابرات لتأخذ عناصر وحدة سمير. بلغ إدارة السجن بأن تسلمهم.

حاضر سيدي. قالها الشرطي ثم التفت خارجا من المكتب.

مقابلة الرئيس.

تتوقف سيارة المقدم في الشارع المظلم أمام فيلا ميرا.

ينزل الملازم مخفي يفتح الباب للمقدم الذي ينزل بهدوء ناظرا في الاتجاهين، ثم راح متجها نحو الباب، كانت لحظتها الساعة تتجاوز العاشرة ليلا.

قبل أن يرفع رأسه فكّر في الرسالة التي وصلته من رئيس ديوان المجلس السري الجديد السيد لطفي الذي قال له .

الليلة سيجتمع المجلس بعدما وصلت كل الرسائل السرية للأعضاء.

وسيبداً في تنفيذ استراتيجية السيد.

رفع رأسه نحو الكاميرا، ثم دفع بإصبعه نحو زر الجرس.

لحظتها انفتح الباب ليطل منه عجوز بدا عليه الوقر — حيّا برأسه المقدم بعد أن طلب منه أن يتفضل. ثم تحرك ببطء نحو الردهة. دخل يتبعه المقدم عبر رواق مضاء بضوء خافت، ليجد في طريقه امرأة ترتدي لباس الخدم. هزت رأسها نحوه . مرددة تفضل سيادة المقدم. ثم أشارت بيدها. من هنا !

في تلك اللحظة وقف عجوز يرتدي ملاءة نوم ذات لون أزرق ليلي.

تقدم نحو المقدم دافعا بيده. مرحبا أهلا وسهلا. تفضل بني.

شكرا سيادة الرئيس لأنك وافقت على مقابلتي بهذه السرعة.

قلت إنك تريدني في أمر مهم!

نعم سيدي.

أشار الرئيس للمقدم بالجلوس بعدما أخذ مكانه على الأريكة في المقعد المقابل.

من مدة طويلة، وأنا أفكر بالأمر. ما أود أن قوله أنني كنت أريد التدخل في أمر الإرهاب بأي شكل من الأشكال، لكنهم لم يسمحوا لي.

ليس لأنهم لم يسمحوا لك، ولكن الشروط لم تتوفر.

الموضوع الذي أردت التدخل فيه هو موضوع الاستعلامات، ورجال وحدة سمير الموقوفين.

منذ أكثر من ٢٠ سنة، ونحن نحارب الإرهاب في النهاية ندرك أن الحل سيأخذ نفس المدة، لأن الأمر معقدة خاصة بعد اكتشافنا لتورط بعض الأجهزة.

وفي الحقيقة أنا لن أتخلّى عن قضيتي وقد تربيت لأخدم هذا الوطن.

ليس لي أدنى شك يابني، أنت و وحدة سمير خدمتم هذا الوطن . لكن أنت تعرف التوازنات. حينما كشفتم أنفسكم للعالم فتحتم على المجلس السري باب الجحيم.

أنت تعرف سبب محاربتنا للإرهاب طوال هذه المدة، نحن لا نتصارع مع بعض المجرمين العابرين.

وقف المقدم وبدأ يذرع في بلاط الصالة. ثم أخرج الرسالة.

هذه هي الرسالة التي أراد السيد إيصالها اليكم.

حرك الرئيس رأسه .

لقد وصلتني عن طريق رئيس المجلس الجديد. قالها ، ثم حمل جهاز الهاتف الذي سلمه له في تلك اللحظة الخادم العجوز.

حرك اصابعه على رقم خاص.

نعم سيدي جاء الصوت من بعيد.

يمكنكم أن تبدأوا.

في تلك اللحظة وقف الرئيس ماداً يده للمقدم.

شكرا لك سيادة المقدم.

إن مرت هذه الليلة على خير.

ستصل رسائل التنفيذ للمراكز الحساسة في الدولة.

وسيتغير كل شيء.

تنفس المقدم الصعداء محركا رأسه باحترام، ثم مدّ يده مصافحا يد الرئيس وخرج.

في طريق سأل المخفي المقدم إلى أين تريدنا أن نتجه؟

إلى المدينة ياعزيزي المخفي.